

في القرآن العظيم

"في الأمثال، والتشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية"

مع الإمتاع بروائع الإبداع

بقلم

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني







الإبداع البياني في القرآن العظيم

"في الأمثال، والتشبيه، والتمثيل، والإستعارة، والكناية"

مع الإمتاع بروائع الإبداع

بقلم

خادم الكتاب والسُّنة

الشيخ محمد علي الصابوني

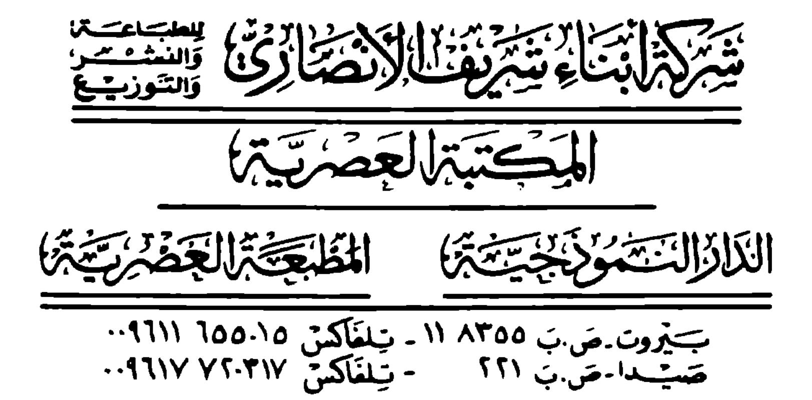


الطبعة الأولى

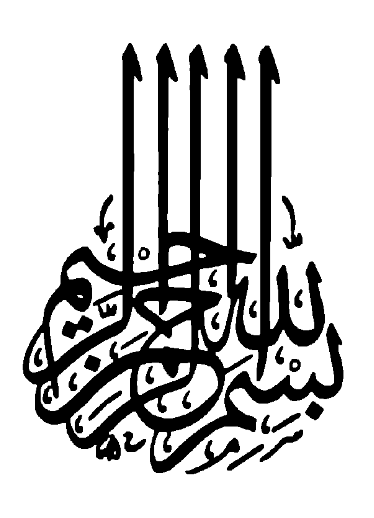
١٤٢٦ هـ - 2006 م

موقعنا على الإنترنت:

www.almaktaba-alassrya.com



ISBN 9953-34-456-6



بسم الله الرحمن الرحيم



[يوسف: ٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد للّه رب العالمين، منزّل الكتاب المبين، المعجز ببيانه في كل وقت وحين،

والصلاة والسلام على الرسول الأميّ الأمين، محمد بن عبد اللّه وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين:

أما بعد.......

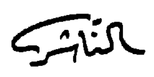
فإن القرآن الكريم معجزة اللّه لنبيه محمد ﷺ خاتم النبيين، قد حوى من بديع البيان والفصاحة العربية ما عجز عنه العرب أنفسهم، فصحاؤهم وبلغاؤهم وشعراؤهم وكبراؤهم، بل تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا ولو بآية من مثله، ولكنهم عجزوا، فالقرآن الكريم معجز ببيانه لأنه كلام اللّه الذي أنزل على عبده النبي الأميّ محمد ﷺ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومع اشتمال القرآن الكريم على كل ما يحتاجه الإنسان في كل أمور دينه وحياته، إلّا أن إعجازه البياني وبلاغته هي من أهم ميزاته، وهي موضوع هذا الكتاب (الإبداع البياني في القرآن الكريم) الذي خطه خادم الكتاب والسنة الشيخ محمد علي الصابوني الذي نذر نفسه لخدمة هذا الكتاب العزيز، فقد استخرج فضيلته ما يقارب الألف ومائة مثال على الإبداع البياني، ليتذوق القارئ الكريم روعة ما تضمنه القرآن الكريم من بديع البيان وفصاحة العبارة والبلاغة، بأسلوب معجز، مفنّداً بذلك أقوال من نفى عن القرآن الكريم أهم خصائصه والتي هي إعجازه البياني والبلاغي، وليثبت أن القرآن الكريم معجز في بلاغته وبيانه وفصاحته، وأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأشرفها، وأنه تناول جميع ما استعمله العرب في

مخاطباتهم، من الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والمجاز، والأمثال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

نسأل اللّه العلي الكريم أن يجزي المؤلف أحسن الجزاء على ما قام به من جهد لإخراج هذا الكتاب على الوجه الذي نراه وعلى الترتيب الذي قام به، وأن يبارك في عمره ووقته وجهده، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين



المقدمة

الحمد للَّه رب العالمين، أنزل كتابه العزيز، تبصرة وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وخاتم المرسلين محمد بن عبد اللَّه ﷺ الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن العظيم، هو (المعجزة العظمى) لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أنزله اللَّه تعالى بلسان عربي مبين، وقد حوى بين دُفَّتيه الأمثالَ، والعظات، والعبر، وفيه من الروائع والبدائع، ما يسلب العقول والألباب، وقد تناول بأسلوبه البياني، جميع ما استعمله العرب في مخاطباتهم من الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والأمثال، وغيرها من الأساليب البيانية، وقد جمعتُ في هذا الكتاب طائفة من هذه الأمثال التي ضربها القرآنُ الكريم، مع ما جاء فيه من الاستعارة، والكناية، والتشبيه، وشرحتُها شرحاً مبَسَّطاً بديعاً، في غايةِ الحُسْن والإيجازِ ليتذوَّقَ القارئ الكريمُ، روعةَ البيان الإبداعيّ، في أسلوبِ القرآنِ المعجز، الذي كان بحقٍّ معجزةَ محمد ﷺ الكبرى، وحجَّتَه البالغة على الخلق أجمعين ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقد قال إمام المفسِّرين (الطبري) كلمته الرائعةَ (**إني لأعجب لمن يقرأ القرآن الكريم، كيف يتلذَّذ بقراءته ولم يفهم معناه**)؟ واللَّهَ أسألُ أن ينفع به إخواننا المسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب الدعاء، وصلى اللَّه وسلَّم على من بعثه اللَّه رحمةً للعالمين.

خادم الكتاب والسُّنَّة

الشيخ محمد علي الصابوني

تمهيد

الإبداع البياني في القرآن العظيم

● **يتربَّع القرآنُ العظيم** على عرش الفصاحة والبيان... ويزيد في حلاوته وروعة بيانه، أنه نزل بأفضل اللغاتِ، وأشرفها وأوضحها... ألا وهي (اللغة العربية) لغة الضاد... التي خصَّ اللَّه بها كتابَه المعجزَ، خاتمة الكتب السماوية... أنزله على أفضل رسله «محمد خاتم المرسلين» صلوات اللَّه وسلامه عليه، ونوَّه بالإشادة بعظمة هذا الكتاب وجلاله وجماله، حين قال جلَّ ثناؤه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

نزل القرآن الكريم بذلك حين طلب المشركون من رسول اللَّه ﷺ معجزةً (حسِّيةً مادية) غير القرآن الكريم، كمعجزة موسى، ومعجزة عيسى، ومعجزة صالح، وغفلوا عن أعظم المعجزات، ألا وهي (القرآن العظيم) الذي عجز الفصحاء والبلغاء وأساطين العرب عن معارضته، وقد جاءهم به نبيٌّ أميٌّ، لا يعرف القراءة والكتابة، أفيطلبون معجزة أخرى غير القرآن، وقد جاءهم بمعجزة المعجزات؟

● **إن هذا الكتاب المجيد،** هو (المعجزة الباقية الخالدة) لسيد المرسلين ﷺ إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد حوى من الحِكَم والعظاتِ، والأمثال، وسائر الأحكام الدينية والدنيوية، ما يشهد بصدق هذا الرسول، الذي أُنزِل عليه هذا النور الإلٰهيُّ الوضَّاءُ، فكان برهانَ نبوَّته ورسالته، وعنوانَ صدقه وأمانته، حتَّى سُمِّي ﷺ من أعدائه بـ(بالصادقِ الأمين).

● **ولنبدأ الآن بما عقدنا عليه العزمَ،** من بيان هذه الروائع، التي جاء بها الكتاب المجيد، وذلك بتوضيح الأمثالِ، والبدائع، والإشارات، والتبصير بما فيها من أنواع (الاستعارة، والكناية، والتشبيه، والمجاز، والإعجاز) مستمدِّين العونَ من ربِّ العزة والجلال، أن ينفعنا ويرفعنا به،

إلى منازل أهل الفضل والإحسان، كما قال سيِّدُ الخلقِ ﷺ: (**إن اللَّهَ يرفعُ بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين**) رواه مسلم، أي يُعْلي قدرَ أقوامٍ بهذا القرآن، ويخفضُ به منازل آخرين، وكفى بذلك موعظةً وذكرى من سَيد المرسلين ﷺ!!.

الأمثال في الكتاب العزيز

لمَّا كان الغرضُ من ضرب المثل: توضيحَ الغامض، وتقريبَ البعيد، وتجليةَ المعنى، من غير كَدٍّ للذهن، ولا إرهاقٍ للفكر، لذلك أكثرَ القرآنُ الكريمُ، من ضربِ الأمثال، ليدرك كلُّ سامع وقارىء، المعنى الذي قصَدَ إليه الكتابُ العزيز، من ذلك المثل، مع غاية الوضوح والبيان ولهذا وضَّحَ تعالى الحكمة من ضرب الأمثال، فقال في كتابه العزيز: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

أي ما يتّعظُ بها، ولا يستفيدُ منها، إلَّا أهلُ (العلم والفهم) الراسخون في العلم، الذين يعقلون عن اللّه عزَّ وجلَّ مراده، ويدركون بثاقب فهمهم معانيَه وأهدافه.

وممَّا تجدُر الإشارةُ إليه أن الغرضَ من التمثيل: هو التفكُّر في بدائع خلق اللّه، وصنعه الحكيم، فما من ذرةٍ في الكون، إلَّا وهي ناطقةٌ بعظمة جلال اللّه، وإبداع صنعه، وبالتفكر والتدبر، يدرك الإنسانُ تلك الروعة والجلال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

أي ليتفكروا ويتدبروا معانيها ومقاصدها السامية، وهذه الآيةُ وردتْ في معرضِ الحديث عن القرآن، وعظمته، وعلوّ شأنه، بحيث لو أن اللّه أنزل القرآنَ على الجبل، فتدبَّر ما في القرآن العظيم، لخَشَع وتصدَّع ـ على قسوته وصلابته ـ من خوف اللّه عزَّ وجلَّ، فكيف يليق بالبشر ألَّا يتأثروا به؟

قال الحسن البصري: في قول اللّه تعالى في آية الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] قال رحمه اللّه: «إذا كانت الجبالُ الصُمُّ، لو سمعتْ كلامَ اللّهِ وفهمتْهُ، لخشعتْ وتصدَّعتْ من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم، وفهمتم كلامَ اللّه عزَّ وجل!؟».

تنوُّعُ الأمثال في القرآن الكريم

إذا تدبَّرنا كتاب اللَّه العزيز، نجد القرآن الكريم قد نوَّع الأمثالَ بشكل عجيب، فمنها ما ضربه اللَّه تعالى للكفار، ومنها أمثالٌ عن المنافقين، ومنها أمثال ذُكرتْ عن الحياة الدنيا، وما فيها من متاعٍ خادع، تشبه السَّرابَ، يحسبه الظمآنُ ماءً، ومن الأمثال ما يصوِّر به أعمالَ أهلِ الرياء والنفاق، حيث تذهب أدراج الرياح، لأنها لم يُقصد بها وجهُ اللَّه تعالى.

كما ضرب المَثَلَ للمؤمن، الذي يُنفق ماله طلباً لمرضاة اللَّه، بالزَّارع الذي يزرع الحبَّ، فتخرجُ كلُّ حبةٍ سبعَ سنابلَ، في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبة، وهكذا تنوعت الأمثالُ في القرآن العظيم، حسب الأشخاص، والأقوال، والأعمال، وفي صورٍ عجيبة، تشمل (عبَدَةَ الرحمن) و(عَبَدَةَ الأوثان)، وكلُّ من سار في طريق الهدى، أو في طريق الضلال، كما سنبيِّنه في هذا الكتاب إن شاء اللَّه تعالى. !



روائع الحكم والأمثال في أساليب القرآن

يَجْدُرُ بنا ونحن نتحدث عن الأمثال في القرآن، أن نعرِّف تعريفاً موجزاً كلاً من (التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية) التي هي من أساليب الفصاحة والبلاغة، والتي اختصَّتْ بها اللغةُ العربيةُ (لغةُ الضَّاد) ونزلَ القرآنُ الكريم ـ خاتمة الكتب السماوية ـ بهذه اللغة الفصحى، أشرف اللغاتِ وأبدعِها، كما قال جلَّت عظمتُه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥] ومن المعلوم أن القرآن معجزٌ في بيانه، كما هو معجز في تشريعه، وأحكامه، وفي أخباره الغيبيَّة، وأخَصُّ معجزاته (**المعجزة البيانية**) التي عجز عنها البشر جميعاً، مع التحدّي الصَّارخ الذي تحدَّاهم به القرآن. !

ما هو التشبيه؟

هو: تمثيلُ شيءٍ بشيء، اشترك معه في صفةٍ من الصفات، والغرَضُ منه تقريبُ البعيد، وتوضيحُ الغامض، وتجليةُ المعنى بأوضحِ صُوَر الإبداع والبيان، مثلُ قولنا: كلامُه كالشَّهْد ـ أي العسل ـ في الحلاوة، وقول الشاعر:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضَاعِ وإن تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

ووصف أعرابيٌّ رجلاً فقال: (كأنه النَّهارُ الزاهر، والقمرُ الباهر، لا يخفى على كل ناظر) **وأدواتُ التشبيه**: هي (الكافُ، وكأنَّ، ومِثْل، وشِبْه، وشبيه) **قال تعالى**: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] شبَّه قلوب اليهود في قسوتها وغلظتها، بالحجارة الصلبة، لا تلين لنصحٍ ولا تذكير، وقال الشاعر:

أَنَا كَالمَاءِ إنْ رَضِيتُ صَفَاءً ... وَإِذَا مَا غَضِبْتُ كُنْتُ لَهِيبَا

وقال سبحانه عن مشركي مكة ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝

فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١]. شبَّههم في إعراضهم عن القرآن، ونفورهم من رسول اللّه ﷺ بالحُمُر الوحشية، ترى الأسدَ، فتفرُّ وتَهرُب منه، من شدة الخوف والفزع. قال أبو تمَّام في مغنِّية تغنِّي بالفارسية:

فَبِتُّ كَأَنَّنِي أَعْمَى مُعَنًّى ... يُحِبُّ الغَانِيَاتِ وَلَا يَرَاهَا

المُعَنَّى: الحزينُ المتعب، **وقال أحد الشعراء:**

تَقَلَّدَتْنِي اللَّيَالِي وَهْيَ مُدْبِرَةٌ ... كَأَنَّنِي صَارِمٌ فِي كَفِّ مُنْهَزِمِ

شبَّه نفسه في إفلاسه، وإعراضِ الدنيا عنه، بالسيف القاطع في يد الرجل المهزوم.

ما هو التمثيل؟

أمَّا التمثيلُ، والمَثَلُ، والمِثْلُ، فهو في القرآن العظيم كثيرٌ، مستفيض، قال اللّه تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١] **وقال سبحانه:** ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. **وقال تقدست أسماؤه:** ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

وسيأتي توضيح هذه التشبيهات والأمثال، وما فيها من الإبداع البيانيّ، في مواطنها إن شاء اللّه من هذا الكتاب، أمَّا بقيَّةُ أدوات التشبيه فالأمثلةُ عليها كثيرة.

أقسامُ التشبيه

ينقسم التشبيه إلى عدة أقسام هي كالآتي:

١ ـ **التشبيه المرسل:** هو التشبيهُ الذي تُذكر فيه أداةُ التشبيه، كقولنا: وجهه كالقمر في الحسن.

٢ ـ **التشبيه المؤكَّد:** التشبيهُ الذي حُذفت منه الأداة، كقولنا: هو البحر في الكرم.

٣ ـ **التشبيه المجمل:** ما حُذف منه وجهُ الشَّبه، مثل: هذا الطعام مُرٌّ عَلْقَم.

٤ ـ **التشبيه المفصَّل**: ما ذُكر فيه وجهُ الشَّبه، كقول المتنبيّ:

(نَحْنُ نَبْتُ الرُّبا وأنت الغمامُ) أي كالسحاب الذي يُغيث الأرض.

٥ ـ **التشبيه البليغ**: ما حُذف منه وجهُ الشَّبه وأداةُ التشبيه، مثل: عليٌّ أسدٌ، ومحمدٌ بدر، أي عليٌّ كالأسد في الشجاعة، ومحمد كالقمر في الحسن، ومن هذا النوع قولُه تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي هم كالصُّمّ لا يسمعون من يدعوهم إلى الخير، وكالخُرس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعُمْي لا يبصرون طريق الهدى والنجاة.

ويجب أن يكون وجهُ الشَّبه، أقوى وأظهر في المشبَّه به، منه في المشبَّه.

التشبيه المقلوب

٦ ـ **وهناك نوع من التشبيه، يسمى (التشبيه المقلوب)** وهو أن نَضَع (المشبَّه به) مكان (المُشَبَّه) وذلك بادّعاء أن وجه الشَّبه فيه، أقوى وأظهر، كقولهم: البحرُ عطاؤه، والقمرُ وجهُه، أصلُه: عطاؤه كالبحر في الكرم والسخاء، ووجهُه كالقمر في الحسن والبهاء، فقلَبَ الكلامَ فجعل البحرَ على سعته كجزءٍ من كرمه، وجَعَل القمرَ في حسنه، كجزءٍ يسيرٍ من بهائه وجمال وجهه، وعلى هذا الإبداع، جاء قولُه تعالى عن المشركين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] والأصلُ في الكلام أن يشبِّهوا الربا بالبيع، فيقولوا: الربا كالبيع، يكون بالتراضي فلماذا يكون حراماً؟ فعكسوا الأمرَ، وقلبوا الكلامَ، فقالوا: البيعُ مثلُ الربا، كأنهم جعلوا الربا أمراً مقطوعاً بحلِّه، فقاسوا عليه البيعَ، ولذلك ردَّ اللّه عليهم، فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ لما فيه من تبادل المنافع بين البائع والمشتري ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ لما فيه من المخاطر والأضرار الجسيمة التي تلحق بالاقتصاد الماليّ، بحيث يغدو الإنسان كالوحش المفترس، همُّه جمعُ المال، وامتصاصُ دماء الآخرين، أناسٌ يكدُّون ويتعبون، وآخرون يجنون ثمرة جهد غيرهم على برد الماء.

ومن التشبيه المقلوب قولُ الشاعر:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ الخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

والأصلُ في التشبيه أن يقول: إنَّ وجهَ الخليفة يشبهُ نور الصباح، ولكنه

عَكَس وقَلَب للمبالغة، فجعل أنوارَ الصباح، تشبه في الضياء وجهَ الخليفة، وهذا من مظاهر التفنُّن والإبداع.

التشبيه التمثيلي

٧ ـ وهناك التشبيه المسمى بـ (التشبيه التمثيلي) وهو: أن يكون وجهُ الشَّبَه فيه، ليس مفرداً وإنما هو متعدِّدٌ، ولهذا يقول علماء البلاغة: هو ما كان وجه الشَّبه صورةً منتزعةً من متعدِّد، كقول الشاعر:

إنَّ مَنْ أدَّبْتَهُ في الصِّبَا كَالعُودِ يُسْقَى المَاءَ في غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقاً نَاضِراً بَعْدَ الَّذِي أبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

فليس وجهُ الشبه هنا مفرداً، إنما هو صورةٌ منتزعةٌ من متعدِّد، وهو تشبيهُ أَدَبِ الطفل في الصغر، بالنبات والأغصان، التي تُسقى بالماء، فتكبر وتثمر وتُورق، وتصبح خضراء زاهية، بعد أن كانت يابسة. وكقول البوصيري في الصحابة:

كَأنَّهُمْ في ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبَا مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ

يُشبِّهُ ثباتَهم على ظهور الخيل، كأنهم نباتٌ غُرِسَ على رؤوس الهضاب، فزكا واشتدَّ ونما، من قوة حزمهم وشجاعتهم، لا من إحكام ربطِ الأحزمة على ظهور الخيل. وهذا (التشبيهُ التمثيليُّ) وَرَدَ كثيراً في القرآن الكريم، بصور بديعة من صور البيان، **اقرأ قوله تعالى مثلاً**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] **وتمعَّنْ قولَه سبحانه**: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠] **وقولَه جلَّ ثناؤه**: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] فوجهُ الشبه فيها ليس مفرداً، إنما هو صورة منتزعةٌ من متعدِّد، يوضِّح جمالها الباهر، وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً، في مكانها من هذا الكتاب إن شاء الله.

الغرض من التشبيه

أمّا الغَرَضُ من التشبيه: إمَّا المدحُ، وإمَّا الهجاءُ، وإمَّا توضيحُ وصفه، وبيانُ حاله. **فالمديحُ** كقول النابغة في الخليفة (عبد الملك بن مروان):

كَأنَّكَ شَمْسٌ وَالمُلُوكُ كَواكِبٌ إذا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

والهجاء كقول المتنبيّ عن شخصٍ متحدِّثٍ ثقيل الظلّ:

وَإِذَا أَشَارَ مُحَدِّثاً فَكَأَنَّهُ قِرْدٌ يُقَهْقِهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

أمّا بيانُ الوصف والحال، فكقول بعض الناصحين: (العلمُ بلا عملٍ، كالشجرة بلا ثمر) و(العلمُ في الصغر، كالنقش على الحجر) وقالت الخَنْساءُ في أخيها (صخر) ترثيه:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

عَلَمٌ: يعني جبل، شبَّهته بجبلٍ عالٍ أُشعلت على قمته النار ليراها المسافرون. وقال بعض الشعراء، يصف نفسه في حال الرضى، وفي حال الغضب:

أَنَا كَالمَاءِ إِنْ رَضِيتُ صَفَاءً وَإِذَا مَا سَخِطْتُ كُنْتُ لَهِيبَا

يصف نفْسَه مفتخراً بأنه كالماء السلسبيل في حال الصفاءِ والرضى، وكالنار الملتهبة في حال السخط والغضب.

(بين الحقيقة والمجاز والاستعارة)

حينما نتكلم عن لفظٍ من الألفاظ، المعروفة عند البشر، مثل اسم (الأسد) و(البحر) و(الجبل) يتبادرُ إلى أفهام الناس، الحقيقةُ التي يعرفونها، فالأسدُ اسمٌ للحيوان المفترس، والبحرُ اسمٌ للماء الذي تجري فيه السفنُ، والجبلُ اسمٌ للشاهقِ المرتفع من الأرض، ولكن عندما نقول عن رجلٍ جريء، يقارع الأبطالَ ويغلبهم: إنه أسدٌ، فلا نقصد به السَّبُعَ المتوحِّشَ، الذي يفترسُ بأنيابه، إنما نقصد به الرجلَ الشجاع، الذي يشبه الأسدَ في قوَّته وشجاعته، وعندما نطلق على إنسان، واسع العلم والمعرفة ونقول: إنه بحرٌ متلاطمُ الأمواج، فلا نقصد به البحر الحقيقي، إنما نشبِّهه بالبحر في سعة العلم والاطلاع، كما اشتهر ابنُ عباس: بأنه (الحَبْرُ البحرُ) أي أعلمُ النَّاسِ بفهم الكتاب العزيز.

ومن هنا تفاوتَ الأدباءُ والفصحاءُ في بلوغ أعلى المراتب، بمقدارِ ما لديهم من مَهَارةٍ فائقة، في التعبير عمَّا يجولُ في صدورهم، من وصفٍ رائقٍ بديع، يسكبونه في عباراتٍ فاتنة، تَسْبي المشاعرَ والألبابَ، خُذْ مثلاً قولَ المتنبِّي، وقد رأى ممدوحه وعانقه:

فَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَحْرُ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلاً قَامَتْ تُعَانِقُهُ الأُسْدُ

قَصَد ممدوحَه، الذي شبَّهه بالبحر، في الكرم والسخاء، وأراد بالأُسْد الرجالَ الشجعانَ الذين قامُوا لمعانَقَته، لأن من المستحيل أن يعانق الأسدُ الإنسان، بل يفترسه ويبلعه، فهذا الإدّعاءُ جاء من استعمال اللفظ في غير حقيقته، بتشبيه الكريم بالبحر، والشجعان بالأسود ـ لعلاقةِ المشابهة ـ لأن البحرَ لا يمشي، والأسودُ لا تُعانقُ البشرَ، وهذا ما يُسمَّى عند علماء البلاغة بـ(الاستعارة) وهي ضربٌ من ضروبِ فصاحةِ الكلام، وروعةِ البيان. !

استمعْ معي إلى بعض هذه الروائع، في خطبة (الحجَّاج) وقد أرسله الخليفة (عبد الملك بن مروان) والياً على أهل العراق، بعد أن اشتدَّ شقاقُهم وخلافُهم على بيعة الخليفة، وزاد تمرُّدهم على جميع الولاة، فرماهم بالحجَّاج والياً عليهم فقال لهم: (يا أهلَ العِراقِ، يا أهلَ الشِّقاق والنِّفاق، إني لأرَى رؤوساً قد أينعتْ، وحانَ قِطَافُها، وإني لصاحبها) شبَّه الرؤوس بالثمرات، التي تكون على الأغصان، وقد نَضِجَتْ وأينعتْ، وحانَ وقتُ قطفها، وحَذَف المشبَّه به، وهي الثمار الناضجة، ورَمَزَ لها بشيءٍ من لوازمها، وهي (أَيْنعتْ) لأن النُّضجَ إنما يكون للثمار، لا للرؤوس، على طريقة (الاستعارة المكنيَّة) وهي من روائع أنواع الاستعارة.

والقرآنُ الكريم مليءٌ بأمثال هذه الوجوه البلاغية، باستعمال التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، لأنه نزل بلغة العرب، وبالأساليب التي يتخاطبون بها، فأعجزهم بأسلوبه الرائع المبين، استمعْ إلى قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١] فإن الظاهرَ المتبادرَ، أن الناس كانوا في ظلام دامسٍ من الليل، فأخرجهم إلى نور النهار الوضَّاء، وهذا المعنى غيرُ مراد، فالظُلماتُ والنورُ لا يُقصد بالأولى إلَّا الضلالُ، ولا يُراد بالثانية إلَّا الهدى والإيمانُ، فالمعنى الصحيح المقصود من الآية: لتخرج البشرية، من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، ففي الآية (استعارةٌ تصريحية) شبَّه الكفرَ بالظلمات، والإيمانَ بالنور، ثم حَذَف الكفر واستعار له لفظ (المشبَّه) وهو الإيمانُ ليقوم مقامَه، بادّعاء أن المشبَّه به، هو عينُ المشبَّه، وهذا أروعُ في البلاغة، وأبدعُ في البيان، ومن هنا جاءت معجزةُ القرآن، حيث عجز العرب، بل البشر جميعاً أن يجاروه في فصاحته وبيانه.

ما هي الاستعارة

تعريف الاستعارة: الاستعارةُ تشبيهٌ حُذف أحدُ طرفيه (المشبَّه) أو (المشبَّه به) فعلاقتُها المشابهةُ دائماً، وهي من أنواع (المجاز اللغوي) أي الانتقال من المعنى الظاهر، إلى المعنى الحقيقي المقصود، وهي قسمان:

الأولى: (استعارة تصريحية) وهي: ما صُرِّح فيها بلفظ (المشبَّه به).

الثانية: (استعارة مكنيَّة) وهي: ما حُذف فيها المشبَّه به، ورُمز له بشيءٍ من لوازم معناه، قال اللّه تعالى في كتابه العزيز بالوصية بالوالدَيْن ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] أي تواضعْ لهما بتذلُّل وخضوع، من فرط رحمتك وعطفك عليهما.

لقد جاء التصوير في الآية، في أبدع (صور الاستعارة) والجمال، فقد شبَّه التذلُّلَ والتواضعَ لهما، بطائرٍ له جناحان، فإذا طار فتح جناحيه ونَشَرهما، وإذا أراد التوقُّفَ عن الطيران، قَبَض جناحيه إليه، فشبَّه شدَّةَ التواضع لهما بقبضِ الجناح، ولم يكتف بذكر الجناح، بل أضافه إلى الذُلّ ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ ليشعره بالانكسار والخضوع التامِّ بين يديهما، كأنه جناح مكسورٌ لِذُلِّه، وليس هذا الذُلُّ، عن مهانةٍ في النَّفْس، إنما هو عن محبَّةٍ ورحمة، ولهذا قال بعده: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ تكميلاً للمعنى، لإشعارهما بفيض التوقير والمحبة، فما أسمى وأبدع هذا التعبير القرآني، الذي سَمَا بهذه (الاستعارة) إلى أوْجِ الفصاحةِ والبيان!!

وسرُّ بلاغة الاستعارة: أنَّ تركيبَها يدلُّ على تناسي التشبيه، وتخيُّلِ صورةٍ جديدة، تُنْسي رَوْعتُها ما تضمَّنه الكلامُ، من تشبيهٍ خفيٍّ مستور، استمعْ إلى قول اللّه جلَّتْ عظمتُه في وصف نار جهنم ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] بمجرَّد تلاوتها والإمعان فيها، ترتسم أمامَك نارُ الجحيم، في صورة شخصٍ، ضخم بطَّاش، مكفهرّ الوجه، عابسِ الجبين، يَغْلي صدرُه حِقْداً وغيظاً، تكادُ تتقطَّع نَفْسُه من شدة الغضب على أعداء اللّه، والآية في الحقيقة تمثيلٌ لشدَّة اشتعالها بهم، حتى كأنها إنسانٌ يكاد يتمزَّقُ، من الغيظ الكظيم، وهي تتلهَّفُ على شفاءِ غليلِها، من الكفرة المجرمين، فالروعةُ هنا في الآية من حيثُ الابتكارُ، وروعةُ الخيال، ولهذا كانت (الاستعارةُ) أبلغَ من التشبيه البليغ، ومجالُها فسيحٌ للإبداع، وتسابقِ فُرسان الكلام.

الاستعارة التمثيلية

عرَّف علماءُ البلاغة (الاستعارةَ التمثيلية) بأنها تركيبٌ استُعمل في غير ما وُضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ، من إرادة المعنى الأصليّ، **يقول العرب في أمثالهم**: (أنتَ ترقمُ على الماء) ويقولون: (أنتَ تنفخُ في رَمَاد) يُقال هذا لمن يُلِحُّ في الحصول على أمرٍ مستحيل، لا يمكن الحصولُ عليه، بحالٍ من الأحوال، كمن يكتب على الماء رسالةً من الرسائل، وكمن ينفخ في الرَّماد ليشعل النَّارَ، وقد انطفأ كلُّ ما فيها من جَذْوة. !

ولا بدَّ في الاستعارة التمثيلية، أن يكون كلٌّ من المشبَّه، والمشبَّه به، صورةً منتزعةً من متعدِّد، كقول بعض الأدباء عن شخصٍ مجاهد، عاد إلى وطنه منتصراً على أعدائه، بعد سفر طويل: **(عادَ السيفُ إلى قِرَابه، وحلَّ اللَّيثُ مَنيعَ غَابِه)** الليثُ: الأسد.

شبَّه الرجلَ الذي خرج غازياً في سبيل اللَّه، ثم عاد منتصراً، بالسيف الذي استُلَّ للحرب والقتال، حتى إذا ظفر بالنصر، عاد إلى غِمده، والغِمْدُ بيتُ السيف، وغلافُه الذي يُوضع فيه، وشبَّهه أيضاً بالأسد الهَصُور، الذي يصولُ ويجولُ في الغابة، باحثاً عن فريسته، ثم يرجع إلى مسكنه الآمن، وقد نالَ كلَّ ما يبحث عنه ويشتهيه.

ومن هذا النوع التمثيلي البديع، قولُ المتنبيّ عمن لم يُرزق الذَّوقَ، في فهم الشعر الرائع:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ   يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا

شبَّه الذين يعيبون شعرَهُ لفسادِ ذَوْقِهم، بالمريضِ الذي يُصاب بمرارةٍ شديدة في فمه، تجعله يمجُّ الماء الحلوَ العذبَ، ويجده مُرّاً غيرَ مستساغ، وما هو إلَّا من مرارةِ فمه، وفسادِ مزاجه. !

واستمع معي الآن إلى هذه الروعة البالغة في آي الذكر الحكيم، حيث يقول ربُّ العزة والجلال عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. أي زرعتُ محبتك في القلوب، بحيث لا يصبر عنك من رآك، حتى أحبَّك فرعونُ.

والتعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ بالغُ الروعة في الإبداع، حيثُ

مثَّل له بملكٍ عظيم، بُنِيَ له قَصْرٌ فخمٌ ضَخْمٌ، تحت سَمْعِه وبَصَره، فجاء في غاية الحُسْن والجمال، هل ترى أبدع وأروعَ من هذا التمثيل، ومن هذا التصوير الفنيِّ البديع، للرعاية والحماية التي أحاط ربُّ العِزَّة والجلال بها نبيَّه (موسى) الكليم، عليه أفضلُ الصلاة والتسليم؟ فما من مخلوقٍ بقدرته ـ مهما أُوتي من روعة البيان ـ أن يأتي بمثل هذا التصوير البديع (الصنع على عين اللَّه) لتشبيه الحَنَان والرعاية، التي نالها موسى عليه السلام، بطريق (الاستعارة التمثيلية البديعة)

تعريفُ الكناية

عَرَّف علماءُ البيان الكناية بأنها (لفظ أُطلِقَ وأُريد به لازمُ معناه، وبعبارة أخرى تركُ التصريح بذكر الشيء، إلى ذكرِ ما يلزمُه) كقولهم: (فلان نقيُّ الثوب) يعنون أنه إنسانٌ شريفٌ، لا يرتشي، ولا يصدر منه ما يدنِّس كرامته.

وكقول الشاعر: (المجدُ يمشي في ركابه) كَنَى به عن العزة والشَّرف، وفي الذكر الحكيم: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] كنى به عن الحسرة والندم، وقال تقدست أسماؤه: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦] كَنَى به عن الجِمَاع، ومثلُها قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] الرَّفثُ: كنايةٌ عن الجماع.

قال ابن عباس: (أراد تعالى بالرَّفث: الجماعَ، ولكنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ حليمٌ، كريمٌ، يَكْني) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٤، ومعنى يَكْني أي يأتي بالكناية، بدل اللفظ الصريح، وهذا من الآداب القرآنية الرفيعة.

ولا نجد في القرآن العظيم كلمةً نابيةً، أو كلمةً قبيحة، وردتْ بلفظها الحقيقي، دون أن تُذْكر بطريق (الكناية) وبخاصة ما يتعلَّق بالعلاقات الجنسية، فإنها كلُّها وردتْ بالكنايات، بلفظ (الملامسة، أو المساس، أو التغشية، أو المباشرة، أو الحرث، أو الإفضاء) اقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] أراد بالمسِّ الجماع، وقوله جلَّ ثناؤه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي واقَعها، وقوله سبحانه: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] عبّر عن الجماع بالمباشرة لتعليمنا الأدبَ في الحديث، واستمع إلى قوله تقدست أسماؤه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] شبههنَّ بالأرض التي تُزرعُ

ويُلقى فيها الحبُّ، واقرأ قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقولَ اللّه تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] كلُّها تعني (المعاشَرةَ الزوجيّةَ) وهذه من أوضح مزايا الكناية، وهي التعبيرُ عن القبيح الذي لا يحسن ذكرُه، باللفظ اللطيف الذي تستسيغ الآذانُ سماعَه، وأمثلةُ ذلك كثيرةٌ جداً في القرآن الكريم.

اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] قف معي لحظةً أمام روعة التعبير المعجز، وهو قوله سبحانه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فقد أشار بهذه اللفتة البديعة، بطريق (الكناية) إلى أنَّ من أكلَ الطعامَ، وشربَ الشرابَ، يحتاج إلى إخراج الفضلات (البولُ، والغائطُ) ولمَّا كان ذكرهما قبيحاً، أورده بالكناية بهذا التعبير البديع، وبأسلوب العرب، فقد كانوا لا يعبِّرون عمّا لا يحسن ذكره إلّا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم وحرصهم على العِرْض والشرف، يَكْنون عن المرأة (بالبيضة) و(الشاة) و(النَّخْلة)، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩] شبَّههن بالبيض المكنون أي اللؤلؤ المستور في أصدافه. **وقال الشاعر:**

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ   عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ

كَنَّى بالنخلة عن (المرأة التي يحبُّها)، وهذه من بدائع الكنايات.

ويقولون في وصف الكريم: (فلانٌ كثيرُ الرَّماد) وهو كنايةٌ عن الكرم، لأن كثرةَ الرَّماد تدلُّ على كثرةِ الطبخ، وكثرةُ الطبخِ تدلُّ على كثرةِ الضيوف، وكثرةُ الضيوف عنوانُ السخاء والكَرَم.

ويقولون عن البليد: (عريضُ القفا) أي غبيٌّ سيِّئُ الفهم، وعمن يجاهر غيره بالعداوة (لَبِسَ له جِلْدَ النّمر) و(قَلَب له ظَهْرَ المِجَنْ) وكلُّها كنايات بديعة عمن انقلب عن الصداقة إلى العداوة، ويقولون عن المُزاح الثقيل: (إنه رسولُ الشرْ).

وقالت امرأةٌ لبعض الولاة (أشكو إليك قلَّة الفئرانِ) وهي كنايةٌ عن فراغ بيتها من الطعام، حتى عادت الفئران لا تأوي إلى منزلها، فقال لعمَّاله: املأوا بيتَها حبًّا، وسَمْناً، وزيتاً. !

وبإيجازٍ فإن الكناية مظهرٌ من مظاهر البلاغة، وغايةٌ لا يصل إليها، إلّا من لَطُف طبعُه، وصفت قريحتُه، وتذوّقَ أساليبَ البيان، والسرُّ في بلاغتها أنها تعطيك الحقيقةَ مصحوبةً بدليلها، وتضعُ لك المعاني في صور الأشياء المحسوسة، وهذه من خصائص الرسّام المبدع، الذي يرسمُ لك صورةً للأمل، أو اليأس تَبْهَرك، وتجعلك ترى ما كنت عاجزاً عن التعبير عنه، واضحاً ملموساً، استمِعْ إلى قول الشاعر، وهو ينفحك ببيانه العذب:

عَسَى الكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

المجاز اللغوي

تعريف المجاز: وأمّا (المجازُ اللغويُّ) عند علماء البلاغة، **فقد قالوا**: إنه اللفظ المستعملُ في غير ما وُضع له لعلاقة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الحقيقي.

والعلاقةُ قد تكون المشابهةُ، وقد تكون غيرها، كقول الشاعر: (بِلَادِي وإن جَارَتْ عليَّ عزيزة) فإن البلاد لا تجورُ، وإنما يجور ويظلمُ أهلها، وكقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فإن القرية لا تُسأل، وكذلك الإبل لا تُسأل، إنما يُسألُ أصحابُها وأربابُها.

وبعد هذا الحديث عن (التمثيل، والاستعارة، والكناية، والمجاز، والتشبيه) نبدأ بذكر نماذج، استعملها القرآن الكريمُ، بأسلوبه المبدع، وبيانه المعجز، فنتناول بعض هذه الآيات الكريمة، على ضوء ما عرفناه من أساليب العرب، في مخاطباتهم ومحادثاتهم.

وعلى هذا المنوال في الأسلوب والحديث، جاءت آيات الذكر الحكيم، تخاطبهم بما يفهمون ويعرفون ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فنقول مستمطرين رحمة الله، مستمدّين منه العون والتوفيق.



الإبداع البياني
في القرآن العظيم

الإبداع البياني في سورة البقرة

١ ـ قولُه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] في الآية (استعارة تمثيلية) كأن الكفار قطيعٌ من البهائم، لا تَفْقه، ولا تعقل، قلوبُهم في حُجُب كثيفة، قد طُبع عليها، فلا يدخل إليها إيمان، وكأنهم صمٌ لا يسمعون، وعميٌ لا يبصرون، والخَتْمُ: الطَّبْعُ والتَّغطيةُ على الشيء حتى لا يدخله نور، والغشاوةُ: الغطاءُ، ولمّا كانت القلوبُ غيرَ واعية، والأسماعُ غير مستفيدة من الكلام الذي تسمعه من الخير، جُعلتْ بمنزلة الأشياء المختوم عليها، ختماً حسيّاً، بطريق (الاستعارة التمثيلية).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، شبّه تعالى تركهم الإيمان، وأخذهم بَدَله الكفرَ، بإنسان اشترى بضاعة، ودفع فيها ثمناً باهظاً، ثم ذهبت التجارة مع الربح، فعظمت خسارتُه، واشتدَّ حزنُه!

استعار لفظ الشراء ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ للاستبدال، ثم زاده توضيحاً بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ وهذا ما يُسمّى بالترشيح، الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا من البيان.

والمعنى: إنهم استبدلوا الكفر بالإيمان، فما ربحوا في هذه التجارة، بل خسروا، لأنهم اشتروا الخسيسَ وهو (الكفر) بالنفيس وهو (الإيمانُ) فأصبحوا في غاية الخسران، بتزيين الشيطان.!

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا . . .﴾ [البقرة: ٢٦] عبّر بالحياء عن الامتناع والترك، عن طريق (إطلاقِ الملزوم وإرادة اللازم) بطريق (التمثيل) لأن من استحيا من فعل شيءٍ تركَه، أي لا يمتنع ولا يترك ضربَ المثل بأيّ شيءٍ كان، صغيراً كان أو كبيراً.

قال الحافظ ابن كثير: ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾ أخبرَ تعالى أنه ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾ أي

لا يستنكفُ أن يضرب مثلاً بالبعوضة، فما هو دونها في الحقارة والصِّغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف من ضرب المَثَل بها، كما ضَرَبَ المثلَ بالذباب، والعنكبوت. اهـ تفسير ابن كثير ١/ ٦٨.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] أصلُ النقض: فسخُ التركيب للشيء الحسيّ، كالحبل، والبناء، واستُعمِل في نقض العهد، بطريق (الاستعارة البديعة) فقد شبَّه تعالى العهد: بالحبل المفتول، إذا نُقِضَتْ أوصالُه، وحَذَفَ المشبَّه به، وهو (الحبلُ) ورَمَز له بشيءٍ من لوازمه، وهو (النقضُ) على وجه (الاستعارة المكنية).

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] الشراء هنا ليس على الحقيقة، وإنما هو بطريق (الاستعارة) لأن البيع والشراء إنما يكون في الأمور المادية الحسيّة، لا المعنوية.

قال ابن كثير: أي لا تعتاضوا عن الإيمان، وتصديق الرسول، بشهوات الدنيا الغانية، فقد اعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وعن الإيمان بالكفر. اهـ ابن كثير ١/ ٥٥.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] الاستفهام ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ خرج عن حقيقته، إلى معنى (التوبيخ والتقريع) وعبَّر عن ترك الدعوة إلى الخير بالنسيان ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ مبالغةً في الترك والتوبيخ، كأن الأمر لا يجري لهم على بالٍ، توكيداً للغفلة المفرطة.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] أصلُ السَّوْم إنما يكون في البيع والشراء، واستعمالُه في الإذاقة جاء بطريق (الاستعارة البديعة) أي يذيقونكم أشدَّ العذاب وأفظَعه، ثم فسَّر العذاب بذبح الذكور، واستبقاء الإناث على قيد الحياة، ولذلك لم يعطفه بالواو، لأنه تفسير له وتوضيح.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ...﴾ [البقرة: ٥٧] في الآية (إيجاز بالحذف) أي قلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم، فحذف كلمة (قلنا) إيجازاً لدلالة السياق عليه، كما أن في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه أيضاً (حذفٌ بالإيجاز) تقديره: فظلموا أنفسهم وما ظلمونا، وهذا من روائع (الإيجاز البياني) في الأسلوب العربي البديع

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا ﴾ [البقرة: ٦١] المخرجُ الحقيقي للنبات هو الله ربُّ العالمين، ونسبةُ الإنبات إلى الأرض، علاقتُه (السببيَّةُ) لأن الأرض لمَّا كانت سبباً لخروج النبات، أُسند إليها بطريق (المجاز العقلي) لأن هذا الأمر يُدرك بالعقل، قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٤]؟ فالله هو المنبتُ لا الأرضُ اليابسةُ الجرداءُ.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١] في الآية استعارة لطيفة تسمى (الاستعارة بالكناية) شبَّه إحاطة الذُّلِّ والهوان بهم من كل جانب، بإحاطة القُبَّة أو الخيمة على مَنْ تحتها، أي لزمهم الذلُّ والخشوعُ والخُنُوعُ وأحاط بهم، كما تحيط القُبة بمن ضُربت عليه.

قال الشاعر:

إنَّ السَّماحةَ والمروءةَ والنَّدى في قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابنِ الحشْرَجِ

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣] من أساليب العرب البلاغية (الإيجازُ في التعبير) بحذف بعض الكلام، إذا كان السياقُ يدلُّ على المحذوف، ففي الآية هنا (إيجازٌ بالحذف) أي قلنا لبني إسرائيل: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم ﴾ واعملوا بما في التوراة، بجدٍّ وعزيمة، فحذف جملة (قلنا لهم) على حدّ قول علماء البيان: البلاغةُ الإيجازُ.

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦] في الآية ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ (كناية) عن الأمم والخلائق، الذين كانوا قبل اليهود، والذين يأتون بعدهم، والمراد أنَّ مَسْخَهم إلى قردة، كانت عظةً وعبرة للخلق جميعاً، سواء منهم من شاهدها وعاينها، أو من سيأتي ويسمع أخبارَ هؤلاء المجرمين المعذَّبين، وهي من (الكنايات البديعة)، كقولهم (بين يدي السورة) ومعلومٌ أنَّ السورة ليس لها يدانِ، وإنما المعنى: أمامَ السورة.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] تشبيهُ القلوب في قسوتها بالحجارة فيه (استعارةٌ تصريحية) بديعة، استُعيرت (القسوة) لعدم تأثر اليهود بالمواعظ والعِبَر، تشبيهاً لها في الصلابة والغِلَظ، بالحجارة والحديد، التي تستعصي على الإلانة والتليين، فكأن قلوبهم لصلابتها وجفائها، أصبحت كالحديد، الذي لا يلين إلا بالنار الحامية اللاهبة.

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤] الأنهارُ لا تتفجّر، إنما الذي يتفجّر مياهُها، أي تتفجر منه مياهُ الأنهار، ويسمى هذا عند علماء البلاغة (بالمجاز المرسل) والعربُ يطلقون اسم المحلّ (كالنهر) على الحالّ فيه، وهو (الماء) بطريق المجاز المرسل.

١٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [البقرة: ٨١] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، شبّه الجرائم والذنوب التي ارتكبوها، بجيشٍ من الأعداء، نزل على قوم من كل جانب، فأحاط بهم إحاطة السّوار بالمِعْصَم، واستعار لفظ (أحاط) لغلبة الذنوب والسيئات على الحسنات، فكأنها أحاطت بهم من جميع الجهات، بطريق الاستعارة التصريحية.

١٦ ـ قوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ورد الأسلوب القرآني بصيغة الماضي ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ وفي الثاني بصيغة المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل: قتلتم لتتوافق مع كذّبتم، وذلك لناحيةٍ بلاغية، وهي أن المضارع يفيد (التجدد والاستمرار) فالتكذيب حصل منهم لرسل الله وانتهى، والقتلُ لا يزال يتجدّد منهم ويستمرّ، وكأنه يصوّر لنا جرائم اليهود، وهم ماضون في قتل الأنبياء، وسفك دماء الرسل، ويستحضر جرائمهم الشنيعة، كأننا الآن نراهم ماضين في هذا العدوان، تفظيعاً عليهم وتشنيعاً، وهذا هو السرُّ في العدول عن (الماضي) إلى (المضارع)، كما تقول: المطر ينزل، فإنه يفيد الدوام وعدم الانقطاع؛ بخلاف قولنا: نزلَ المطر.

١٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] فيها (استعارةٌ مكنية) شبّه حبَّ عبادة اليهود للعجل، بشراب لذيذٍ، سائغ الطَّعْم، دخل إلى قلوبهم، ونفذ فيها نفوذ الماء، فتمكّن فيها، ومازجها ممازجة المشروب اللذيذ، وطوى ذكر المشبّه به، على طريقة (الاستعارة المكنية) البديعة، وفرقٌ كبير بين الأسلوب القرآني المعجز ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ وبين التعبير بقولنا: أحبُّوا عبادة العجل وتركوا عبادة الله، كالفارق بين الثرى والثريّا.

١٨ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] الإيمانُ لا يأمر بعبادة العجل، ونسبةُ ذلك إلى الإيمان، إنما ورد على سبيل (السُّخرية والتهكُّم)، فإضافةُ الإيمان إليهم، تهكُّمٌ بهم وسُخرية.

١٩ ـ قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ...﴾ [البقرة: ١١٢] عبَّر عن الاستسلام الكامل بالنَّفْس للّٰه بالوجه، بطريق (المجاز المرسل) من باب (ذكر الجزء وإرادة الكل) أي أخلَصَ، وخضع للّٰه ربِّ العالمين بالكلية، بروحه، وعقله، وقلبه، كقولهم: كرَّم اللّٰهُ وجهك.

قال الإمامُ الفخر: إسلامُ الوجه للّٰه، يعني: إسلامَ النفس لطاعة اللّٰه ومرضاته، وقد يُكنى بالوجه عن النفس ـ أي الذات ـ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أي إلا اللّٰهُ جلَّ جلاله، وانظر أيضاً تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٤ فقد قال: عبَّر بالوجه عن الذات، والمعنى: كلُّ شيءٍ هالكٌ إلَّا اللّٰهُ الحيُّ القيُّومُ.

٢٠ ـ قولُه تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ...﴾ [البقرة: ١٣٣] من المعلوم أن الموتَ إذا حلَّ نفسَه، لا يقول المحتَضَرُ شيئاً، ففي قوله تعالى: ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ كناية عجيبةٌ غريبة، شبّه الموتَ بالشخص الغائب، الذي لا بدَّ أن يقدم على أهله، وفي الدعاء المأثور: «واجعل الموتَ خيرَ غائب ننتظره» فالموتُ قادمٌ على كل إنسان، غائبٌ عن الخلق، لا بدَّ أن يفاجئهم بحضوره.

٢١ ـ قولُه تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ...﴾ [البقرة: ١٤٣] العقبُ: مؤخَّرُ القدَم، والانقلابُ على العَقِبَيْن (استعارة تمثيلية) بديعة، شبَّه من يرتدُّ عن دينه، بمن ينقلب على عقبيه ـ أي يعود إلى الوراء متنكساً في مشيه ـ كمن يمشي إلى الخلف، بدل المشي إلى الأمام، وردت الآيةُ بطريقة التمثيل، وهي استعارةٌ بديعة.

٢٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ...﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني صلاتكم، سمَّى تعالى الصلاة (إيماناً) لأن الإيمان لا يصحُّ بدونها، ولأنها أهمُّ أركان الدين، فقد قال ﷺ: «ألَا لا دينَ لمن لا صلاةَ له».

نزلت الآيةُ حين تحولَّت القبلةُ من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فقال بعضُ الصحابة يا رسول اللّٰه: كيف بإخواننا الذين كانوا يصلُّون إلى بيت المقدس؟ ـ أي هل بطلت صلاتهم ـ؟ فأنزل اللّٰه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي صلاتكم، سمَّىَ الصلاةَ إيماناً. اهـ ابن كثير.

٢٣ ـ قولُه تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ...﴾ [البقرة: ١٤٤]

أطلق الوجه وأرادَ الذات أي توجّهْ بكامل جسدك إلى جهة المسجد الحرام ـ الكعبة المشرفة ـ ففي الآية (مجازٌ مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) وإذا لم يتحقّق التوجهُ إلى الكعبة بالجسم كلّه، لم تصحّ الصلاةُ.

٢٤ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ...﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية على حذف مضاف، أي من شعائر دينِ الله الذي شرعه لعباده، حُذف من الآية لفظُ الدين، ويسمى (الإيجاز بالحذف) وهو أسلوب بلاغي، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي أهلها، والشعائرُ: جمعُ شعيرة وهي العلامةُ، أي من معالم دين الله، الذي أعلمَ بها عبادَه.

٢٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] الخطواتُ جمع خُطوة وهي ما بين قدمَي الماشي، والآيةُ جاءت بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة، أي لا تسلكوا طُرق الشيطان، فيما يزيّنه لكم من الفواحش والمنكرات، وهذه الاستعارةُ أبلغُ عبارةٍ عن التحذير من طاعة الشيطان، فيما يأمر به، ويدعو إليه، من الوساوس والسفاهات، كأنّ طاعة الشيطان سيرٌ وراءه حثيثٌ، بوضعِ القدم مكان القدم، والسيرِ في ركابه حَذْوَ النَّعْل بالنعل.

٢٦ ـ قولُه تعالى ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤] شبّه تعالى المال الحرام الذي أكلوه، بجمرٍ من نار جهنم يأكلونه يوم القيامة، ففي الآية (مجاز مرسل) باعتبار ما سيؤول أمرهم إليه، أي إنما يأكلون المالَ الحرام، الذي يُفضي بهم إلى النار، وقولُه تعالى: ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ زيادةُ تقبيح وتشنيع عليهم، وتصويرهم بمن يتناول رَضْف جهنم، وذلك أفظعُ سماعاً، وأشدُ إيجاعاً، وسُمّي المأكول ناراً، لأنه يؤول بهم إلى النار، كقوله تعالى: ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] أي أعصر عنباً يؤول إلى الخمر، وهو من بديع المجاز.

٢٧ ـ قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة: ١٧٥] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، فقد استعار الشراءَ للاستبدال، أي استبدلوا الضلالة بالهدى، وأخذوا الكفرَ بدلَ الإيمان، والعذابَ بدل المغفرة، وهذا النوع من ألطف أنواع الاستعارة وأبدعها، لأن البيع والشراء يكون في التجارة، فكأنهم بمنزلة من يشتري سلعةً فاسدةً، بمبلغ كبير من

المال، ثم تظهر خسارتُه الفادحة ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم!! وهو تعجيبٌ من أمر أولئك الأشقياء، الذين أكلوا الحرامَ حتى أوردهم نار الجحيم.

٢٨ ـ قولُه تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية وردت على وجه المبالغة، فقد جعل البِرَّ ـ وهو فعل الخير ـ الإيمانَ نفسَه، وهذا معروفٌ في كلام البلغاء، يقولون: السخاءُ حاتمٌ، والشِّعْرُ زهيرٌ، أي السخاءُ سخاءُ حاتم، والشعرُ شعرُ زهير، وعلى هذا خرَّج سيبويه الآية، فقال المعنى: ولكنَّ البِرَّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخر، ونظيرُ هذا أن تقول: ليس الكرمُ أن تبذل درهماً، ولكنَّ الكرمَ أن تبذل الملايين.

٢٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ . . وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] في الآية إيجاز يسمى (الإيجاز بالحذف) أي وفي فكِّ الرقاب يعني الأرقَّاء والمماليك، وتخليصهم من رقِّ العبودية، فالمراد (بالرقبة) العبدُ المملوك، وأن يُعتق في سبيل الله، ليصبح حراً، بعد أن كان عبداً، وأمّا ابن السبيل فهو المسافر الغريبُ الذي انقطع في سفره، نُسِب إلى الطريق (مجازاً) وهذا مشهور عند العرب، كأنَّ الطريقَ أبوهُ وأهلُه، لضياع ثروته، وفَقْدِ ماله.

٣٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] في الآيةِ الكريمة من (الإيجاز والحذف) روعةٌ تفوقُ الخيالَ، حيث بَلَغ بها أسمى درجات البلاغة والبيان، فقد جعل القصاصَ سبباً لحياة البشر، وثمرةً للأمن والاستقرار، ورادعاً عن الظلم والعدوان، وقد كان للعرب حكمة بليغة حول هذا المعنى، حيثُ جاء في الأمثال قولُهم: (القتلُ أنْفى للقتل) ظنُّوها أسمى وأبلغ كلمةٍ تُقال في هذا الموضوع.

أمّا سموُّ الآية عليها، فهو في الذروة العليا، التي لا يدانيها أسلوبٌ من أساليب البشر، وذلك يتَّضحُ من وجوه:

١ ـ قلة الحروف.

٢ ـ عدمُ التكرار في الآية، بخلاف حكمة العرب، فقد تكرَّر فيها لفظ القتل.

٣ ـ التناسقُ والاطرادُ التام، إذ في كل قصاصٍ حياةٌ للبشر، وليس كلُّ قتلٍ أنفى للقتل، فإن القتلَ عدواناً وظلماً، يكون أدعى للقتلِ.

٤ ـ عذوبةُ اللفظ في الآية ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ فقد جعل الحياة والأمن، والسعادة، والاستقرار، في (إقامة القصاص) لأن القاتلَ إذا أيقن أنه سيُقتل، لا يُقْدِم على القتل، فكان القصاصُ سبب حياته وحياة غيره، وبذلك تصان الدماءُ، وتُحفظ حياة الناس، وهو كلام في غاية الفصاحة، فقد جعل الشيء محلَّ ضده، بهذه المعادلة اليسيرة: (الاقتصاصُ من القاتل، سببٌ للأمن وللحياة، وعدمُ الاقتصاص منه، سببٌ للفناء والدمار).

٥ ـ ذكرُ الشيء وضدِّه، وهو ما يسمى في علم البديع بـ(الطباق) فإن القصاصَ ـ يعني القتل ـ قابَلَهُ الحياةُ، فطابَق بين ذكر الشيء وضدِّه، كقوله تعالى: ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨] إلى غير ما هنالك من الفوارق البديعة، التي نجدها في نفحات الإعجاز، حيث جعلت الآية إقامةَ القصاص في الأرض، سبباً لحياة البشر وأمنهم، والمثلُ العربي جعلَ القتلَ سبباً لنفي القتل، وهو لا يستلزمُ الحياةَ، بل قد يكون سبباً للإفناء، فقد كان العرب إذا قُتِلَ واحدٌ منهم، يقتلون به عشرةً، وإذا قُتل منهم عبدٌ يقتلون به حراً، أو يقتلون به رئيس القبيلة، فيحتاج المثلُ العربي إلى توضيحٍ، وزيادةٍ في اللفظ، ليصبح الكلام صحيحاً، مثل أن يقال: (القتلُ قصاصاً أبعدُ عن زيادة القتل)، وأين الثرى من الثُّريّا!!

قال العلامة الشوكاني: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ هذا نوعٌ من البلاغة بليغٌ، وجنسٌ من الفصاحة رفيع، فإنه جَعَل القصاصَ ـ الذي هو موتٌ ـ حياةً، باعتبار ما يؤول إليه، من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً، إبقاءً على أنفسهم، واستدامةً لحياتهم، وجَعَل هذا الخطابَ موجَّهاً لأولي الألباب، لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب، دون ذوي الطَّيْشِ والحُمْق، الذين قال بعضُ جهلائهم:

سَأَغْسِلُ عَنِّي العَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً عَلَيَّ قَضَاءُ اللهِ مَا كَانَ جَالِبَا

اهـ تفسير الشوكاني ١/ ٢٤٣.

٣١ ـ قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: ١٨٤] في الآية الكريمة (إيجازٌ بالحذف) تقديره: فمن كان منكم مريضاً يضرُّه الصومُ فأفطر، فعليه قضاءُ الأيام التي أفطرها، ومن كان منكم مسافراً سفراً بعيداً فأفطر، فعليه قضاء ما أفطر، بعدد الأيام التي أفطرها، وإذا صام المريض أو المسافر، فليس على أحدهما قضاء، فدلَّ هذا على المحذوف

من الآية الكريمة، وهو من (روائع الإيجاز) ببدائع الإعجاز، لمن يدرك أسرار الكتاب العزيز! ولو حملنا الآية على ظاهرها، لوجب الصوم في جميع الحالات.

٣٢ ـ قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] الرَّفثُ هنا: (كناية) لطيفة عن الجماع، أي أبيح لكم جماعُ نسائكم، في ليالي شهر رمضان، وعُدِّي بـ(إلى) لأن فيه معنى (المباشرة والإفضاء)، وهذا التعبيرُ من (الكنايات الحسنة)، التي تذهب باللفظ إلى علياء السُّموّ والطُّهر، دون لفظ مستهجن.

قال ابن عباس: أراد اللَّهُ بالرفثِ: الجماعَ، ولكنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ، حليمٌ، كريم، يكني!! أي يأتي بالكناية مكان اللفظ الصريح.

وقال الزَّجاج: الرَّفثُ: كلُّ ما يأتيه الرجل مع المرأة، من قُبلةٍ، ولَمْسٍ، وملاعبةٍ، وجماعٍ، واستدلَّ بقول الشاعر:

وَيُرَيْنَ مِنْ أُنْسِ الحَدِيثِ زَوَانِياً ... وَبِهِنَّ عَنْ رَفَثِ الرِّجَالِ نِفَارُ

فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٥٤.

٣٣ ـ قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ...﴾ [البقرة: ١٨٧] الآية الكريمة جاءت في غاية الروعة والإبداع، في تصوير (العلاقة الجنسية) بين الزوجين، وسلكت بطريق الاستعارة اللطيفة، مسلكاً أفاضَ عليها كساء البهاء والجمال، فقد شبَّه المرأة باللباس، الذي يزيِّن الإنسانَ، ويسترُ قبحَه ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ ولولا اللباس الساتر، لبدتْ سوأةُ الرجل، فكان منظره قبيحاً، تنفر منه الطباع، فالمرأةُ سترٌ للرجل، وسَكنٌ له، تزيِّنه، وتُجمِّله، وتكمِّلُه، والرجلُ سترٌ للمرأة، يزيِّنها ويسترها ويُجمِّلها، وهما حالةَ المعاشرة ـ الجماع ـ كأنهما روحان حلَّا في جسدٍ واحد، بثوب واحد، فستر كلٌّ منهما الآخرَ.

فانظر إلى روعة الجمال الفنيّ في تصوير القرآن، فقد أفضى بهذه الاستعارة البديعة، إلى أبدع صور الجمال والجلال، مع اللفظ اللطيف، والمعنى الشفيف، ولو تركنا الآية على ظاهرها، دون أن نسلك بها طريق (الإبداع البياني) بأسلوب (الاستعارة)، لجاء المعنى عجيباً وغريباً، بحيث يفسِّره الجاهل: هنَّ سراويل لكم، وأنتم سراويلُ لهن، وباللغة الفرنسية: هنَّ

بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن، كما ترجمها بعض المستشرقين من الفرنسيين، ظناً منهم أن هذا هو المراد، وعليه نقول: لا يجوز مطلقاً ترجمة القرآن باللفظ الحرفي إلى أيِّ لغةٍ من اللغات، إنما تكون الترجمة لمعاني القرآن الكريم، فتدبَّرْ هذا واللَّهُ يرعاك.

٣٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] في الآية الكريمة (استعارة عجيبة) عبَّر عن إشراقة النور بالخيط الأبيض، وعن حُلْكة الظلام بالخيط الأسود، بطريق (الاستعارة البديعة) العجيبة، وستأتي قصة (عدي بن حاتم)، فانظرها صفحة (٤٥٥) واللَّهُ يرعاك.

٣٥ ـ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ...﴾ [البقرة: ١٨٧] كنّى عن ارتكاب المعاصي، وفعل الموبقات بالقرب ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي لا تنتهكوا محارمَ اللَّه، مبالغةً في التحذير عن مقارفة ما حرَّم اللَّهُ، وهو أبلغُ من قوله: لا تفعلوا ما حرَّمه اللَّه عليكم، فإذا كان القربُ منها محرَّماً، فالفعلُ يكون بلا شك من باب أولى أشدَّ إثماً، وأعظمَ تحريماً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فهو أبلغ من قوله: ولا تزنوا.

٣٦ ـ قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] يُسمَّى هذا في علم البديع (الأسلوب الحكيم) فالصحابة سألوا رسول اللَّه ﷺ عن الهلال لِمَ يبدو دقيقاً، ثم يزيد ويكبر، حتى يصبح بدراً، ثم يرجع إلى النقصان؟ فنزلت الآية تصرفهم إلى معرفة ما هو أهمُّ، وكأنها تقول: كان الأولى بكم، أن تسألوا عن حكمة (خلق الأهلة)، لا عن كيفية بدء الهلال صغيراً ثم اكتماله، ثم عودته صغيراً، فأخبرهم تعالى أنها معالمُ لمعرفة أوقات الصيام، والحج، وهذا ما يسميه علماء البلاغة (الأسلوب الحكيم).

٣٧ ـ قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: هتكُ حرمة الشهر الحرام، تُقابَلُ بهتك حرمة الشهر الحرام، فإذا قاتلوكم في الشهر الحرام، فقاتلوهم فيه، ويسمى (حذف الإيجاز).

٣٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] سمَّى جزاءَ العدوان عدواناً، للتشابه بالصورة دون الحقيقة، ويسمى في علم البلاغة (المشاكلة) وهي الاتفاقُ باللفظ، مع الاختلاف في

المعنى، فالعدوانُ ظلمٌ، وردُّ العدوانِ ليس بظلم، بل هو عدلٌ محضٌ، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال الزجاج: العربُ تقول: ظَلَمني فلانٌ فظلمتُه أي جازيتُه بظُلمه، والمعنى: من اعتدى عليكم فقابلوه بعقوبة مماثلة.

٣٩ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٩٦] كنّى عن (التحلُّلِ) بحلق الرأس، والخطابُ للمحصَرين أي لا تتحلَّلوا من إحرامكم حتى تذبحوا الهَدْيَ، في المكان الذي تُحصرون فيه، وهذه من (الكنايات البديعة) حيث أطلق الحلْقَ، وأراد به التحلُّلَ من الإحرام.

٤٠ ـ قولُه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ ...﴾ [البقرة: ١٩٦] في الآية (إيجاز بالحذف) أي من كان منكم مريضاً فَحَلَق رأسَهُ، أو به أذًى من رأسه، كجراحةٍ أو قملٍ، فحَلَق، فعليه فدية ... إلخ.

٤١ ـ قولُه تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] في الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديره: كان الناس أمةً واحدةً، على الإيمان والتوحيد، متمسكين بالحق، فاختلفوا وتنازعوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.. ودلَّ على المحذوف قوله: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال ابن عباس: (كان بين آدمَ ونوحٍ عشرةُ قُرون ـ يعني ألف سنة ـ كلُّهم على الإسلام، وعلى شريعة الحقِّ، فاختلَفوا فبعثَ اللّهُ النبيِّينَ مبشِّرينَ ومُنْذِرين) اهـ تفسير الشوكاني ١/ ٢٨٣.

٤٢ ـ قولُه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ ...﴾ [البقرة: ٢١٩] في الآية أيضاً (إيجازٌ بالحذف) أي يسألونك عن شرب الخمر، وتعاطي الميسر ـ القمار ـ فقل لهم: إنَّ فيهما ضرراً عظيماً، وإثماً كبيراً، ومنافع مادية ضئيلة، وضررُهُما أعظمُ من نفعهما، وهذا من باب التفصيل بعد الإجمال.

٤٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: ٢٢٢] القربانُ: (كنايةٌ) عن الجماع أي لا تجامعوهنَّ حتى ينتهي الحيضُ ويغتسلن، فإذا تطهَّرن فأتوهنَّ في المكان الذي أحلَّه الله لكم، وهو القُبُل لا الدُّبر، كنّى عن الجماع بالقرب ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ كما كنّى عنه أيضاً

بالإتيان ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ وكلُّ هذه من الآداب الإسلامية، التي ينبغي أن يستعملها الناسُ في مخاطباتهم، دون اللفظ الصريح.

٤٤ ـ قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] الآية كما يقول علماءُ البيان: على حذف مضاف أي مواضعُ حرثٍ لكم، شُبِّهت المرأةُ بالأرض، التي يُلقى فيها البذرُ للزراعة، وهو تشبيهٌ واضحٌ وعجيب، وذلك لما يُلقى في رحمها، من النُّطَف التي تشبه البذورَ، فالأرضُ موطنٌ للزرع، والرحمُ موطنٌ لتخلُّق الجنين، والحرثُ: إلقاءُ البذر في الأرض.

وقوله: ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أي كيف شئتم، جالسةً، مستلقيةً، مضطجعةً، بعد أن يكون في الفرج، وهو المكان الذي يصلح للإنبات والولادة، فإن الدُّبرَ ليس موضع الحرث.

والآية نزلت ردًا على اليهود فقد كانوا يقولون: «إذا جامَعَها من ورائها في الفرج، جاء الولدُ أحولَ» فنزلت الآية، رواه البخاري. وفي الحديث: «ملعونٌ من أتى امرأةً في دبرها» رواه أبو داود.

٤٥ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] في الآية (إيجازٌ) وإبداع في غاية الروعة والجمال، لا يخفى على الدارس لعلوم البيان، أي للنساء على الرجال من الحقوق والواجبات، مثلُ الذي للرجال على النساء من الحقوق والواجبات، فاختصر هذا الكلام كلَّه بقوله: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ﴾ وفي الآية من المحسِّنات البديعية ما يسمى بالطباق، بين (لهنَّ) و(عليهنَّ) وهو طباق بين حرفين، والدرجةُ التي أشارت إليها الآية: درجة (تكليف) لا درجة (تشريف)، فليس الرجل أكرمَ عند الله من المرأة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] إنما هي مسؤولية الإنفاق، والرعاية، والتربية، وصيانة الأسرة عن الانحراف.

٤٦ ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١] في الآية ما يُسمَّى بـ(المجاز المرسل) في قوله تعالى: ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ وهو محمولٌ على (المشارفة) أي أشرفن وقاربن على انتهاءِ عدتهن، لأنها لو انتهت العِدَّةُ، فقد بانت منه، ولم يَجُزْ له إمساكُها، والآيةُ تقول: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١] أي طالما هي في العِدّة.

٤٧ ـ قولُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] أي لا تمنعوهنَّ من العودة إلى أزواجهنّ، إذا صلحت الأحوال بين الزوجين، والآية فيها (المجاز المرسل) والعلاقة هي (اعتبار ما كان) أي فلا تمنعوها أن ترجع إلى زوجها المطلّق الذي كان زوجاً لها، أضاف الزوجات إلى الرجال ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ لاعتبار أنهن كنّ زوجات لهم، قبل الطُّلاق، ففي الآية (مجاز) باعتبار ما كان، كما يقول علماء البيان.

٤٨ ـ قولُه تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦] كنّى تعالى بالمسّ عن (الجماع) تعليماً للعباد اختيار أحسنِ الألفاظ في كلامهم.

٤٩ ـ قولُه تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] صوّر إنفاق المال في سبيل اللّه، ابتغاء مرضاته، بمن يُقرض اللّهَ ـ وهو الغنيُّ الجواد ـ قرضاً واجبَ الوفاء، بطريق (الاستعارة).

يُروى عن ابن مسعودٍ رضي اللّه عنه أنه قال: (لمّا نزلتْ هذه الآيةُ ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ جاء أبو الدَّحداح الأنصاري إلى رسول اللّه ﷺ، فقال يا رسول اللّه: إن اللّهَ تعالى يُريد منّا القَرْضَ؟ قال: نعم يا أبَا الدَّحْداح!! قال: أرني يدكَ يا رسول اللّه! فناولَه يَدَه قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي ـ أي بستاني ـ وله فيه ستمائة نخلة. .) الحديث رواه البزّار والبيهقي، سمّى الإنفاقَ في وجوه الخير قرضاً على طريقة (الاستعارة التصريحية).

٥٠ ـ قولُه تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبّه حال المؤمنين وقت اشتداد المعركة، بمن صُبَّ عليه الماءُ صبًّا، من أعلاه إلى أسفله، وأُفرغَ على كامل جسده، واستعار لفظ (أفرغْ) للصبّ، تشبيهاً للصبر بالماء الذي يُفرغ على الجسد، فصار الصبرُ للقلب برداً وسلاماً، وأمناً واطمئناناً، وهو من بديع أنواع (الاستعارة التمثيلية).

٥١ ـ قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبّه المستمسك بدين الإسلام، بإنسانٍ استمسك بحبلٍ محكم متين، وتدلّى من الأعلى إلى الأسفل، فلم ينقطع به، ونجا من المهلكة، وذكرُ عدم الانفصام، ترشيحٌ لهذه الاستعارة البديعة.

٥٢ ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] في الآية (استعارة تصريحية) شبّه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، لأن الكفر كالظلمة الحالكة، والإيمان كالشمس المشرقة المضيئة، وعاقبةُ الكفر مظلمةٌ كنار الجحيم، وعاقبةُ الإيمان الفوزُ بجنات النعيم.

٥٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الكسوةُ تكون باللباس للجسد العاري، وعبّر عن اللحم يستر العظام: (بالكسوة) التي تستر الجسد، واستعار لفظ ﴿نَكْسُوهَا﴾ للتغطية للعظام وهي استعارة في غاية الحُسْن والإبداع، ومعنى ﴿نُنشِزُهَا﴾: نرفعُها ونركّبُ بعضَها فوق بعض.

٥٤ ـ قوله تعالى: ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] موتُ القرية هو موتُ أهلِها وسكانها، لأن القرية نفسَها لا تموتُ، إنما الموت لمن يكون فيها من البشر، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، ومثلُها ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي أهل القرية.

٥٥ ـ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] إسنادُ الإنبات إلى الحبة ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ إسنادٌ مجازي، لأن الحبة لا تنبتُ شيئاً إنما ينبتُها اللّهُ، ويسمى هذا (المجاز العقلي) يعني الذي يدرك بالعقل.



الأمثال المذكورة في سورة البقرة

الإبداعُ في التمثيل لأحوال المنافقين

ضرب تعالى في سورة البقرة، مثلَيْن للمنافقين، وضَّح فيهما خسارتهم الفادحة، حيث استبدلوا الكفرَ بالإيمان، واشتروا الضلالةَ بالهدى، فلم يُفلحوا ولم يربحوا، بل خسروا آخرتهم وسعادتهم.

١ ـ قال تعالى في المثل الأول: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ • صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

شبَّه تعالى حالةَ المنافق، الذي أظهرَ الإيمانَ، وأبطنَ الكفر، بحالة إنسان مسافر في الصحراء، في ليلةٍ شاتيةٍ باردة، أوقد النارَ ليستدفىء بها، ويستضيء بنورها، فلمَّا أنارت له الطريقَ، واستأنسَ بتلك النار واستدفأ، هبَّتْ عاصفةٌ شديدة، أطفأت النارَ وأذهبت الضياء، وعاد يتخبَّط في الظلام، لايدري ماذا يفعل، ولا ماذا يصنع؟ فقد أصبح في فزع شديد، وظلام دامس، ويا له من مَثَل بديع رائع، في تصوير حال المنافق ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾.

يقول العلَّامة ابن القيّم: ذكر تعالى في هذا المثلِ النّارَ ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ والنارُ فيها إشراقٌ وإحراق، فذهب اللّهُ بما فيها من الإشراق، وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق، وهي «النار» وتأمّلْ كيف وحّدَ النُّورَ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وجمَع الظلمات ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ لأنَّ الحقَّ واحدٌ، هو دينُ اللّهِ المستقيمُ، بخلاف طُرُق الباطلِ، فإنها متعدِّدةٌ ومتشعّبة، كما قال سبحانه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٢ ـ أمَّا المثل الثاني: الذي ضربه اللّه للمنافقين، فهو أوضح وأبدع في إظهار حقيقة أمرهم ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ • يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ

وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٩، ٢٠]. **شبَّههم تعالى في حيرتهم**، وتردُّدهم بين الإيمان والكفر، بقومٍ غرباء، أصابهم مطرٌ شديد، يهطل بغزارةٍ وتدفق، وهذا معنى (الصيِّب) في اللغة، أظلمت له الأرضُ، وارتجّت له السماء، مصحوب بالبرق، والرعد، والصواعق، رافقته ظلماتٌ داجية، ورعدٌ يصمُّ الآذان، وبرقٌ يخطف الأبصار، وهم من فزعهم ودهشتهم، يضعون رءوسَ أصابعهم في آذانهم، لدفع خطر الصواعق، يظنون أن ذلك يُنجيهم من الموت، وهم في قبضته سبحانه وتعالى، لا يفوتونه ولا يُعجزونه.!

ويتابعُ القرآنُ التمثيل فيقول: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ أي: يكاد البرق لشدة لمعانه، أن يذهب بأبصارهم، فيأخذها بسرعة، كلما أنار لهم البرقُ الطريق، مشوا في ضوئه، وإذا اختفى وفتَرَ لمعانُه، وقفوا عن السير، وثبتوا في مكانهم، خشيةَ التردِّي في حفرةٍ من الحُفر، ولو أراد اللّهُ لزاد في قصف الرعد، وشدَّة البرقِ، فذهب بأسماعهم وأبصارهم، فأصمّهم وأعماهم...

هذا خلاصةُ المثل الثاني الذي ضربه تعالى للمنافقين.

٣ ـ وبين المثلَيْن جاء هذا التصويرُ الفظيعُ الشنيع لهم، حيث شبّههم بالصُمِّ، البُكم، العمي، في عدم الاستفادة من هذه الحواسِّ، فقال سبحانه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي هم كالصمِّ لا يسمعون، وكالبكم ـ أي الخُرس ـ لا يتكلمون، وكالعُمي لا يبصرون، لذلك لا يرجعون عمّا هم عليه من النفاق والضلال!!

والآيةُ وردت موردَ (التشبيه البليغ) حيث حذفت منها أداةُ التشبيه، ووجه الشبه، فأصبح التشبيه في غاية الجمال والبيان، وتوضيحُ ذلك أنهم مِثْلُ الصُمّ، لا يسمعون الكلام، ومِثْلُ الخُرس، لا ينطقون بالخير والحقّ، ومثلُ العُمي، لا يرون طريق السعادة والفلاح، حواسُّهم موجودة، ولكنهم عطّلوها، فأصبحوا كمن فَقَدَ تلك الحواس، كما قال تعالى عنهم في موطن آخر ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وحقاً إنَّ هذا التمثيلَ والتصوير، في غاية الروعة والجمال.

الإبداع في التمثيل لقسوة القلوب

٤ ـ ومن التمثيل البديع في القرآن العظيم، ما ضربه تعالى مثلاً لقسوة القلوب، بالأحجار الصلبة، وبالحديد الصَّلْد، الذي ينبو عن الرِّقة والليونة، فقال سبحانه عن اليهود ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]. و(قسوةُ القلب): استعارةٌ عن الجفاء والغلظة، بحيث لا يتأثر الإنسان بالنصح والتذكير، ولا بالترغيب أو الترهيب، والخطابُ لليهود، توبيخاً لهم وتقريعاً أي قستْ قلوبكُم يا معشر اليهود وغَلُظت، فلم يعد يؤثّر فيها نصحٌ ولا تذكير، من بعد رؤية تلك الآيات الساطعات، والمعجزات الباهرات، فهي في قسوتها مثلُ الحجارة، بل أشدُّ وأقسى، إنها مثلُ الحديد لا تلين، وإنَّ من الأحجار، ما تتدفّق منه الأنهارُ، بالماء العذب الزلال، ومنها ما يتصدّع فيهبط من أعالي الجبال، إشفاقاً من عظمة الله جلّ جلالُه، فالحجارةُ تلين، وقلوبكم لا تخشع ولا تلين!!

ترقّى سبحانه في بيان تمثيل القلوب بالقسوة، فمثّل لها بالحجارة، التي تتأثر تأثراً بليغاً، بما فيه من منفعةٍ عظيمة، من تفجُّر الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة تأثراً ضعيفاً، بما فيه من منفعةٍ قليلة من خروج الماء من العيون دون الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة بنفسها، دون خروج الماء، وهي التي تتفتّتُ وتهبط خشيةً من عظمة الله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢٢].

فالحجارة تتأثر وتلين، وقلوب هؤلاء اليهود، لا تتأثر ولا تلين لموعظةٍ وذكرى، والتمثيلُ جاء في هذه الصورة البديعة ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وهو ما يسمى بالتشبيه (المرسل المجمل) لأن أداة التشبيه مذكورة وهي (الكافُ)، ووجهُ الشبه محذوفٌ، وهو (الجفاءُ والغلظة).

قال العلامة أبو السعود: والقسوةُ عبارة عن الغلظة، والجفاء، والصلابة بحيث لا تتأثر بالعظات والقوارع التي تَميعُ منها الجبالُ، وتَلينُ بها الصخور. اهـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١/ ٩٠.

الإبداع في التمثيل بالراعي مع أغنامه

٥ ـ ومن روائع وبدائع التمثيل، ما صوَّر به القرآن حياة الكفار، في مَثَل جاء في غاية الروعة والإبداع، في قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

تدبَّرْ هذا المثلَ بعين اليقظة والاعتبار، لترى فيه روعة الجلال والإبداع، فقد مثَّل تعالى للكفرة الفُجَّار، في عدم انتفاعهم بالقرآن، وحججه الواضحة، بمثَلِ راعٍ يرعى الغنمَ، أبصَرَ الضِّباعَ والذئابَ تقترب منها، فأخذ يصيح بأعلى صوته، يأمرها بدخول الحظيرة، فقد داهَمهَا الخَطَرُ، فهي تسمع الصوتَ، ولكنها لا تفهم الكلامَ، فهؤلاء الكفار كالبهائم السارحة، لا يسمعون ولا يفقهون كلامَ ربِّ العزة والجلال، يسمعون القرآنَ، ويَصمُّون عنه الآذان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. ولهذا أتبعَ تعالى الآية بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي هم كالصُّمّ لا يسمعون من يدعوهم إلى الإيمان، وكالخرس لا ينطقون بخير، وكالعمي لا يبصرون طريق الهدى والرشاد، فهم في ضلالهم يتخبطون، لا يفقهون ولا يعقلون.

قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه اللّه للكفار، مثَّل لهم بالبهائم التي لا تفقه ما يقوله لها الراعي، أكثرَ من سماع الصوت، دون أن تفهم المعنى، فمثلُهم كمثل من يصيح بالماشية، تسمع النداء، ولا تفهم المقصود.

ولنتأملْ قوله تعالى: ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ فإن النَّعق رفعُ الصوت إلى أعلى درجة الصياح، فالراعي يرفع الصوتَ، ويصيح بالأغنام، ويزجرها محذِّراً لها من الخطر، ولكنها لا تستجيب له، لأنها لا تفهم مراده ولا كلامه، وهكذا مثلُ الكفار، مع من يريد أن ينقذهم من عذاب النار، لا يسمعون ولا يفقهون، فهم شرٌّ من البهائم والأنعام.

الإبداع في تمثيل الإنفاق

٦ ـ ومن الأمثلة البديعة الرائعة، التي ضربها القرآنُ للمنفقين أموالهم، طلباً لمرضاة اللّه، هذا المثلُ الواضح ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

شبّه تعالى المؤمن، المنفق ماله في سبيل الله، بالفلّاح المزارع، يبذر الحبّ في الأرض، متوكلاً على الله، راجياً فضله وإنعامه، ولمّا كان صادق النية، مخلصاً في برّه وإحسانه، راغباً مرضاة الله تعالى، بارك الله له فيما زرع، فأخرجت الحبةُ ساقاً، تشعّب منها سبعُ شُعَب، هي السنابلُ التي تحمل الحبَّ، في كل سنبلةٍ مائةُ حبة، فصار الحاصلُ من حبة واحدة (سبعمائة حبة) وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر، لمن أخلص في صَدَقته وإحسانه، طلباً لرضى ربه، حيث يضاعف الله له الأجر إلى سبعمائة ضعف، ولهذا قال تعالى بعده ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي يضاعف الأجر لمن شاء، حسب إخلاص الإنسان في إنفاقه، وهو سبحانه واسعُ الفضل والعطاء، عليم بنية العبد المخلص.

قال المفسّرون: نزلت الآية في شأن (عثمان) و(عبد الرحمٰن بن عوف) رضي اللّهُ عنهما، وذلك في (غزوة تبوك)، حيث رغّب رسول الله ﷺ أصحابه في الإنفاق لهذه الغزوة، فجهّز عثمان رضي الله عنه ألفَ بعير، بأحلاسها، وأقتابها، ومؤنتها، ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألفَ دينار، فجعل الرسول الكريم يقلّبها بين يديه ويقول: ما ضرَّ عثمانَ ما فعل بعد اليوم!! وأتى (عبدُ الرحمٰنِ بنِ عوف) بأربعةِ آلاف درهم، وقال: يا رسول الله! لستُ أملكُ إلّا ثمانيةَ آلاف درهم، أمسكتُ منها لأهلي وعيالي (أربعةَ آلاف) وأربعةُ آلاف أقرضتُها لربي، فقال له رسولُ الله ﷺ: «باركَ اللّهُ لك فيما أمسكْتَ وفيما أعطيت» ففيهما نزلت الآية الكريمة[1].

يقول ابن القيّم: شبّه سبحانه نفقة المنفق في سبيله ـ سواءٌ أكان المراد بها الجهاد، أو جميع سُبُل الخير من كل برٍّ ـ بمن بَذَر بذرةً، فأنبتت سبع سنابل، اشتملت كلُّ سنبلةٍ على مائةِ حبة، والله يضاعف الأجر بحسب حال المنفق وإيمانه، وإخلاصه وإحسانه، وقدر نفقته ونفعها، ووقوعها في مكان موقعها[2].

تأمّلْ أخي القارىء في هذه الآية الكريمة، كيف قرن سبحانه إنفاق المال بقوله: ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لينبّه تعالى أن كلَّ عملٍ، ونفقةٍ، وإحسان، لا تكون مقبولة عند الله، إلّا أن تكون خالصةً لوجهه الكريم، فالمنافق قد ينفق المالَ،

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي.

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ص ١٨٣.

ولكنْ للجاهِ والشهرة، ووازنْ بين هذه النفوس التقيّة النقيّة، التي تتسابق في بذل المال، طلباً لرضى الرحمٰن، وبين ذلك المنافق الذي يبذل المال بسخاء، في سبيل الشيطان، طلباً للشهرة والثناء، كما في الآية التي تتلوها ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] مما فيه ذهابٌ للأجر، وإبطال للعمل، فكم يكون الفارق كبيراً بين هذا وذاك؟ فالمؤمن يزكّي نفسه بإنفاق المال، والمرائي يُهلك نفسه بالإنفاق بقصد الرياء.

الإبداعُ في إبطال العمل بالرياء

٧ ـ وبمقابلة إخلاص المؤمن في الإنفاق للمال في سبيل اللّٰه، يأتي الحديث عمن ينفق ماله رئاء الناس، ممّا يُبطل العمل، ويقضي على الأمل، في إحراز الأجر والثواب، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

بدأ تعالى الآية بطريق الالتفات البديع، الذي يُقبل فيه ربُّ العزة والجلال على عباده، بالخطاب على وجه التكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟﴾ بعد أن كان الحديث بطريق الغَيْبة ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ليبالغ في النهي عن الإنفاق في سبيل الشهرة ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي لا يريد بإنفاقه رضاه اللّٰه، ولا ثواب الآخرة، ومعنى ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي مراءاةً لهم وسمعةً، ليروا نفقته ويُثْنوا عليه، فيقولوا: إنه سخيٌّ ومحسنٌ، ثم يأتي التمثيلُ الرائع لهذا المرائي، بأجلى صور الإبداع والبيان، فيقول سبحانه ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ الصفوانُ: الحجرُ الأملسُ الصلبُ، الذي ليس فيه ثقوب، المعروف باسم (حجر الرخام) الذي يزيّن الناس به الدور والقصور، والوابلُ: المطر الشديد الدافق، الذي ينزل بشدّةٍ وقوة، ومعنى الصلد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي أجرد نقياً من التراب، لا شيء يستره ويواريه.

لنرجع إلى الصورة البيانية في إبداع هذا التمثيل، ولنتصور أرضاً جرداء ملساء، من الرخام، في مدخل قصرٍ شامخ، يبهر الأبصارَ، في روعته وجماله، على هذه الأرض الملساء، شيء من التراب الناعم، نزل عليه مطرٌ شديد دافق، فذهب بهذا التراب، حتى لم يُبق له أثراً، ولو أنّ الماء القليلَ انصبَّ عليه

لأزاله، فكيف وقد نزل عليه الماء الهاطل الدافق؟ هكذا شأن المرائي يضيع عملُه، ويذهب أجرهُ كلُّه، ويبوءُ بالخيبة والخسران، لأنه لم يقصد بإنفاقه وجه الله تعالى!!

لقد شبّه تعالى المنفقَ بالزارع، فمن زرَع في أرض خصبةٍ طيِّبة التربة، نَبَتَ زرعُه، وطابَ ثمرُه، وجنى ثمرةَ ما زرَع، ومن زرع في أرضٍ صخرية ملساء، ونزل عليها قليل من الماء، أذهب كلَّ أثر للزرع، لأن الأرض ليست صالحة للزرع، فكيف إذا نزل عليها الغيثُ الدافق، والصيِّبُ الماحق؟ وهذا شأن المرائي الذي أبطل الله عملَه ومحَقَ مالَه، ولهذا ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا ينتفعون بما أنفقوا، ولا يجدون له ثواباً، في وقتٍ يكونون أشدَّ الحاجة فيه إلى قطف الثمار، وهو يوم القيامة يوم الحساب والجزاء.

تأمل بعين البصيرة، الفارق الكبير بين شخصين: أحدهما أنفق ماله لوجه الله، فبارك الله له فيما أنفق، فزكا مالُه وطاب، حتى غدا القليلُ أضعافاً مضاعفة، وبين شخص آخر أنفق المالَ، طلباً للشهرة والثناء، فمحق الله ماله، وأذهب ما كان يؤمِّله من الأجر والمثوبة، ورجع عليه إحسانه بالخيبة والدمار، وغضب الجبار، ما أبْعدَ الفارق بين الرجلين!؟

التمثيل بالجنة ذات الربوة

٨ ـ وتأكيداً لهذا المعنى، يضرب القرآنُ الكريم مثلاً آخر، لمن ينفقُ المالَ، طلباً لمرضاة الله، دون منٍّ ولا أذى، ولا رغبةٍ في ثناء الناس، فيقول جلَّ ثناؤه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

هذا المثلُ البديع، في مقابلة من أنفق ماله للجاه، وحسن الثناء، فذهب أجرُه، وبطلَ عملُه، مثَّل تعالى للمؤمن المحسن، الذي يطلب بإنفاقه وجه الله، بحديقةٍ غنّاء، كثيرةِ الشجر، هي بمكانٍ مرتفع من الأرض ـ وهي الربوة ـ أصابها مطرٌ غزيرٌ مدرار، فأخرجت ثمارها، وافيةً كاملة، مِثْلَيْ ما كانت تثمر من قبلُ، فإن لم ينزل عليها المطرُ المدرار، فيكفيها النَّدَى ـ وهو الطلُّ ـ لمكانها المرتفع، وهوائها العليل، لتخرج ثمارها الطيبة الجنيَّة، هكذا مثَّل القرآنُ لأعمال

المحسنين، الذين يبتغون بإحسانهم وبذل أموالهم، وجة الله تعالى ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] فإن إنفاقهم يزهو ويربو، ويزيده الله بركةً ونماءً، كمثل الجنة ـ الحديقة ـ التي نزل عليها المطر، فتضاعف فيها الخيرُ والثمر.!

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي تثبيتاً لها على الإيمان، وطلب رضى الرحمٰن، فإن المالَ شقيقُ الروح، فمن بَذَله لوجه الله، كان حافظاً لدينه، مثبّتاً لنفسه على الإيمان واليقين ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

يقول ابن القيم رحمه الله: شبّه تعالى الإنفاق بالبذر، فالمنفقُ مالَه الطيّبَ لله تعالى لا لغيره، باذرٌ ماله في أرضٍ زكيّة، وغلَّتُه منها بحسب بذره، وطيب تربته، وتعاهده البذورَ بالسقي، ونفي النبات الغريب عنها، فإذا اجتمعت هذه الأمورُ، ولم تحرق الزرعَ نارٌ، ولا أصابته جائحة، جاء أمثالَ الجبال، وكان مثلُه مثلَ جنة بربوة ـ وهي المكان المرتفع من الأرض ـ الذي يكون فيه البستانُ، نُصْب الشمس والرياح، فتربّى الأشجار فيه أتمَّ تربية، ثم ينزل عليها من السماء، مطرٌ عظيمُ القطر، دافقٌ، فَرَواها ونمّاها، حتى آتت ثمارها ضِعْفَيْ ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها الوابلُ ـ المطرُ الغزيرُ المدرار ـ فيكفيها الطلُّ، وهو المطر الخفيف الصغير القطر، لكرم منبتها، وجودة هوائها[1].

وما أبدع هذا الوصف؟ وأجمل هذا المثال!؟

الإبداع في ذكر الإعصار الذي فيه النارُ

٩ ـ ثم يأتي المثلُ التاسعُ، في تصوير مشهد مفزِع، يضيع فيه عمل الإنسان، مع ضياع ماله، فيقول سبحانه: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

تأمّلْ هذا المثلَ البديع، الذي أثاره هذا المشهد العجيب، بهذا البيان

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١٨٤.

الرائع، مشهدِ رجلٍ غنيٍّ، أفاضَ اللهُ عليه النِّعم، ووسّعَ عليه الرِّزق، له بستان حوى جميعَ أنواعِ النخيل والأعناب، والفواكه والثمار، تحفُّ به من جوانبه الأنهار، كلُّ غلّته وثروتِهِ من هذا البستان، يُنفق منه على نفسه وأولاده، ما يكفيهم ويغنيهم، وقد أدركته الشيخوخة، وكبرت به السِنُّ، فلم يعد يستطيع العمل، وعنده أطفال صغار، وليس له أملٌ، إلّا في هذا البستان، الذي يخرج له الخير الخصيب، والرزق الدائم، وبينا هو في هذه الحالة، أحوجَ ما يكون إلى ثمر بستانه، إذْ جاءت ريحٌ عاصفةٌ مدمِّرةٌ، تصحبها نارٌ محرقة، فأحرقت الزرعَ والثَّمرَ، كم تكون حسرتُه عظيمة، ومصيبتُه جسيمة!؟

قال الحسن البصري رحمه الله: (هذا مثلٌ قلّ واللهِ من يعقِلُه!! شيخٌ كبير، ضَعُفَ جسمُه، ووهنَ عظمُه، وكثُر أولاده وصبيانُه، أحوجَ ما كان إلى جنّته ـ يعني بستانه ـ فجاءها إعصارٌ فيه نار فأحرقها، وإن أحدَكم واللهِ، أفقرَ ما يكون إلى عمله، إذا انقطعت عنه الدنيا)[1].

هذا المثل الذي ضربه القرآن، في غاية الحسن، ونهاية الكمال، كما يقول العلّامة النيسابوري: (ولا يخفى أن هذا المثلَ أبلغُ الأمثال، فإن الإنسان إذا كانت له حديقة ـ أي بستان ـ في غاية الجمال والكمال، وكان في غاية الاحتياج إلى المال، وقت الشيخوخة والكِبَر، مع وجود الأولاد والأطفال الصغار، فإذا أصبح وشاهدَ بستانه محترقاً، فكم يكون في قلبه من آلام الحسرة؟)[2]

وفي هذه الآية لونٌ من ألوان البديع، يسميه علماء البلاغة بـ(الاستقصاء) وهو أن يتناول المعنى من جميع جوانبه، حتى لا يترك فيه شيئاً يمكن أن يُقال، لأن العبارة أحاطت بجميع ما يخطر على البال، في مثل هذا المقام.

فانظر كيف استقصتِ الآيةُ المعنى، أتمَّ وأكملَ استقصاء، فبدأت بالأسلوب الاستفهامي الرائع ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾؟ أي هل يتمنى أحدكم مثل هذه الأمنية العجيبة ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي بستان مثمر، فيه من جميع الفواكه والأعناب والثمار ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يسقيه ماءُ النهر دون جهدٍ ولا تعب ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ له في هذا البستان، من جميع ما يخطر

---

(١) التفسير الواضح الميسّر صفحة /١٢٠/ للصابوني، نقلاً عن تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٢) غرائب القرآن للنيسابوري ٣/ ٥٣.

على البال، من أنواع الفواكه والثمار، واللفظُ هنا يفيد العمومَ والتنوُّعَ، كما يفيد الدوام والخلود، فلْنتصور أنواع الفواكه، من كل ما لذَّ وطاب، لا تنقطع ولا تفنى، فما من ثمرة يشتهيها الإنسان إلّا ويجدها ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ تقدمت به السنُّ، فكبر وضعف، وعجز عن العمل، وعن تدارك أسباب المعاش ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ وله أطفال صغار، لا قدرة لهم على الكسب، وكلُّ هذه القيود والأسباب، توحي بشدة الحاجة، وعِظَم الخطب، وهو في هذه الحالة من العجز والضعف، وشدة الحاجة الملحّة إلى ثمار بستانه، جاءه المصابُ والبلاءُ ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ والإعصار ما يكون من هبوب الرياح المدمِّرة، التي تقلعُ الشجرَ، وتتلف الثمرَ، ومع هذا الإعصار نارٌ، فكيف يكون حال هذا المسكين؟ بعد أن أتلف الإعصارُ الشجرَ، وأحرقَ الثمر؟ وهل هناك من مزيدٍ لبيان هذه الصورة المفجعة؟

هذا شأن من أغناه الله، ووسّع عليه الرزق، فبدلَ أن يشكر اللّهَ على فضله وإنعامه، عملَ بالمعاصي، فسلب الله عنه النعمةَ، وختم له بخاتمة السوء في آخر عمره، وحقاً إنه لمثلٌ عجيب، في غاية الحُسن، ونهاية الكمال.

روى الإمام البخاري في صحيحه: (أن عمر رضي الله عنه، سأل يوماً أصحابَ النبيّ ﷺ فقال لهم: فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...﴾ الآية. فقال بعضهم: اللّهُ أعلم!! فغضب عمر رضي الله عنه، وقال لهم: قولوا: نعلم، أو لا نعلم!!

فقال ابنُ عباس: ـ وكان حاضراً معهم وهو شاب ـ: يا أمير المؤمنين في نفسي منها شيء ـ أي لي في الآية فهم خاصٌ، لا أدري أصحيحٌ هو أم خطأ ـ فقال له عمر: يا ابنَ أخي، قلْ ولا تحقِرْ نفسَك!! فقالَ ابنُ عباس: ضُربتْ هذه الآيةُ مثلاً لعملٍ، قال عمر: أيُّ عمل!! قال: لرجلٍ غنيٍّ يعملُ بطاعة الله، ثم بُعث له الشيطانُ فعملَ بالمعاصي، حتى أغرقَ أعمالَه، أي دمّر أعماله الصالحة بمعاصي الله) رواه البخاري، فاستحسن ذلك منه عمر وارتضاه، رضي الله عنهم جميعاً، فالرياء يُبطل العملَ الصالح، والمعاصي تدمّر فعلَ الخير والإحسان، قال الشاعر:

أفسدْتَ بالمَنِّ مَا أسْديتَ مِنْ حَسَنٍ   ليسَ الكريمُ إذا أسْدَى بِمنَّانِ

الإبداع في التمثيل لآكل الربا

١٠ - وفي سورة البقرة آيةٌ كريمة، هي غايةٌ في الإبداع، والتصوير الفنيّ الرائع، الذي يفوق الخيالَ، في روعة الجمال، وهو ما مثّل به القرآن الكريم، لآكِلِ الربا، الذي يمتصُّ دماءَ الكادحين: بالشخص المصروع، الذي يتخبّطه الشيطان من الجنون، فهو يمشي ويسقط، ويترنّح في مشيته، ويَهْذي في كلامه، يقول جلّ ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ...﴾ [البقرة: ٢٧٥] والتمثيل هنا ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ [البقرة: ٢٧٥] تمثيلٌ لحال المرابين، الذين يمتصون دماء البشر، فقد صوّرهم القرآنُ، بهذا التصوير المرعب، صورة الممسوس، الذي أصابه مسٌّ من الجن، فتخبّط تخبُّطَ المجنون، فهذى في كلامه، وصُرع في مشيه، وأصبح فاقد الوعي والإحساس، ذلك لأن الربا أثقل بطونهم، فلم يستطيعوا المشيَ سويًّا.

قال سعيدُ بن جُبَيْر: تلك علامةُ أهل الربا يوم القيامة. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي ذلك العقاب لهم، بسبب أنهم قالوا: الربا مثلُ البيع، يكون بالتراضي، فلماذا يكون حراماً؟ فنظموه في سلك واحدٍ مع البيع، وقالوا: إن البيعَ إنما أُحِلَّ من أجل الكسب، وذلك في الربا متحقّقٌ، لإفضاء كلٍّ منهما إلى الربح، وما عرفوا أنهم بهذا الصَّنيع، يسرقون جهود الآخرين، ويمتصون دماءهم، ذاك العامل يتعب ويشقى، ليجمع الغلة، ويقوم بأَوَد أسرته، وهذا يسلب منه المالَ، دون جهدٍ أو تعب، ولهذا كذّبهم تعالى بقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي أحلَّ البيع لما فيه من تبادل المنافع، وحرّم الربا لما فيه من الأضرار الجسيمة، حيث يغدو الإنسانُ، كأنه وحشٌ مفترس، همُّه جمع المال، وامتصاص دماء الآخرين، أناس يعملون ويتعبون، وآخرون يجنون ثمرة المال، على برد الماء، وما يقال عن الربا: إنه تبادلُ منافع، كذبٌ صريح، فإنَّ من أعطى درهمين بدرهم، ضيّع درهماً، فلا يُقال: إن عِوَضه الإمهالُ، لأن الإمهالَ ليس مالاً، حتى يجعله عوضاً، والمالُ لا يتولّد بالإمهال، إنما الذي ينمّيه هو الجهدُ، والكدُّ، والتّعب.

ولمّا كان الربا يدمّر اقتصاد البلاد، جاء التحذير منه، والكفُّ عنه، في أعلى صور الوعيد والتهديد، وذلك بإعلان الحرب على المرابين، الحرب السافرة المدمِّرة، بكل ما تحمله معنى (الحرب) من ويلاتٍ، وبلايا، ونكبات،

فقال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] والله العليمُ الحكيمُ، لم يعلن الحرب على الزاني، ولا على السارق، ولا على شارب الخمر، ولا على قاطع الطريق، مع ضخامة تلك الجرائم، وقباحة أمرها، إنما أعلن الحرب على المرابين، إعلاناً صريحاً مكشوفاً، بقوله ﴿ فَأْذَنُوا ﴾ أي تحققوا وتيقنوا بحرب من الله ورسوله لكم، ويا له من وعيد شديد!؟

يقول شهيد الإسلام (سيد قطب): في كتابه الظلال، عند قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ... ﴾ الآية: (إن هذه الحملة المفزعة، والتصوير المرعب، ما كان لأيّ تهديدٍ، مهما بلغت شدَّتُه وقـوتُه، ليبلغ إلى الحسّ، ما تبلغُه هذه الصورةُ الحيّة المجسّمةُ، صورةُ الممسوس المصروع.. ولقد مضت معظمُ التفاسير، على أن المقصود بالقيام (في هذه الصورة المفزعة) هو القيامُ من القبور يوم البعث والنشور، ولكننا اليوم نراها واقعة على الأرض عملياً، على هذه البشرية الضالة، التي تتخبط كالممسوس في حكم النظام الربوي.

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم، هو عالم القلق والاضطراب، والخوف والفزع، والأمراض النفسيّة والعصبية، ذلك على الرغم من كل ما بلغته (الحضارة المادية)، وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي، إنه عالم الحروب الشاملة، والتهديد الدائم بالحروب المبيدة، وحرب الأعصاب والاضطرابات، التي لا تنفك ولا تنقطع عن البشر، هنا وهناك)[١].

وإنه لمعنى جديد، لما آلت آليه البشرية في عصرنا المنكود، المملوء بالظلم والطغيان، واستعباد الإنسان للإنسان، حيث يتقاتل البشر وينتحرون، على صخرة المادية، التي ورثّنا إياه هذا النظام الربوي المدمّر، فلا عجب أن نرى إعلان الحرب على المرابين ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وأن تلحق اللعنةُ كلَّ من ساهَمَ في نشر هذا الداء والوباء، ويلعن الرسولُ الكريمُ، كلَّ من ساعد أو أعان على هذا المنكر الفظيع المدمّر، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «لعنَ اللهُ آكلَ الربا، وموكلَه، وكاتبَه، وشاهديه، وقال: هم سواء»[٢].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٨٢ السيد قطب رحمه الله تعالى.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

أي كلُّهم متساوون في اللعنة، وغضب الجبار[1]، لأن البنك الذي يتعامل بالربا، إنما يقوم على أكتاف هؤلاء الموظفين، من مُدَراء، وكُتَّاب، ومحاسبين، والمتعاملين مع البنك بالطُّرق الربوية، والقاعدةُ الشرعية، هي: (أن كلَّ من أعانَ أحداً على معصية الله، شارك في الذنب والإثم) فافهم مغزَى الحديث الشريف.



[1] ظهر في هذا الزمان، من أفتى بتحليل فوائد البنوك، من علماء السوء، فباءوا بالخزي والعار، وغضب الجبار ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ [الزمر: ٦٠].

وانظر كتابنا المطبوع (صيحةُ النذير: جريمةُ الربا أعظمُ الجرائم الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية) ففيه الردُّ الحاسم، على دعاة التحليل لأخطر الجرائم، المدمرة للاقتصاد المالي العالمي.

الإبداع البياني في سورة آل عمران

١ ـ قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣] التعبيرُ بقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (كنايةٌ لطيفة) أي لما تقدّمه وسبقه من الكتب السماوية، فكنّى عن الكتب السابقة بقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لغاية الظهور والاشتهار، فكأنها معروضة بين يدي القرآن العظيم، آخر الكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى على الرسل الكرام.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] هذه استعارةٌ بديعة في غاية الحسن، فالآيات المحكمات ـ يعني الواضحات التي لا التباس فيها ولا غموض ـ هنّ أصلُ القرآن وعمودُه، فهي بمنزلة الأمّ لسائر الآيات، وكأن سائر القرآن يتبعها ويتعلّق بها، كما يتعلّقُ الولدُ بأمه عند اشتداد الفَزَع، والعربُ تسمي كلَّ أمرٍ جامع يكون مرجعاً (أُمّاً) يعني أصلاً، كتسميتهم مكة المكرمة (أمّ القرى) قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الشورى: ٧].

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [آل عمران: ١٩] التعبيرُ عن اليهود والنصارى بقوله: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي التوراة والإنجيل، لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم، فإن الاختلاف في الدِّين، مع العلم بالكتاب، في غاية القبح والشناعة.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] أطلق الجزءَ (الوجه) وأراد الكلَّ (كامل البدن) وهو (مجاز مرسل) من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أي استسلمتُ بكلّيتي لله رب العالمين.

قال الشوكاني: عبّر بالوجه عن سائر الذات، لكونه أشرفَ أعضاءِ الإنسان، وأجمعَها للحواس، أي أخلصتُ ذاتي للهِ عزَّ وجلَّ. اهـ تفسير الشوكاني ١/ ٤٠٤.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] البشارةُ تكون في الخير وبما يسرُّ، واستعمالها في الشرِّ (للسخرية والتهكم)، ويُسمَّى (الأسلوب التهكُّمي) وهو أسلوبٌ مشهور عند العرب، كقول القائل: «تحيَّةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ».

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧] الإيلاجُ: الإدخالُ، واستعير لزيادة النهار في الليل، وزيادة الليل في النهار، بحسب المطالع والمغارب، فما يُنقِصُه من الليل، يزيده في النهار، وبالعكس، ففي الآية (استعارة عجيبة بديعة) كأنَّ كلاًّ منهما يدخل في الآخر، فيأكلُ منه ما يشتهي.

٧ـ قولُه تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧] الحيُّ والميْتُ (استعارة) عن المؤمن للكافر، أي يُخرج تعالى المؤمنَ من الكافر، والكافرَ من المؤمن، شبَّه المؤمنَ بالحيِّ، والكافرَ بالميِّت، وهذا قولُ لبعض السلف، منهم (ابن عباس) رضي الله عنه، يشهد له قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ١٢٢] ومَثَلُه في الواقع (إبراهيم) عليه السلام مؤمنٌ وأبوه (آزرُ) كافر، و(نوحٌ) عليه السلام مؤمنٌ، وابنه (كنعان) كافر.

ورجَّح الإمام الطبري أن الآية على ظاهرها، أنه تعالى يخرج الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ من النُّطف الميتة، ويخرج النطفةَ الميتة من الإنسانِ الحيِّ، وكذلك يُخرج الحَبَّ من الزرع، والنخلة من النواة، والبيضة من الدجاجة، وبالعكس.

وقولُ ابن عباس أظهرُ، يؤيِّده ما رُوي (أن امرأةً دخلتْ على النبيِّ ﷺ، فقال: من هذه؟ قيل: إنها خالدة بنتُ الأسود، فقال: سبحانَ الذي يخرج الحيَّ من الميت) وكانت امرأةً صالحة، وكان أبوها كافراً، رواه الطبراني بإسنادٍ جيد. تفسير الشوكاني ١/ ٤٠٩.

٨ـ قولُه تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] شبَّهها في نموِّها وترعرعها بالزرع، الذي ينبت وينمو شيئاً فشيئاً، أي ربَّاها تربية كاملة، ونشَّأها تنشئة صالحة، بما يُصْلِح أمورَها وأحوالها، عبَّر عن ذلك بالنبات بطريق (الاستعارة التبعية) البديعة، كما ندعو لمن وُلد له غلام، فنقول: أنبته الله نباتاً حسناً، وأصلُ نباتاً: (إنباتاً) أي نما وترعرع بكامل الصحة والعافية.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] المنادي هو (جبريل) عليه السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا

﴿إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وإنما ورَدَ بلفظ الجمع (الملائكة) تعظيماً وتفخيماً لأمر جبريل، وهذا من (المجاز المرسل) من باب (إطلاق العام وإرادة الخاص) لأن جميع الملائكة لا يأتون للبشارة لها، والكلمةُ في الآية (كناية) عن البشارة بعيسى عليه السلام، لأنه خلق بأمر الله (كن) فكان.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] كنّى عن الجماع (بالمسّ) وهي من الكنايات البديعة المستحسنة، كما جاءت الكناية عنه أيضاً بالحرث، واللباس، والمباشرة، لأن القرآن العظيم، يتحاشى الألفاظ الصريحة، المتعلّقة بممارسة الجنس، وقد وضّحنا هذا في سورة البقرة صفحة (٣٧)، فارجع إليه هناك واللّهُ يرعاك!!

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ . . .﴾ [آل عمران: ٥٢] أي تحقّق كفرُهم عنده كأنه مدركٌ بالحِسّ، وأصلُ الإحساس: إدراكُ الشيء بإحدى الحواس الخمس، وقد استعير هنا للتحقق والعلم.

قال في البحر المحيط: في الآية (استعارةٌ لطيفة) إذِ الكفرُ ليس بمحسوس، وإنما يُعلم بالفطنة، فإطلاقُ الحسّ عليه استعارة. اهـ البحر المحيط ٢/ ٤٨٠.

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] المكرُ لا يُنسبُ إلى اللهِ عزّ وجلّ إلّا على وجه المقابلة، ويسميه علماء البيان (المشاكلة) وهي الاتفاق باللفظ مع الاختلاف بالمعنى، لأن أصل المكرِ: الخِداعُ، وإذا نُسب إلى الله ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أي جازاهم على مكرهم بطريقةٍ عجيبة، وهي أن الله ألقى شَبَه (عيسى) على الخبيث الخائن، الذي دلّ اليهود على مكان عيسى، ونجّى رسولَه من قتل اليهود له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] سمّاه مكراً بطريق المقابلة لمكرهم الخبيث.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ . . .﴾ [آل عمران: ٦٤] الكلمة هنا هي: الدعوةُ إلى الإيمان باللّه، وإفراده بالوحدانيّة، ففي الآية (مجازٌ مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكُلّ) كما نقول: تستمعون الآن إلى كلمةٍ من فضيلة الشيخ أو من معالي الوزير، ونريد بها المحاضرة الطويلة التي أعدّها للإلقاء، وقد جاء توضيحُ الكلمة في الآية الكريمة بقوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] ففي الآية (مجازٌ مرسلٌ) أطلق الجزء وأراد الكلَّ.

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] في الآية (إيجاز بالحذف) حُذف منه جملة ليس علينا إثم ولا ذنبٌ في (أكل أموال الأميِّين)، لدلالة السياق عليه، وقد استحلَّ اليهودُ أكلَ أموال العرب وغيرهم من الأمم، الذين ليسوا على دينهم، وهذا كذب وافتراء على اللَّه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

١٥ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] عبَّر عن نقض العهد مع اللَّه (بالشراء) على طريق (الاستعارة اللطيفة) واستعار لفظ الشراء للاستبدال، أي يستبدلون حُطَامَ الدنيا بالعهد الذي عاهدوا به ربهم على الإيمان به واتباع رسله، وأمثالُ هذا كثير في القرآن الكريم، وقد تقدَّم توضيحُ هذا في سورة البقرة.

١٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] كنايةٌ عن غضبه تعالى عليهم، لأنَّ من سخط على إنسان، أعرضَ عنه، ولم يلتفت إليه.

قال الزمخشري: هذا مجاز ـ أي كناية ـ عن الاستهانة بهم، والسُّخط عليهم، لأن من اعتدَّ بإنسان التفت إليه، وأعاره نظر عينيه. اهـ الكشاف ١/ ٩٠.

وقال الشوكاني: أي لا يكلِّمهم بما يسرُّهم، ولا ينظر إليهم نظرَ رحمة، بل يسخط عليهم ويعذِّبهم، بدليل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٧ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ . . .﴾[آل عمران: ١٠٣] (حبلُ اللَّه): القرآنُ العظيم، شبَّه القرآن بالحبل المتين، واستعار اسم المشبَّه به وهو (الحبلُ) للمشبَّه وهو (القرآن) على سبيل (الاستعارة التصريحية) والجامعُ بينهما هو النجاةُ من الهَلَكة، لأنَّ من سلك طريقاً صعباً، يخاف أن تنزلق رجلُه فيه، تمسَّك بحبلٍ مشدودِ الطرفين. ففي الآية (استعارة بديعة).

١٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا . . .﴾ [آل عمران: ١٠٣] شبَّهَ حالهم الذي كانوا عليه في الجاهلية، بحال من كان مشرفاً على حُفرة عميقة، وهُوَّة سحيقة، فنجَّاه اللَّه منها، ففي الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، والشَّفَا: الطَّرفُ.

والمعنى: كنتم على طرف حفرةٍ من جهنم، وكنتم مشرفين على الوقوع فيها بسبب الكفر، فأنقذكم الله ونجّاكم منها بالإسلام.

١٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] الرحمةُ صفةٌ من الصفات، لا يمكن أن يسكن ويستقرَّ بها الإنسان، والمراد بها هنا: الجنةُ، التي هي مكان تنزّل رحمة الله، ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق (الحالَّ وأراد به المحلَّ) لأن الخلود والإقامة إنما يكون في الجنة، وإنما عبّر بالرحمة دون لفظ الجنة، لينبّه المؤمنَ أنه مهما استغرق في طاعة الله وعبادته، لا يدخلُ الجنةَ، إلّا برحمته وفضله، كما قال سيد البشر ﷺ: «لن يُدْخِلَ أحدَكُم عملُه الجنةَ: قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله!! قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمّدني اللهُ برحمةٍ منه وفضل» رواه البخاري ومسلم.

٢٠ ـ قولُه تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] شبّه الذُّلَّ بالقبة أو بالخباء ـ أعني الخيمة ـ الذي ضُرب على اليهود، فأحاط بهم من كل جانب، على طريق (الاستعارة التمثيلية) وقد تقدّم توضيحُها في سورة البقرة. والمرادُ بالحبل من الله: عهدُ الذمة الذي يعطيه لهم المؤمنون، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ هو نُصرةُ أهل الكفر لهم (كأمريكا) التي تحتضن عُصبة الصهاينة المجرمين (وأوربّا) التي قذفت باليهود إلى ديار المسلمين.!

٢١ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ...﴾ [آل عمران: ١١٨] في الآية (استعارة بديعة) شبّه خواصَّ الرجل المقرَّبين، الذين يبوح لهم بسرّه، ببطانة الثوب، التي تكون داخله، لأنهم يلازمونه ملازمة الثوب اللاصق بجسد الإنسان، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي استعارة لطيفة في غاية الإبداع والجمال، أي لا تتخذوا الكفار أصدقاء، تودُّونهم وتحبونهم، وتُطلعونهم على أسراركم، وهم لكم أعداءُ ألِدّاءُ.

قال الشاعر:

وهُمْ خُلَصَائي كُلُّهُمْ وَبِطَانَتي وَهُمْ عَيْبَتي مِنْ دُونِ كُلِّ قَرِيبِ

٢٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] عضُّ الأناملِ عادةُ الشخص النادم، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فيعضُّ على أصابعه تحسُّراً وأسىً، وهو (كناية) عن شدة الغيظ والحنَق على المسلمين.

٢٣ ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

الانقلابُ على الأعقاب معناه: الارتدادُ عن الدين، ففي الآية (استعارة تمثيلية) شبَّه من يرجع عن دينه، بمن يمشي إلى الخلف القهقرى، ومن يرجع إلى الارتياب، بالراجع على الأعقاب، وهو تصوير فنيٌّ بديع، بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢٤ ـ **قولُه تعالى:** ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١٦٢] هذا من (الاستعارة البديعة) جعل سبحانه ما شرعه لعباده من الأوامر والنواهي، كالدليل الذي يرشد من يتْبعه إلى الصراط المستقيم، وجعل العاصي الذي ينتهك محارم الله، كالمعرض عن هداية الله، يرجع بالخزي والعار، وغضب الجبار، والمرادُ بمن ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ المؤمن، وبمن ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ المنافق، أعاذنا اللهُ من النفاق، وسَخَطِ الخلّاق.!

٢٥ ـ **قولُه تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٧] وضعَ لفظ ﴿اشْتَرَوُا﴾ موضعَ لفظِ «استبدلوا» أي أخذوا الكفر بدلاً عن الإيمان، ففي الآية (استعارة تصريحية) وقد تقدم أمثالها في سورة البقرة.

٢٦ ـ **قولُه تعالى:** ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استعار لفظ (الخبيث) للكافر الفاجر، ولفظ (الطيِّب) للمؤمن الصالح، وهي (استعارة بديعة) لطيفة بطريقة التمثيل، أي ليُفرِّق بين أهل الإيمان، وبين أهل الكفر والطغيان.

٢٧ ـ **قولُه تعالى:** ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١] في الآية مجاز لطيف يسمى (المجاز المرسل) أي نأمر ملائكتنا الحفظة، بكتابة أقوالهم الشنيعة، ونجازيهم عليها، أسندَ الكتابة إليه، لأنه تعالى هو الآمر بها، وهذا (الإسناد مجازيٌّ) كقولهم: بنى الأميرُ البلدة أي أمر ببنائها.

٢٨ ـ **قولُه تعالى:** ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ...﴾ [آل عمران: ١٩٤] في الآية (إيجازٌ بالحذف) أي ما وعدتنا به على ألسنة رسلك، لأن الرسل هم الذين وعدوا بالجنة لمن أطاع الله، وهم مبلِّغون عن الله أوامرهُ وأحكامه.

٢٩ ـ **قولُه تعالى:** ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] استعير لفظ (التقلب) للسفر والضرب في الأرض، من أجل المكاسب الدنيوية، وهي (استعارة بديعة) أي لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السَّعة، وبسط العيش،

ولا تغترّ بظاهر حالهم في أسفارهم؛ للتجارة والكسب، فهو متاعٌ قليل يتمتّعون به في هذه الدار، ثم مصيرُهم إلى جهنم.

روي أن بعض المؤمنين، كانوا يرون المشركين في سَعَة ورخاء، ولين عيش، فيقولون: إن أعداء اللّهِ فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، والجوع، والبلاء!! فنزلت الآية تنبيهاً للمؤمنين، لئلا ينخدعوا بما عليه الكفار، من سعة الحال، فإنه متاعٌ قليلٌ زائل، ثم مصيرهم إلى نار الجحيم.



الأمثال في سورة آل عمران

وفي سورة آل عمران، ذكر تبارك وتعالى مثلاً بديعاً، من الأمثال الواقعية، في حياة البشر، بقصد العِظَةِ والاعتبار، ضرب مثلاً من أروع الأمثلة للكفار، في ضياع أعمالهم الصالحة، وتبدُّدِ آمالِهم، التي كانوا يؤمّلونها، فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

بدأ الآيةَ الكريمةَ، بالتذكير لهم بسوء المنقلب والمصير، أي لن تفيدهم الأموالُ التي جمعوها، وتهالكوا على اقتنائها، ولا الأولادُ الذين تفانوا في حُبّهم، لن تنفعهم في الآخرة شيئاً، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، وهم مخلَّدون في نار جهنم.

لقد جمعوا في هذه الحياة الثروةَ والمال، واغترُّوا بكثرة البنين والأولاد، وكانوا يتعزَّزون بذلك، ويقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] ولكن هيهات أن ينفع المالُ والولد، أو يُفيد الجاهُ والحسب، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

١ ـ **المثل الأول**: ثم جاءَ المثلُ البديعُ، في ضياع أعمالهم، وتبدُّد آمالهم، فيقول سبحانه: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

لقد مثَّل الباري جلَّ وعلا، لأعمالهم الصالحة، وما أنفقوه في هذه الحياة الدنيا ـ بقصد الثناء وحُسن الذكر ـ بقوم زرعُوا أرضَهم، وتعبوا في ذلك الزرع، حتى إذا نما الزرعُ واشتدَّ، وأصبح صالحاً للحصاد، أرسل الله عليه ريحاً عاصفةً مدمِّرة، فيها صِرٌّ أي بردٌ شديد، وصوتٌ مخيف، فأهلكت الحرثَ والزرعَ، ودمَّرت الشجرَ والثمرَ، فلم تترك لهم شيئاً ينتفعون به، كذلك الكفارُ يوم القيامة، يمحقُ اللّهُ أعمالهم الصالحة، كما تُذهب الريحُ العاصفةُ، الشديدةُ البردِ، ثمارَ ونباتَ هذا الزرع، بذنوب أصحابها.

والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يوحي بالسبب، فما كان الله ليتلف زرعهم، ويدمّر ما أفنوا فيه أعمارهم، بدون موجبٍ أو سبب، إنما هو نتيجةُ إجرامهم وطغيانهم، وثمرةُ بغيهم وعدوانهم، ولهذا عقّب الآية الكريمة بقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي ما ظلمهم الله بإهلاك زروعهم وثمارهم، وضياع أموالهم وجهودهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب أنواع الجرائم، التي منها معاداة دين الله، وتكذيب رسله، فاستحقوا ذلك العقاب الشديد.

مَثلٌ من صور البطولة والفداء

٢ ـ المثل الثاني: وفي هذه السورة الكريمة، صورةٌ رائعة من صور البطولة والفداء، أبلغُ من كل مَثل يمكن أن يُعرض على الأذهان، ويحسُّ ويشعر به كلُّ إنسان، فلقد صوّر القرآنُ (غزوةَ أُحد) وكأنها رأيُ عين، وصوّر حالة المسلمين، وهم يولّون الأدبار، ممعنين في الهزيمة والفرار، أمام جحافل المشركين، وجاءتهم الهزيمةُ بعد النصر، بسبب مخالفتهم أمرَ الرسول ﷺ، وكانت هذه الهزيمة درساً للمسلمين لا يُنسى، وفي أعقاب هذه المعركة، جاء التصوير لأحداث هذه الغزوة، في آيات بينات، تَفيضُ روعةً وجمالاً، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي وفّى لكم ما وعدكم به، من النصر على عدوكم، فانتصرتم عليهم وهزمتموهم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي حين كنتم تحصدونهم بسيوفكم، وتقتلونهم قتلاً ذريعاً، بإرادة الله وحكمه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي وعصيتم أمر الرسول ﷺ، من بعد أن كان النصر حليفكم انتكستم وانهزمتم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] منكم من يرغب في الغنائم، ومنكم من يريد الشهادة في سبيل الله ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي ردّكم عن الكفار بالهزيمة التي أصابتكم، ليمتحنكم ويمتحن إيمانكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] صفح عنكم مع عصيانكم، تفضلاً منه وكرماً، والله ذو فضل عظيم على عباده المؤمنين، ولذلك لم يعاقبكم.

رُوي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة في (غزوة أُحد) فوق الجبل، وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين، وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير! فلما التقى الجيشان لم تَقْوَ خيلُ المشركين على الثبات، بسبب سهام المسلمين، فانهزم المشركون وولّوا الأدبار. فلما رأى الرماةُ ذلك قالوا: الغنيمة، الغنيمة، ونزلوا لجمع الغنائم، وتركوا الجبل، فنصحهم رئيسهم فلم يلتفتوا لقوله، وثبتَ مع عشرةٍ من أصحابه، فجاءهم المشركون من وراء الجبل، فقتلوا البقيّة من الرماة، ونزلوا على المسلمين بسيوفهم، من خلف ظهورهم، يحصدونهم حصداً، وانقلب النصرُ إلى هزيمة للمسلمين، بسبب مخالفتهم أمر الرسول ﷺ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ أي بعد انتصاركم عليهم، والظفر بالغنائم.

ثم يأتي التصوير للمعركة، والتمثيلُ لها بأجلى صور الإبداع والبيان، وكأنها رأيُ عين، تصوِّر حالة المسلمين وهم يولون الأدبار، أمام المشركين، فيقول سبحانه: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٣] أي اذكروا يا معشر المسلمين، حين كنتم تولّون الأدبار، وأنتم تُمعنون في الفرار، أمام أعدائكم الكفار، صاعدين في الجبال هرباً، لا يلتفتُ أحد إلى أحد، من شدة الخوف والفزع، ومحمد رسولُ الله ﷺ يدعوكم، ويناديكم من ورائكم وهو يقول: (إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، أنا رسولُ الله، من يكرُّ على الأعداء فله الجنة)!! وأنتم تمعنون في الفرار ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] أي جازاكم على صنيعكم غمّاً بسبب غمّكم للرسول عليه الصلاة والسلام، ومخالفتكم أمره، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، ولا ما أصابكم من الهزيمة، والله سبحانه وحده هو الذي يعلم المخلص الصادق، من الخائن المنافق.

شجاعةٌ وبسالةٌ لأنس بنِ النَّضْر

وفي هذه الغزوة تجلّتْ شجاعة المؤمنين الأبطال، في دفاعهم عن رسول الله ﷺ، في الوقت الذي أشاع فيه المشركون أن محمداً ﷺ قد قُتل، وكان فيمن ثبتوا في المعركة، وقدّموا أرواحهم فداءً له ﷺ الأسد المغوار (أنس بنُ النضر) عمُّ أنس بن مالك رضي الله عنهما، فلما هُزم المسلمون في

غزوة أحد، وأشاع المنافقون أن محمداً قد قُتل، **قال أنس بن النضر**: (اللهمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني الرماة الذين تركوا الجبل وتسببوا في الهزيمة ـ وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء)! ـ يعني المشركين ـ ثم تقدّم شاهراً سيفه نحو أعداء الله، فلقيَهُ أحدُ الصحابة (سعدُ بنُ مُعَاذ) فناداه: أين يا سعدُ؟ والله إني لأجدُ ريحَ الجنةِ، من دون أحد، ثم اخترقَ صفوفَ المشركينَ بشجاعةٍ وبَسالة، فقتَل منهم عدداً كبيراً ثم استُشهد رضي اللهُ عنه، فمثَّل به المشركون تمثيلاً شنيعاً، فلم يعرفْهُ أحدٌ من الصحابة، بعد انتهاء المعركة، إلّا أختُه عرفته من بنانه ـ أي رؤوس أصابعه ـ فوجدوه وبه بضعٌ وثمانون جراحةً، ما بين ضربةٍ بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم(١).

قال أنسُ بن مالك: ففيه نزلت هذه الآية الكريمة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

استشهاد سبعةٍ من الصحابة

وروى الحافظ ابن كثير: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إنَّ النساءَ كنَّ يوم أُحد خلفَ الرجال، يُجْهِزْنَ على قتلى المشركين، ولو حلفتُ يومئذٍ لرجوتُ أن أبرَّ بيميني ـ أي لا أحنث فيه ـ أنْ ليس أحدٌ منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فلمَّا خالفَ أصحابُ رسولِ اللهِ، وعصوا ما أُمروا به، أُفرد الرسولُ في تسعةٍ من الرجال أنا عاشرُهم، فلما أرهقه المشركون بالنبال، قال: رحمَ اللهُ رجلاً ردَّهم عنَّا، فقام رجلٌ من الأنصار، فقاتل ساعةً حتى قُتل، فلم يزل رسولُ الله ﷺ يقول ذلك، حتى قُتِل سبعةٌ منهم، من ضمنهم (حمزةُ) عمُّ النبيِّ ﷺ، فنظروا فإذا حمزةُ قد بُقِرَ بطنُه، فأخذَتْ هندٌ كبدَهُ فلاكَتْها ـ من شدة غيظها منه ـ فلم تستطع أن تبتلعها، وحزن عليه رسولُ الله ﷺ حزناً شديداً، وصلّى عليه يومئذٍ سبعين صلاة)(٢).

بأمثال هؤلاء الشجعان، عاد النصر للمسلمين بعد الهزيمة، فلا عجب أن يصوِّر القرآن هذه المعركة بهذه الصورة الرائعة من التضحية والفداء، وبهذا

---

(١) انظر قصته في جامع البيان للطبري ٢٠/ ٨٥ ورواه مسلم وأحمد والترمذي.
(٢) أخرجه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير

التمثيل البديع، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].



الإبداع البياني في سورة النساء

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ [النساء: ٢] ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ ﴾ (مجاز مرسلٌ) أي الذين كانوا يتامى، ادفعوا إليهم أموالهم، فهو باعتبار ما كان، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء: ١٠] (مجاز مرسل) باعتبار ما يئول إليه. وفي قوله: ﴿ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ استعارة بديعة عن (الحرام) و(الحلال)، أي لا تستبدلوا الحرامَ من أموالهم، بالحلال الطيب من أموالكم.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ ﴾ [النساء: ١٥] في الآية (مجازٌ عقلي) أسند التوفّي إلى الموت، والمراد تتوفّاهن الملائكةُ، أو يتوفاهنَّ اللّهُ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] فهو إسنادٌ مجازي يُدرك بالعقل.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٢١] في الآية (كناية لطيفة) كنّى تعالى عن (الجماع) بلفظ (الإفضاء) لتعليم المؤمنين الأدبَ الرفيع، أن يستعملوا الكنايات في الأمور المستهجنة.

قال ابن عباس: الإفضاءُ في هذه الآية: الجماعُ، ولكنَّ اللّه عظيمٌ، كريم، يكني. اهـ تفسير القرطبي ٥/١٠٢.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي، الذي أمر به اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ [النساء: ٢٥] وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في حجّة الوداع، بقوله: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمانة اللّه، واستحللتم فروجهنّ بكلمة اللّه» رواه مسلم.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ... ﴾ الآية [النساء: ٢٣] ليس المراد بتحريم الأمهات والبنات تحريم ذواتهن، بل تحريم نكاحهن، فالآية على حذف مضاف، ويسمى هذا (المجاز المرسل) أي حُرِّم

عليكم نكاحُ الأمهات، والبنات، والأخوات، والخالات.. إلخ.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [النساء: ٢٣] معنى الدخول بهن: إدخالهنَّ السِّترَ، وهي (كنايةٌ) عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضربَ عليها الحجابَ، وتغشَّاها، كلُّها من ألفاظ الكناية، التي يُستحبُّ استعمالُها، عوضاً عن الألفاظ الصريحة، المتعلِّقة بمعاشرة النساء، ولا نجد في القرآن الكريم لفظاً نابياً من غير الكناية.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [النساء: ٢٤] استعار لفظَ (الأجور) للمهور، لأن المهر يشبه الأجر في الصورة، ففي الآية (استعارة تصريحية) بديعة، والمعنى: فما انتفعتم وتلذَّذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي، فادفعوا لهنَّ مهورهنَّ ولا يراد به (نكاح المتعة) لأن الآيةَ وردتْ في النكاح الذي أحلَّه اللّٰه، بعد ذكر المحرَّمات من النساء، وأمَّا نكاحُ المتعة فباطلٌ باتفاق أهل السُّنَّةِ والجماعة، ولو كان يُراد به المتعةُ، لكان اللفظُ (فما نكحتموهنَّ لمتعة) ومن شروط النكاح الشرعي الدوامُ والاستمرارُ، لا النكاح المؤقَّتُ بسنةٍ، أو شهرٍ، أو أسبوعٍ، فإنه يتنافى مع مقاصد الإسلام السامية، فتدبَّرْ هذا واللّٰهُ يرعاك.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢] شبَّه تعالى استحقاق الرجال والنساء للميراث وتملُّكهم له (بالاكتساب)، واشتقَّ من لفظ الاكتساب ﴿ ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ على طريق (الاستعارة التبعية) أي لكلٍّ من الرجال والنساء، نصيبٌ في الميراث، بسبب القرابة، أو النكاح، فرضه اللّٰه لهم.

عن أم سلمة قالت: قلتُ يا رسولَ اللّٰه: يغزو الرجالُ، ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصفُ الميراث؟ فأنزل اللّٰه تعالى هذه الآية: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ... ﴾ [النساء: ٣٢] الآية، رواه الترمذي في كتاب التفسير رقم/ ٣٠٢٢/.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء: ٣٤] كنَّى بالهجر في المضاجع عن الجماع، قال ابن عباس: (الهجر في المضاجع هو أن لا يجامعها، ويضاجعها على فراشها، ويولِّيها ظهرَه) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤.

وهذه كنايةٌ لطيفة، من الكنايات التي تتعلق بالحياة الزوجية، والمعاشرة الجنسية.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] أصلُ الغائطُ: المكانُ المنخفضُ من الأرض، والمجيء منه (كنايةٌ) عن الحَدَث، لأن المعتادَ أن من يريد قضاء الحاجة، أنه يذهب إلى الأرض المنخفضة، ليواري شخصه عن عيون الناس، وملامسةُ النساءِ (كنايةٌ عن الجماع) ولفظُ اللمس، والمسّ، وردا في القرآن بمعنى (الجماع)، وهذه كلُّها من الكنايات المستحسنة في الشريعة الغراء، وهو ما دعانا وأرشدنا إليه الكتابُ العزيز.

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] اشتراء الضلالة (استعارة لطيفة) لأنها في صورة المبادلة المالية، حيث أخذوا الضلالة، ودفعوا الثمن وهو الإيمان، فكانت الخسارةُ فادحةً، والمراد بالسبيل: الطريقُ المستقيم وهو الإسلام، كنّى عنه بالسبيل، لأنه طريق النجاة، وهي (كناية لطيفة) من أبدع أنواع الكنايات!!

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء: ٤٦] في الكلام (إيجاز بالحذف) أي سمعنا قولَك، وعصينا أمرَك، وهذا أبلغ في الكفر والعناد، وقولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أصلُه دعاء بالخير أي لا سمعتَ مكروهاً، ولكنَّ اليهود الخبثاء، كانوا يقصدون به الدعاة على الرسول ﷺ، أي لا أسمعَكَ اللهُ، وهو دعاءٌ عليه بالصَمَم، أو دعاءٌ عليه بالموت.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦] أصلُ الليّ: فتلُ الحبل، واستُعير للكلام الذي يُقصد به غيرُ ظاهره، كأنه يفتل الكلام فتلاً، ليخرجه عن حقيقته إلى مقصده الخبيث، ولهذا قال: ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ روي أن اليهود دخلوا على رسولِ الله ﷺ فقالوا: السّامُ عليك يا محمدا! أي الموتُ عليك، وأظهروا أنهم يريدون السلام عليه، وكانوا يقولون: لو كان محمدٌ نبيًّا حقًّا، لأخبرَ بما قلنا له!! فأظهره اللهُ على خُبث ضمائرهم، وما يحملون في صدورهم من الحقد والبغضاء، فكان ذلك دلالةً واضحة على صدق نبوّته عليه الصلاة والسلام، لأن الإخبار عن الغيب من المعجزات الواضحة.

١٤ ـ قولُه تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧]

(كنايةٌ) لطيفة عن إذهاب الحواسّ، من عينٍ، وأنف، وحاجب، حتى تصبح كخفِّ البعير، وحافر الدابة، هذا خلاصةُ قولِ ابن عباس، كنّى عن طمس الحواسّ بالردِّ على الأدبار.

١٥ ـ قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤] المرادُ بالناس محمد ﷺ، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (ذكر العامّ وإرادةِ الخاصّ) تعظيماً لشأن الرسول ﷺ، الذي جُمعت فيه كمالاتُ الأولين والآخرين.

كانَ اليهود يطمعون أن يكون خاتمُ الأنبياء منهم، فلما خصّ اللهُ محمداً ﷺ بختم النبوة، وهو من العرب، ولم يبعثه من بني إسرائيل، حسدوه وكذّبوا بنبوته.

قال ابنِ عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوّة، وحسدوا أصحابه على الإيمان.

١٦ ـ قولُه تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . .﴾ [النساء: ٦٥] في الآية (استعارة بديعة) شبّه ما يحدث بينهم من الخلاف والمنازعات، باشتباك أغصان الأشجار، وتداخلِ بعضها ببعض، وهي استعارةٌ للمعقول بالمحسوس، تشبيهاً للتنازع الذي يدخل به بعضُ الكلام في بعض، باشتباك الأشجار وتداخل بعضها ببعض، وهي من لطيف أنواع الاستعارة.

١٧ ـ قولُه تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، أي يبيعون الحياة الفانية، بالحياة الخالدة الباقية، واستعار لفظ الشراء للمبادلة، وهذا من لطيف الاستعارة.

١٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ . . .﴾ [النساء: ٩٢] أطلق الرقبة وأراد (إعتاقَ العبد) المملوك، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) ويسمى عند علماء البيان (المجاز المرسل)، أي فعليه عتقُ عبدٍ مؤمن مملوك، ويشترط في العبد الإيمانُ، لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ والحكمةُ في هذا أنه لمّا أزهقَ روحَ نفسٍ مؤمنة خطأً، لزمه أن يُدخل نفساً مِثلَها في جملة الأحرار، فإن إطلاقها من قيد الرقّ إحياءٌ لها.

١٩ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤] استعار لفظ (الضرب) للجهاد في سبيل الله، واستعار لفظ

(السبيل) لدين الله عزّ وجلّ، ففي الآية استعارةٌ من وجهين: استعارة (الضرب) للجهاد، واستعارةُ (السبيل) لدين الإسلام.

والمعنى: إذا خرجتم للجهاد في سبيل الله، نصرةً لدين الله عزّ وجلّ، فتثبتوا ولا تتعجلوا في القتل، حتى يظهر لكم المؤمن المسالم، من الكافر المقاتل، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤].

٢٠ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ...﴾ [النساء: ٩٧] أطلق الجمعَ وأراد الواحدَ ﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يراد به (مَلَكُ الموتِ) وذُكر بصيغةِ الجمع (الملائكة) تفخيماً له، وتعظيماً لمكانته، ويدلُّ عليه قولُه سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

٢١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥] إسلامُ الوجه: الاستسلامُ الكاملُ والانقيادُ التامُّ، لأمر الله عزّ وجلّ وحكمِه، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) فيه (مجاز مرسل) أي جعل نفسه وذاته سالمةً خالصةً لله تعالى، لا سبيل لأحدٍ عليها.

٢٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ...﴾ [النساء: ١٢٨] تصويرٌ فنيٌ بديع، كأن الشُّحَّ ـ وهو البخلُ الشديدُ ـ كان غائباً عن البشر، فحضَرَ كلَّ نفسٍ، وجعَلَها مطبوعةً عليه، لا تنفكُّ عنه أبداً، ولمّا كان الشُّحُّ غير مفارقٍ للأنفس، ولا متباعدٍ عنها، كان كأنه أحضرها ولازَمَها من غير فراق، فاستعارَ الإحضارَ للملازمة، وهي (استعارة) لطيفةٌ بديعة.

٢٣ ـ قولُه تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] الأسلوبُ هنا أسلوبُ (سخريةٍ وتهكُم) حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار، لأن البشارة تكون بالخير، لا بالشرّ، واستعمالُها للشرّ للسخرية والتهكُّم.

٢٤ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] استعار اسمَ الخداع للمجازاة على العمل، والله تعالى منزّه عن الخداع، لا يُخدع، أي يفعلون ما يفعل المخادع، فيظهرون الإيمان، ويضمرون الكفر. ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أي فاعلٌ بهم ما يفعله الغالب في الخداع، حيث تركهم في الدنيا معصومي الدماء، وأعدّ لهم في الآخرة الدركَ الأسفلَ من النار، سمّى

جزاءهم (خداعاً) على وجه المقابلة، ويسميها علماء البلاغة (المشاكلة) أي توافق اللفظ، مع اختلاف المعنى، كقول العرب: ظَلَمني فظلمتُه، أي: جازيتُه على ظلمه بما يستحقُّه من العقاب.!

٢٥ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] الدَّركُ كالدَّرج، إلّا أنّ الفارق بينهما، أن الدَّرك يُقال باعتبار الهبوط، والدَّرج باعتبار الصعود، فالدرك الطبقةُ التي في قعر جهنم، وإنما كان عذابُهم أشدَّ من الكفار، لأنهم أخبث الكَفَرة، إذ ضمُّوا إلى الكفر استهزاءً بالرسول والإسلام، وخداعاً للمسلمين، وتدبّر هذه الآيات، وانظر بعين العظة والاعتبار، إلى حال أولئك المنافقين الأشرار، فقد شرط تعالى للتوبة على الكفار شرطاً واحداً، وهو الانتهاءُ عن الكفر ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وأمّا المنافقون، فقد شرط للتوبة عليهم أربعة شروط، وهي (التوبة الصادقة، وإصلاح ما فسَدَ من العمل، والاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله) فقال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦] ومع كل هذه الشروط فقد جَعَلهم تعالى في ضمن المؤمنين تبعاً، ولم يقل: هم المؤمنون، وجعل الأجر لأهل الإيمان دونهم، للتنبيه على عظم جريمة النفاق والمنافقين، فتدبر أسرار الكتاب العزيز.

٢٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥] لم يقتلوا جميع الأنبياء، وإنما قتلوا بعضهم، ففي الآية (إطلاق الكل وإرادة البعض) وهذا من (المجاز المرسل) وإنَّما ذكره بالتعميم، لبيان فظاعة جريمتهم الشنيعة، فإن من سَفَك دمَ نبيٍّ، فكأنما سفك دماء الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

٢٧ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] ﴿غُلْفٌ﴾ أي مغشّاةٌ بأغشية كثيفة، لا تفهم ما تقوله يا محمد، بل ختم الله عليها بسبب كفرهم، استعار (الغلافَ) بمعنى (الغطاء) لعدم الفهم والإدراك، يقولون: قلوبنا في أغطية، لا تفقه ما تقول يا محمد!! أرادوا أنه لا يصل إليها شيء من الذكر، والمعرفة، على طريقة (الاستعارة التمثيلية).

٢٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]

أي قول اليهود نحن قتلنا المسيحَ عيسى بن مريم، قالوه على سبيل (التهكُّم والاستهزاء) لأنهم لا يؤمنون برسالته، فوصفُهم له بعنوان الرسالة (سخريةٌ وتهكُّمٌ)، كقول المشركين لرسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] مع أنهم لا يؤمنون بالقرآن، كأنهم يقولون: أنتَ الذي تدّعي أن الله أنزل عليك القرآن، حقاً إنك مجنون!! قاتلَهم اللهُ أنّى يؤفكون.

٢٩ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] اللفظ عامٌ يشمل (اليهود والنصارى) ويراد به الخصوصُ (النصارى) فهو من باب (إطلاق العام وإرادة الخاص) تشنيعاً على النصارى، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ وهذه مقالة النصارى خاصة، ففي الآية (مجاز مرسل) كما هو معروف عند علماء البيان.

٣٠ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] في الآية (إيجازٌ بالحذف) أي لا تقولوا الآلهة ثلاثةٌ (الأب، والابن، وروح القدس) وهي التي يعبِّر عنها النصارى بالأقانيم الثلاثة، وهي المعروفة بعقيدة (التثليث)، حُذف من الآية لفظ (الإله) أي الإلهُ ثلاثة، ويسمى (حذف الإيجاز).

٣١ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] الكلمةُ في الآية ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾ أي عيسى مكوَّنٌ بكلمته تعالى وأمرِه، الذي هو (كُنْ) من غير واسطة الأب، ولا واسطة النطفة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقولُه سبحانه: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كناية لطيفة عن النفخة التي نفخ بها (جبريل) في مريم فحملت بعيسى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ و(من) ابتدائية لا تبعيضية كما زعمت النصارى، أي روحٌ مبتدأةٌ من الله سبحانه وتعالى.

يحكى أن طبيباً نصرانياً ناظر الإمامَ الواقديَّ ذات يوم، أمامَ الخليفة (هارون الرشيد) فقال له النصراني: إنَّ في كتابكم ما يدلُّ على أن عيسى ابنُ الله، وجزءٌ منه تعالى، وتلا هذه الآية ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (مِنْ) للتبعيض، فهذه شهادةٌ من القرآن على أن عيسى ابن الله، فضحك الواقديُّ، وتلا قولَ الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال له: يجب على فهمكَ السقيم، أن يكون ما في السموات وما في الأرض بعضاً من

الله، لأن الله يقول ﴿ جِنَّـٰبِنَةٍ ﴾ فانقطع النصرانيُّ وأسلم، وفرِحَ الرشيد فرحاً شديداً، ووصلَ الواقدي بصلةٍ عظيمة. فمن هنا للابتداء، لا للتبعيض، أي روحٌ مبتدأةٌ من الله تعالى (بالنفخة) التي نفخ بها جبريل، وأضافها تعالى إلى نفسه تشريفاً، لأنها كانت بأمره وتقديره! اهـ تفسير القرطبي ٦/١٨.

٣٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ... ﴾ [النساء: ١٧٥] الرحمةُ صفةٌ من الصفات، لا يمكن أن يدخل فيها الإنسان، ويُراد بها (الجنة) التي هي موضعُ تنزُّل الرحمة، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الصفة وإرادة الموصوف) أي سيدخلهم في جنته، دار الرحمة والرضوان، والنعيم الدائم المقيم.

٣٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٧٦] في الآية (مجاز بالحذف) أي يبيِّنُ الله لكم الأحكام والشرائع، لئلا تضلوا، وخشية أن تضلُّوا، وليس المعنى: لنضلَّ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة المائدة

١ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ . . .﴾ [المائدة: ٢] الشعائر: جمع شعيرة ومعناها في اللغة: العلامةُ، وهي (استعارة لطيفة) استعار الشعيرة وهي العلامة، للأحكام والتكاليف التي تعبَّد الله بها عباده، من الحلال والحرام، أي لا تستحلُّوا حرمات اللّهِ، ولا تتعدَّوا شرائعه التي شرعها لكم، ففي الآية (استعارةٌ تصريحية) قال الحسن: يعني شرائعه التي حدَّها لعباده.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: ٢] الآيةُ على حذف مضاف، أي ولا تستحلوا قتالَ القاصدين إلى بيت اللّه الحرام، لحج أو عمرة، ففي الآية الكريمة (مجازٌ بالحذف) نَهَى تعالى عن الإغارة عليهم كما كان أهلُ الجاهلية يفعلون.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣] التحريمُ والتحليلُ إنما يتعلقان بالأفعال، دون الأعيان والذوات، أي حُرِّم عليكم أكلُ الميتة والدم، ففي الآية (حذفٌ بالإيجاز) وإنما ذُكر لحم الخنزير، ولم يقل: والخنزير، لبيان أنه حرامٌ بعينه، حتى ولو ذُبح بالطريق الشرعي ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي ما ذُبح لغير اللّه، أو ذُكر عليه اسمُ غير اللّه، كقول أهل الجاهلية: بِاسْم اللاتِ والعُزّى، أو بِاسْم الملِكِ، أو رئيس الجمهورية.

والمعنى: ما ذُبح لغير اللّه، أو سُمي عليه اسم غير اللّه، فكلُّ هذا حرامٌ لا يجوز أكلُه، وأصلُ الإهلال: رفعُ الصوت عند رؤية الهلال، ثم توسِّع فيه، فصار رفع الصوت عند الذبح، أو عند ولادة المولود، (بطريق الاستعارة) أي ذُبح بذكر اسم غير اللّه تعالى عليه .!

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ . . .﴾ [المائدة: ٣] لا يراد باليوم يومٌ محدَّدٌ، إنما يُراد به العصرُ والزمانُ، أي في هذا الزمان الحاضر، الذي أكرمكم اللّه فيه بالإسلام، انقطع رجاءُ الكفار منكم، أن ترتدُّوا عن

دينكم، فاليومُ يراد به الزمانُ الحاضرُ، ونظيرُه قولهم: كنتُ بالأمس شاباً، واليومَ صرتُ شيخاً، كنّى بالأمس عن زمن الشباب، وباليوم عن زمن الشيخوخة.

٥ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥] هذا من العامِّ الذي يُراد به الخاص، أُطلق عليه لفظُ الطعام، ويُراد به الذبائح، أي ذبائحُ أهلِ الكتاب (اليهود والنصارى) حلالٌ لكم أن تأكلوا منها، كما أن ذبائحكم حلالٌ لهم، فلا حرج أن تشتروا منهم وتبيعوهم الذَّبائحَ، ففي الآية (مجاز مرسل) أُطلق العام والمراد به الخاصُّ.

قال الحسن البصري: إذا ذَبحَ اليهوديُّ أو النصرانيُّ، فذكَرَ اسمَ غيرِ اللّهِ وأنت تسمعُ، فلا تأكله، وإذا غاب عنك فكُل، فقد أحلَّ اللّهُ لك أكل ذبائح أهل الكتاب.

٦ ـ **قولُه تعالى**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ...﴾ [المائدة: ٦] أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة، فعبَّر عن إرادةِ الفعلِ بالفعلِ نفسِه، وأقام المسبَّب مقام السَّبب، بطريق (المجاز المرسل) للملابسة بينهما، وفي الآية «إيجاز بالحذف» أيضاً، أي إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون، فلا يلزم الوضوءُ على كل قائم إلى الصلاة، سواءً كان محدثاً أم لا؟ بدليل أن النبيَّ ﷺ صلَّى يوم (فتح مكة) الصلواتِ الخمسَ بوضوءٍ واحد، كما في صحيح مسلم.

٧ ـ **قولُه تعالى**: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١] بسطُ الأيدي (كنايةٌ) عن البطش والفتك، كما أن كفَّ الأيدي (كنايةٌ) عن المنع والحبس.

والمعنى: اذكروا فضل اللّهِ ونعمتَه عليكم، حين همَّ يهودُ بني النضير، أن يبطشوا بكم بطريق الغدر والخيانة، فعصمكم من شرِّهم ونجّاكم، وسببُ النزول يوضِّح المراد، فانظره في مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٩٦.

٨ ـ **قولُه تعالى**: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] في الآية (استعارة تصريحية) استعار الظلماتِ للكفر، والنورَ للإيمان، أي يخرجُهم من ظلماتِ الكفر والضلال، إلى نورِ الهداية والإيمان، وقد تقدم مثلُها في سورة البقرة.

٩ ـ **قولُه تعالى:** ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] في الآية تشبيهٌ جميلٌ، يُسمّى (التشبيه البليغ) أي جعلكم تعيشون كالملوك، في رَغَد العيش، وراحة البال، حُذف منه أداةُ التشبيه، ووجهُ الشَّبه، فأصبح بليغاً، كما هو معروفٌ عند علماء البيان، لأن بني إسرائيل لم يكونوا جميعاً ملوكاً، إنما عاشوا كالملوك في التَّرف والنعيم.

١٠ ـ **قولُه تعالى:** ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] إحياءُ النفس بعد موتها مستحيلٌ، لا يقدرُ عليه أحدٌ إلا اللّهُ عزَّ وجل، وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ الإحياءُ هنا (مستعارٌ) عن إبقائها على قيد الحياة، وعدمِ التعرض لقتلها، لأن المرادَ من لم يقتل نفساً، وتسبَّبَ لبقاء حياتها، فكأنَّه أحيا جميعَ الناس، استعار لفظ (الإحياء) لترك إزهاق النفس، وهي (استعارةٌ بديعة) والمقصودُ هنا: تعظيمُ قتلِ النفس، وتفخيمُ شأنِ الإحياء، للمحافظة على حياة الجميع، وبيان ما يجب من وحدة البشر.

١١ ـ **قولُه تعالى:** ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ [المائدة: ٣٣] اللّهُ عزَّ وجلَّ لا يُحارَبُ ولا يُغالَب، والآيةُ على حذف مضاف، أي يحاربون المؤمنينَ أولياءَ اللّه، ويحاربون رسولَه، ففيها (مجاز مرسل) كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلَ القرية، أو المرادُ بالآية: يحاربون الإسلامَ دينَ اللّهِ الحق.

١٢ ـ **قولُه تعالى:** ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣] النفيُ من الأرض (كنايةٌ) عن السجن والحبس، قال مالك رحمه اللّه: النَّفيُ: السجنُ، يُنفى من سعة الدنيا، إلى ضيقها، فكأنَّه أُخرج إلى عالم آخر، غيرِ العالَم الذي يعيش فيه، قال أحدُ الشعراء وكان مسجوناً:

خَرَجْنَا عَنِ الدُّنْيَا وعَنْ وَصْلِ أَهْلِهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الأَحْيَا ولَسْنَا مِنَ المَوْتَى

إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْماً لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

اهـ تفسير الفخر الرازي ١١/٢١٦.

١٣ ـ **قولُه تعالى:** ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] عبَّر عن التمنّي بالارادة، بطريق (الاستعارة) أي يتمنون أن

يخرجوا من النار، وليسوا بخارجين منها، ولهم عذاب مقيم دائم، وهذه الآية في حقّ الكفار، ولا تنافي الشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج من النار، لِمَا روي عن جابر رضي الله عنه في حديث الشفاعة أنه قال: «يخرج قومٌ من النارِ بالشفاعة ـ أي شفاعة سيد المرسلين ﷺ ـ فيدخلون الجنة» قيل لجابر: يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [المائدة: ٣٧] قال: أُتلُ أولَ الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة: ٣٦] فهي في الكفار، لا في المؤمنين، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٦.

١٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا . . .﴾ [المائدة: ٣٨] أطلق اليدَ وأراد بها (الكفَّ) من الرُّسغ، وهذا من باب (إطلاق الكلِّ وإرادةِ الجزء) فيه مجازٌ مرسلٌ، والكفُّ التي تُقْطع هي (اليمنى) لأنها آلةُ السرقة، وختم اللهُ الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة ٣٨] أي غالب لا يَحْكُم إلَّا بما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة.

حكاية لطيفة: قال الأصمعيُّ: كنتُ أقرأُ القرآن، وبجانبي أعرابيٌّ جاءَ من البادية، يسمع ما أقرأ، فقرأتُ هذه الآية ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ فقرأت سهواً ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ختمها بذلك عن غير قصد، فقال الأعرابيُّ: كلامُ من هذا؟ فقلتُ: كلامُ الله عزَّ وجلَّ! قال: حَاشا، ليسَ هذا كلامَ اللهِ! أعِدْ عليَّ ما قرأتَ، فأعدتُها، وتنبَّهتُ، فقلتُ في ختامها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: الآن أصبتَ، هذا كلامُ اللهِ تعالى!! فقلتُ له: وكيف عرفتَ!؟ فقال الأعرابيُّ: يا هذا، عزَّ، فحكَمَ، فقطَع، ولو غَفر، ورَحِم، لَمَا قطع!! المقتطف من عيون التفاسير ٢/ ٣٦.

١٥ ـ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] خوطب ﷺ بعنوان الرسالة (للتشريف) وتعليم المؤمنين أن يعظِّموا رسولَ الله ﷺ عند مخاطبته، ويناودوهُ بلفظ فيه إجلالٌ وتوقيرٌ، كقولهم: يا نبيَّ اللهِ، ويا رسولَ اللهِ، والمسارعةُ تتعدّى بـ(إلى) وتعدَّت هنا بـ(في) لإشارةٍ بديعةٍ دقيقة، وهي التنبيهُ على أنهم مستقرُّون في الكفرِ، لم يخرجوا عنه إلى الإيمان، وهم مغرقون في الكفر والإجرام، يتسابقون فيه بالمسارعة، كأنهم في ميدان سباق، وحقاً إنه لتصويرٌ بديع.

١٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ . . .﴾

[المائدة: ٤٣] استفهام للتعجيب من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون برسالته، ولا بكتابه!! فهم قد عدلوا عن التوراة، التي يعتقدون بصحتها، إلى حكم اللّهِ في القرآن، الذي يعتقدون ببطلانه، وهذا منتهى السّفَه والتخبُّطِ في الدِّين.! أي ألا تعجبُ لحال هؤلاء اليهود؟ يتحاكمون إليك وهم لا يؤمنون برسالتك، ويتركون حكمَ الله في التوراة!؟

١٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٤٨] في الآية (استعارةٌ تمثيليةٌ) بديعة، أي بادروا بفعل الخيرات والطاعات، استعار لفظَ (الاستباق) للمبادرة إلى ما يرضي الله، حيث شبَّههم بالمتسابقين على ظهور الخيل، كلٌ واحد ينافسُ صاحبَه في السَّبْق، لبلوغ الهَدَف، على طريق الاستعارة اللطيفة.

١٨ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ [المائدة: ٥٩] هذا النوع من التعبير، يُسمَّى عند علماء البيان (تأكيد المدح بما يُشبهُ الذمّ) فقد جعلوا التمسك بالإيمان، وبما أنزله الله تعالى من الكتب السماوية، سبباً موجباً للإنكار والنقمة، وهو على النقيض سبب للمديح والثناء، إذ الإيمانُ نعمة، والكفُر نقمة.

والمعنى: قل لهم يا معشر اليهود والنصارى، هل تعيبون علينا وتنكرون منا، إلا إيماننا بالله وبرسله؟!

١٩ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٠] وضعُ الثوابِ موضعَ العِقاب (للتهكُّم والسُّخْرية) فقد وُضعت المثوبةُ ـ يعني الثواب ـ مكان العقوبة، للسخرية والتهكُّم، فالمثوبةُ مختصة بالخير، واستعمالُها في الشر سخريةٌ، وهذا من أساليب العرب، فيمن يريدون إهانتَهُ وتَحْقِيرَه، قال الشاعر:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

٢٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤] غُلُّ اليد (كنايةٌ) عن البُخل، وبسْطُ اليدِ كنايةٌ عن الجود والسخاء، أي قال اليهود اللعناء: إن الله بخيلٌ يقتِّرُ الرزق على العباد، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم، والفَقر والنّكد، واليهودُ أبخلُ الناس في الخير.

قال الحافظ ابن كثير: لا يعنون بذلك أنّ يدَ اللّهِ موثَّقَةٌ ـ أي مربوطة ـ

ولكنْ يقولون: إنه بخيلٌ، أمسَكَ ما عنده بُخلاً، تعالى اللّٰه عمّا يقولون عُلوًّا كبيراً. اهـ تفسير ابن كثير ٢/ ٧٨.

٢١ ـ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤] الحربُ لا نارَ لها، وإنما شُبِّهت بالنّار، لأنها تأكلُ أهلَها، كما تأكل النارُ حطَبَها، ففي الآية (استعارةٌ تمثيلية) شبَّه معاداتهم للبشر، وإلقاءَ الفتن بين الناس، بمن يُشعل النّارَ ويُضرمها، واللّٰه يطفئها بإلقاء الرعب في قلوبهم، وبخاصة إذا سمعوا بجهاد المسلمين (نُصرتُ بالرعبِ من مسيرةِ شهر).

والتعبيرُ بالمضارع ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يفيد الدّوامَ والاستمرارَ، أي هم دائمون مستمرُّون في إثارة الفتن، بين طوائف الناس، وما الحربُ العالميةُ الأولى والثانية، إلّا شاهدٌ على جرائم اليهود المتتابعة، قطعَ اللّٰهُ دابِرَهم، ونجَّى الناسَ من شرورهم وآثامهم.

٢٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم . . .﴾ [المائدة: ٦٦] عبَّر عن إغداق الرزق عليهم، وتوسعةِ الخيرات، والنِّعم الوفيرة، بالأكلِ من فوقهم ومن تحتهم، بطريق (الاستعارة البديعة) كما يقول العربُ: عمَّهُ الرزقُ من فوقِهِ إلى قدمِهِ.

والمعنى: لو أنّهم استقاموا على شريعة اللّٰه، وعملوا بما في التوراة والإنجيل، وما أُنزل إليهم في القرآن، لوسَّع اللّٰه أرزاقهم، وأغدق عليهم الخيرات، بإفاضة بركات السماء والأرض، بإنزال الأمطار، وإخراج النبات والثمار.

٢٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨] في الآية (كناية لطيفة) كنّى بها عن التحقير والتصغير، بما لا غايةَ وراءه، أي لستم على دينٍ يُعتدُّ به، ويليق بأن يسمى شيئاً، حتى تطبّقوا أحكامَ اللّٰهِ، التي شرعها لكم في التوراة والإنجيل، ومن جملتها التصديقُ بخاتم الأنبياء ﷺ.

٢٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة: ٧١] استعار (العَمَى والصَّمم) للإعراض عن الهداية والإيمان، تشبيهاً له بالأعمى الذي لا يُبصر، وبالأصمِّ الذي لا يسمع، وهي (استعارةٌ بديعة) مشهورة، يقال لكلِّ معرضٍ عن الهُدَى والإيمان: إنه أعمى، قال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾؟ [الرعد: ١٩].

٢٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] الفيضُ: أن يمتلئ الإناءُ ويسيل، من شدة الامتلاء، ففي الآية (استعارة تمثيلية بديعة) شبه أعينهم عند سماعهم آياتِ القرآن، وهي تنهمرُ منها الدموعُ مدراراً، بالإناء الذي فاضَ منه الماءُ، لكثرةِ امتلائه، واستعار لفظَ (الفيض) ـ الذي هو الانصباب بكثرة ـ عن الامتلاء بالدموع الغزيرة، بطريق الاستعارة التمثيلية، قال الشاعر:

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مَحْمِلِي

٢٦ ـ قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ...﴾ [المائدة: ٨٩] في الآية (إيجاز بالحذف) فقد حُذف من الآية: (إذا حنثتم في اليمين) فإذا برَّ بيمينه ولم يحنث، فلا كفارة عليه، والحِنثُ: أن يحلف على فعل شيءٍ ثم لا يفعله، أو يحلف على تركه ثم يفعله.

٢٧ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] الميسرُ: القمارُ، والأزلامُ هي الأقداحُ التي كانوا يستقسمون بها، والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ نصٌّ قاطعٌ في التحريم، أبلغُ في النهي والتحريم، من لفظ (حُرِّمَ) لأنَّ معنى الاجتناب: البعدُ عنه بالكُلِّية، كأنه يقول: ابتعدوا عنه، وكونوا في جانبٍ آخر غير جانبه، ومثلُه لفظُ المنع عن القرب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢] لأن القرب منه إذا كان حراماً، فيكون الفعلُ محرَّماً من (بابِ أولى) وكذلك هنا، ولقد أكّد الله تحريم الخمر والميسر، بفنون التأكيد، حيث صُدِّرت الجملة بـ(إنما) المفيدة للحصر، وقُرنا بالأصنام والأزلام، وسُمِّيا رجساً من عمل الشيطان، وأُمر المؤمنون بالاجتناب عن عينهما، ثم وضّح تعالى ما فيهما من المفاسد الدينية والدنيوية، ثم أُعيد الحثُّ على الترك والانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ [المائدة: ٩١] الذي يُراد به الأمر، أي انتهوا، وهو أبلغ ما يُنهى عنه، فهل هناك تحريمٌ أبلغُ من هذا التحريم؟ حتى يقول بعضُ المغفّلين: ليس في الآية نصٌّ على التحريم. !

٢٨ ـ قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] في الآية (كناية لطيفة) كنّى عن (الحرام) بالخبيث، وعن

(الحلال) بالطيِّب، وهو تمثيلٌ عامٌ ضربه اللّهُ تعالي للتمييز بين (المؤمن والكافر) و(البرّ والفاجر) و(الحلال والحرام) فالحلالُ كالعسل، والحرامُ كالسُّمّ، والمؤمنُ كالنور، والكافرُ كالظلمة، واللّهُ تعالى يسوقُ الجنسَ إلى الجنس ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].



الإبداعُ البيانيُّ في سورة الأنعام

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ . . .﴾ [الأنعام: ٦] لا يُراد بالقَرْن هنا المدّةُ من الزمن، التي هي مائة عام، إنما يراد به أهلُ ذلك العصر والزمان، ففيه (مجاز مرسل) أُطلق القرنُ وأريد به أهلُه، على نموذج ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ يعني أهل القرية.

قال أهلُ اللغة: القرنُ عبارةٌ عن أهل عصرٍ من الأعصار، ومعنى الآية: ألا يعتبرون بمن أهلكنا قبلهم من الأمم، التي كذّبت رسلها وأنكرتْ خالقها؟

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦] أطلق السماءَ وأراد به (المطرَ) لأنه ينزل من السماء، ففي الآية (مجاز مرسل) كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] أي مَطَراً هو سبب رزقكم ومعاشكم.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنّهم آلهةٌ مع اللّه)؟ أدعوهم لينقذوكم من العذاب!!

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٦] الضمير يعود على القرآن، أي ينهون الناس عن استماعه ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم، وفي الآية جناسٌ، والجناسُ فنٌّ من فنون (علم البديع) يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، وحُسناً وبهاءً، فقد اتفقت الحروف بين (ينهون) و(ينأون) إلّا في حرفٍ واحد، ويُسمَّى هذا (بالجناس الناقص) وهناك الجناسُ التامُّ كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] فالساعةُ الأولى يراد بها القيامةُ، والثانيةُ المدّةُ اليسيرةُ من الزمن، فقد اتفقا في اللفظ والحروف، واختلفا في المعنى المقصود.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ

﴿...ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] جوابُ (لو) محذوفٌ للتهويل والتفظيع، أي لرأيتَ ما لا يخطر على بال، ولا يحيطُ به خيالٌ، من أنواع الكرب والشدة، والحذفُ في مثل هذا أبلغ، ليذهب الذهنُ فيه كلَّ مبلغ، يُمكن أن يُتَصوَّر. !

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] الكلام من باب (التشبيه البليغ) جُعلت الدنيا نفسُها ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ مبالغةً في تحقير شأنها، بالنسبة للآخرة، أي ليست الدنيا إلّا كلُعب الأطفال، يتلهّى بها الصّبيانُ، وعمّا قريب تزول، والآخرةُ هي دار النعيم والخلود.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] في الآية (استعارة بديعة) شبّه تعالى الكفارَ بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون، ولا يعقلون، ولا يسمعون، كأنهم خُشُبٌ مسنّدة.

والمعنى: إنما يقبلُ دعوتَك يا أيها الرسول، الذين يسمعون ما يُلقى إليهم، سماعَ تفهُّم وتدبُّر، دون الموتى ـ وهم الكفار ـ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] والمراد من السماع، سماع الفهم والتدبر، لا مجرد السماع الخالي عن الانتفاع.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] أي هم كالصُّمّ، والبُكْم، في عدم السماع، وعدم الكلام والانتفاع، حُذفت منه الأداة، ووجهُ الشبه، فأصبح بليغاً، كقولهم: محمد بدرٌ.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥] كنايةٌ عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال، أي هلكوا عن آخرهم وأبيدوا، كنّى بقطع الدابر عن الهلاك التام، والدّمار الشامل.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] في الآية (استعارة بديعة) الأعمى: الكافر، والبصيرُ: المؤمنُ، أي هل يتساوى الكافرُ مع المؤمن؟ لا يتساويان أبداً، كما لا تتساوى الظلماتُ مع النُّور، استعار لفظ (الأعمى) للكافر، لأنه يتخبّط في ظلمات الجهل والضلالة كالأعمى الذي يتعثّرُ في الطريق، واستعار لفظ (البصير) للمؤمن الذي يُبصرُ بنور الإيمان، طريقَ الخير والسعادة، فهو يسير على هدى واضح، وطريقٍ مستقيم.

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ...﴾ [الأنعام: ٥٩]

﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه، استعارَ (المفاتحَ) جمعُ (مِفْتَح) للأمور الغيبيَّة، التي لا يعلمها إلّا اللهُ، شبَّه الأمورَ الغيبيّة، بخزائنَ مفاتيحُها بيد الفتَّاح جلَّ جلالُه، لأنَّ المفاتيح يُتوصل بها إلى ما في الخزائنِ، المغلقةِ بالأقفال، بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة، والمقصودُ: أنه سبحانه هو العالم بالمغيَّبات وحده.

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] في الآية (استعارة بديعة) استعارَ (الوفاةَ) للنوم، أي يُنيمكم في الليل، لما بينهما من المشاركة، في زوال الإحساس والتمييز ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي يوقظكم في النهار، وأطلَقَ البعث ترشيحاً للتوفّي، فالوفاةُ، والبعثُ (استعارةٌ) عن النوم، واليقظة، وهما من لطائف الاستعارة.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . . .﴾ [الأنعام: ٦٣] ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ استعارةٌ لطيفة عن الشدائد والأهوال، والمخاوف التي تصيب البشر في أسفارهم، استعيرت الظلمةُ للمشقَّةِ والشدَّة، لمشاركتهما في الهَوْل، وإبطال البصر، ولهذا قيل لليوم العصيب الشديد: يومٌ مظلمٌ.

والمعنى: قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين: من ينجّيكم من شدائدِ البرّ، والبحر الهائلة، التي تُدهش الألبابَ، وتُعمي الأبصار؟ هل هناك غيرُ اللهِ تلجأون إليه؟

١٤ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ [الأنعام: ٧١] الردُّ على الأعقاب (كنايةٌ) عن الإشراكِ والعودةِ إلى الضلالة، أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى، وإلى الشرك بعد الإيمان؟ وعبَّر عن ذلك بالردِّ على الأعقاب، لتوضيح زيادة قبح الشرك، كمن يرجعُ إلى الوراءِ القَهْقَرى، مع الإشارة إلى أنَّ حالة الكفر، قد نُبِذَتْ وراء الظهر.

١٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] في الآية الكريمة (استعارةٌ عجيبة) حيث شبَّه سبحانه، ما يلحق الكفَّارَ من كُرَبِ الموتِ وغُصَصه، وأهوالِه وشدائده، بالذين تتقاذفهم غَمَراتُ الماءِ، ولُججُه، والغَمْرةُ: الشدَّةُ، لأنها تغمر قلبَ الإنسان، وجواب (لو) محذوفٌ للتهويل، أي لرأيتَ أمراً فظيعاً هائلاً، يتقطَّع له قلبُ الإنسان.

١٦ ـ قولُه تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤] في الآية الكريمة (مجاز مرسل) من باب تسمية (المسبَّب باسم

السُّبُب) أي جاءكم حججٌ وبراهينُ، تبصرون بها الحقائق، وتميِّزون بها بين الحقِّ، والباطل، وهذه البصائرُ هي (القرآن الكريم) جَمْعُ بصيرة، وهي نورٌ يُبْصر به القلبُ، كما أن البَصَر نور تُبصِرُ به العينُ، فالقرآنُ سببٌ لاكتساب الأنوار.

١٧ ـ قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] في الآية (استعارة بديعة) فالموتُ والحياة، والنورُ والظلمة، كلُّها من باب الاستعارة، استعار (الموت) للكفر، و(الحياة) للإيمان، و(النور) للهدى، و(الظلمة) للضلال، شبَّه المؤمن بالحيِّ الذي استنار قلبُه بنور المعرفة والإيمان، وشبَّه الكافرَ بالميِّت، الذي يتخبَّط في ظلمات الضلال والكفر، قال الشاعر:

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وَإِنَّ امْرأً لَمْ يَحْيَى بِالعِلْمِ مَيِّتٌ فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

١٨ ـ قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] الشَّرحُ: جَعْلُ النفس قابلةً للحق، مستنيرةً بنور الإيمان، وفي الآية (استعارةٌ بديعة) استعار لفظ (يَشْرَحْ) للتوسعة، أي يوسِّع صدرَه لقبول الحقِّ والإيمان، حتى يقبلَه بصدرٍ منشرح، وإلى هذا أشار النبيُّ ﷺ حين سُئل عنه فقال: «نورٌ يقذفه اللهُ في قلب المؤمن، فينشرحُ له وينفسِحُ»، فقالوا: هل لذلك علامةٌ؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخلود، والتَّجافي عن دارِ الغُرور، والاستعدادُ للموتِ قبل النزول» تفسير ابن كثير ٢/ ١٨١.

١٩ ـ قولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢] هذا من لطيف الاستعارة، وهي أبلغُ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان، والسَّير في ركابه، وقد تقدَّم بيانها في سورة البقرة صفحة (٣٠).

٢٠ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] اتِّباعُ السُّبلِ: (استعارةٌ) عن البدعِ، والضَّلالات، والمذاهب المنحرفة، وسائرِ الملل الزائفة، تشبيهاً لها بالطُّرُق غيرِ المستقيمة.

روي عن ابنِ مسعود رضي الله عنه أنه قال: «خطَّ رسولُ الله ﷺ خطًّا

بيده، ثم قال: هذا سَبِيلُ اللّٰهِ تعالى مستقيماً. ثم خطَّ خطوطاً عن يمينِ ذلك الخطِّ، وعن شماله، ثم قال: هذِهِ السُّبُلُ، ليس منها سبيلٌ إلّا عليه شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] رواه أحمد، والحاكم.

٢١ ـ **قوله تعالى**: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] اشتملت هذه الآية الكريمة، على النوع المعروف (باللفّ) أي لفّ الكلام وجَمْعُه، وجعلُه كلاماً واحداً، بلاغةً، وإيجازاً، وإعجازاً، وأصلُ الكلام: يومَ يأتي بعضُ آيات ربك ـ أي أشراط الساعة ـ لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً إيمانُها، بعد مجيء تلك الأشراط، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً، ما تكسبُه من الخير بعد، فلفّ الكلامين، فجعلهما كلاماً واحداً، بلاغةً وإيجازاً.



الأمثال في سورة الأنعام

١ ـ **المثل الأوّل**: من بدائع وروائع التمثيل في سورة الأنعام، ما ذكره تعالى عن الكفرة المشركين، وإعراضهم عن النور الإلٰهي الوضّاء (القرآن المبين) وفيهم يقول ربُّ العزة والجلال: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] لا يُراد بالموتى في الآية، الذين فارقوا الحياة، وإنما يُراد بهم (موتى القلوب) الذين لا ينتفعون بالآيات البينات، ولا يستفيدون ممّا حولهم من العِبَر والعظات، فهم كالموتى وإن كانوا يأكلون ويشربون، ويمشون على وجه الأرض، وكالدواب السارحة وإن كانوا يسمعون ويبصرون، وقد جعلهم تعالى في زمرة الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يفقهون قولاً، ولا يعقلون دعاءً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله، وآياته البينات.!

قال قتادة: الآية مَثَلٌ للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلامَ الله، وينتفع به، ويعقله، والكافر أصمُّ أبكم، لا يبصر هدىً، ولا ينتفع به[1]. شبّه تعالى الكفارَ بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون ولا يعقلون، ولا يسمعون، وكأنهم خُشُب مسنّدة، لا تُدرك شيئاً ممّا حولها ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ضرب المثل بالأعمى والبصير

٢ ـ **المثل الثاني**: ضرب الله جلّ ثناؤه في سورة الأنعام مثلاً للمؤمن والكافر، والمهتدي والضال، بالأعمى والبصير، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

شبّه الله تعالى الكافرَ بالأعمى، والبصيرَ بالمؤمن، أي هل يتساوى عند الله الكافر مع المؤمن؟ والضالُ مع المهتدي؟ فالمؤمن على نورٍ من ربه وهداية، يبصر الطريق، ويستجيب لدعوة الله، والكافر يتخبّط في ظلمات

---

(١) جامع البيان لشيخ المفسرين ابن جرير الطبري.

الشرك والضلالة، لا يُفرّق بين نور وظلمة، وهدى وضلال، فكيف يستويان؟ ولذلك ختم اللّهُ الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتفكرون في أمثال هذه الأمور والعظات، التي جاءكم بها خاتم الأنبياء والمرسلين؟ فكما لا يتساوى الأعمى مع البصير، كذلك لا يتساوى المؤمنُ مع الكافر، ولا البَرُّ مع الفاجر.!

قال المفسرون: هذا مثلٌ ضربه اللّه لأهل الإيمان، مع أهل الكفر والطغيان، وكثيراً ما يضرب اللّه المثل للكافر بالأعمى، وللمؤمن بالبصير، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] وكقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

التمثيل لعابد الوثن بالتائه في الصحراء

٣ ـ المثل الثالث: ورد في هذه السورة مثلٌ بديع، فقد مثّل تعالى لعابد الوثن والصنم، بالتائه في الصحراء، الذي سارت به الشياطينُ في المفاوز والمهالك، فأضلّته عن الطريق، وهوت به في هُوّةٍ سحيقة، فضاع وهَلَك، يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

هذا مثلٌ جميل رائع، ضربَه اللّه لمن عَبَد حجارةً، لا تضرُّ ولا تنفع، فهو في تخبُّطِهِ وضلاله، كمثلِ الذي اختطفته الشياطين وأضلّته، وألقتْه في هوةٍ سحيقة، بعيداً عن الناس، وعن النجاة.

قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه اللّه تعالى لمن يدعو إلى عبادة الأوثان، ومن يدعو إلى عبادة الرحمٰن، مثّلَ له بمثلِ رجلٍ ضلَّ عن الطريق في سفره، وبقي تائهاً حائراً، لا يدري أين يسير وأين يتّجه؟ وقد اغتالته الشياطين واختطفته، فسارت به في دروب المهالك، بعيداً عن رفاقه وأصحابه، وبينا هو في خوفٍ وفزع، إذْ سمع صوت إخوانه، يدعونه إلى الجادة والطريق، يقولون له: يا فلانُ تعالَ، أقبلْ، فهذا هو طريقُ الأمان!! فإن هو استجابَ لهم نجا وفاز، وإلّا ضلّ وهَلَك، فذلك مثلُ من يعبد الأوثان، يظن أنه على نور وهدى، فإذا جاءه الموتُ، رأى الندامةَ والهلكة! ويا له من تمثيل رائع، في غاية الجمال، والبيان، والإقناع[1].

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١/ ٤٥٢.

مثلٌ للتمييز بين نور الإيمان وظلمة الكفر

٤ ـ **المثل الرابع**: مَثَلٌ واضحُ الدلالةِ، رائعُ التصوير، للمؤمن والكافر، المؤمن الذي استنار قلبُه بنور الهداية والإيمان، فهو يعرف الطريق، ويهتدي إلى منافع الدنيا والآخرة، والكافر الذي يتخبّطُ في ظلمات الجهل والضلالة، لا يعرف المنفذَ، ولا المَخْلص، يقول سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ومعنى الآية الكريمة: هل من كان كافراً ضالاً، أعمى البصيرة ـ بمنزلة الميت ـ فأحيا اللّه قلبه بالإيمان، وجعل له النور الوضّاء، الذي يميّزُ به بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، كمن يتخبّط في ظلمات الكفر والجهالة، ليس له منها منفذٌ ولا مخلص؟ هل يستويان في المرتبة والمكانة؟

قال المفسرون: نزلت في (عمر بن الخطاب) رضي اللّه عنه و(أبي جهل) والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تعمُّ كلَّ مؤمن وكافر، وبَرٍّ وفاجر[١].

قال ابن عباس: (المراد بالميت: الكافرُ، وبالنور: القرآنُ، وبالإحياء: الهدايةُ). فاللّه أحيا المؤمنين بنور القرآن والهداية، وأعمى قلوب المشركين بظلمة الجهل والضلالة، ولهذا ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي كما زُيّن للمؤمن إيمانه، كذلك زُيِّن للكافر فجورُه وطغيانُه، حتى رأى القبيحَ حسناً، والمعروفَ منكراً.

قال العلّامة الشوكاني: في تفسيره (فتح القدير): (المراد بالميْت هنا: الكافرُ، أحياه اللّه بالإسلام، وكثيراً ما تُستعار الحياةُ: للهداية والعلم، والظلماتُ للكفر والجهل، ومنه قولُ القائل:

وفي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وَإِنَّ امْرَأً لَمْ يَحْيَ بِالعِلْمِ مَيِّتٌ فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

مثلٌ رائعٌ للإيمان والكفر

٥ ـ **المثلُ الخامسُ**: وتأكيداً للمعنى الذي جاء في المثل السابق، للتفريق

---

(١) انظر المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيّة ٥/٣٣٧ وتفسير الشوكاني ٢/١٦٥.

بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، يضرب الله مثلاً آخر، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. هذه الآية الكريمة، تُوقِفُنا على الحقيقة ناصعةً، وهي أن الإيمان والكفر نقيضان لا يجتمعان، وأن الهداية والضلالة بيد الله، فمن كان قلبُه مستنيراً بنورِ الله، مستضيئاً بضياءِ الحقّ، شرَحَ اللهُ صدرَه للدين القيِّم - دين الإسلام - ومن كان أعمى القلبِ مطموسَ البصيرة، صَرَفه اللهُ عن تذوُّق أنوار الإيمان، فالإيمانُ نور، والكفرُ ظلمة. ولمّا نزلت هذه الآية الكريمة، قال بعضُ صحابة رسول الله ﷺ: يا رسول الله: كيف يشرح الله صدرَه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نورٌ يقذفه اللهُ في قلبِ المؤمن، فينشرح وينفسح!!»

فقالوا: هل لذلك أَمارةٌ - أي علامة - يُعْرف بها؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي - أي البعد - عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله[1]».

وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هذا من تمام التمثيل، أي يجعل صدرَه ضيِّقاً شديدَ الضِّيق، شبَّهه مبالغةً في ضيق صدره، بمن يعلو ويرتفع في طبقات الجو، حتى تكاد نفسه تُزهق، وروحُه تتمزّق، وتكاد تخرج من جلدها، وتأتيه عوارضُ الاختناق، من قلة (الأوكسجين) وهذه حقيقةٌ علمية، يعرفها رُوّاد الفضاء، وكلُّ من ركب الطائرة، ينبِّهه (الكابتن) إلى استعمال قناع الأوكسجين، إن شعر بضيق التنفس، وكذلك كلُّ من صعد شواهق الجبال يدرك ذلك، وقد كان المفسِّرون القُدامى يقولون في تفسير الآية: كمن يحاول الصعودَ إلى السماء، وهو لا يقدر على ذلك، لأنه ليس في وسعه الصعود إليها، وقالوا: هذا مَثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، فالإيمانُ يمتنع عن الكافر، كما يمتنع عنه الصعود إلى السماء!! وهم معذورون في هذا، لأنهم ما كانوا يعرفون هذه (الحقيقة العلمية) التي كشف عنها القرآن، وهي: أن الأوكسجين يقلُّ في الطبقات العليا، حتى يكاد الإنسان أن يختنق وتتمزق روحه.

ثم إن الآية وردت بلفظ: (يَصَّعَّدُ) بالتضعيف، أي يعلو شيئاً فشيئاً، حتى

---

(١) أخرجه البيهقي، وابن جرير الطبري ١٢/ ١٠٠ وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٨١.

يصل إلى طبقات الجو العليا، ولم يأت التعبير بلفظ (يَصْعَدُ) حتى نقول في تفسيرها كمن يحاول الصعود إلى السماء وهو مستحيل، فما أثبته العلم الحديثُ، أقربُ إلى تصوير القرآن الرائع البديع، وهذه من (الحقائق العلمية) التي نبّه عليها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، تُضاف إلى المعجزات العلمية، لهذا الوحي الإلهي المجيد.

وخلاصة معنى الآية: أن من أراد الله به الخيرَ، قذَفَ في قلبه نورَ الإيمان، فانفسحَ له صدره، واستنار به قلبُه، ووجد حلاوة الإيمان، ومن أراد الله تعالى خذلانَه وضلالَه، جعل صدرَه ضيّقاً، شديد الضِيق، ينبو عن قبول الحقّ، ويمتعض عند سماع القرآن، وكأنه يختنق وتُزهق روحُه من كلام الرحمٰن، وذلك علامةُ عمى القلب، ولهذا ختم اللهُ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما يكون صدرُ الكافر ضيّقاً، شديد الضِيق، لا يتّسعُ لشيءٍ من الهدى، كذلك يجعل اللهُ الخزيَ واللعنة والعذاب، على الكفرة المجرمين، الذين لا يؤمنون بالرحمٰن.

قال الإمام الطبري رحمه الله: هذا مثلٌ ضربه اللهُ لقلب الكافر، في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، مِثْلُ امتناعه عن الصعود إلى السماء، وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه [1].

مثلٌ للإسلام الحقّ والأديان المختلفة

٦ ـ المثل السادس: كما ضرب تعالى مثلاً لدين الإسلام الحق، الموصل إلى جنات النعيم، وإلى الأديان المختلفة المعوجّة، التي تهوي بأربابها إلى دركات الجحيم، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

شبّه تعالى الإسلام، بالطريق السويّ المستقيم، الذي لا يضلُّ من سلكه، وما سواه من الأديان، فإنها طرقٌ معوجّة، لا يصل صاحبُها بها إلى شاطىء السلامة والأمان، لأنها طرق ملتويةٌ، لا يأمن سالكها من المخاطر، حيث فقدت صفاءها ونقاءها، بسبب ما اعتراها من الأباطيل والأساطير، والعقائد الزائفة.

توضيحٌ للآية بيانيٌ: رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (خطَّ

(١) جامع البيان للطبري ١٢/١٠٢.

رسولُ اللّه ﷺ لنا خطّاً بيده، ثم قال: هذا سبيلُ اللّه تعالى مستقيماً، ثم خطّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطّ، وعن شماله، ثم قال: هذه سُبُل ـ أي طُرق ـ ليس منها سبيلٌ إلّا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ...﴾(١) الآية.

وقد نبهت الآية بأسلوبها الممتع البديع، أن الإسلام هو دين اللّهِ المستقيم، الذي لا يقبل اللّهُ ديناً سواه، بعد بعثة خاتم النبيّين محمد ﷺ، لأن اللّهَ قد نسخَ بالإسلام، جميع شرائع الأديان التي سبقته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] كما أمر عباده بالاستمساك بالإسلام، وعدم اتباع الطرق الملتوية، والأديان المختلفة التي صدّت عن سبيل الهدي والرشاد، بما أصابها من التبديل والتحريف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وهذه الآيةُ الكريمةُ، يدخل فيها طوائفُ أهلِ الكتاب، وطوائفُ المشركين وغيرهم، ممن ابتدعَ في الدين ما لم يأذنْ به اللّهُ، اللهمّ كما أكرمتنا بالإسلام، نسألُك أن تحفظه علينا، إلى يوم لقائكِ يا ربّ العالمين.!



(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٣٥ والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

الإبداع البياني في سورة الأعراف

١ ـ قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ • كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢] حرجٌ: أي ضيقٌ، إن قيل: كيف يضيق صدرُ النبيِّ ﷺ من القرآن؟ وهو نورٌ وشفاءٌ لما في الصدور؟ فالجوابُ: أن الآية فيها (مجاز بالحذف) على حذف مضاف: أي لا يضقْ صدرُك من تبليغِهِ للنّاس، خوفاً من تكذيب قومك لك، ففي الآية (مجازٌ مرسل) كما في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي أهلَ القرية.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١١] الحديثُ هنا عن (خلق آدم) بدليل قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ ففي الآية (إيجازٌ بالحذف) أي خلقنا أباكم آدم، وصوّرْنا أباكم، وإنما أضيف الخلقُ إلى البشر ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ لأن في تكريم آدمَ بالامتنان عليه بالخَلْق، وإبداع صورته، تكريمٌ لذريته، فكان خَلْقُه بمنزلة خَلْقِ أولاده، ولأنَّ المقصودَ من خلقه، تعميرُ الأرض بذريته، فصارَ وجهُ الامتنان عليهم واضحاً، كما قال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] في الآية (استعارة) فقد استعار (الصراط المستقيم) لطريق الهداية الموصل إلى جنات النعيم، وانتصبَ (صراطك) بنزع الخافض.

والمعنى: قال إبليسُ اللعين يا ربِّ: بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأقعدنَّ لآدمَ وذريتِهِ، على طريق الحقِّ وسبيل النجاة، كما يقعدُ قُطّاعُ الطريقِ، على طريقِ المسافرينَ، وهذا إعلانٌ صريحٌ من اللعين بأنه قاطعُ طريق، وردت الآيةُ بأسلوب التمثيل، لمن يقف في الجادّة، لقطع الطريق على الناس.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ

خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] في الآية (استعارة لطيفة) شبّه تعالى الإيمانَ، والتقوى، والوَرَعَ، باللباس الذي يستر الجسمَ والعورةَ، ويُزيِّن الإنسانَ ويجمّله، ويخفي منه القبائحَ، ولولا اللباسُ الساترُ، لأصبحَ الإنسانُ كالحيوان، باديَ السوأة والعورة.

والريشُ: هو لباسُ الزينة، استُعير من ريش الطير والطاووس، لأنه لباسُه وزينتُه، كأنه قال: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوآتكم، ولباساً يزيّنكم ويُجمّلكم، قال الشاعر:

وَخَيْرُ لِبَاسِ المَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيَا

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ [الأعراف: ٣١] المرادُ بالمسجدِ هنا: (الصلاةُ) ولمّا كان المسجد مكانَ الصّلاة، أطلق ذلك عليها، ففي الآية (مجازٌ مرسل) علاقته المحليّة.

قال المفسّرون: كان أهلُ الجاهلية يطوفون بالبيت عُراة، ويقولون: «لا نطوف في ثياب عصينا فيها اللّهَ، فأمرهم اللّهُ أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعرّوا عند كل مسجد، سواءٌ دخلوه للصلاة أو الطواف». انظر صحيح مسلم رقم ٣٠٢٥.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] تفتُّحُ أبواب السماء (كنايةٌ بديعة) عن عدم قبول العمل، بمعنى أنّ اللّهَ تعالى لا يقبل منهم عملاً، ولا يرفع لهم دُعَاءً، كنّى عن ذلك بفتح أبواب السماء، وهذا قول مجاهد.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] هذا تمثيلٌ بالغ الروعة، في تصوير استحالة دخول الكفار جنة النعيم، إلّا إذا أمكن دخولُ الجمل، على ضخامة جثّته، في ثُقْبِ الإبرةِ، على ضيقه وصِغَره، والعربُ إذا أرادت تأكيد النفي، علّقته بما يستحيل وقوعه، فيقولون: لا أفعل كذا حتى يشيبَ الغرابُ، وحتى تتفطّر السماءُ.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب، والمهادُ: الفراشُ، والغواش جمعُ غاشيةٍ وهي الغطاء، وهو تعبير فيه إهانة لهم وتحقير، فالنار تحيط بهم من كل جانب، هذا فراشهم، وذاك غطاؤهم، فلْيناموا هانئين.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا من الأسلوب البياني البديع، فقد جمعت هذه الآية ـ على وجازتها ـ جميع الأمور، والشؤون، والعوالم الكونية، على وجه الاستقصاء، فالله سبحانه مالكُ الكون، له الملكُ والملكوت، والأشياء والمخلوقات، وله الحكم والقضاء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد!!

قال المفسون: لقد جمعت هذه الآيةُ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الألفاظَ اليسيرةَ، والمعاني الجمّةَ الكثيرة، وهذا ضربٌ من ضروب إعجاز القرآن، حتى قال ابن عمر رضي الله عنه: «من بقيَ له شيءٌ فليطلُبه» ويسمّى هذا النوعُ (إيجازَ قِصَر) وهو من روائع الإبداع البياني.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ...﴾ [الأعراف: ٥٧] وصفُ البلد بالموت (استعارةٌ حسنة) فإنَّ البلدَ ليس له روحٌ حتى يموتَ، وإنما استعارَ (الموتَ) للجدب، وعدم النبات، تشبيهاً له بالجسد الميت، الذي لا روحَ فيه، والمعنى: سقنا السحابَ إلى أرضٍ ميْتة مجدبة، لا نباتَ فيها ولا ثمر، فأنزلنا الماء، فأخرجنا به من جميع الثمرات.

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢] قطعُ الدابر (كنايةٌ) لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك، وقد تقدّم مثلُها في سورة الأنعام في قوله سبحانه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥].

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] يُسمّى هذا النوعُ في علم البديع (التعريضُ بما يوهم الذمّ)، ولذلك قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «عابُوهم بما يُمدحُ به الإنسانُ» فالآيةُ مدحٌ بما يُشبهُ الذمّ.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] بركاتُ السماء بالمطر، وبركاتُ الأرض بالنبات والثمار، شبّه تيسير الخيرات والبركات عليهم، بفتح الأبواب، بطريق (الاستعارة التمثيلية) لإغداق الرزق عليهم من كل جانب، وكأن أبواب السماء والأرض فُتحت عليهم بأنواع الخيرات والبركات.!

١٤ ـ قولُه تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨] الحقُّ

لا يقع إنما يظهر ويثبت، استعير (الوقْعُ) للثبوت والظهور، بطريق (الاستعارة التبعية) أي ثبتَ وظهرَ الحقُّ، لمن شهده وحضره، وبطلَ إفكُ السَّحَرة وكذبهم، وسعيُ فرعون ومكرُه الخبيث.

١٥ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ [الأعراف: ١٤٩] العربُ تقول لكل متحسِّر نادم: سُقِطَ في يده، بطريق (الكناية) والآية كناية لطيفة عن شدة الندم، فإن النادمَ المتحسِّر، يعضُّ يدَهُ غمًّا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧].

١٦ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ... ﴾ [الأعراف: ١٥٤] في الآية (استعارة مكنيةٌ) بديعة، في أوْج البلاغة والجمال، شبّه الغضبَ بشخصٍ يُرْعِدُ ويُزْمجِر، يريد أن يبطش بخصمه، وصوتُه يرتفعُ يريد الانتقام، ثم اختفى هذا الصوتُ وسَكَتَ، ويا له من تصوير بياني بديع، يستشعر جمالَه كلُّ من عرف كلامَ البلغاء، وتذوّق أسرارَ البلاغة البيانية، أي ولمّا ذهبَ عن موسى غضبُه باعتذار أخيه، وتوبة قومه، أخذ ألواح التوراة التي كان ألقاها.

١٧ ـ قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أصلُ (الإِصْرِ) الثِّقْلُ لأنه يمنع صاحبَه من الحركة، والأغلالُ: جمعُ غُلٍّ، وهو قيدُ الحديد الذي يوضع في اليد، والآيةُ فيها (استعارة تمثيلية) بديعة، شبّهَ التكاليف الشاقّةَ، التي كانت على بني إسرائيل، بالحمل الثقيل، وبالأغلال التي تجمع اليد إلى العُنُق، بطريق الاستعارة البديعة، فقد جاء خاتمُ الأنبياء محمد ﷺ برفع جميع تلك الأثقال، والتكاليف الشاقة التي كانت على اليهود عقوبةً لهم، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «**بعثتُ بالحنيفية السمحة**» رواه ابن جرير.

١٨ ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥] التعبيرُ بالانسلاخ عن الآيات، تعبيرٌ رائعٌ في غاية الحسن والجمال، وفيه تشبيهٌ بانسلاخ الشاة عن جلدها، للتنبيه على أن الإيمان، لم يكن متمكّناً من القلب، إنما كان طِلاءً وزينةً، وقد مثّل له القرآنُ، بأشنع وأقبح تمثيل، مثّلَ له في الخِسّة والدناءة بالكلب، إن طاردْتَه وجريتَ وراءه مدَّ لسانه فلهث، وإن تركتَه دون إزعاج، مدَّ لسانه فَلَهث، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، ويُسمى هذا في علم البلاغة بـ(التشبيه التمثيلي).

١٩ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٩] عبّر عن الجماع بقوله: ﴿ تَغَشَّاهَا ﴾ وهي أحسنُ كناية، وألطفُ تعبير، والغشاءُ هو الغطاء، وكأن الرجل عند الوقاع ـ الجماع ـ غطاء للزوجة، وهذه ـ وأمثالُها ـ من الكنايات البديعة، التي أرشدنا إليها القرآن الكريم.

٢٠ ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] النَّزْغُ: النَّخسُ والغرزُ، شبّه وسوسة الشيطان، وإغراءه للإنسان بالمعاصي بالنَّخس، كما يغرز السائقُ الدابةَ التي يسوقها بآلة حادة لتسرع المشي، وهذه (استعارة بديعة).

والمعنى: إمّا يحملنّك من الشيطان وسْوسَةٌ لإغرائك على المعصية، فالتجئ إلى الله تعالى من شرّه.

٢١ ـ قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] هذا الكلام خارج مخرج التشبيه البليغ، وفيه أيضاً (مجازٌ مرسل) من باب تسمية (السبب باسم المسبّب) أي هذا القرآنُ بمنزلةِ البصائر للقلوبِ، به يبصرُ الإنسانُ الحقَّ، ويدرك الصّواب، فأطلقَ عليه (بصائر) بطريق التشبيه أي بمنزلة البصائر، لأن القرآن لمّا كان سبباً لتنوير العقول، أطلق عليه لفظ (بصائر).



الإبداعُ التمثيلي في سورة الأعراف

التمثيلُ لاستحالة دخول الكفار جنات النعيم

١ ـ المثلُ الأول: في سورة الأعراف، وردت صورٌ للتمثيل، في أبهج حلل الإبداع والبيان، فقد مثّل تبارك وتعالى لاستحالة دخول الكافر الجنة، بهذا التمثيل الرائع البديع ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠] لنتصوَّرْ هذا التمثيل البديع: هل يمكن أن يدخل البعيرُ الضخمُ ـ الجملُ ـ على عِظَم جُثَته، وضخامة هيئته، في ثقب الإبرة؟ إذا كان هذا مستحيلاً، فمن المستحيل دخول الكافر الجنة، و﴿ سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾: ثُقبُ الإبرة، وهو تمثيلٌ في منتهى الإبداع والبيان. لقد وضّح تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفرة الذين كذّبوا بالقرآن، مع وضوح بيانه، وسطوع إعجازه، وتكبُّروا عن العمل به، لا تُفتَّح لأرواحهم أبوابُ السماء، ولا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال، إلّا إذا أمكن دخولُ الجمل في ثقب الإبرة، فكما يستحيل هذا، يستحيل دخولهم جنة النعيم، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

● وإتماماً لخلودهم في جهنم، وعذابهم الدائم فيها، لكفرهم وإجرامهم، يخبر سبحانه عمّا هيّأه لهم في نار الجحيم، من الفراش الذي يمتهدونه، والغطاء الذي يلتحفونه، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] أي لهؤلاء المجرمين، مضجعٌ وفراشٌ من نار جهنم، ولهم من فوقهم أغطيةٌ، ولُحُف من النار أيضاً، وهذا تمثيلٌ لما يكونون عليه في نار الجحيم، من العذاب الدائم، الذي يحيط بهم من كل جانب، كما قال تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وفيه تمثيلٌ أيضاً لنار الجحيم، أنها تغشاهم وتحيط بهم

من جميع الجهات، وتسميتُها (بالظُلَل) للتهكُم والسخرية، فإن الظُلّة ما يستظلُّ بها الإنسانُ من الحرّ، فإذا كانت تلك الظُلّةُ من نار السموم، كانت أَفْظَعَ وأشنع، تُحرق أجسادهم بلظاها، والغَرَضُ أنَّ النارَ محيطة بهم من جميع الجوانب، فكيف يتخلّصون من العذاب؟ لقد انقطع الأمل بدخولهم الجنة، كما انقطع الأمل بتخفيف العذاب.

ولا يخفى على المتأمل في لطائف الكتاب العزيز، ما في إعداد (المهاد) ـ أي الفراش ـ (والغَوَاش) ـ أي اللحاف ـ الذي أعدّه اللّهُ لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت، وتقييد عدم دخولهم الجنة، بدخول البعير بخرق الإبرة، من اللطافة وإبداع التعبير ما فيه!!

الإعجاز في الإيجاز من خصائص القرآن

● ومن خصائص القرآن، التي انفرد بها الكتاب العزيز، الإيجاز الذي يصل إلى مرتبة الإعجاز، وهو المجيء بالألفاظ القليلة، التي تحمل المعاني الوفيرة الكثيرة، والتي تصل إلى أوْج (السموّ البياني) مما يعجز عنه البشر، استمع معي إلى هذه الآية الكريمة ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فقد جمعت هذه الآية الكريمة ـ على وجازتها ـ جميع الأمور، والشؤون، والأحوال والأفعال، على وجه الاستقصاء، فله جلّ وعلا المُلْكُ، والتصرُّفُ التام، في الخلق، والرزق، والإحياء، والإعدام، وله الملكُ والملكوتُ، والأشياءُ والمخلوقاتُ، وله الحكمُ والفصلُ، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا خالق ولا مالك، ولا معطي ولا رازق، ولا متصرّف في الكون غيرُه، تمجّد وتعظّم اللّهُ الخالقُ، المبدعُ الحكيم!!

فالآية على قلة ألفاظها، جمعت المعاني الكثيرة الوفيرة، كما استوعبت جميع الشؤون والأشياء، حتى قال ابن عمر: من بقي له شيءٌ فليطلبه، وهذا ضربٌ من إعجاز القرآن ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وهو من الأسلوب البلاغي البديع.

التمثيل بالأرض الطيبة والأرض الخبيثة

٢ ـ المثل الثاني: ومن الأمثال والتشبيهات البديعة، ما مثّل اللّهُ به للمؤمن بالأرض الخصبة، الطيبة التربة، وللكافر بالأرض السَّبِخة، الخبيثةِ التربة، في قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ

نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]. والمراد أن الأرض الكريمة التربة، يخرج النبات فيها حسناً، وافياً، غزير النفع، لطيب تربتها، كذلك مَثَلُ المؤمن، يسمع الموعظة فينتفع بها، فالمؤمن طيِّبٌ وعملُه طيِّب، كالبلد الطيِّب، ثمره طيِّبٌ، والأرضُ الخبيثةُ التربة، كالأرض السبخة أو الصَّلدة التي تكثر فيها الصخور، لا خير فيها ولا بركة، ولا يستفاد منها بشيء إلّا بظهور الحشرات والبعوض، كذلك مَثَلُ الكافر، هو خبيث، وعملُه خبيث، يسمع المواعظ فلا ينتفع بها، ولا يلين قلبه بآيات الذكر الحكيم.

قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ ضربه اللَّه للمؤمن والكافر، فالمؤمنُ طيِّبٌ، وعملُه طيِّبٌ، كالأرض الطيبة ثمرُها طيب، والكافر خبيث وعملُه خبيث، كالأرض السبخة المالحة، لا خير فيها ولا بركة، ولا يُنتفع بشيء منها[1].

التمثيل النبوي للعلم والقلوب التي تستوعبه

وشبيهٌ بهذه الآية الكريمة، في جمالِ التشبيهِ وروعةِ البيان، ما جاء في (هَدْيِ النبوّة) من كلام سيد المرسلين ﷺ، بالتمثيل للهدى والعلم، الذي جاء به من عند اللَّه، بالمطر الغزير النافع، ينزل على الأراضي المتنوعة، فمنها ما يُفيد ويستفيد وهي الأرض الطيبة، ومنها ما يحفظ الماء فقط وهي الصخرية، ومنها ما يضرُّ ولا ينفع، ويكون سبباً للوباء والبلاء وهي الأرض السبخةُ، حيث يقول ﷺ: **«إنَّ مَثَلَ ما بعثني اللَّهُ به من الهدى والعلم، كمثَلِ غيثٍ ـ أي مطر ـ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفةٌ ـ أي أرضٌ طيّبةٌ ـ قَبِلت الماءَ، فأنبتت الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكان منها أجادب ـ أي أرض صُلبة صخراوية ـ أمسكت الماءَ، فنفع اللَّهُ بها الناسَ، فشربوا منه وسَقَوْا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعان ـ أي أرض سبخة مستوية ـ لا تُمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فذلك مَثَلُ من فقُه في دين اللَّه، ونفعه اللَّه بما بعثني به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدَى اللَّهِ الذي أرسلتُ به»**[2].

حكاية لطيفة: يُحكى في بعض القَصص والأخبار، أن يهودياً خبيثاً، أراد أن يطعنَ في صدقِ القرآن وصحته، وأن فيه من الأشياء ما ليس بصحيح،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير الطبري ١٢/ ٤٩٧.

(٢) رواه البخاري ١/ ١٨٥ في العلم، ومسلم في الفضائل رقم (٢٢٨٢).

ولا يتفق مع الواقع، فدخل أحد المساجد الكبرى، ورأى شيخاً مهيباً جليلاً، يفسِّر آيات القرآن الكريم، وقد تحلَّق حوله الآلافُ من طلاب العلم، ومن الوجهاء والكبراء، فوقف يستمع لحديثه بإصغاء، فلما انتهى الشيخ من الدرس، باغته الخبيثُ بسؤال محرج، فقال: يا حضرة الشيخ: قرآنكم يقول: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾!! [الأنعام: ٣٨] أي فيه كلُّ ما يحتاج الناسُ إليه من أحكام، وأخبار، وأدواء ـ وكان اليهودي أقرعَ ـ وتابع كلامه فقال: لقد بحثتُ عن دواء يشفيني من هذا الداء والوباء، وعَجِزتْ الأطباء، فلم أجد عندهم ما يشفيني من هذا المرض اللعين، فإذا سمحتم فضيلتكم، فأخرجْ لي العلاج والدواء من القرآن، لأصدِّق أنَّ كتابكم صحيحٌ، منزلٌ من عند الله، حتى أدخل في دين الإسلام، وأؤمن أنه كلام الرحمٰن!! ـ وأراد الخبيثُ بذلك، المغالطةَ، والتشويشَ على المستمعين والتشكيكَ لهم في القرآن ـ وكان الشيخُ ذكياً، سريعَ البديهةِ في الجواب، فقال له: من أخبركَ أنه ليس في كتابنا علاجٌ لهذا المرض الذي تشكو منه؟ افسحوا له يا معشر الطلاب الطريق، ففسحوا له حتى وصل عند الشيخ، وجلس أمامه متأدباً، فقال له الشيخ: تريد دواءً من القرآن لقرعتك، حتى تُشفى منها! قال: نعم وسأكون لك من الشاكرين!! فحملَ الشيخُ الحذاءَ، وأخذ يضرب به رأسَ اليهودي، بشدة وقوة، وأمر التلامذةَ أن يمسكوه، لئلا يهرب، وهو ينزل بالنعال على رأسه، واليهوديُّ يَصيحُ مستغيثاً: يا شيخُ أتوب إلى الله، دَعْني فقد كدتَ تهلكني، والشيخ يصيح به، لا يمكن أن أتركك حتى أخرج لك الدواء! وأخذت الدماءُ تسيلُ من رأس ذلك الخبيث، حتى كاد من شدة الضرب أن يموت ثم قال له: اسمعْ يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ إنَّ قرعتك خبيثة، كالأرض الصلدة الخبيثة، التي فيها الحجارة الصمّاءُ والصخور، لا بدَّ أن تعمل فيها المعاول والفؤوس!! وضحك الناس جميعاً، وشفوا غليلهم من هذا اليهودي، المتطاول على كتاب الله، وكانت حادثةً عجيبة، وقصة طريفة، لنباهة الشيخ، وحُسنِ استدلاله.

التمثيل الشنيع لعلماء السّوء

٣ ـ المثل الثالث: من أقبح وأشنع الصور، الذي يُجسِّد فظاعة وشناعة الأمر القبيح، ما مثَّل تبارك وتعالى به (لعلماء السُّوء) الذين لم ينتفعوا بعلمهم، بل

كان العلم سبباً لشقائهم وتعاستهم، فقد ضرب لهم المثال بصورة الكلب اللاهث، إن طردتَه وزجرتَه وجريتَ وراءه، مدّ لسانه فلَهَث، وإن تركتَه على طبيعته دون إزعاج له، ودون مطاردة، مدّ لسانه ولَهَث، يقول تعالى عن هذا الصنف: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وهذا أقبح تمثيل في الخسّة والدناءة، لم يضربه الله عزّ وجلّ، إلّا لمن آثر الدنيا على الدين، وباعَ دينَه بشيء من عرض الدنيا حقير، ولا يراد بقوله تعالى: ﴿ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ ﴾ حمل الأثقال على الظهر، وإنما يراد به المطاردة والملاحقة له، فالكلبُ هذه طبيعتُه، دائمُ اللهث، يدلع لسانَه ويمدُّه، لضعف قلبه، فهو بحاجةٍ إلى التنفس الشديد، بخلاف سائر الحيوانات، فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد، إلّا عند التعب والإعياء!!

ولنرجع إلى الآية الكريمة من بدايتها، يقول سبحانه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي اقرأ يا أيها الرسولُ على قومك، وعلى اليهود خاصة، هذا الخبرَ الهامَّ، خبرَ ذلك الرجل العالم الخاسر، الذي أوتي علماً ببعض كتاب الله في التوراة ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥] فانسلخ من تلك الآيات، انسلاخ الجلد عن الشاة، كما تنسلخ الحية من جلدها، والتعبيرُ بالانسلاخ منها؛ فيه إشارةٌ إلى أن الإيمان كان طلاءً، لم يخالط بشاشةَ قلبه، ولو رسخ الإيمانُ في قلبه لم يحصل منه ذلك ﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي تَبعه حتى لحقه وأدركه، وفي الآية تلويحٌ بأن ذلك العالمَ الزائغَ، الذي باعَ دينه بعَرَضٍ من الدنيا خسيس، كان أشدّ غوايةً من الشيطان، إذ صار كأنه إمام للشيطان، والشيطانُ تلميذ له، يتبعه ويلحقه، كما قال بعضُ غُلاة الضلالة:

وكنتُ فتًى من جُندِ إبليسَ فارْتقَى | بيَ الحَالُ حتّى صارَ إبليسُ مِنْ جُنْدِي

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] أي لو أردنا لرفعنا قدره بهذا العلم، وبهذه الآيات، إلى منازل العلماء الأبرار، ولكنه مالَ إلى الدنيا، وسكنتْ نفسُه إليها، فآثر حُطامها الفاني، على ما عند الله من الأجر الباقي، واتّبع هوى نفسه، فانحطّ إلى أسفل سافلين ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾ أي فمثلُه في الخسّة والدناءة

كمثل الكلب، إن طردتَه وزجرتَه وجريت وراءه، مدّ لسانَه فلهث، وإن تتركه على حاله وطبيعته، مدّ لسانه فلهث ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي هذا المثل الخسيسُ السيء، هو مثلٌ لكل من كذّب بآيات الله، من أحبار اليهود، وعلماء النصارى، الذين أوتوا (التوراةَ والإنجيل) ولكنهم بسبب حب الرئاسة والزعامة، تلاعبوا بأحكام الدين، وحَرَّفوا كلامَ ربِّ العالمين، فباءوا بالخزي والعار، وغضب الجبار.

حكى المفسرون أن أحد علماء بني إسرائيل، ويدعى (بَلْعَم بن باعورا) بعثه موسى عليه السلام إلى مَلِكِ (مَدْيَن) داعياً إلى الله، فرشاه الملكُ وقرّبه منه، وأغدق عليه المال، فترك دينَ موسى، واتّبع دين الملِكِ، فزاغ وضلّ، وأضلّ كثيراً من الناس، بسوء صنيعه، ففيه نزلت هذه الآية، والحكم فيها عامٌّ، لكلِّ من فتنته الدنيا بالمراتب والمناصب.

ومن تفكّر في الأمثال المضروبة في القرآن، يرى بكل وضوح، أن المثلَ الذي ضربه اللّهُ لعلماءِ السُّوْء، أقبحُ وأشنعُ من كل مثالٍ، ضربه اللّهُ لعبدة الأصنام والأوثان، فقد مثّل لها بالعنكبوت ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا . . .﴾ [العنكبوت: ٤١] ومثّلَ لها بالذباب الذي يتهافت على الطعام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ . . .﴾ [الحج: ٧٣]. أمّا علماءُ السُّوْء، فقد مثّل لهم تعالى (بالكلب) و(بالحمار) وهو أقبحُ تمثيل على الإطلاق، عافانا اللّهُ وإيّاكم من ذلك المرض والوباء، الذي حذّرنا منه سيد المرسليل ﷺ بقوله: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)[1]!! ولهذا ختم اللّهُ الآية الكريمة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال الإمامُ الشوكاني: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ أي لمّا انسلخ عن الآيات، ولم يعمل بها، صار منحطّاً إلى أسفل رُتبة، مشابهاً لأخسّ الحيوانات في الدناءة، ومماثلاً لها في أقبح الأوصاف، وهو أنه يلهث في جميع الحالات، سواءٌ قَصَده الإنسان أو تَرَكه، وسواءٌ زَجَره أولم يزجره، شدّ عليه أولم يشدّ عليه، وليس بعد هذا في الخِسّةِ والدناءة شيءٌ.

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم ٤٢٥٢.

قال القُتَيبيُ: كلُّ شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياءٍ أو عطش، إلَّا الكلبَ فإنه يلهث، في حال التعب وحالِ الراحة، وحال المرض وحال الصحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته، فقال: إن وعَظْتَه ضلَّ، وإن تركته ضلَّ، فهو كالكلب، إن طردته لَهَث، وإن تركتَه لهث[1].

التمثيل للكفار بالدواب والأنعام

٤ ـ المثل الرابع: ومن التمثيل البديع، الذي جاء في سورة الأعراف، ما شبَّه به تعالى حياةَ الكفَّار الفجار، بالدوابِّ والبهائم، بل جعلهم أضلَّ منها حالاً، وأسوأ مآلاً، حيث شبَّههم بهذا التشبيه الرائع المَتِين، بقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ومعنى الآية: واللّهِ لقد خلقنا لنار جهنم، كثيراً من الخلائق، من الإنس والجن، ليكونوا لها وقوداً وحطباً، لهم قلوب معميَّة لا يفهمون بها دلائل قدرة الله، ولهم أعين لا يبصرون بها طريق الخير والسعادة، ولهم آذانٌ صمَّاء لا يسمعون بها آيات الذكر الحكيم، أولئك كالبهائم والدواب، بل هم أضلُّ منها وأسوأ حالاً، لأن البهائم تدرك منافعها ومضارَّها، وهؤلاء لا يميِّزون بين الهدى والضلال، والمنافع والمضارّ، فهم غارقون في الشهوات والملذَّات، يعيشون لبطونهم وشهواتهم.

أثبت تعالى لهم القلوبَ، والأسماعَ، والأبصار، ولكنهم لمَّا لم يستفيدوا منها، صاروا كالبهائم السارحة، والحيوانات العجماء، وهو تمثيل رائع، في غاية الإبداع والجمال.

❁ ❁ ❁

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني ٢/ ٢٧٩.

الإبداع البياني في سورة الأنفال

١ ـ قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤] الدرجاتُ جمعُ دَرَجة، وهي ما يصعَدُ عليه الإنسانُ إلى الأعلى، واستعارَ (الدرجاتِ) هنا للمراتبِ الرفيعة، والمنازلِ العالية، التي يُكرِم اللهُ تعالى بها عباده المؤمنين في الجنة، وهي (استعارة بديعة) أي لهم عند الله مكانة سامية، ومنزلة رفيعة، في جنان الخلد والنعيم.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ...﴾ [الأنفال: ٧] الشَّوْكةُ (مستعارٌ) من واحدة الشَّوْك، التي تؤلم الجسد، والمراد بها هنا: الحربُ والسلاحُ، استعيرت للسلاح بجامع الشدَّة والحِدَّة بينهما، أي تحبُّون الغنيمة وتكرهون الحرب، وهي (استعارة بديعة) وقد كان رسول الله ﷺ بشَّر أصحابه فقال لهم: إن الله وعدني إحدى الطائفتين: إمَّا العير، أو النفير، فكانوا يحبُّون الطائفة التي لا سلاح فيها، وهي العيرُ، لأنها كانت محمَّلةً بتجارة قريش، وهي غنيمةٌ على بَرْد الماء.!

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] قطعُ دابرِ الكافرين: (كنايةٌ) عن استئصالهم بالهلاك، وقد تقدم أمثالُها في سورة الأنعام، والأعراف.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ [الأنفال: ١٩] ﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾ أصلُ الفتح: النُّصرةُ على العدوِّ، وهو خطابٌ لكفار مكة، سمَّى تعالى إهلاكَهُمْ نصراً على طريق (التهكُّم والسُّخرية) وهو ردٌّ على قول أبي جهل يوم بدر: «اللهمَّ أيُّنا كانَ أفْجَر، وأقْطَعَ للرحم، فأهلكْهُ اليومَ» تفسير الطبري.

ومعنى الآية: إن تطلبوا يا معشرَ الكفار، الفتحَ والنصرَ على محمد والمؤمنين، فقد جاءكم الفتحُ، وهو الهزيمةُ والاندحار، وهذا كلُّه على وجه (السخرية والتهكُّم)

مثلُ قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وأيُّ عزة وكرامة لمن يُعذَّب في نار السعير!؟

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] الحيلولةُ بين الإنسان وقلبه، من باب (الاستعارة التمثيلية) شبَّه تعالى تمكُّنَه من قلوب العباد، وتصريفَها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي استعارة لطيفة، وفي الحديث الشريف: «اللهم يا مقلِّب القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينك» رواه مسلم.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] المكرُ: الاحتيالُ بطريق الخديعة، لإيقاع شخصٍ في الهَلَاك، وهذا لا يجوز نسبتُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، إلَّا على طريق (المشاكلة) ومعناه: إحباطُ ما دبَّروا من كيدٍ ومكرٍ، سمَّاه (مكراً) مقابلةً لمكرهم، بطريق (المشاكلة) وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى.

قال ابن عطية: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ هو إبطالٌ لمكرهم، ودفعٌ له، وغيرُ جائزٍ أن يُقال: اللهُ يمكر، على ما يُفهم في اللغة، وإنما هو من باب (تسمية العقوبة باسم الذنب) اهـ المحرر الوجيز ٦/ ٢٧٥. والمعنى: يحتالون ويتآمرون عليك يا أيها الرسولُ، واللهُ يدبِّر لكَ، ما يُبطل مكرهم، ويفضح أمرهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي أقدرُهم وأعزُّهم جانباً!

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾ [الأنفال: ٣٧] الطيِّبُ، والخبيثُ (كناية لطيفة) عن المؤمن، والكافر، والبَرّ والفاجر، أي ليفرِّق الله ويفصل بين أهل الإيمان، وأهل الكفر والطغيان، وبين لفظ (الخبيث) و(الطيِّب) طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾ [الأنفال: ٤٦] أي تذهب قوَّتُكم وشوكتكم، وذهابُ الريح (استعارة بديعة) عن (الغلبة والقوة).

قال الشوكاني: الريحُ: القوَّةُ والنصر، كما يُقال: الريحُ لفلانٍ إذا كان غالباً في الأمر، شُبِّهتْ في نفوذِ أمرها بالريح في هُبوبها، ومنه قول الشاعر:

إذا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَعُقْبَى كُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ

تفسير الشوكاني ٢/ ٣٣٤.

أقولُ: عبَّر بالريح التي تعصف بالأشجار والأوراق فتدمِّرها، وهكذا إذا

دبَّ الخلاف والتنازع بين الأمة، شتَّتها ودمَّرها، وانهزمت أمام أعدائها!!.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥] شبَّه تعالى الكُفَّارَ بالبهائم، والدوابِّ، بل جعلهم شراً منها ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ وذلك منتهى البلاغةِ، ونهايةُ الإعجاز، إذْ إنَّ الكافرَ لا يسمع الحقَّ، والبهائمُ لا تسمع، والكافر لا ينطقُ به، والبهائمُ لا تنطق، والكافرُ يأكلُ ويشربُ، والبهائمُ تأكلُ وتشربُ، بقي أنه يضرُّ، والبهائمُ لا تضرُّ، فكيفَ لا يكون شراً منها؟ وصدق اللّهُ العظيمُ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

❁ ❁ ❁

الإبداعُ التمثيلي في سورة الأنفال

التمثيل للكفار بالبهائم والدواب

١ ـ **المثل الأول**: في سورة الأنفال، مثَّل تعالى للكفَّار، (بالبهائم والدواب) في أسلوب بديع ممتع، بل جعلهم شرّاً من جميع الدواب والبهائم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ • وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣] في هذه الآية تمثيل للكفار بالدوابِّ السارحة، لأنهم سمعوا الهدى والقرآن، بآذانهم دون قلوبهم، فلم يتَّعظوا ولم ينتفعوا، لأن الغرضَ من الاستماع، التدبُّرُ والانتفاع، فمن لم ينتفع من الكلام، فإنه بمنزلة الأنعام.

ومعنى الآية الكريمة: إن شرَّ المخلوقات، وشرَّ البهائم، التي تدبُّ على وجهِ الأرض، الصُّمُّ الذين لا يسمعون الهدى، البُكم أي الخرسُ الذين لا ينطقون بالحق، السفهاء المجانين الذين فقدوا العقل، فصاروا كالدوابِّ السارحة!! لم يكتف القرآنُ أن شبَّههم بالدواب والبهائم، بل جعلهم أخسَّ من البهائم بقوله: ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ وذلك نهاية الذمّ، وغاية التقبيح للكفرة المجرمين.

قال بعض العارفين: الآية في منتهى الإيجاز والإعجاز، إذْ إن الكافرَ لا يسمع الحقَّ، والبهائمُ لا تسمعه، ولا ينطق به، والبهائم لا تنطق به، والكافرُ يأكل ويشرب، والبهائم تأكل وتشرب، بقي أنه ـ بإبطاله للعقل ـ يضرُّ، والبهائم لا تضرُّ، فكيف لا يكون شراً منها؟! ولهذا ختم تعالى الآية بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي لو فُرض أن الله أسمعهم ـ وقد علِمَ أن لا خير فيهم ـ لأعرضوا عن هداية الله كفراً وجحوداً، لأن بصائرهم مطموسة، وعقولهم منكوسة.

تشبيه الكفرة بالقمامات التي تحرق

٢ ـ **المثل الثاني**: ومن غرائب الأمثال، التي ضربها الله للكفار، أنه شبَّههم

بالقُمامات والتفايات، التي تتجمَّعُ ويتكدَّس بعضُها فوق بعض، لتُحرق بالنَّار، بعد أن أصبحت سبباً للوباء والبلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧] قوله سبحانه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الخبيثُ: الكافرُ، والطيِّبُ: المؤمنُ، أي ليفرّق تعالى بين جند الشيطان، وجند الرحمٰن، ويفصل بين المؤمنين الأبرار، والكفرة الفجار، ويجمع الكفار حتى يتراكموا، ويتكدَّس بعضُهم فوق بعض، ثم يقذف بهم في نار الجحيم، لأنهم كالأوساخ والقُمامات، لا يُتخلَّص منها إلّا بالإحراق، ومعنى ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي يصبحوا كالحُطام والرُّكام، متكدسٌ بعضهم فوق بعض في نار جهنم، أولئك هم الكاملون في الخسران، شبَّههم تعالى بالنفايات والقُمامات، وهو تشبيه في غاية الإهانة والقبح.

من معجز الإيجاز في الكلام

القرآن معجزٌ في بيانه، كما هو معجزٌ في أحكامه، فحين يكون بين المسلمين والمشركين، أو أحدٍ من أهل الأديان، عهدٌ وميثاق، ثم شعروا بخيانة من جهتهم، فلا يجوز للمسلمين أن ينقضوا العهد، حتى يُعْلِمُوا عدوَّهم بذلك، لئلا يكون ذلك خيانة من طرف المسلمين، ومن معجز الإيجاز في الكلام، ما جاء في سورة الأنفال قولُ اللّه جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن، على إيجازه وكثرة معانيه، والمعنى: إن كنتَ تخاف خيانةً من قوم، بينك وبينهم عهد وميثاق، فانبِذْ إليهم العهدَ، على علم منك ومنهم، بأن تقول لهم: قد نبذتُ إليكم عهدَكم، وأنا ساقاتلكم، ليعلموا ذلك، فيكونوا معك في العلم سواءً، ولا تقاتِلْهم وبينك وبينهم عهدٌ، وهم يثقون بك، فيكون ذلك خيانةً، واللّه لا يحبُّ الخائنين، فأوجزَ اللّهُ ذلك كلَّه، في هذه الآية الكريمة[١].

❁ ❁ ❁

[١] انظر إعراب القرآن للإمام أبي جعفر النحاس ٢/ ١٩٢.

الإبداع البياني في سورة التوبة

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] في الآية (استعارةٌ حسنة) لمضيّ وانقضاء (الأشهرِ الحُرُم) وأصلُ الانسلاخ: سلخُ الجلدِ عن الحيوان، حتى يظهر منه اللحم، استعار (انسلخ) لمعنى مَضَى وانْقضَى، بطريق (الاستعارة التصريحية) لبيان أن صيانةَ دمائهم، إنَّما كانت لكرامة تلك الأشهر الحُرُم عند الله، فإذا انقضت استبيح قتلُهم وإهلاكهم.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ضيقُ الأرضِ إنما هو تصويرٌ بديع بطريق (الاستعارة التمثيلية) على ما نالهم من (الشدَّة والكرب) شبَّه ما حلَّ بهم من الكرب والهزيمة، والضِّيق النفسيّ الذي أصابهم، بضيق الأرض على سعتها، وقولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي انهزمتم أمام أعدائكم، وفيه زيادةُ بيانٍ وتوضيح، لضيق الأرض، وهو ما يُسمَّى بـ(التذييل) أي ختمُ الآية بما يناسب أوَّلها.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾ [التوبة: ٣٢] هذا التعبيرُ من لطائف أنواع (الاستعارة التمثيلية) فقد شبَّه تعالى القرآنَ بنوره الوضَّاء، بنور الشمس الساطعة، وأعداءُ الله الكفارُ، يحاولون القضاء على القرآن ودين الإسلام، وقد مُثِّلتْ حالُهم بحال من أراد أن يطفئ نور الشمس، المنبثّ في الآفاق، بالنفخ عليها بفمه الحقير، لإذهاب نورها وضيائها، ويا له من تصوير رائع بديع، لخيبتهم وخسرانهم!!

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] أسلوب سخرية وتهكُّم لأن البشارة تكون بالخير، لا بالشر، وقد تقدم توضيحها في سورة النساء.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] في

الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديره: أرضيتم بنعيم الدنيا الفاني، عن نعيم الآخرة الباقي، و(مِنَ) هنا بمعنى (بَدَلَ) نعيم الآخرة، ففي الآية (إبداعٌ بياني) بطريق الحذفِ والإيجاز.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [التوبة: ٤٠] في الآية (كناية بديعة) كنّى عن الشرك بـ(كلمة الذين كفروا) وعن التوحيد بـ(كلمة اللّه) وجاءت الجملةُ الأولى فعلية ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ﴾ وكأنها في طريق الانتهاء والزوال، والجملةُ الثانية اسمية ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ لأن الجملة الإسميّة، تدلُّ على الثباتِ والدوام، ولا يخفى ما في الأسلوب البديع من المبالغة، للتفريق بين ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ و﴿ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾ فتدبر أسرارَ الكتاب العزيز.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾ [التوبة: ٤٢] (الشُّقَّةُ): المسافةُ الطويلةُ البعيدة، التي توجب المشقّة على النفس، سمّى تعالى المسافةَ البعيدةَ بالشُّقَة (بطريق الاستعارة) لأنَّ النَّفسَ تحبُّ الراحةَ، وتكرهُ المشقّةَ، يريد أنهم بَعُدَ عليهم الطريقُ، فلم يخرجوا معك، ولو كان قريباً لسارعوا للخروج، طلباً للغنيمة، لا رغبةً في الجهاد في سبيل اللّه، وفي هذا التعبير تشنيعٌ عليهم وتحقير.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة: ٤٧] في الآية (استعارةٌ تبعية) شبّه سرعتهم في الإفساد بين المؤمنين، بسرعة سير الراكبِ، واستُعير لها (أوضعوا) من الإيضاع: وهو إسراعُ الإبل، على طريقة (الاستعارة التبعية).

ومعنى الآية: لو خرج المنافقون مع المؤمنين، ما زادوهم إلّا فساداً وشراً، ولأسرعوا بينهم بالنميمة، طلباً للفتنة، وإلقاء العداوة بين المؤمنين.!

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩] تشبيهٌ بديع، لاشتمال النّارِ عليهم من كلِّ جانب، بإحاطة العدوِّ بالجنود، بطريق (الاستعارة التمثيلية) بحيث لا يستطيعون الخروج أو الهرب، فنارُ الجحيم محيطة بالكافرين والمنافقين، إحاطةَ السّوار بالمِعْصَم، ويا له من إبداعٍ في التعبير!!

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] قبضُ اليدِ (كنايةٌ لطيفة) عن الشُّحِّ والبخل، كما أن بَسْطَ اليدِ كناية عن الجود والكرم، قال الشاعر:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتّى لَوْ أنَّهُ أرادَ لَهَا قَبْضاً لَم تُطاوِعْهُ أنامِلُهْ

١١ ـ قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ . . .﴾ [التوبة: ٦٧] الآيةُ من باب (المشاكلة) ومعناها: الاتفاقُ في اللفظِ، مع الاختلاف في المعنى.

والمراد أن المنافقين تركوا طاعة اللّٰه عزَّ وجلَّ، فتركهم من هدايته وتوفيقه، واللّٰهُ تعالى لا ينسى، فالنسيانُ منهم على حقيقته، والنسيانُ من اللّٰه تعالى بمعنى التركِ من رحمته ورضوانه، وتركهم في العذاب الأليم. ! قال ابن عباس: تركوا اللّٰهَ فتركَهم من كرامته وثوابه. اهـ فتح القدير ٢/ ٣٩٩.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] وهذه الآية أيضاً من باب (المشاكلة) والمعنى: أنهم يعيبون المتبرِّعين في صَدَقاتهم، الذين لا يجدون إلّا طاقتَهم ـ وهم الفقراء ـ فيستهزئون منهم ويسخرون، جازاهم اللّٰهُ على سخريتهم بإدخالهم نار الجحيم.

قال النحاس: معنى ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم، فسمّى الثاني باسم الأول على الازدواج ـ أي التوافق في اللفظ دون المعنى ـ اهـ معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ ٣/ ٢٣٨ بتحقيقنا.

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . . .﴾ [التوبة: ٨٠] الآيةُ واردة على المبالغة في عدم التوبةِ على المنافقين، لا يراد بها العدد المذكورُ (السبعون) إنما هي على التكثير، أي مهما استغفرتَ لهم، فلن يغفر اللّٰهُ لهم، فهي لتأكيد النفي، لا للتحديد، وهذا كما يقول القائل: لو سألتني حاجتك سبعينَ مرة، لم أقضِها لك، ولا يريد أنه إذا زاد على السبعين، قضى حاجتَه، وهذا على أسلوب العرب في المبالغة في عدم القبول، بذكر العدد الكبير.

قال الشوكاني: في الآية بيانٌ من اللّٰه تعالى لعدم المغفرة للمنافقين، وإنْ أكثرَ النبيُّ ﷺ من الاستغفار لهم، وليس المرادُ من هذا أنه لو زادَ على السبعين، لكان ذلك مقبولاً، بل المراد بهذا: المبالغة في عدم القبول. اهـ فتح القدير ٢/ ٤٠٥.

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧] هذه (كنايةٌ لطيفة) كنَّى بالخوالف عن النساء، أي رضيَ المنافقون أن يَبقوا مع النساء، المتخلِّفاتِ في البيوت، من أجل رعاية أطفالهنّ، خوفاً من القتل في الحرب، وهذا غايةُ الذمّ، ومنتهى التشنيع على المنافقين، لتركهم الجهاد في سبيل الله، كما قال الشاعر:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

١٥ ـ قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [التوبة: ٩١] في الآية (إيجازٌ بالحذْف) أي ليس على هؤلاء أصحابِ الأعذار المذكورة، إثمٌ في ترك الجهاد، والتخلّف عن الخروج مع رسول الله ﷺ، حُذف من الآية (التخلف وترك الجهاد) لدلالةِ السِّياقِ عليه، وهو من أساليب الإيجاز البديع.!

١٦ ـ قولُه تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩] الرحمةُ صفةٌ لا يمكنُ أن يسكنَ فيها الإنسانُ، والمرادُ بها هنا: الجنّةُ، التي هي محلُّ تنزُّل رحمة اللهِ عزَّ وجلّ، ففي الآية (مجازٌ مرسل) من باب (إطلاقِ الحالّ وإرادة المحلّ) أو إطلاق (الصفة وإرادة الموصوف) كما يقول علماء البيان، وقد تقدَّم مثلُها في سورة آل عمران.

١٧ ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...﴾ [التوبة: ١٠٩] في الآية (استعارةٌ تمثيليةٌ مكنية) شُبِّهت التقوى والرضوانُ من الله، بأرضٍ صُلبة متينة، يعتمدُ عليها البُنْيانُ، وطوى ذكرَ المشبَّه به، ورَمَزَ له بشيءٍ من لوازمه، وهو وضعُ الأساسِ للبناء، كما شُبِّه الباطلُ والنِّفاقُ، في ذهابه واضمحلاله، ببناءٍ بُني على حافَّةِ هوْةٍ سحيقة، فهوى البناءُ لعدم وجود أساس له، ولكونِهِ على حافة الحفرة العميقة، وهي (استعارةٌ بديعة) وتمثيلٌ رائع من روائع صور التمثيل.

والمعنى: أفمن أسَّس بنيان دينه، على قاعدةٍ صُلْبةٍ محكَمَةٍ، هي التقوى، والإيمانُ، والإخلاصُ، فارتفع الصَّرحُ، وشُيِّد البناءُ، فكان راسخاً ثابتاً كالجبال، كمن بَنَى بيتاً على طَرَف وادٍ سحيق، ولم يضع له أساساً، فما لَبِث أن تحطّمَ البناءُ وتَهَدَّم!؟ ويا له من تمثيلٍ رائع بديع!!

١٨ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] في الآية (استعارةٌ تبعيّةٌ) بديعةٌ، شبَّهَ تعالى بذلَ المجاهدين للأموالِ، والأنفسِ في سبيل الله، ومجازاتَهم عليها بالجنةِ دارِ النعيم، بعقدِ بيعٍ وشراءٍ، بطريق (الاستعارة التبعيّة) وفي الآية تمثيلٌ لهذا العقد بديعٌ رائع، صفقةٌ فيها بيعٌ وشراء، وشهادةٌ وضمان، وربحٌ مضمونٌ مؤكّد، البائعُ فيه (المؤمنُ) والمشتري فيه (ربُّ العزّة والجلال) والثمنُ فيه (الجنةُ) والشهودُ فيه (الملائكةُ) الأبرارُ، والصكُّ فيه (الكتبُ السماوية) والواسطةُ فيه خاتمُ الأنبياء (محمدٌ رسولُ الله) ﷺ فأكرمْ به من عقد، وأكرِمْ بها من تجارة رابحة، فيها الضمانُ والبشارة!؟ ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

١٩ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] في الآية (مجازٌ مرسلٌ) أطلق الركوعَ والسجود، وأراد بهما (الصلاة) من باب (إطلاقِ الجزء وإرادةِ الكُلّ) وخصَّهما بالذكر، لأنهما أعظمُ أركان الصلاة، وفي الحديث الشريف: «**أقربُ ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**» رواه مسلم، فعبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود أي المصلُّون.

٢٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥] السورةُ من القرآن، لا تزيد أحداً رِجْساً، بل هي شِفاءٌ لِمَا في الصُّدور، وجلاءٌ للقلوبِ، ونسبةُ ذلك إليها ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ وَرَد بطريق (المجاز) لأنهم بتكذيبهم لكلام الله، ازدادوا فتنةً وضلالاً، وشقاءً وبلاءً، فكان نُزولُ السورة، كأنه السبَبُ لهذا الرِّجْسِ والنَّجَس. والمعنى: أمّا المنافقون الذين في قلوبهم مرضُ الشكِّ والنفاق، فزادتهم نفاقاً إلى نفاقهم، وكفراً فوق كفرهم، فازدادوا رجساً وضلالاً، ولم يستفيدوا من هداية القرآن. والفرْقُ بين (الرِّجْسِ) و(النَّجَس) أن الرِّجْسَ أكثرُ ما يُستعمل في الأمورِ المَعْنويَّة، والنجَسُ أكثرُ ما يستعملُ في الأمور الحسيّة المادية، كنجاسة الثوبِ، ونجاسةِ البدن، والله أعلم.

٢١ ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ . . .﴾

[التوبة: ١٢٦] لا يراد بقوله: ﴿مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ العَدَدُ نفسُه، وإنما وردت للتكثير، والمعنى: نبتلي هؤلاء المنافقين، بأصناف البلايا والشدائد، ونكشف مخازيهم، ليتوبوا ويتعظوا، ثم لا يرجعون ولا يتّعظون، لأن قلوبهم ميتة، والقلبَ الميت لا يرجع إلى اللّه، مهما بذلت معه من جُهْد.ا



الإبداع التمثيلي في سورة التوبة

التمثيلُ للكفار بالقَذَر والنجس

١ ـ **المثل الأول**: شبّه تعالى المشركين، ومثّل لهم في مواطن عديدة، بضروبٍ من وجوه التشبيه، شبّههم بالدواب السارحة، وبالعُمْي، والبُكْم، والصُمّ، وبالأنعام التي تسمع الكلام، ولا تفهم المُرَام، وبالأعمى الذي يمشي مكبًا على وجهه، إلى غير ما هنالك، من التشابيه والأمثال، لينبّه تعالى إلى شديد خطرهم، وعظيم ضررهم، وفي سورة التوبة شبّههم تعالى بالنَّجس والقذر، الذي ينبغي أن يحذَرَ منه الإنسان، يقول اللهُ تقدست أسماؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

والمعنى: إن المشركين كالشيء النجس، الذي ينبغي أن يجتنبه العاقل، لخبث اعتقادهم، وكفرهم بالله، وعدم تطهرهم من الجنابة، وشربهم الخمور، وارتكابهم الفجور، فلا تمكّنوهم من دخول المسجد الحرام وإن خفتم الفقر بمنعكم لهم من دخول مكة ـ شرّفها اللهُ ـ فإن الله يرزقكم من فضله، ويوسّع عليكم الرزق من حيث لا تحتسبون.

والآية الكريمة واردة على (التشبيه البليغ): شبّههم بالنجس أي هم كالنجس في خبث الباطن، وخُبث الاعتقاد، حذفت منه أداةُ التشبيه، ووجهُ الشَبَه فأصبح بليغاً، كما نقول: عليٌ أسدٌ، أي كالأسد في الشجاعة والإقدام، ورُوي عن بعض السَلف، أن أعيانَهم نجسةٌ كالكلاب، والخنازير، والجمهورُ على أن الآية محمولةٌ على التشبيه، جُعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغةً في التقبيح والتشنيع، والحقيقةُ أن نجاسة الباطن، أخبثُ وأقبحُ من نجاسة الظاهر، ولهذا جاء التعبير بأسلوب الحصر ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ فمن لم يطهّرْ قلبَه من

الشرك، وفعلِ المنكر والخبيث، وكلّ ما يضرُّ الناس، فإنه أنجسُ من كل نَجِسٍ، وأخبثُ من كلّ خبيث، كما قال الشاعر:

يُعطيكَ من طَرَفِ اللسانِ حَلاوةً وَيروغُ فيكَ كما يَروغُ الثعلبُ

التمثيل للإسلام بالشمس الساطعة

٢ ـ **المثل الثاني**: من التمثيل البارع البديع، تفخيمُ شأنِ الإسلام، وإعلاءُ قدرِهِ، بتشبيهه بالشمس الساطعة اللامعة، وأعداءُ الإسلام يريدون إطفاء هذا النور الإلهي، وفيهم يقول تقدست أسماؤه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

المراد بـ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: دينُ الإسلام، فإن الإسلام بنوره المضيء، وحججه القاطعة، يشبه الشمسَ الساطعة في نورها وضيائها! مثّل تعالى لهؤلاء الكفار، الذين يعادون الإسلام ويحاربونه، بمثل بديع رائع، مثّل لهم بأناسٍ حمقى جهلاء، أرادوا أن يطفئوا نورَ الشمس، بالنفخ عليها بأفواههم، فنفخوا عليها ليذهبوا نورها، ويكسفوا ضياءها، ولْنتصوّرْ مقدار الخيبة لهؤلاء السفهاء الجهلاء، هيهاتَ أن يعكّر نورَها أهلُ الأرض جميعاً، لو استعملوا في النفخ أحدث الآلات، فكيف إذا كان النفخُ (بأفواههم الصغيرة) الحقيرة؟ وهو تمثيلٌ بادي الروعة والجمال، يدلُّ على خيبة وضياع جهود أعداء الإسلام، ولهذا أتبعَ التمثيلَ بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي أرسل محمداً ﷺ خاتَمَ النبيين، بالقرآن الهادي إلى الطريق المستقيم، وبدين الإسلام الحقّ، ليعليه على سائر الأديان، وفي التعبير عن الإسلام (بالدين الحق) تنبيهٌ على أن كلَّ دينٍ بعد مجيء الإسلام، باطلٌ غيرُ مقبول، لأن الإسلامَ نَسَخ ما سبقه من الأديانِ، وهذا مقتضى ظهوره، وغلبتِهِ على سائر الأديان.

المال قد ينقلب إلى نقمة

٣ ـ **وفي سورة التوبة** أخبر تعالى على أن المال الذي هو نعمة، قد ينقلب إلى بلاءٍ ونقمة، إذا لم يحسن الإنسان استعماله، قال جلَّ ثناؤه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾

[التوبة: ٥٥] أي لا تستحسن أيها السامع العاقل، ولا تفتتنْ بما أُوتي الكفّارُ والفُجّارُ، من زينة الحياة الدنيا، من الأموال والأولاد، فإنما هو استدراج لهم، ظاهره نعمةٌ وباطنه نقمة، والآية عامة في الكفار والمنافقين، فإنَّ الله يهلكهم بأموالهم بهذه (المخترعات الجهنمية) التي يخترعونها بأنفسهم، من طائرات حربية، وقاذفات وراجمات، وصواريخ، ومدافع، ودبابات، وقنابل ذرية، وهيدروجينية، وغيرها من الأسلحة الفتّاكة، وليس أدلَّ ولا أصدق على هذا الدمار الساحق، الذي أخبر عنه القرآن، ممّا حدث في الحرب العالمية الأولى، والثانية، فقد ذهب في الحربين ما يزيد على ثلاثين مليوناً من البشر، وما ينتظرهم أدهى وأمرُّ، تحقيقاً للوعيد الإلهي، الذي أخبر عنه القرآن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

التمثيل للمنافقين بالدابة الجموح

٤ ـ **المثل الثالث**: وممّا جاء من التمثيل البديع للمنافقين، في سورة التوبة، التمثيلُ لهم بالدابة الجموح، التي لا يستقرُّ على ظهرها راكبُها، والتشبيهُ لهروبهم من الرسول ﷺ والمسلمين، بالفئران التي تدخل في أضيق الجحور، يقول سبحانه عن المنافقين: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] أي يُقسم لكم هؤلاء المنافقون، أنهم مؤمنون مثلكم، وما هم بمؤمنين في الواقع، لكفرهم، وخباثةِ باطنهم، ولكنهم قومٌ جبناء، يخافون أن تقتلوهم، لذلك يُظْهرون لكم الإسلامَ تقيّةً، ويؤيّدونه بالأيمان الكاذبة الفاجرة... ثم جاء التشبيه البديع لأحوالهم الغريبة العجيبة، فقال سبحانه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧] أي لو وجدوا لهم حِصْناً يلجأون إليه، أو (مغارات) أي سراديب تحت الأرض يختفون فيها منكم (أو مُدْخَلاً) مكاناً ضيقاً يدخلونه، كالجُحْر ليَسْلَموا من الخطر، لانصرفوا نحوه، وأقبلوا إليه مسرعين، كإسراع الدابة، والبغل الجموح.!

وهذا تمثيلٌ رائع بديع، لحال المنافقين، مَثَّلَ تعالى خوفهم من افتضاح أمرهم، عند الرسول والمؤمنين، بحيث لو قدروا على الهروب منهم، ولو في شرِّ الأماكن، وأخسّها، وأخبثها، لما تأخّروا عن ذلك، شبَّههم بالفئران تدخل الجحور، والبغال الجامحة التي لا يستقرُّ عليها راكبها، من كثرة الاضطراب والنفور، ويا له من تمثيل رائع!!

التمثيل بجيش العسرة

٥ ـ لقد كانت (غزوة تبوك) التي خاضها النبيُّ ﷺ مع أصحابه الكرام، في أيام عصيبة وشديدة، كانوا في قلَّةٍ من الظَّهْر، يعتقب العشرةُ على بعيرٍ واحد، وفي قلَّةٍ من الزاد، وفي عُسْرٍ من وجود الماء، حتى نحروا الإبلَ واعتصروا كروشها، وكانوا في بُعدٍ من الطريق، وشدَّة من الحر، ولهذا سميت (غزوة العسرة) فقد كادت أعناق المسلمين أن تُقْطع، من شدة العطش، وقد مثَّل القرآنُ لهذه الغزوة بأنها (أيام العُسرة) وفي هذه الغزوة يصوِّر القرآن حالة الصحابة، وما نالهم فيها من شدائدَ وأهوال، فيقولُ تقدست أسماؤه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

والمعنى: لقد تاب اللَّهُ على النبيِّ وأصحابه، من المهاجرين والأنصار، الذين رافقوه في غزوة تبوك، وقت العسرة، وتوبةُ اللَّه على الرسول ﷺ للإذن للمنافقين في التخلف، وتوبتُه على المهاجرين والأنصار، لأجل ما وقع في قلوبهم، من الميل إلى القعود، لأن الغزوة كانت في حرٍّ شديد، ووقتٍ عصيب، لذلك سميت (غزوة العسرة).

معجزة نبوية في هذه الغزوة

روى ابنُ جرير الطبري عن عمر رضي اللَّهُ عنه أنه قال: (خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ إلى تبوك، في حرٍّ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد، حتى ظنَّنا أنَّ رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعيرَ، فيعصر فَرْثَه ـ يعني كرشه ـ فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده!! فقال أبو بكر: يا رسولَ اللَّه إنَّ اللَّه عوَّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا!! قال: أتحبُّ ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه، فلم يَرُدَّهما حتى سكبت السماءُ أمثالَ العيون، فملأنا ما معنا ـ يعني من أوعية وأواني ـ فلم نَرَها جاوزت العسكر)[1].

والتعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ يوحي بالشدَّة والهول، والكرب العظيم الذي أصابهم، حتى كاد بعضهم يُفتن في دينه،

(١) رواه الحاكم والبيهقي.

فيترك المعركة ويولّي الأدبار، راجعاً إلى المدينة، ولكنّ اللّه عصمهم، فصبروا، وثبتوا، واحتسبوا، ولهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفّقهم للثبات في الميدان، ليتوب عليهم، وهذا من لطفه سبحانه ورحمته بالمؤمنين، والآية فيها تمثيل بديع، وتصوير دقيق، لما نال المسلمين فيها من شدائد وأهوال، ومتاعب ومصاعب.

قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة

وفي الآية بعدها، لفتاتٌ دقيقة بديعة، تصوِّر حالة الثلاثة الذين تخلّفوا عن الغزوة، من أهل الإيمان، وهم (كعب، وهلال، ومرارة) ولم يكن تخلّفهم عن نفاق، فقد كانوا من أهل الدين والصلاح، وفيهم يقول سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] أي وتاب أيضاً على الثلاثة الذين تخلّفوا عن الخروج مع رسول اللّه ﷺ في تلك الغزوة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي ضاقت عليهم الأرض على رُحبها وسَعَتها، لإعراض الناس عنهم، بأمر الرسول ألّا يكلّموهم، وهو مَثَلٌ لشدة الحيرة، والحزن، والألم، الذي كان يعتصر قلوبهم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي ضاقت قلوبهم بما اعتراهم من الغمّ والكرب والهمّ، بحيث لا يسعها أُنسٌ ولا سرور، وفي هذا التصوير تَرَقٍّ من ضيق الأرض عليهم، إلى ضيقها في أنفسهم، وهو في غاية البلاغة والبيان، والتمثيل الفنّي البديع ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] أي أيقنوا أنه لا نجاة، ولا ملاذ ولا خلاص لهم، من سخط اللّه وعقابه، إلا بالرجوع إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] إنه سبحانه المتفضّل على عباده بأنواع النعم، الرحيم بمن تاب وأناب إليه، والآيات تصوير للشدائد التي نالها المسلمون في هذه الغزوة (غزوة تبوك) حيث كانت أصعب الغزوات في حرب المسلمين، كان السفرُ فيها طويلاً، والبلاءُ فيها شديداً، جابهوا فيها جيش الروم، ولهذا أفاض القرآنُ الكريمُ، في ذكر بعض مشاهدها، وتحدّث عن المنافقين الذين تخلّفوا عنها، وعن بعض المؤمنين المتخلّفين، وهم ثلاثة من أهل الدين والصلاح (كعبُ بنُ مالك) و(هلالُ بنُ أمية) و(مَرارةُ بن الرَّبيع) الذين تاب اللّه عليهم، بعد أن هجرهم المسلمون فلم يكلّموهم، بأمر الرسول ﷺ لهم بذلك، كما أمرهم باعتزال نسائهم، وبقوا على ذلك خمسين يوماً، حتى نزلت توبة اللّه عليهم، وفي هذه الغزوة نزلت الآيات الكريمةُ في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن

رَسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . . .﴾ [التوبة: ١٢٠] وكانت هذه الغزوة درساً بليغاً للمسلمين[١].



(١) انظر كامل قصة (غزوة العسرة) والمتخلّفين عنها، في (البخاري ومسلم) ففيها دروسٌ وعِبَرٌ، وتصويرٌ للحالة التي لاقها المسلمون من الشدائد والأهوال عجيب.

الإبداع البياني في سورة يونس

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] هذه (استعارة بديعة) فالصِّدْقُ ليس له قدمٌ، وإنما هو تعبيرٌ عن المنزلةِ العاليةِ، والدرجةِ الرفيعة، التي نالوها بسبب الإيمان، وهذا من باب (تسمية الشيء باسم آلته) لأنَّ بالقَدَم يكون السَّبْقُ، والتقدُّمُ، كما سُمِّيت النعمةُ يداً، لأنها تُعْطَى باليد، والعبارةُ غايةٌ في البلاغة والجزالة.

والمعنى: المؤمنون لهم أعمالٌ صالحة سابقة، قدَّموها ذُخراً لآخرتهم، فلهم عند ربهم المكانةُ الرفيعةُ، والأجرُ الحسنُ المحمودُ.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] اللَّهُ عزَّ وجلَّ عالمٌ بما يفعلُهُ البشرُ، ليس بحاجةٍ إلى امتحانهم، ليعلم ما يصنعون، وإنما ورد التعبير ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ بطريق (الاستعارة التمثيلية) شبَّه حالَ العِبَاد مع ربهم، بحالِ مَلِكٍ مع رعيته، أراد أن يختبرَهم، ويمتحنَ ولاءهم له، فأمهلهم فترةً من الزمن، ليعرفَ طاعتَهم، واستجابتَهم لأوامره، واستُعير الاسم الدالُّ على المشبَّه بهِ للمشبَّه، على سبيل التمثيل والتقريب للأذهان، وللَّه المثلُ الأعلى.

قال في تفسير روح البيان: اللَّهُ لا يحتاج في العلم إلى الاختبار والامتحان، ولكنْ يعاملُ الناسَ معاملةَ من يطلبُ معرفةَ ما يكون منهم، ليجازيهم بحَسَبه. اهـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٢/ ١٣٢.

٣ـ **قوله تعالى:** ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] المكرُ لا يُنسب إلى اللَّه، بالمعنى اللغويِّ المعروف، وإنما سُميت عقوبةُ اللَّه لهم مكراً، لوقوعها في مقابلة مكرهم، وتسميتُها مكراً من باب (المشاكلة) وهي الاتفاقُ في اللفظِ، مع الاختلاف في المعنى، أي قل لهم: اللَّهُ أعجلُ عقوبةً، وعذابُه أسرعُ وصولاً إليكم، من مكرِكم الخبيث.

قال الشوكاني: ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أعجلُ عقوبةً، وتسميةُ عقوبةِ اللّهِ مكراً من باب (المشاكلة) ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ المعنى: أن رسلَ اللّه وهم الملائكةُ يكتبون مكرَ الكفار، ولا يخفى ذلك على الملائكةِ الحفظة، فكيف يخفى على العليم الخبير. اهـ تفسير الشوكاني ٢/ ٤٥١.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ . . .﴾ [يونس: ٢٤] هذا من بديع الاستعارة، وروائع (التشبيه التمثيلي) شبّه الأرضَ حينما تتزين بالأزهار والنبات، بالعروس التي تتزيّنُ بالحُليّ والثياب، واستعيرَ لتلك الزينةِ، والبهجة، والنضارة لفظ (الزخرف) وقد تقدّم التفصيلُ والتوضيحُ لهذه الآيةِ في هذا الكتاب.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] في قوله: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ لِمَا سبَقَهُ من (التوراة والإنجيل) فإنهما قد بشّرت به، أي مصدّقاً لِمَا تقدّمه من الكتبِ الإلهية، التي أنزلها اللّه على رسله الكرام صلوات اللّه عليهم.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣] الصُّمُّ، والعُمْيُ كلاهما من بابِ (الاستعارة التمثيلية) شبّه الكفارَ بالصُّمْ وبالعُمْي، لإعراضِهم عن الحقّ، وتعاميهِمْ عن النُّورِ الوضّاء (القرآن العظيم) وإذا اجتمع مع فُقدانِ السّمْع، فقدانُ العقل، فقد استكملَ الشقاءُ والبلاءُ، فالكفارُ لا ينتفعون من القرآن، إلّا كما تنتفع البهائمُ من كلام النّاعق الذي يصيح بالأغنام.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] في الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق المحلّ وإرادة الحال) أي شفاء للقلوب، أطلق الصدور وأراد بها (القلوب) لأن الصدور محلُها، أي هو داوءٌ من أمراض القلوب، كالجهل، والشرك، والنفاق، وسائر الأمراض القلبية.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا . . .﴾ [يونس: ٦٧] هذه (استعارةٌ عجيبة) على طريق الإبداع والروعة في التعبير، سمّى تعالى النّهارَ مبصِراً، لأن الناسَ يبصرون فيه، فكأنّ ذلك صفةُ الشيء

بما هو سببٌ له، على (طريق المبالغة)، كما قالوا: ليلٌ أعمى، وليلةٌ عمياءُ، إذا لم يبصر الناسُ فيها شيئاً، لشدّة إظلامها، وفي الآية أيضاً (إيجازٌ بالحذف) ذكر سبحانه الليل والنهار، فحَذَف من الليل (مظلماً) لدلالة ما ذَكَرَه عن النهار ﴿ مُبْصِرًا ﴾ عليه، وحذفَ من النهار (لتتحركوا فيه) لدلالة ما ذكره عن الليل ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾، فالليلُ للسّكن والراحة، والنهارُ للكسب والعمل، وتبارك الذي جعلَ كتابه معجزاً، وكلامَه رائعاً مُبْدِعاً!!

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [يونس: ٧١] يعني بقوله: ﴿ غُمَّةً ﴾ أي مخفيًا مستوراً، عبّر عن الستر بالغُمّة، بطريق (الاستعارة التصريحية) أي لا يكن أمركُم مستوراً، فيكون كالغُمّة العمياء، بل اجعلوه ظاهراً منكشفاً، خاطبهم نوحٌ عليه السلامُ بذلك، ثقةً بنصر الله له، وهو واحدٌ بينهم، وهم جمعٌ غفير، متفقون على قتلِه أو إخراجه ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦] وهو بذلك يتحدّاهم ويقول لهم: إن عزمتم على قتلي وطردي، فأنا أعتمد على الله، ولا أخافكم ولا أخشاكم، وفي هذا التحدّي لهم، ما يدلُّ على وثوقه بنصر ربه، وعدم مبالاته بما يتوعّده به قومُه. !

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨] أصلُ الطّمس: المحوُ وإزالةُ الأثر، وهو هنا (استعارةٌ) عن محقها وإذهاب منفعتها، والشدّ: الإيثاقُ والربطُ، وهو هنا (استعارةٌ) عن تغليظِ العقاب، ومضاعفةِ العذاب، ولهذا ختمت بقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ والمعنى: الدعاءُ عليهم بأن يمحقَ اللهُ أموالَهم ويُهلكَها، ويجعل قلوبهم قاسية مطبوعة، لا تقبلُ الحقّ ولا تنشرح للإيمان. اهـ فتح القدير ٢/ ٤٨٣.

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦] ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ كنايةٌ عن القضاء السابق عليهم بالشقاء، والحكم الأزليّ الذي لا ينتقضْ، والمرادُ سَبَق حكمُه وقضاؤُه، بأنهم يموتون على الكُفر، ويُخلّدون في نار الجحيم.

الإبداع التمثيلي في سورة يونس

١ ــ من التمثيل البديع، ما جاء في سورة يونس عن طبيعة البشر، فهم يميلون دوماً إلى الضجر، لا يشكرون في السراء، ولا يصبرون عند الضراء، قد يغضب الوالد على ولده، فيسارع فيدعو عليه بالهلاك والموت، ولو استجاب الله دعاءه في الشرّ، كما يستجيبه في الخير، لهلك البشر، ولكنه تعالى حليمٌ، رحيم، ودود، لا يعجّل للناس البلاء، كما يعجّل لهم في الخير والصلاح، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يونس: ١١].

والمعنى: لو يعجّل اللهُ إجابةَ دعاءِ الناس بالشر، كما يُعجّل لهم استجابةَ الدعاءِ بالخير، لهلكوا وما أُمهلوا طرفةَ عين، ولكنْ اللّه سبحانه من رحمته بهم، أنه لا يعجل لهم الاستجابة بالشرّ.

قال مجاهد: هو دعاء الرجل على نفسه، أو ولده حين يغضب عليه فيقول: اللهمّ أهلكْه، اللهمّ دمّره، اللهم لا تبارك فيه، فلو استجاب اللّه دعاءه، فأهلكه وأماته، لبقي الإنسان طول عمره متحسّراً على ما بدر منه، ولذلك لا يستجيب اللّه الدعاء لهذا المتعجّل، رحمةً به، كما لا يُهْلك الكافرَ شفقةً عليه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي نترك الكفرة المجرمين، ونمهلهم دون عقوبة، نتركهم في تمرُّدهم وعتوِّهم، يتردّدون ويتحيّرون، لتلزمهم الحجةُ، إذ لا صلاح ولا حكمةَ، في إهلاكهم عاجلاً.

والتمثيلُ جاء في حذف (أداة التشبيه) أي مثلَ استعجالهم بالخير، أو كاستعجالهم بالخير، فحُذِفت من الآية الأداةُ مبالغةً.

وثمّةَ تصوير آخر لطبيعة البشر، وهي الملَلُ والضجر، يذكر ربه عند الشدة، وينساه عند الرخاء، يقول جلّ ثناؤه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ

فَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ . . . ﴾ [يونس: ١٢] وهو تصوير بديع لغفلة الإنسان، وتناسيه نعمة اللّٰه عليه، فهو يتضرّع إلى اللّٰه وقت الشدة، فإذا كشف عنه الضر، نسيَ ربه كما نَسي كربه!!

اللجوء إلى اللّٰه عند الشدائد والكروب

٢ ـ في القرآن الكريم صور بديعة، من صور (التشبيه التمثيلي) وهو الذي يكون فيه التشبيه متنوعاً، ليس من وجهٍ واحدٍ، إنما هو من وجوه متعددة ومتنوعة، استمع معي إلى هذه الآيات البيّنات، وهي تفيض روعةً، وجلالاً، وإبداعاً ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ما أعجب أمرَ البشر!! إنهم عند اشتداد الكروب والخطوبِ يعرفون ربهم، ويتضرّعون إليه!! يلجأون إليه في الشدة، ويكفرون به في الرخاء، وقد ضرب تعالى مثلاً لبغيهم وعدوانهم، فمثّل لهم بأناسٍ ركبوا البحر، فهاج بهم واضطرب، وشعروا بالخطر، يُحْدِق بهم من كل جانب، فهم في هذه الحالة يعرفون ربهم، ينسون الأوثان، ويدعون الرحمٰن، لكشف الضرّ عنهم، ولا يخطر عليهم في ذلك الحين، أحدٌ من الآلهة المزعومة التي كانوا يعبدونها، حتى إذا ما نجّاهم اللّٰه من الغرق، عادوا إلى الكفر والضلال، وقبيح الأعمال.

والتعبيرُ بقوله ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ تعبيرٌ يوحي بشدة الهول الذي أصابهم، بعد أن كانوا آمنين مطمئنين، يلهون ويفرحون، حتى إذا جاءتهم عواصفُ شديدةٌ، وأحاطت بهم أمواجُ البحار، من كل جانب، وأيقنوا بالهلاك، هناك يتذكّرون اللّٰه، ويلجأون إليه، مخلصين له الدين، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لئن أنقذتنا من هذا الكرب، وخلّصتنا من هذه الشدائد والأهوالِ، فسوف نعبدك وحدك، ونخلص لك الطاعة والعبادة، ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣] أي فلمّا أنقذهم وخلّصهم من الغرق والهلاك، عادوا إلى الكفر والعصيان، وعبادة الأوثان.

ثم يأتي دور الوعيد والتهديد، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ

أَنفُسِكُمْۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣] أي يا أيها البشر، وبالُ بغيكم عائد عليكم، لا يجني ثمرَته إلا أنتم، تتمتعون في هذه الدنيا بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحَسَراتُ الباقية، فالبغي نهايته وخيمة، والظلم ظلمات يوم القيامة.

وردت الآية على طريقة (التشبيه التمثيلي) لأن وجة التمثيل يكون فيه متنوعاً ومتعدّداً، مثّل لهم بركاب سفينة، ومثّل بالريح الهيْئة اللينة التي تسيُّرها، ثم بالريح العاصفة التي تصارعها، وبأمواج البحار المتلاطمة، وكلُّ هذه الوجوه المتعددة من (التشبيه التمثيلي) وهي صورةٌ رائعة من صور البيان، فالآية تمثيل لطبيعة الإنسان، لا يرجع إلى ربه، إلا وقت الكرب والعسر، فإذا نجّاه من الضيق، وكشف عنه الكرب والبلاء، نسي ربه، ورجع إلى الكفر والعصيان.

التمثيل للدنيا ونعيمها الزائل

٣ ـ الإنسانُ الجاهلُ يظنُّ أن سعادته، في التمتع بنعيم الدنيا، وجمعِ المالِ فيها، للنيل من لذائذها وشهواتها، ولذلك يُجْهد نفسَه في جمع حُطامها، ويكدُّ ويتعب لينال أكبر قسطٍ من متاعها، وينسى الآخرة.

ولقد ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا، وسرعة فنائها وزوالها، وصوَّرها بأنها سراب خادع، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤] فالآيةُ الكريمةُ تصويرٌ بديعٌ دقيق، لهذه الحياة الدنيا، التي ينخدع بها الكثيرون، فيظنون أنها دار الإقامة، ودار السعادة، وما دروا أنها ممرٌّ، وليست بدار مقرٍّ.

ولنتصوَّرْ هذا التمثيل البديع، من خلال هذه الآية الكريمة، لقد مثّل لهذه الحياة الدنيا، التي يغترُّ بها الناسُ، بمثلٍ بديع، مَثَلِ مطرٍ أنزله الله من السماء، فنبتَ به أنواعٌ من الأزهار والنباتات، واختلطَ نباتُ الأرض بعضه ببعض، بألوانٍ وأشكالٍ شتّى، ممّا يأكلُه الناسُ من أنواع الحبوبِ والبقول، والفواكه والثمار، ومما تأكله البهائمُ من الكَلأِ والمرعى، والتِّبن والشعير.

وقولُه سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ تصويرٌ رائع في غاية

الإبداع والجمال، تمثيلٌ لها بالعروس، إذا تزيَّنتْ بالحليِّ والثياب، فلبست أفخر الملابس، وتجمَّلت بأبهى الحُلَل، فإنها في هذه الصورة تزيد في الفتنة والإغراء، كذلك الدنيا تخدع، ثم تصرع، فإذا نزلَ عليها المطرُ، تزيَّنت الأرضُ، بالأزهار، والورود، والثمار، ثم جاءَ أمرُ اللَّه لها بالهلاك والدمار، فلا ينبغي للعاقل أن ينشغلَ بها، وينسى آخرَته وسعادته.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي فجعلناها كالزرع المحصود بالمناجل، الذي يبِسَ واندرس، فصارت خراباً يباباً، بعد أن كانت زاهيةً ناضرة، كأنها لم تكن عامرةً قبل ذلك.

ثم ختم الآية ببيان الغرض من هذا التشبيه والتمثيل، فقال عزَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثلَ ما بيَّنا في هذا المثَل الرائع، للحياة الدنيا ونعيمها الفاني، كذلك نوضِّح الأمثال، ونفصِّل العِبَر، لقوم يتفكرون ويتدبرون في نهاية الحياة، وهذا التمثيل الفائق الرائق، صورةٌ من صور الفنِّ البياني البديع، الذي تصوِّره لنا الآية الكريمة، وهو من نوع (الاستعارة التمثيلية) وما أبدعه وأروعه من تمثيل!!

التمثيل للجنَّة بالدار السالمة من الأحزان والأكدار

٤ ـ وبعد الحديث عن دار الفناء، التي صوَّرها القرآنُ بذلك التصوير البديع الرائع، جاءت السورةُ تتحدث عن دار البقاء والخلود (الجنة) وما أعدَّ اللَّه فيها لعباده المتقين، من أنواع الخيرات والكرامة، والأُنس والنعيم، مما لا يخطر على بال، مع النظر إلى وجه اللَّه الكريم، وهو أمرٌ زائد على النعيم الماديِّ في الجنة، وسميت الجنةُ (دارَ السلام) لأن من يدخلها يسلَمُ فيها من الأحزان والأكدار، والأمراض والأسقام، فليس فيها تعبٌ ولا نَصَبٌ، ولا همٌّ ولا غمٌّ يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

أي يدعو عباده إلى دار السلام، دار السعادة والهناء، ولا يستحقُّ التكريمَ في دار السلام، إلّا من أسلم وجهَهُ، وقلبه، وعقلَه، وجميعَ جوارحه للَّه عزَّ وجل، ودخل في دين الإسلام، وللمجانسة اللطيفة بين «الإسلام» ودار السلام، سميت الجنةُ بهذا الإسم الكريم (دار السلام)! وقد جاء التمثيلُ للدار بالإسلام، في حديث بديع من روائع البيان النبوي، حيث يقول ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ ما جئتُ

به، كمثل سيدٍ ـ يعني مَلِكٍ ـ بنى داراً، ثم صَنعَ مأدُبة، وأرسل داعياً، فمن أجابَ الداعيَ، دخل الدارَ، وأكلَ من المأدُبة، ورضي عنه السيد، ومن لم يجبْ الداعيَ، لم يدخلْ الدار، ولم يأكل من المأدُبة». فاللَّهُ: هو السيدُ ـ يعني الملِك ـ والدارُ: الإسلامُ، والمأدبةُ: الجنةُ، والداعي: محمد ﷺ[1].

ثم انظر الجناس اللطيفَ في قوله سبحانه بعدها: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦]. فبين (الحسنى) و(أحسنوا) جناسٌ لطيف يسمى (جناسَ الاشتقاق) والمراد بالحسنى: الجنةُ، وأمّا الزيادةُ فقد جاء تفسيرها عن رسول اللَّه ﷺ، أن المرادَ بها: النظرُ إلى وجه اللَّه الكريم، في حديث رواه مسلم والترمذي، ولفظُه: (إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهلَ الجنة، إنَّ لكم عند اللَّه موعداً، يريد أن ينجزه لكم!! فيقولون وما هو؟ ألم يُبيِّضْ وجوهَنا، ويدخلنا الجنةَ، ويجيرنا من النار!؟ فيُكشَفُ لهم الحجابُ فينظرون إلى وجهه الكريم، فواللَّهِ ما أعطاهم اللَّه شيئاً، أحبَّ إليهم من النظر إليه)[2] ثم تلا الآية الكريمة: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ . . . وَزِيَادَةٌ ﴾ الآية.

التمثيل لوجوه الكفار بظلام الليل الدامس

* ـ وبمقابلة الحديث عن السعداءِ أهلِ الجنةِ، يأتي الحديث عن الأشقياء أهل النار، فيصوِّرهم القرآنُ الكريمُ، بهذه الصورة القطيعة الشنيعة، من اسوداد الوجوه، وما يعلوها من القَتَرة والغَبَرة، والذل والهوان فيقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ . . . ﴾ [يونس: ٢٧].

أي تغشاهم الذلة والمهانة، وليس لهم من يعصمهم من عذاب اللَّه، ثم انظر وتمعَّنْ هذا التشبيه الرائع ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يونس: ٢٧] أي كأنما أُلبِست وجوهُهم، قِطعاً من ظلام الليل الدامس، من شدة الخزي والهوان، ومن فرط السواد والظلمة، شبَّه وجوههم في ظلامها، وبؤسها، وحسرتها، بالليل المظلم، الذي تكاثفت فيه الظلماتُ من كل جانب، ثم هم بعد ذلك مخلَّدون في نار الجحيم، وهو تشبيه رائع جميل، مناسب لجرائم هؤلاء الأشقياء المجرمين.

---

(١) رواه البيهقي، وابن جرير الطبري، والسيوطي في الدر المنثور.

(٢) رواه مسلم رقم (٨١) والترمذي رقم (٢٥٥٥).

التمثيل للكفرة بالصُمّ والعُمْي

٦ ـ تكرّر في القرآن تشبيه الكفار الفجار، بالصُمّ والعُمْي، وفاقدي العقل والإحساس، لأنهم لتعاميهم عن الحق، كأنهم فقدوا العقلَ والبصرَ، يقول سبحانه في سورة يونس: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ • وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ • إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٢ ـ ٤٤].

شبّههم تعالى في الآية الأولى بالصُمّ ـ أي الطُرش ـ الذين لا يسمعون الكلام، والأصمُّ العاقلُ ربّما ينتبه إذا وصل إلى صماخه، دويٌّ قويٌّ من الصوت، أمّا إذا اجتمع فقدانُ السمع والعقل، فقد اكتمل عليه البلاءُ، فالكفارُ يسمعون القرآنَ، ولكنهم لا ينتفعون به، ولا يتأثرون بقوارعه وزواجره، فكأنهم أصبحوا كالبهائم، التي لا تنتفع بما يُقال لها، إلا كما تنتفع الدوابّ، بسماع صوت الناعق الذي يصيح بها، دون أن تفهم غرضَه ومُراده.!

وفي الآية الثانية: شبّههم تعالى بالعمي الذين لا يرون الطريق، إنَّ لهم عيوناً ولكنهم لم ينتفعوا بها، فكأنهم فقدوا حاسة الإبصار، والأعمى إذا كان عاقلاً قد يهتدي إلى الطريق، بنور البصيرة ـ القلب ـ ولكنْ إذا اجتمع عليه (عمى البصر) و(عمى البصيرة) فهناك الطامةُ الكبرىٰ، حيث انسدّتْ عليه أبوابُ الهداية والسعادة، إلى طريق الرحمة والجنة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] ولهذا جاءت الآيات بعدها، توضّح هذه الفكرة والغاية، في قوله سبحانه: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] أي انظروا نَظَر تفكُّر واعتبار، إلى هذا الكون، وما فيه من الشواهد والدلائل، على وحدانيّةِ اللّه، وكمالِ قدرته، لتعلموا أن لها خالقاً مدبّراً حكيماً، ولكنْ ماذا تنفع الآياتُ والإنذاراتُ، لقومٍ عُمي القلوب، لا يفقهون؟ ولا يدركون دلائل قدرة اللّه ووحدانيته؟

وَلِلّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَداً شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

أمّا النجاةُ من عذاب اللّه، فهي للرسل الكرام، وأتباعهم المؤمنين الأبرار ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣] والمعنى:

إذا نزل العذابُ، فسوف تكون النجاةُ للرسلِ والمؤمنين، وذلك حقٌ لازمٌ علينا، من غير شكٍّ ولا ارتياب، فمدارُ النجاة من العذاب، هو الإيمانُ بالله ورسله، فقد نَصَرَ اللهُ إبراهيمَ على (النمرود) ونَصَرَ موسى على (فرعون) الطاغية الجبار، ونَصَر عيسى على أعدائه (اليهود) ونَصَر خاتم المرسلين على (كفار مكة) العُتاة الضالين، وهكذا لم يتخلَّفْ وعْدُ اللهِ أبداً عن عباده، لأنها (سُنَّةٌ كونيةٌ) مستمرة، واللهُ لا يُخلف الميعاد.



الإبداع البياني في سورة هود

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ...﴾ [هود: ٢٨] أي خفيتْ عليكم، من العمى ضد البصر، وفي الآية (استعارة تمثيلية) شبَّهَ الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه، بمن سَلَكَ مفازةً لا يعرف طُرُقَها ومسالكَها، وكان دليلُه رجلاً أعمى، كيف يهتدي إلى طريقه؟ يُقال: (حجةٌ عمياءُ) لمن خفيَ عليه وجهُها، و(حُجّةٌ مُبصرةٌ) للواضحة الجليّة، وهي من بديع (الاستعارة التمثيلية).!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] في الآية (مجازٌ بالحذف) أي فعليَّ عقوبةُ إجرامي، وجاءت الآيةُ بـ(إنْ) الدالّةِ على الشكّ، لبيان أن الأمرَ على سبيل الفَرْضِ والتقدير ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي لو افترضنا أنني افتريتُ هذا القرآنَ، فعليَّ عقوبةُ جريمتي وَوِزْري، بخلافِ إجرامهم، فإنه ثابتٌ ومحقّقٌ، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ فنسبَ الإجرامَ إليهم، دون نفسِهِ.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا...﴾ [هود: ٣٧] الأعينُ (كنايةٌ لطيفة) عن الحِفْظِ والرِّعايةِ، وفي الآية (استعارةٌ بديعة) أي اصنعِ السفينةَ بحفظنا ورعايتنا، وبتعليمنا لك، يُقال للمسافر: صَحِبَتْكَ عينُ اللهِ، أي رعايةُ اللهِ وحفظُه، ومثلُها قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تسيرُ بحفظنا ورعايتنا، ولا يمكن لعاقل أن يفهم أن السفينة تسير في عين اللهِ، فالآية واردة بطريق (الاستعارة التمثيلية) البديعة.!

٤ ـ قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢] أطلق ﴿السَّمَاءَ﴾ وأرادَ ماءَ المطر، ففي الآية (مجازٌ مرسل) علاقتُهُ المحليّة، لأنّ المطرَ ينزل من السّماءِ، ولفظُ ﴿مِدْرَارًا﴾ للمبالغة، أي كثيرَ الدَّرِّ والقَطْرِ، يُقال: سحابٌ مدرار، ومطرٌ مِدرار، إذا تتابعَ منه المطرُ، وهو إغراءٌ لهم بالتوبةِ، والإنابةِ إلى اللهِ، كقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا • يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] (استعارةٌ تمثيليةٌ) بديعةٌ، شبَّهَ الخَلْقَ وهم في قبضته سبحانه ومُلكِهِ، وتحتَ قهره وسلطانه، بالمالكِ الذي يملك العبدَ ويأخذ بناصيته، وهي منبتُ الشعر من مقدَّم الرأس، والعربُ إذا وصفُوا إنساناً بالذُّلِّ والخُضوع لآخرَ، قالوا: ناصيةُ فُلَانٍ في يدِ فُلان، أي إنه مطيعٌ لهُ، منقادٌ إليه، كالعَبْدِ الذَّليل، وقولُه: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تمثيلٌ آخرُ بديعٌ، كمن وقفَ على الجادة، لحفظِها، ودَفَع عنها قُطَّاعَ الطريق، ففي الآية (استعارة تمثيلية بديعة) عن كمال العدل عنده سبحانه.

والمعنى: إنه سبحانه على الحق والعدل، لا يفوته ظالمٌ، ولا يضيع عنده من اعتصم به.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٥٨] ﴿ أَمْرُنَا ﴾ أي العذابُ الذي نزل بهم، وهو (كناية) عن إهلاكهم بالريح الصَّرْصرِ العاتية.

والمعنى: لمَّا جاء أمرنا بهلاكهم، نجينا هوداً، ومن معه من المؤمنين، كنَّى عن العذاب بـ(أمرُنا) لأنه لا ينزل إلَّا بأمره تعالى، وللتنبيه على أنَّ العذاب نازلٌ من الكبير المتعال، وليس من إنسانٍ عاجزٍ قاصر.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ ﴾ [هود: ٥٩] فيه (مجازٌ مرسل) من باب (إطلاق الكلِّ وإرادة البعض) أي عَصَوْا نبيَّهم (هوداً) وفي الآية تفظيعٌ لحالهم، وبيانٌ أنَّ من عصى رسولاً، فكأنما عَصَى جميعَ المرسلين، لأنهم اتفقوا على التوحيد.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا . . . ﴾ [هود: ٧٧] التعبيرُ بقوله: ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ كنايةٌ لطيفة عن شدَّة الانقباض، أي ضاق صدرُه بمجيئهم، خوفاً على ضيوفه، لعجزه عن مدافعة الأشرار عنهم، ولهذا صرَّح بقوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧] أي شديد الكرب والبلاء.

قال علماء اللغة: الذَّرْعُ بمعنى الطاقة، وقد جُعل ضيقُ الذَّرع كنايةً عن قلة الوُسْع والطاقة، وشدةِ الأمر. اهـ تفسير الشوكاني ٢/ ٥٢٤.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] في الآية (استعارةٌ بديعة) قَصَدَ بالرُّكْنِ الشديدِ: قومَهُ وعشيرتَه. جعلهم كالرُّكْنِ له،

لأن الإنسانَ يلجأ عند اشتدادِ الخَطْب، إلى قبيلتِهِ وعشيرَتِه، كما يعتمدُ على ركنِ البناء الرصين، وجواب (لَوْ) محذوفٌ تقديره: لفعلتُ بكم ما فعلتُ، ونَكَّلتُ بكم تنكيلاً.

قال علماء البيان: حَذْفُ الجَواب هنا أبلغ، لأنه يُوهم بعظيم العُقوبة، وغليظِ النَّكال، ويَدَع النَّفْسَ تذهبُ إلى تخيُّل أضخم أنواع العقاب، وفي الحديث الشريف: «رحمَ اللّهُ أخي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد» رواه البخاري، يقصد الرسولُ جانبَ اللّهِ عزَّ وجلَّ، فاللّهُ أعظمُ ركنٍ، لمن لجأ إليه واعتمد عليه.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] أسند الإحاطةَ إلى (اليوم) واليومُ ليس بجسم حتى يحيط بالإنسان، فهو إسنادٌ للزمان، باعتبار أنَّ العذاب يكون فيه، ففي الآية (مجاز مرسل) أي أخاف عليكم عذاب يوم هائل، لا يُفلت منه أحد، وهو (يومُ القيامة) الذي لا ينجو منه كافرٌ، ولا فاجر.

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] في الآية (استعارةٌ تمثيليّةٌ) مثَّل لإعراضهم عن أمرِ اللّه، بالشيء الذي يُلقَى وراءَ الظَّهر، ولا يُبالي به الإنسانُ، تقولُ العربُ: جعل الأمرَ وراءَ ظهره، إذا لم يكترثْ به، ولم يهتَمّ بشأنه، والمعنى: جعلتم ربكم خلفَ أظهركم، كالشيءِ المنبوذِ، لا تعظّمونه ولا تطيعونه!!

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] في الآية (استعارةٌ مكنيّةٌ) شبّهَ تعالى فرعونَ بالوارد، الذي يتقدّم قومَه، ليدلّهم على الماء، وشبّهَ النّارَ بالماءِ، الذي يطلبُه الإنسانُ ليدفع عنه حرَّ العَطَش، وحَذَف المشبَّه به، وهو (الماءُ) ورمَزَ له بشيء من لوازمه وهو الورود (أَوْرَدَهُم) لأنَّ الورودَ لا يكون إلّا للماءِ، ولكنّه هنا (نارُ الجحيم) ولهذا قال: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وفيه إهانةٌ لهم وتحقير، فالماءُ لإذهاب العطش، والنار لتقطيع الأكباد، وإلهاب العطش.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩] الرِّفدُ: العونُ والمدَدُ، وفي الآية (استعارةٌ تهكّميةٌ) حيث شبّهَ اللعنةَ التي تلحقهم يوم القيامة، بالعَوْنِ والمدَدِ، وبئسَ هذا العونُ لعنتهُم في الدارين، واللعنة في الدنيا هي رِفْدٌ للعذاب ومددٌ له.

قال الزجاج: كلُّ شيءٍ جَعَلْتَه عَوْناً لشيءٍ ومَدَداً له، فقد رَفَدْتَه، ومعنى الآية: لحقتهم لعنة الدنيا العاجلةُ، وأُرْفِدُوا بلعنةٍ أخرى يوم القيامةِ، وبئسَ العونُ والعَطَاءُ لعنةُ الداريْن.

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠] المراد بالقرى: أهل القرى المهلكة، فهو على (حذف مضاف) كما في الآية بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: ١٠٢] يعني أهلَكَ أهلَها، ففيهما (مجازٌ مرسل) أطلقَ (المحلَّ وأراد الحالَّ).

والمعنى: ذلك من أخبارِ البلاد، التي أهلكنا أهْلَها، منها ما هو عامرٌ قد هَلَكَ أهلُه، وبقيَ بنيانُهُ، ومنها ما هو خَرَاب يَبَابٌ، قد انْدَثَر فصار كالزرعِ المحصود.

١٥ ـ قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] خلودُ أهل النار مقطوعٌ به، بالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة، وقولُه سبحانه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ معناه أنهم ماكثون في النار أبداً على الدوام والاستمرار، ما دامتِ السمواتُ والأرضُ، والآيةُ إخبارٌ عن التأبيدِ والمبالغة.

قال الطبري: إن العربَ إذا أرادتْ أن تصفَ شيئاً بالدّوام أبداً، قالت: هذا دائم دوامَ السمواتِ والأرض، بمعنى أنه دائمٌ أبداً، فخاطَبَهم اللّهُ جلّ ثناؤه بما يتعارفون به بينهم. اهـ.

وأما الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهو في العصاة من المؤمنين، فإنهم يخرجون من النار، بشفاعة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

❁ ❁ ❁

الإبداع التمثيلي في سورة هود

تمثيلُ العداوةِ الشديدة من الكفار للنبيّ ﷺ

١ ـ التمثيل الأوّل: مثّل تعالى لمبلغ العداوة، التي يحملها الكفار في صدورهم، للنبيّ ﷺ ودعوته ورسالته، بهذا التمثيل الفائق الرائع، بقوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] (ألَا) أداةٌ للتنبيه، أي انتبهوا أيها المؤمنون، فإن المشركين يَطْوُون صدورَهُم، على عداوتكم الشديدة، وعداوةِ نبيكم محمد ﷺ!! صوّرهم تعالى بصورة من يبالغ في ثني صدره، ليخفي ما في قلبه، من الحقد والضغينة الشديدة للنبيّ ﷺ والمؤمنين، يظنون أن هذا يخفى على الله، وهو سبحانه العالم بما يخفون وما يُعلنون.

لقد كشفت هذه الآية عن سرائر المشركين، وما انطوت عليه صدورهم من الحقد والعداوة، بتمثيلٍ بديع، وتصوير رائع، شبّهت حالتهم بحالة إنسان، يحمل في يديه خنجراً مسموماً، أراد أن يُخفيه عن عدوّه، فأحنى ظهره على صدره، إحناءً بالغَ الشدّة، حتى لا يراه أحدٌ، ولكنَّ الله لهم بالمرصاد، يرقبهم ليلاً ونهاراً، ويعلم أحوالهم سرّاً وجهاراً، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فالآية الكريمةُ واردةٌ على (صورة التمثيل) للحقد الدفين، الذي يحمله أعداء الإسلام، لخاتم النبيّين والمؤمنين، وهو تمثيل ظاهر الروعة والبيان.

التمثيل بالأعمى والبصير، والأصمّ والسميع

٢ ـ التمثيل الثاني: ضرب تعالى في هذه السورة، مثلاً للمؤمن والكافر، والبَرّ والفاجر، فالمؤمنون الصادقون، جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهم متنعّمون في جنان الخلد، لا يخرجون منها أبداً، والأشقياء الفُجّار، منحهم اللهُ السمعَ والبصر، ولكنهم كانوا صُمّاً عن سماع الحقّ، عُمياً عن اتباعه، هم في

دركات الجحيم، لا يُخرجون منها أبداً، فقد استعاضوا عن النعيم، بلظى الجحيم، وآثروا الفانية على الباقية، فما أتعسهم وأشقاهم!! وقد جاء المثلُ لهم بصورةٍ بديعة، شملت بإيجازها كلّاً من أهل الجنة، وأهل السعير، فقال سبحانه: ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤] أي مَثَلُ الفريقين: (الضالين) و(المهتدين) كمثل من جَمَع بين العمى والصّمم، وهذا مَثَلُ الكافر، ومن جمع بين السمع والبصر، وهذا مثلُ المؤمن، هل يستويان في الوصف والبيان؟ لا يستويان أبداً، فليس حالُ من يتخبّط في ظلمات الجهالة والضلالة، كحال من يبصر الحقّ، ويسمعه، ويقبله، ويستضيء بضيائه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتأملون في هذا المثل البديع؟ وتفرّقون بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال؟

شبّه تعالى الكافر بالجامع بين (العمى والصّمم) وشبّه المؤمن بالجامع بين (السّمع والبصر) ثمّ فيه من المحسّنات البديعية، ما يُسمّى باللفّ والنشر المرتّب، حيث أعاد لفظ (الأعمى والأصمّ) على الكافر، ولفظَ (البصير والسميع) على المؤمن، ثم فيه (الطباق) بين الأعمى، والبصير، وكلاهما من المحسّنات البديعية، ومعنى (الطّباق) أن يأتي بالشيء وضدّه، فالعمى ضدُّ البصر، والصَّمَمُ ضدُّ السمع، نسأله تعالى أن لا يُعمي بصائرنا.

التمثيل للأمواج العاتية بالجبال

٣ ـ **التمثيل الثالث**: تحدثت السورة الكريمة عن سفينة نوح، وَصَفها تعالى بوصفٍ بالغ الشدّة والهول، في قوله سبحانه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] الكاف للتمثيل والتشبيه (كالجبال) وهذا الوصف يصوّر لنا مبلغ الهول الشديد، الذي كاد يُغْرقَ السفينة، بأمواجه العاتية، كأنّ كلَّ موجةٍ كالجبل، في تراكمها وارتفاعها، والأمواجُ العظيمة تحدثُ عند حصولِ الرياح الشديدة، ولْنتصوّرْ مبلغَ الهول الذي بلغ في الطبيعة، فالمركب ـ السفينة ـ صغير، والأمواجُ هائلةٌ عاتية، والرياحُ شديدة، وكأنّ السفينة ريشةٌ في مهبّ الهواء، فكيف يكون حالُ رُكّابها؟ ونوحٌ الأبُ الرحيمُ، يبعث بالنداء تِلْوَ النداء: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ وابنه المغرورُ يأبى إجابةَ الدعاء ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أي سأصعد إلى أعلى جبلٍ، يحفظني من الغرق ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ

أمر الله إلا من رحم﴾ أي لا ناجي اليوم من عذاب الله، إلّا من رحمه الله، فنجّاه من الطوفان... وما هي إلّا لحظات خاطفة ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] أي حال بين نوح وابنه أمواجُ البحر، فكان ابنه الكافرُ (كنعان) غارقاً بالطوفان.! وهكذا يُحسم الموقفُ في سرعةٍ خاطفة، وتمثيلٍ رهيب يأخذ بالأنفاس، ويتمُّ أمرُ الله بإغراق المكذِّبين.

التمثيلُ في التعبير القرآني المعجز

وفي قصة سفينة نوح، وحادثة الطوفان، الذي عمَّ أنحاء الأرض، جاء التعبير القرآني المعجز، بأسلوب بلاغيٍّ يعجز عنه جميع البشر، في قوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، ففيها (الاستعارةُ، والمجازُ، والتمثيلُ، والإيجاز، وأنواعٌ من علم البديع)، وقد اهتمَّ بإظهار لطائفها وأسرارها صاحب تفسير البحر المحيط، فقال رحمه الله: (وفي هذه الآية أكثرُ من عشرين نوعاً من البديع، منها المناسبةُ بين قوله ﴿ٱبْلَعِى﴾ و ﴿أَقْلِعِى﴾ ويسمى بالجناس غير التام، والطباقُ بين ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ والمجاز في قوله: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ المرادُ به مطرُ السماء، والاستعارةُ في قوله: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ فإن البلع حقيقتُه إدخالُ الطعام في الحَلْق، وهذا خاصٌ بالإنسان والحيوان، وهو هنا (استعارة) أي انشقّي وابتلعي ماءَكِ ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ يعني كفّي عن المطر، وهي أيضاً (استعارةٌ)، و(الكنايةُ) في قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ كنّى به عن ذهاب الماء في أغوار الأرض، و(التمثيلُ) في قوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ عبّر به عن إهلاك الهالكين، ونجاة الناجين، و(الإردافُ) في قوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ قصداً للمبالغة في (التمكُّن)، و(الإيجازُ) وهو ذكرُ القصة باللفظ القصير، مستوعباً للمعاني الكثيرة، وذكر رحمه الله وجوهاً أخرى، فارجع إليها في تفسير البحر المحيط ٥/٢٤٧).

وقد قال ابن المقفَّع ـ وهو من أساطين الأدباء والفصحاء ـ: أشهد أن مِثْلَ هذا الكلام لا يستطيعه أحد من البشر، ولا أن يأتي بمثله[1].

وقال ابنُ أبي الإصبَع: وما رأيتُ ولا رَوَيْتُ في الكلامِ المنثور، والشِّعْرِ

---

(١) انظر صفوة التفاسير ٢/١٨ والتفسير الواضح الميسر صفحة (٥٤٨).

الموزونِ، كآيةٍ من كتاب الله تعالى، استخرجت منها واحداً وعشرين ضرباً من البديع، وعددُ هذه الآية سبع عشرة لفظة، وتفصيلُ ما جاء فيها من البديع: (المناسبةُ التامة) في ابلعي، وأقلعي، و(المطابقةُ اللفظيةُ) في ذكر السماء والأرض، و(الاستعارةُ) في ابلعي ماءك، و(المجازُ) في قوله يا سماء، فإن المراد بها مطر السماء، و(الإشارةُ) في قوله ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فإنه تعالى عبَّر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة، لأن الماء لا يَغيض حتى يُقْلِعَ مطرُ السماء.. وذكر بقية الأنواع مع شواهدها[1].

التمثيل بالأخذ بناصية الخلائق

٤ ـ التمثيل الرابع: ورد في السورة الكريمة التمثيلُ الرائع للمُلْكِ العظيم لجميع الخلائق، فاللهُ جلَّ جلاله مالكُ الكون، وهو سبحانه خالقُها، ومالكُها، وهو المتصرف فيها كيفما شاء، ولنستمع إلى قول نبيِّ الله (هود) عليه السلام، وقد هدَّده وتوعَّده قومُه الكفرةُ، عبدةُ الأوثان، فقال لهم في ثباتٍ وإيمان: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] الأخذ بالناصية: عبارةٌ عن القهر والغَلَبة، والعربُ إذا وصفُوا إنساناً بالذلَّة والخضوع، قالوا: ناصيتُه بيدِ فلان، أي إنه مطيعٌ له، خاضعٌ له كالعبد الذليل، وأخذُ اللهِ بناصية الخلائق (استعارة تمثيلية) وهي من بدائع أنواع الاستعارة.

والمعنى: ما من أحدٍ من الخلق، إلَّا هو في قبضته تعالى، وتحت قهره وسلطانه، يصرِّفه على ما يريد، والغرضُ من هذا الكلام: الدلالةُ على عظمته تعالى وجلاله، وكبريائه، وسلطانه.!

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكملةٌ للتمثيل، كمن وقف على الجادة، فحفظ المارين، ودفع قُطَّاع الطريق عنهم، أي إنه سبحانه عادلٌ في حكمه، حافظٌ لعباده، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده من التجأ إليه.

التمثيلُ للمسارعة نحو الفجور

٥ ـ التمثيل الخامس: وفي قصة قوم لوط عليه السلام، يستوقفنا هذا التعبير المعجز البليغ، في تصوير هؤلاء السفهاء من قومه، وهم يسرعون لطلب الفاحشة

---

(١) انظر تتمة هذا الإبداع في الآية الكريمة في كتاب (معجم البلاغة العربية) الدكتور بدوي طبانة ص٦٤.

بالضيوف؛ كأنهم في ميدان سباق، يدفع بعضهم بعضاً، وكأنَّ هذه القذارة (اللواطة) غنيمةٌ، يريد كلُّ واحدٍ اقتناصها، ولْنتصوَّرْ هذا التمثيل الذي مثّل به القرآنُ سفاهتهم وفجورهم ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

الإنسانُ الفاضلُ السويُّ، يُسرع نحو الخير والفضيلة، ولكنْ هؤلاء الأشقياء، لسفههم وفجورهم، يسرعون لطلب القذارة والنجاسة، رغبةَ نيلِ الفاحشة بضيوف لوط عليه السلام.

والتعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يتركنا أمام هذا المشهد المخزي، مشهدِ الإنسان الذي يُسرع في طلب حاجةٍ تهمُّه، فهو مندفعٌ نحوها اندفاعاً، يريد أن يصل إلى مطلوبه، وما هو مطلوبُه؟ الفجورُ والاستمتاعُ (بالشذوذ الجنسي) الذي يأنفه حتى الحيوان، وهو أن يأتي الذَّكرُ الذَّكَرَ، وهذا منتهى القبح والشناعة، فالبغلُ مثلاً لا ينزو على بغلٍ مثله، إنما ينزو على الأنثى «الأتان» فكيف وصلت بهم القذارة والدناءة، إلى هذه الدرجة من الانحدار البهيمي؟.

وهنا يتلطف بهم نبيُّهم، ويخاطب فيهم مروءتَهم وشهامتَهم، ولكنْ دون فائدةٍ ولا جدوى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي هؤلاء بناتُ البلد، تزوَّجوا بهن، فذلك أشرف لكم وأطهر، ولم يقصد بقوله (بناتي) أن يفديَ ضيوفه ببناته من صلبه، كما قد يفهم البعض، وإنما أرشدهم إلى نساء البلد، أن يتزوَّجوا بهنَّ، لأن كلَّ نبيٍّ كالوالد لأمته، كما يقول الحافظ ابن كثير: (يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة) تفسير ابن كثير.

وماذا كان جواب هؤلاء السفهاء؟ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾؟ [هود: ٧٩] أي لقد عرفتَ غرضَنا وهدفنا الذي جئنا من أجله ـ وهو الاستمتاعُ بالذكور ـ وليس لنا رغبةٌ ولا حاجة في النساء، فلا تعرضْ علينا بنات البلدة، وإنك لتعلم مرادنا، وهو هؤلاء الضيوف الحِسان!!

صرَّحوا بغرضهم الخبيث، وهو الفجورُ بالذكور ـ قبَّحهم اللّهُ ـ دون خجلٍ ولا حياء، وهذا منتهى الانحطاط الجنسي الذي وصل إليه القوم!!

ومن المؤسف حقاً، أن تعود البشرية أدراجها، إلى التردّي في (بؤرة الرذيلة) والشذوذ الجنسيّ، فتتخذ بعض البلاد الأوروبية قانوناً يسمح بمقارفة القذارة الجنسية (اللواطة) تحت شعار حقّ الإنسان في ممارسة حريته الشخصية، وكأنّ البشر انقلبوا إلى مجموعة من الكلاب والحمير، يمارسون ما يشتهون، دون التقيد بالضوابط الدينية والأخلاقية.!

التمثيل بعدم الاكتراث بالشيء

٦ ـ **التمثيل السادس**: العرب إذا أرادوا وصف أمرٍ من الأمور بعدم الاهتمام به، يقولون: جعله خلْفَ ظهره، وهو مَثَلٌ يُضرب لمن لم يعبأ بشيء، ولم يهتمّ به، وقد جاء هذا التمثيل في قصة شعيب عليه السلام مع قومه، حين هدّدوه بالقتل ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩١، ٩٢] رهطُ الرجلِ: قبيلتُه وعشيرتُه التي ينتمي إليها، يقول الأشقياء لنبيّهم شعيب عليه السلام: لولا عشيرتُك وجماعتُك لقتلناكَ رمياً بالحجارة، ولستَ عندنا بمحترم ولا مكرّم!! فيقول لهم شعيب عليه السلام موبّخاً ومنكراً عليهم سفاهتهم: هل عشيرتي وجماعتي، أعزّ عندكم من الله وأكرم؟ أتتركون قتلي من أجل قومي؟ ولا تتركونه إعظاماً لجانب الربّ تبارك وتعالى، الذي أنا نبيُّه؟ وجعلتم ربكم خلف ظهوركم كالشيء المنبوذ، لا تعظّمونه ولا تطيعونه!! إن ربي قد أحاط علماً بأعمالكم الشرّيرة، وسيجازيكم عليها أسوأ الجزاء.

فالآية وردت على (التشبيه والتمثيل) لكل أمرٍ مهملٍ، لا يعتني الإنسان بشأنه، ولا يقيم له وزناً، على طريقة العرب، في قولهم لكل ما لا يُعبأ بأمره: جعل فلانٌ هذا الأمر وراء ظهره، فجاء الحديث عنهم بما يفهمونه ويدركونه.

٧ ـ **التمثيل السابع**: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

قوله سبحانه: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ تشبيهٌ وتمثيلٌ بديع، أي من هذه المدن، ما هو عامرٌ، قد هلَكَ أهلُه وبقيَ عمرانُه، ومنها ما هو خرابٌ، قد اندثر بأهله، فلم يبقَ له أثرٌ، كالزرع المحصود... شبّه تعالى ما بقي من آثار القرى وجدرانها، بالزرع القائم على ساقه، وشبّه ما هَلَك مع أهله، ولم يبق له أثرٌ، بالزرع المحصود بالمناجل، على طريقة (الاستعارة التمثيلية).

والاستعارةُ ـ كما يُعرّفها علماءُ البلاغة ـ هي من المجاز اللغوي، وهي في الأصل تشبيهٌ حُذِفَ أحدُ طرفيه، فعلاقتُها المشابهةُ دائماً، كقول الشاعر:

مَتَى يَبْلُغِ البُنْيَانُ يَوْماً تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

شُبّهت حالُ من يريد للأمة خيراً وإصلاحاً، بحال شخص يبني بناءً شامخاً، وكلّما أوشك أن ينتهي منه، جاء من يُخرّبه وينقضه حجراً حجراً، فمتى يكمل البناءُ، ويرتفع هذا القصرُ الفخمُ المشيد؟

التمثيل لأصوات أهل جهنم بأصوات الحمير

٨ ـ **التمثيل الثامن**: ورد في القرآن الكريم، هذا التمثيل المرعبُ المفزع، لأهل جهنم وهم يشهقون ويزفرون بأصوات منكرة، تشبه أصوات البغال والحمير، يقول سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٧] الزّفيرُ: إخراجُ النَّفَس من الصدر بقوةٍ وشدة، والشّهيقُ: ردُّه، والمراد بهما: الدلالةُ على شدّة الكرب والغمّ، وتشبيهُ أصواتِ أهل النار بأصوات الحمير، فكما أن الحمير لها أصواتٌ منكرة ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩] كذلك الأشقياء الفجار، لهم أصوات منكرة في جهنم، يحصل منها الزفيرُ والشهيقُ، الذي يشبه أصوات البغال والحمير.

قال قتادة: صوتُ الكافر في النار كصوت الحمار، أوّلُه زفيرٌ، وآخره شهيق.

وقوله سبحانه: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ هذا واردٌ على معنى (الخلود والتأبيد) أي ماكثين في جهنم، على وجه الدوام والاستمرار.

قال الطبري: (من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام على التأبيد، قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليلُ والنهار، يعنون بذلك التأبيد، فخاطبهم الله جلّ ثناؤه بما يتعارفونه بينهم) جامع البيان للطبري ١٢/ ١١٧.



الإبداع البيانيّ في سورة يوسف

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ... ﴾ [يوسف: ١٨] الدَّمُ لا يوصف بالصدق أو الكذب، وإنما أطلَق (المَصْدَرَ) على اسم (الفاعل) للمبالغة، كأنه نفسُ الكذب، وعينُه، أي بدم كاذب، ، كما تقولُ عن الخمر: هذا الرجسُ، وتقول عن المتمكِّن في المعرفة: هذا العِلْمُ، على طريقِ المبالغة.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف: ٢٥] قوله: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ هذا من اختصار القرآن المعجز، الذي يجمع المعانيَ الكثيرةَ في الألفاظِ القليلةِ.

وتقديرُ الكلام: تسابقا إلى الباب الخارجيْ، هي للطلب، وهو للهرب، فأسرعتْ وراءه لتمنعه عن الخروج، فتعلَّقتْ بقميصِهِ ـ يعني ثوبه ـ من خلفه، وعزمت أن تجبرَهُ على مضاجعتها بالقَسْر والإكراه، فهرَبَ منها، وشقَّتْ قميصَه من الخَلْف، فاختصرَ القرآنُ ذلكَ كلَّه، بتلك العبارة البليغة ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾.

٣ـ قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ [يوسف: ٣١] في الآية (استعارةُ تبعيَّةٌ) بديعة، سمَّى حديثهن (مكراً) لأنه كان في خفية عنها، كما يُخْفِي الماكرُ مَكْرَهُ عن عدوِّه، والمرادُ سمعتْ ما يتحدَّث به نسوةُ المدينة، طَلَبَتْهُنّ وهيأت لهن ما يتَّكِئْنَ عليه، من الوسائدِ والنَّمَارق، وقولُه سبحانه: ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ [يوسف: ٣١] في الكلام (إيجاز بالحذف) تقديرُه: قدَّمت لهن الطعامَ، وأنواعَ الفاكهة، ثم أعطتْ كل واحدة سكِّيناً.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١] يعني جرحن أيديهنَّ بالسكاكين، لفرطِ الدهشة المفاجئة، استعار لفظ (القَطْع) للجراحة، وهي (استعارة لطيفة) والتعبيرُ عن الجرح بالقطع، ممَّا يشير إلى كثرة جراحهنَّ، ومع ذلك لم يشعُرْنَ به، لاستغراقهن في الاستمتاع بجمالِ يوسف الفائق.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا... ﴾ [يوسف: ٣٦]

الخمر لا تُعْصَرُ إنما يُعْصرُ العِنَبُ. ففي الآيةِ (مجازٌ مرسل) باعتبار ما يكون، أي أعصرُ عِنباً يؤولُ إلى خمر، وأسقي منه الملك، فالخمرُ لا تُعْصَر، إنما يُعْصر العنبُ.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤] هذا من أبلغ أنواع (الاستعارة البديعة) وألطفها، فإنَّ الأضغاث جمعُ ضِغْثٍ، وهو القبضةُ من الحشيش، المختلطُ فيها الرطبُ باليابس، شبَّه اختلاطَ الأحلامِ، وما فيها من المكروه والمحبوب، والشر والخير، باختلاطِ الحشيش، الذي اختلطَ فيه أنواعُ النباتات، ثم أصبح يُضرب مثلاً للرؤيا الكاذبة، التي يكون فيها أنواع من المرائي العجيبة الغريبة، ولهذا يقال: رؤياك أضغاثُ أحلام.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ . . .﴾ [يوسف: ٤٦] هذا الأسلوب يسمى عند علماء البيان (براعةُ الاستهلالِ) فقد قدَّم الثناء عليه، قبل السؤال والاستفتاء ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أثنى عليه ثناءً جميلاً، فوصَفه بالصدِّيقية وهي المبالغة في الصدق، ثم قال له: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ طمعاً في إجابة مطلبه الهامّ، الذي شغل بالَ ملك مصر.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [يوسف: ٤٨] في الآية (مجاز عقلي) لأن السنين والأعوام لا تأكل شيئاً، إنما يأكل الناسُ ما ادَّخروه فيها، فهو من باب (الإسناد إلى الزمان) كقول الفصحاء: نهارُ الزاهدِ صائمٌ، وليلُهُ قائم، أي يصوم النهار، ويقوم الليلَ.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] في الآية (مجاز مرسل) علاقته المحليَّة، أي اسأل أهل القرية، وأهلَ الإبل، فالآيةُ على (حذف مضاف) أي أهلَ القرية، لأن القرية لا تُسأل عما جرى فيها، والإبلُ لا تتكلم، وهذا من أظهر البراهين، على الاعتداد بالمجاز، وأنه أصلٌ لفهم أساليب العرب.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا . . .﴾ [يوسف: ٨٥] في الآية (إيجازٌ بالحذف) أصلُه لا تفتأ بمعنى لا تزال تذكر يوسف تفجعاً عليه، حُذفت (لا) لعدم الالتباس، وهو معروفٌ في أساليب العرب.

١١ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] في الآية (استعارةٌ لطيفة) استُعير (الرَّوْحُ) من نسمات الهواء العليلة، للفَرَج الذي يأتي بعد الكرب، واليسر الذي يأتي بعد العُسر، أي لا تقنطوا من رحمة الله، وتنفيس الكربة، قال الشاعر:

عَسَى الكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

١٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يوسف: ١٠٤] هو على «حذف مضاف» أي ما تسألهم على تبليغ القرآن أجراً، ويسمى (الحذف بالإيجاز).

الإبداع التمثيلي في سورة يوسف

تسمية كلام النساء بالمكر تمثيلٌ عجيب

١ ـ في قصة يوسف عليه السلام مع النسوة، تصويرٌ رائع، وتمثيلٌ عجيب، فقد سمّى تعالى الحديث الذي جرى بينهنّ في الخفاء بالمكر ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١] لقد انتشر في البلد عشقُ امرأةِ العزيز ليوسف عليه السلام، وشاع الخبر وذاع في أرجاء المدينة، وأخذت ألسنةُ النساء من الطبقة الراقية ـ نساء الوزراء والكبراء ـ تلوك في امرأة العزيز ـ كبير الوزراء ـ استهجاناً لها، ولوماً على أمرها العجيب، كيف تعشق سيدةٌ عبدَها المملوك؟ أيليق بامرأة من سيدات القصور، من ذوات العزّ والجاه والسلطان، أن يتعلّق قلبُها بعبدٍ مملوك، هو خادم لها؟ وأن يصل بها الحالُ من العشق له، أن تُراوده عن نفسه، وتطلب منه أن يضاجعها؟ وتتوسّلُ إليه لقضاء وطرها؟ وكأنها فقدتْ عقلها، بتعلُّقها بهذا العبد المملوك، وهنا موطنُ اللّومِ والذمّ.

لِم سُمّي الحديث مَكْراً؟

ولمّا كان هذا الحديثُ بينهن يجري في الخفاء سرّاً، دون مجابهةٍ لها، سُمّي (مكراً) كما يخفي الماكرُ مكره عن عدوه، على طريقة (الاستعارة التمثيلية) والأصلُ في المعنى: فلمّا سمعت بحديثهن، وما يتحدّثْن به في غيبتها ـ وهذا يشبه المكر ـ سمّاه تعالى مكراً ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أرادت أن تدبّر لهن مكيدةً، فدعتهنّ إلى قصرها، وأعدتْ لهن مائدةً، فيها أنواعُ الفواكهِ والثمار، وهيّأتْ لهن مكاناً يجلسن فيه، على الأرائك الوثيرة، والوسائد الناعمة، كعادة النساء المترفات، وأعطت كلَّ واحدةٍ منهن سكّيناً لتقشير الفواكه، وكانت قد خبأتْ يوسفَ في إحدى غرف القصر، ثم أمرته أن يخرج، فيمرّ بينهنّ، فلما رأينه بُهِتْن لطلعته ودُهِشْن، وجرحن أيديهنّ بالسكاكين، لفرط الدهشة المفاجئة، وقلن: تنزّه اللّهُ عن صفات العجز والنقص، فليس هذا من البشر،

وما هو إلّا مَلَكٌ من الملائكة، فإنّ هذا الجمال الفائق، والحُسْن الرائع، لا يكاد يوجد في البشر.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] أي جرحن أيديهن بالسكاكين، فيها (استعارة) لطيفة بديعة، للدلالة على كثرة جراحِهنّ، ومع ذلك لم يشعرن بذلك، لاستغراقهن في الاستمتاع بجماله الفائق، عبّر عن الجرح بالقطع، بطريق (الاستعارة) للتنبيه على كثرة الجراح، حيث سالت الدماءُ على ملابسهنّ الفاخرة، دون شعور منهن بذلك!

وهنا شعرت امرأةُ العزيز، أنها انتصرت عليهن، بعد أن أوقعتهنّ في شباك حبِّه وغرامه، فصرَّحت بما في نفسها، من لوعة العِشق له ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] هنا تعلن بتبجُّح، أنها طلبت منه مضاجعتها، وأن يقضي لها شهوتها، ولكنه استعصم يعني أبى إباة شديداً، وامتنع عن ذلك، تقول منتصرةً عليهن: هذا هو العبدُ الذي لمتنّني في محبته، فانظرن ماذا فعل بكنّ، من نظرة واحدة، حتى سالت دماؤكنّ من الجراحة، فكيف أنا وهو يعيش معي في القصر؟ وهذا كلّه من كيد النساء، وصدق الله العظيم، حيث يقول عن الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ويقول عن النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ومن هنا ندرك سرّ تكرار لفظ (الكيد) و(المكر) في هذه السورة مرات عديدة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] ليتبهنا القرآن الكريم إلى خطر فتنة النساء، فهنّ ـ على ضعفهن ـ أخطرُ ما يجابهه الرجال من فتنةٍ، في هذه الحياة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»[1].

وإنما جاء الجمالُ الفائق في الآية، من (الاستعارة التمثيلية) حيث عبّر عن الحديث الذي جرى بين النساء (بالمكر) تشبيهاً له بمكر الماكر، وخداع المخادع ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي حديثهنّ، وشتّان ما بين اللفظين من تعبيرٍ وإبداع!.

التمثيل للرؤيا بالبقرات السمان، والبقرات الهزيلة

٢ ـ ومما ورد في هذه السورة ـ سورة يوسف ـ التمثيلُ لرؤيا الملكِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

بالبقراتِ السِّمانِ والعِجاف، فقد جاء التمثيل لها بسنوات الرخاء والجدب، وهي رؤيا منامية، ولكنها منطويةٌ على حقيقة واقعية، ستصيب البلاد والعباد، فقد رأى مَلِكُ مصر في منامه رؤيا عجيبة غريبة أفزعته، فجمعَ السَّحرةَ والكَهَنة والمنجِّمين، وسألهم عن تأويلها ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

تفصيل الرؤيا المنامية

لقد رأى الملِكُ في منامه، سبعَ بقراتٍ سمانٍ جميلات، قد خرجت من النهر، وأخذت ترتعُ في أرضٍ خصبة، كثيرة العُشب والنبات، وخرجَ في أثرهنَّ سبعُ بقراتٍ هزيلات، في غاية الهُزال والضعف، قبيحةُ الشكل والمنظر، خرجت من ذلك النهر، فابتلعت البقراتُ العِجافُ البقراتِ السِّمانَ، كما رأى سبعَ سنابل خضراء زاهية، قد انعقد حبُّها، وسبعَ سنابلَ أخرى يابسة، ليس فيها حبٌّ، وإذا بالسنابلِ اليابسة، تلتفُّ على السنابلِ الخضراء فتبتلعها، ولا تُبقي لها أثراً... وكان تأويلُ يوسف الصدِّيق لها، في غاية الدقَّة والصحة، فسّر لهم البقراتِ السمان، والسنابلَ الخضر، بسبع سنين مخصبات، والبقرات العجاف والسنابل اليابسة، بسبع سنين مجدبات، ونبَّههم أن البلاد ستمرُّ بها سنوات سبع مخصبة، فيها تجود الأرض بالخيرات، والغلَّات الوافرة، ثم تعقبها سبع سنين مجدبة، تأكلُ الأخضر واليابس، وأن عليهم أن يقتصدوا من سنوات الرخاء، إلى سنوات القحط والجدب، وحدث ذلك كما ذكره لهم، ممَّا كان سبباً في تفريج كربته، وخروجه من السجن.

التمثيل للحيلة التي ألهم الله بها يوسف بالكيد

٣ ـ ورد هذا النصُّ القرآني، في الحيلة التي ألهم الله بها يوسف، لإبقاء أخيه (بنيامين) عنده، والاحتفاظ به، وسمَّاها (كيداً) بطريق الاستعارة اللطيفة ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] فالكيدُ في الآية مستعارٌ عن الحيلة، أي كذلك صنعنا ودبَّرنا ليوسف هذه الحيلة، وألهمناه إيَّاها ليستبقي أخاه عنده، ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه في دين ملِكِ مصر، وفي قانونه ونظامه، لأن القانون عنده، ضربُ السارق، وتغريمُه ضعفَ ما أخذ، وأمَّا في شريعة يعقوبَ عليه السلام، فهو استرقاقُه سنة، ولمَّا سألهم

عن حكم السارق عندهم ﴿قَالُوا جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥] أي عقوبةُ السارق في شريعتنا، أن يُسترقّ ويصبح مملوكاً لمن سرق منه سنةً كاملة، فهذه هي (الحيلة) التي ألهمها الله ليوسف، سمّاها باسم (الكيد) بطريق الاستعارة، فلو قبلوا بتحكيم شريعة الملك، ما كان يوسف ليتمكّن من أخذ أخيه، ولكنهم رضوا بتحكيم شريعة يعقوب، وهذا هو تدبيرُ الله البديع.

فإن قيل: إن لفظ الكيد مشعرٌ بالحيلة والخديعة، فكيف يليق بالعليم الحكيم أن يقول: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؟ [يوسف: ٧٦].

فالجواب: أن الكيد يُطلق على التدبير في الخفاء، وقد يكون للخير، أو للشرّ، فالكيدُ من الخلق: الحيلةُ والمكرُ وهو قبيح، والكيدُ من الله: هو التدبيرُ المحكمُ، لدفع السوء والمكروه، وهو خيرٌ. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] فالكيدُ من الكفار: شرٌّ وخُبث، والكيدُ من الله هو إبطالُ ما دبّروه وهو خير، فتدبّرْ هذا والله يرعاك!!

من لطائف بدائع التعبير القرآني

٤ ـ في قصة يوسف مع إخوته، عجائبُ وبدائع ولطائف، تناولها القرآنُ بأسلوبه البياني البديع، فإنّ إخوةَ يوسف لمّا رأوا الصّاع بين متاع أخيهم (بنيامين) ذُهلوا، وسُقط في أيديهم، وسارعوا إلى اتّهامه بالسرقة، واتّهام أخيه يوسف ﴿قَالُوٓا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] يقولون: ليس هذا الأمرُ غريباً عنه، فإن أخاه الشقيق الذي هَلَك كان أيضاً سارقاً، يعنون به (يوسف) وهم لا يعلمون أنه هو العزيز الذي يخاطبونه، ثم أخذوا يتوسّلون إليه، بأن يأخذ أحدَهم مكانه، رحمةً بأبيه الذي لا يكاد يصبر على فراقه، بعد فقد يوسف ﴿قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩] ولنقفْ مليّاً عند هذا النصّ البديع ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لم يقل: معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريمةِ شخصٍ سارق، وإنما كان دقيقاً في لفظه، صادقاً في تعبيره، لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبّر أدقَّ تعبير حكاه عنه القرآنُ، احترازاً منه عن الكذب، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ بدل: (إلّا من سَرَق)، وهذا من بدائع لطائف القرآن، أن يحكي اللفظ مبرءاً عن الكذب، حتى في قصصه وأخباره، وهو أدب من آداب القرآن، ينبهنا الله عليه في قصة يوسف الصدّيق.!

التعبير القرآني المعجز

٥ ـ ومن بدائع ولطائف التعبير القرآني، ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] أي لمَّا يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تاماً، والسينُ والتاء في (استيأسوا) للمبالغة، اي يئسوا يأساً كاملاً، وأيقنوا أن أخاهم لا يُرَدُّ إليهم، لِمَا شاهدوه من استعاذته بالله، ومن تسميته ظلماً، انفردوا واعتزلوا جانباً عن الناس، يتناجون ويتشاورون بينهم سراً: ماذا يفعلون؟

ولْمنمعِنْ النظر في هذا (التعبير الإلهي) المعجز في بيانه، وروعة إيجازه ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقد صورت الآية اجتماعهم، وتشاورهم، وما دار بينهم من أحاديث، وكيف يرجعون إلى أبيهم، وقد أعطوه العهودَ والمواثيقَ أن يردُّوا أخاهم (بنيامين) إليه، صوَّرت كلَّ ما دار بينهم من أحاديث، بهذه الألفاظ الموجزَة اليسيرة.

ذكر القاضي عياض في كتابه الشفا، أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقاً، لا يقدر على مثل هذا الكلام، وذلك أن الآية ذكرت صفةَ اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم عن غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في الاتفاق على ما يَلْقون به أباهم، عند عودتهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، الذي أصابهم جميعاً بالحَيْرة والذهول، فتضمَّنتْ تلك الآيةُ القصيرة، جميعَ معاني القصة الطويلة[1].

هذه بعض اللطائف، ذكرناها للتنبيه على (إعجاز القرآن) في أسلوبه المبدع، وما أكثر هذه الأسرار واللطائف، في الكتاب العزيز!!



(١) عن كتاب (كشف الخفا في سيرة المصطفى ﷺ) للعلامة القاضي عياض رحمه الله.

الإبداع البياني في سورة الرعد

١ ـ قولُه تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] شبَّه إزالةَ نور النهار، بواسطة ظلمة الليل، بالغطاء الكثيف الذي يستر الأشياء، واستعارَ لفظَ (يُغْشِي) بمعنى يُغطِّي للأمور المعنوية، بطريق (الاستعارة التبعيَّة) أي يغطِّي نورَ النهار ويستره بظلمة الليل، حتى يصبحَ مظلماً، بعد أن كان مضيئاً، وهذا من لطيف الاستعارة.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ...﴾ [الرعد: ١٦] في الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديره: اللهُ خالقُ السمواتِ والأرض، حُذف خبرُ المبتدأ (خالق السموات والأرض) لدلالة السياق عليه، وهو من الإيجاز البديع، والبلاغةُ عند العرب في الإيجاز.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾؟ [الرعد: ١٦] في الآية (استعارةٌ بديعة) استعار لفظَ (الأعمى) للكافر، ولفظَ (البصير) للمؤمن، كما استعار (الظلماتِ) للكفر والضلال، و(النورَ) للهداية والإيمان.

والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمنُ الذي يبصرُ نورَ الحقِّ، والمشركُ الذي عَمِيَ عن رؤيةِ ذلك النور، فالفارقُ بين الحق والباطل واضحٌ، وضوحَ الفارق بين الأعمى والبصير، والفارقُ بين الإيمان والضلال ظاهر، ظهورَ الفارق بين النور والظلام، فالباطلُ وإن علا، فإنَّ اللهَ سيمحقُه ويبطله، والعاقبةُ للحقِّ وأهله، كما يُقال: للباطل جولةٌ ثم يضمحل.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ...﴾ [الرعد: ١٧] شبَّه سبحانه الحقَّ والباطل، بتشبيهٍ بديع رائع، يسمى (التشبيه التمثيلي) مثَّل الحقَّ بالماءِ الصافي، الذي يستقرُّ في الأرض، وبالجوهر الصافي من المعادن، الذي ينتفع به العبادُ، ومثَّل الباطلَ بالزَّبد والرغوة التي تظهر على سطحِ الماء، وبالخَبَثِ من الجوهر والمعدن، الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحلَّ، وهو تمثيلٌ بديع، في منتهى الروعة والجمال.

قال العلامة ابن القيم: شبّه اللّهُ الوحيَ الذي أنزله لحياة القلوب، والأسماع، والأبصار، بالماء الذي أنزله، لحياةِ الأرض بالنبات، وشبّه القلوبَ بالأودية، فقلبٌ كبير يَسَع علماً عظيماً، كوادٍ كبير يسعُ ماءً كثيراً، وقلب صغيرٌ كوادٍ صغير، يسَعُ بحسبه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ واحتملت قلوبٌ من العلم والهدى بقدرها، وكما أن السَّيْلَ إذا خالطَ الأرض ومرّ عليها، احتمل غُثَاءً وزَبَداً، فكذلك الهُدَى والعلم، إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشُّبهات والشهوات، ليقلعها ويُذهبها، وهكذا يضربُ اللّهُ المثلَ للحقّ والباطل. اهـ تفسير ابن القيم ص٣٢٢.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] في قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ إيجازٌ بالحذف تقديره: كذلك يضرب اللّهُ مَثَل الحقّ، ومَثَل الباطل، دلّ عليه قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ والأمثالُ تُضرب للتفريق بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال.

٦ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾؟ [الرعد: ١٩] المراد بالأعمى هنا: الكافرُ، شبّه تعالى الجهلَ والكفرَ بالعمى، على طريق (الاستعارة التبعيّة) وهو تشبيهٌ بديع، فالأعمى إذا مشى بدون قائد، إمّا أن يقع في مَهلكة، وإمّا أن يُفسِد ما في طريقه، أمّا البصيرُ فيكون آمناً من الهلاك والإهلاك، وهنا يكون الإبداعُ بالتمثيل للكافر (بالأعمى) وهو في غاية الحسن.

٧ـ قولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] في الآية (إيجازٌ بالحذف) حُذِفَ الخبرُ من قوله: ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي وظلُّها دائم لا يُنسخ، كما تُنسخ ظلالُ الدنيا بالشمس.

٨ـ قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾ [الرعد: ٤١] في الآية (مجازٌ) أي يأتيها أمرنا وقضاؤنا بالهلاك، ونقصانُها باستيلاء المسلمين على ديار المشركين، وقيل: بموت أشرافها، وعلمائها، وكبرائها، وأنشدوا:

الأرضُ تَحْيَا إذا مَا عَاشَ عَالِمُهَا مَتَى يَمُتْ عَالِمٌ مِنْهَا يَمُتْ طَرَفُ

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا...﴾ [الرعد: ٤٢] المكرُ لا يُنسب إلى اللّه تعالى، إلّا على سبيل (المقابلة) لمكر أعداءِ اللّه بالرسل والمؤمنين، فالكفّارُ يمكرون برسلِ اللّه، واللّهُ تعالى يجازيهم بتدبيرٍ

آخر، يُبطل مكرَهم، ويردُّ كيدهم في نحورهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

والمعنى: إن مكرهم لا وجود له أصلاً، أمام مكر اللَّه بهم، إذ مكرُهم بالأنبياء، هو بعينه مكرٌ من اللَّه عزَّ وجلَّ بهم، من حيث لا يشعرون ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

١٠ ـ **قولُه تعالى**: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] في الآية (كنايةٌ لطيفة) كنَّى بقوله: ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عن (عبدِ اللَّه بن سلام) رئيس أحبار اليهود، الذي شهد لرسول اللَّه ﷺ بصدق الرسالة، وآمنَ به.

والمعنى: حسبي شهادةُ اللَّهِ بصدقي، بما أيَّدني به من المعجزات، وشهادةُ المؤمنين من علماء أهلِ الكتاب، وعلى رأسهم (عبد اللَّهِ بن سلام) كما وضَّحه سببُ النزول.

❁ ❁ ❁

الإبداع التمثيلي في سورة الرعد

مثلٌ بديع لعُبّاد الأوثان

١ ـ يقول الله جلّ ثناؤه في سورة الرعد: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] أخبر تعالى عن عَبَدة الأوثان، أنهم يعبدون حجارةً صمّاء بكماء، لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تستجيب لعابدها وداعيها، وضَرَبَ لهم مثلاً في منتهى الإبداع والإقناع، مثّل تعالى حال هؤلاء المشركين، في عبادتهم للأصنام، ودعائهم لها، بحال إنسانٍ اشتدَّ به العطشُ، فهامَ على وجهه، يبحث عن الماء، فلما رأى الماءَ من بعيد، أخذ يبسطُ يديه إليه، ويناديه صارخاً مستغيثاً، طالباً من الماء أن يحضر إليه لينقذه، والماءُ جمادٌ، لا يشعرُ، ولا يُحسُّ بعطشه، ولا يسمع نداءه ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي ينادي الماءَ ليصل إلى فمه، ليذهب عنه العطشُ، والماء لا يستجيب لندائه، فكذلك حالُ هؤلاء المشركين مع الأصنام والأوثان، يدعونها وهي لا تستجيب لهم، ويا له من تمثيلٍ بديع رائع، يأخذ بالألباب!!

السخرية بالآلهة المزعومة

٢ ـ وبعدَ أن ضَرَبَ تعالى المثلَ بالأحمق، الذي اشتدَّ عطشُه، وهو ينادي الماء ليصل إلى فمه، جاء التشبيه للسفهاء الحمقى، من عبدة الأوثان والأصنام، الذين نحتوا حجارةً بأيديهم، ثم عكفوا عليها يعبدونها من دون الله، وقد شبّههم تعالى بتشبيه بديع، بأسلوب رفيع من البيان، فيه سخريةٌ وتهكّمٌ بعقولهم، فكيف لا يفرّق العاقل، بين القادر والعاجز، والحيّ والميْت، والخالق والمخلوق؟ ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦] أي قل لهم يا أيها الرسول: أجعلتم لله شركاء من الأوثان، عبدتموهم من دون الرحمٰن؟ لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا دفع الضر عنها، فكيف يستطيعون

نفعكم ودفع الضرّ عنكم؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] أسلوبُ آخرُ تهكُمي، مثّل للكافر بالأعمى، وللمؤمن بالبصير، ومثَّل الجهلَ بالظلمة، والعلمَ بالنور، أي هل يتساوى الكافرُ الأعمى، الذي لا يرى ما أمامه، فيخبط في الحياة خبط عشواء، بالمؤمن المستنير بنور الله، الذي يعبد ربَّه على بصيرةٍ ويقين؟ فكما لا يتساوى الكافرُ مع المؤمن، كذلك لا يتساوى الحقُّ مع الباطل، ولا الإيمانُ مع الضلال، فالفارقُ بين الحقّ والباطل، واضحٌ وضوح الفارق بين (الأعمى) و(البصير) والفارقُ بين الإيمان والضلال، كالفارق بين النور والظلام، ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] إنَّ الضلال ظُلمةٌ، والهدى نورٌ، والجهلَ ظلمةٌ، والعلمَ نور، فكيف يتساويان؟ ثم أردف تعالى المثلَ، بما هو أظهرُ وأوضحُ فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦] أي هل عَبَدَ المشركون آلهةً، خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله؟ حتى التبسَ الأمرُ عليهم، فلا يدرون أهي من خلقِ الله، أم من خلق آلهتهم؟ وهو أسلوبُ (سخريةٍ وتهكُّم) لاذع بعقول الكفار، فإنهم يرون كلَّ شيء من خلق الله، ويرون أصنامهم لم تَخلق شيئاً، ثم يعبدونها من دون الله، وذلك أسخفُ وأحطُّ ما انحدرت إليه عقول المشركين.

وتختم الآية الكريمة بالحجة الدامغة، التي لا يستطيع أن يجادل فيها أحد، وهي أن الخالق لجميع المخلوقات، هو اللهُ وحده، المتفرد بالألوهية والربوبية، والخلق والتدبير لشؤون العباد لا خالق سواه ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] وكفى بهذه حجةً دامغة.

مثلان بديعان للحق والباطل

٣ ـ وبعد ذلك التمثيل الرائع للمؤمن والكافر، والجاهل والعالم، ذكر تعالى مثلَين من روائع الأمثلة، ضربهما تعالى للحقّ وأهلهِ، والباطلِ وحِزْبِه، ليتَّضحَ الفرقُ بين الهدى والضلال، والكفرِ والإيمان، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا...﴾ [الرعد: ١٧].

هذا هو المثلُ الأول، مثّل تعالى للحقّ في قُوّته وثباته، وللباطل في ذهابه وفنائه، بالماء النازل من السماء، تسيل به الأوديةُ، كلٌّ على حسب سَعَته وضيقه، وهذا الماءُ يجرف في طريقه الغُثاء، يطفو على وجهه في صورة الزُّبد، وهو يزهو وينتفخ، والماءُ من تحته ساكنٌ هادىء، يحمل الخيرَ والنفعَ للبشر،

بينما الزَّبدُ يفور ويغلي، ثم لا يلبث أن يتلاشى ويذهب، لأنه غُثاءٌ لا خير فيه، وهذا مثلُ الباطل، أمَّا الماءُ الذي يعلوه الزبدُ، فإنه يصفو ويهدأ، بعد انقشاع الرغوة عنه، وفيه روح الحياة، وهذا مثلُ الحقّ، فالحقُّ الثابتُ هو الماء، والزبدُ الزائلُ هو الباطل، وشتَّان ما بينهما!!

٤ ـ وهنا تمَّ المثل، ثم ابتدأ بمثلٍ آخر، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] لمَّا شبَّه تعالى المؤمن بالبصير، والكافر بالأعمى، وشبَّه الكفر والإيمان بالظلمات والنور، ضربَ للإيمان والكفرِ مثلاً آخر.

وتوضيحُ المثل: أي ومن الذي يوقد عليه الناسُ لإذابته من المعادن، كالذهب والفضة، والنحاس والحديد، من أجل الزينة والجمال، أو من أجل الانتفاع والمتاع، كالأواني وآلات الحرب والحرث، فإنه عند إذابته، يخرج منه زبدٌ، هو خَبَثٌ لا ينفع، وهذا الزبدُ لا يظهر، إلّا بعد الصَّهر بالنار، فأمَّا المعدن الصافي فيبقى لأصحابه، في نقاء وصفاء، ينتفع منه البشر، وأمَّا الخَبَثُ من المعادن، فيتلاشى ويذوب، لأنه جُفاء بلا نفع ولا فائدة، كذلك مثلُ الحقّ والباطل، والكفرِ والإيمان ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي وكما ضرب الله المَثَل، بهذه الأشياء المحسوسة، يضرب الله الأمثال للناس، ليتفكروا في مغزاها، ويعتبروا بما فيها من دلائل الوضوح والإعجاز.

والحاصلُ من هذا التمثيل، تذكير العباد بأن الله أنزل القرآن العظيم لهداية البشر، فيه الهدى والنور، وشبَّه فيه القلوب بالأودية، لأن القلوب تستقر فيها أنوار الهداية الإلهية، كما يستقر ماء السماء في الأودية، وكلُّ قلب يأخذ حسب استعداده، من هذا الفيض الإلهي، وما أروع وأبدع هذه الأمثال، التي ضربها القرآن للحق والباطل، والهدى والضلال، والكفر والإيمان!! ولهذا أردف تعالى ـ بعد ذكر هذين المَثَلين ـ قولَه عن هداية القرآن: ﴿۞ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] أي هل من استنار قلبُه بنور القرآن، فآمنَ واهتدى، كمن هو أعمى القلب، يتخبَّط في ظلمات الجهل، ومهاوي الضلال؟ لا يستوون عند الله!! ولا يعتبر ويتَّعظ بآيات الذكر الحكيم، إلّا أصحابُ العقول السليمة.

التمثيل البديع لمعجزة القرآن العظيم

٥ ـ لقد اقترح المشركون أن يأتيهم رسولُ الله ﷺ بمعجزة حسّية، خارقة للعادة، كتسيير الجبال عن مكة، وجعلها مروجاً تجري من تحتها الأنهار، وأن يحيي لهم بعض أمواتهم، ليسألوهم عن أمور الآخرة، حتى يؤمنوا برسالته لذلك نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا... ﴾ [الرعد: ٣١].

والمعنى: لو أن كتاباً من الكتب المنزلة، يصنع العجائب، تسيّرُ بتلاوته الجبالُ، وتُزعزع عن أماكنها، أو شُققت به الأرضُ، حتى تتصدّعُ، فتخرج منها العيونُ والأنهار، أو يُخاطب به الأمواتُ حتى يتكلّموا في قبورهم، وجواب (لو) محذوفٌ تقديره: لكان هذا القرآن هو المتصفُ بذلك دون غيره، لكونه غايةً في الإيجاز والإعجاز، ونهايةً في التذكير والإنذار.

والغرضُ تعظيمُ شأن القرآن، والردُّ على السفهاء الحمقى، الذين طلبوا من رسول الله ﷺ معجزة أخرى، غيرَ القرآن، فنبّههم تعالى أنه آية الآيات، ومعجزةُ المعجزات ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ... ﴾ [العنكبوت: ٥١]؟ فما هي قدر المعجزات الحسيّة، أمام القرآن معجزة المعجزات!؟

رُوي أن نفراً من المشركين، جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له: يا محمد إن سرّكَ أن نتّبعك، ونعلمَ أنك رسولُ الله، فسيّرْ لنا الجبالَ عن مكة، فإنها ضيقةٌ، حتى تتّسع لنا الأرضُ، فنتّخذ فيها البساتين والمزارع، وشقّق لنا الأرضَ، وفجّرْ لنا فيها الأنهارَ والعيونَ، وأحْيِ لنا رجلين ممن ماتَ من آبائنا، ليكلّمونا ونسألهم عن أمرك، أحقٌّ هو أم باطل؟ فلما اقترحوا عليه هذه المقترحات، نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ... ﴾ الآية.

يا عجباً لهؤلاء المشركين المعاندين!! هذا الكتابُ المعجز، جاءهم به نبيٌّ أميٌّ، لا يعرف قراءةً ولا كتابة، تنطق حروفُه وكلماتُه، وآياتُه، بصدقه، وفصاحة بيانه، وسطوع برهانه، على أنه تنزيلُ ربِّ العزة والجلال، ألم يكفهم هذا القرآنُ، شاهداً على صدق خاتم الأنبياء، حتى طلبوا معجزةً غير القرآن!.

فلو كان هناك كتابٌ يأتي بالمعجزات، ويصنع الأعاجيب، فيزيلُ الجبالَ، ويُشقِّق الأنهار، ويكلِّم الأموات والأحجار، حتى تنطق وتشهد بصدق رسالة محمد ﷺ لكان هذا القرآن المعجزُ! فكيف أعرضوا عن الإيمان به، وطلبوا من محمد معجزة أخرى غير معجزة القرآن؟

الإبداعُ في التشنيع على عبادة غير الله

٦ ـ وبأسلوب بديع، فيه سخريةٌ وتهكُّم بعقول المشركين، وفيه توبيخ وتعجيب من أمرهم، يخاطبهم القرآن الكريم، فيقول سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ . . .﴾[الرعد: ٣٣] الاستفهام هنا (إنكاريٌ) للتوبيخ، أي هل اللهُ الحفيظُ، الرقيبُ على أعمال العباد، العالمُ بكل ما يفعله الخلقُ، من خيرٍ أو شرٍّ؟ كالأصنام التي يعبدونها، وهي في منتهى العجز، والحقارة، والجهالة؟ قل لهم: سمُّوهم لنا، وصِفوهم حتى نعلمَ قدرتهم وإبداعهم!! أم تخبرون ربكم بشركاء لا يعلمهم سبحانه!!.

إن العاقل يأنف أن يعبد مخلوقاً مثلَه، فكيف رضيتم أن تعبدوا جماداً دونكم هي أخسُّ وأحقرُ من الإنسان!؟

والغرضُ من الآية: تسفيهُ عقولِهم وأحلامِهم، فقد جعلوا الإلٰه السميعَ البصيرَ القدير، كالصنم العاجز الحقير!!

وحُذف من الآية جوابُ الاستفهام ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهو قولُه سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ والتقديرُ: أفمن هو قائم على كل نفسٍ بما كسبت، كشركائهم التي لا تضرُّ ولا تنفع؟

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ غايةٌ في (الإنكار والاستحقار)، كأن الأمر بلَغَ من المهانة والحقارة، أن لا يُعرف ولا يُذكر، فهو يخاطبهم ويقول لهم: سمُّوا لنا هذه الأصنام إن شئتم، أهي أرباب أم عبيد؟ أهي خالقة أم مخلوقة؟ أهي حيَّةٌ أم ميْتة؟ ما شأنها؟ ما قدرُ عظمتها وسلطانها حتى عبدتموها؟ وفي هذا غاية التسفيه والتحقير لهم، ولآلهتهم المزعومة!

الإبداعُ في أوصاف جنة النعيم

٧ ـ ومن تمثيلٍ بديع، إلى توصيفٍ رفيع، يطالعنا القرآنُ العظيم،

بأوصاف جنة النعيم، التي أعدَّها اللهُ لعباده المتقين، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿۞ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] المَثَلُ هنا لا يُراد به تمثيلُ شيءٍ بشيء، إنما يُراد به: الصفةُ العجيبةُ الغريبة، التي هي في الحُسْن والجمال كالمَثَل، ولا يُقصد بالآية (التشبيهُ والتمثيلُ) لأنه تعالى ذكر الأوصافَ، ولم يذكر التشبيه لها، بشيء من وجوه الشَّبَه.

ومعنى الآية: صفةُ الجنة العجيبة، التي وَعَدَ اللهُ بها عباده المتقين، أنَّ أنهارَها تجري من تحت قصورها وغرفها، في غيرِ أخاديد، تجري من ماءٍ سلسبيل، يتفجَّر من ينابيعَ متدفقة من كُثْبان الجنة، ثمرُها دائمٌ، لا ينقطع، وظلُّها كذلك دائمٌ، لا تنسخه شمسٌ، ولا يزول ولا ينقطع، كما قال سبحانه ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] هذه هي عاقبةُ المتقين الأبرار، هي مسكنهم ومقامُهم، أمّا عاقبةُ الكُفّار الفُجّار، فهي نار الجحيم.

فالمَثَلُ الواردُ في هذه الآية الكريمة ليس بمعنى المَثَلِ المعروف، إنما هو بمعنى (الصفة العجيبة) التي هي كالمَثَل السائر في الغرابة، فتنبَّه لهذا واللهُ يرعاك!!

۞ ۞ ۞

الإبداعُ البيانيُّ في سورة إبراهيم

١ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] الأمر هنا (تمتعوا) أمرُ تهديدٍ ووعيد، أي استمتعوا بدنياكم الفانية، وكلُوا واشربوا كما تأكل البهائمُ والأنعامُ، فإنَّ مرجعكم إلى نار الجحيم، وهذا كقول الطبيب لمريضٍ، يأمرُه بالاحتماء عن الطعام، فلا يحتمي: كُلْ ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، فإن مقصوده التهديد، ليرتدع ويقْبَلَ مشورةَ الطبيب.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . .﴾ [إبراهيم: ٣٤] كنّى بقوله: ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ عن جميع ما يحتاج الناسُ إليه في حياتهم، من أنواع الطعام، والشراب، والدواء، وممّا يُبْقي عليهم الحياة، من الهواء، والشمسِ، والليلِ، والنهار، سواءٌ طلبوه من اللّه أم لم يطلبوه، وهي (كناية بديعة) عن خلقِ اللّه عزَّ وجلَّ لهم كلَّ ما يحتاجون إليه في حياتهم الدنيا.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] هذه من (صيَغ المبالغة) أي كثيرُ الظلم، وكثيرُ الكفر لنعم اللّه، ظلومٌ في الشدة، يشكو ويجزع، كفّارٌ في النعمة، يجمع ويمنع.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا . . .﴾ [إبراهيم ٣٥] كنّى بقوله: ﴿الْبَلَدَ﴾ عن مكة المكرمة شرّفها اللّهُ، لأنها أمُّ البلاد، وفيها بيتُ اللّه الحرام، الذي بناه أبو الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ • رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] في الآية (مجازٌ مرسل) علاقته (السببيّةُ) أسندَ الإضلالَ إلى الأصنام، مع أنها جماداتٌ لا تعقل، ولا تأمرُ ولا تنهى، ولكنْ لأن الناس ضلُّوا بسببها، فكأن الأصنام أضلّتهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرَّتهم، أي افتتنوا واغترُّوا بسببها، فهو من إسناد الشيء إلى سببه.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ . . .﴾ [إبراهيم: ٣٧] هذه من محاسن أنواع الاستعارة، لأن حقيقة الهُوِيّ: النزولُ من علوٍّ إلى

انخفاض، كما تقول: هوى النجمُ، استعير لفظ ﴿تَهْوِىٓ﴾ للإسراع للمجيء، أي تُسرع إليهم شوقاً، وتطيرُ لهم حباً، ولو قال: «تحنُّ إليهم» لما كان له هذا التصويرُ الرائعُ، باللفظ الذي ورد به القرآنُ، لأن الحنينَ قد يكون من المقيم بالمكان، ثم في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل أفئدة الناس، لأن «مِنْ» للتبعيض، أي قلوبٌ بعض الناس، وهم المؤمنون خاصة.

قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة النَّاسِ» لازدحمت عليه فارسُ، والرومُ، وجميعُ الخلق.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] الآيةُ على حذف مضاف ففيه (مجازٌ مرسلٌ) أي وعند الله جزاءُ مكرهم، وعقوبةُ مكرهم، وتسميتُه (مكراً) لكونه بمقابلة مكرهم.

والمعنى: مكرَ المشركون مكرَهم الخبيثَ، حين أرادوا قتل النبي ﷺ وإطفاءَ نور الله، وعند الله جزاءُ هذا المكر، وقد كان مكرهم في العِظَم والشدة، بحيث يكادون يقتلعون به الجبال، وهو تصويرٌ بديعٌ لضخامة مكر الكفار بالرسل الأبرار.

٨ـ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ...﴾ [إبراهيم: ٤٨] في الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديره: والسمواتُ تبدَّل غير السموات، والتبديلُ للسموات والأرض، قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، بأن تُزال من الأرض الجبالُ، والوديانُ، والبحارُ، وتصبح أرضاً مستويةً ملساءَ، كما في الحديث الشريف: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ عَفْراءَ ـ يعني شديدةِ البياض ـ كقُرصةِ النَّقيّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحدٍ» رواه البخاري أي مثل الخبزِ النقيِّ الصافي، ليس فيها علامةٌ من الأبنية، والزراعة، والمساكن.



روائع التمثيل في سورة إبراهيم

التمثيل البديع لضياع أعمال الكفار

١ ـ ضرب اللّهُ مثلاً لأعمال الكفار، بالريح الشديدة العاصفة، تأتي على الرّماد فتطيّره، وذلك في قوله جلّ ثناؤه في سورة إبراهيم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨] شبّه تعالى أعمال الكفار، وهي الأعمالُ الحسنةُ التي عملوها في الدنيا، يطلبون بها الأجر، من صلة الأرحام، ورعاية الأيتام، وإطعام الضعفاء والفقراء، وأمثالها من أعمالِ البِرّ والإحسان، شبّهها في ضَياعها وحُبُوطها، برماد ـ يعني تراب ناعم ـ طيّرته الرياحُ في يوم عاصفٍ، شديدِ العواصف والزّوابع، فهل يبقى للتراب أثرٌ مع هذه الرياح العاتية؟ ولهذا قال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ﴾أي لا يقدرون على تحصيل ثواب ما عملوه من أعمال البِرّ، وذلك هو الخسرانُ الكبير.

تَصوّرْ هذا التمثيل الرائع البديع: صورةَ الريح العاتية العاصفة، لا تأتي على الجبال الراسية، بل تأتي على التراب الناعم، فتطيّره وتنسفه، حتى لا تُبْقِي له ذِكْراً ولا أثراً، وهو مثلٌ في منتهى الوضوح والإبداع!.

التمثيل لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة

٢ ـ كما ضرب الله تعالى في هذه السورة مثلين: مثلاً لكلمة الإيمان، بالشجرة الطيبة المثمرة، في الأرض الطيبة المنبتة، طاب أصلُها، وطابت ثمرتها وذلك مَثَلُ كلمة التوحيد، تنبعث من قلب المؤمن، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

هذا مثلٌ بديع رائعٌ، مثّل تعالى به للمؤمن، وهو ينطق بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) عن إيمانٍ ويقين، فيسمو عن الله ويرتفع، أي

مثلُ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) في قلب المؤمن، كمثل شجرة طيبة مثمرة، فالمؤمنُ طيبٌ، كمثل الشجرة الطيبة، طابت تربتُها، فطاب ثمَرُها وفاكهتها، ورسخت أصولُها في الأرض، وامتدت أغصانها في الهواء، فأعطت ثمارها وافيةً، زاهية، ناضجة، كذلك عملُه الصالح ينمو ويزداد، كما تزداد ثمارُ الشجرة الطيبة.

قال ابن عباس: الكلمةُ الطيبةُ: (لا إله إلا الله) كلمةُ التوحيد، والشجرة الطيبةُ: (قلبُ المؤمن) فيه الخير والنور. وهذا مثَلٌ ضربه اللهُ تعالى، للمؤمن الذي يعبد الرحمن، بدليل قوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

التمثيل لكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة

٣ ـ أما المثل الثاني: الذي ضربَه القرآنُ، فهو لكلمة (الكفر والإشراك) وللكافر وعملِهِ الخبيث، مثّل له بشجرةِ الحَنظل، إنها مُرّةٌ خبيثةٌ، ليس لها جذورٌ في الأرض، ولا فروعٌ في السماء، وليس فيها نفعٌ أصلاً، ولا يُرجى منها خيرٌ، فهي بالغةُ الخُبثِ، ولا يصلح للخبيث إلّا اقتلاعُه من الجذور ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

والمعنى: ومثَلُ كلمة الكفر، كمثلِ شجرةٍ خبيثة (شجرة الحنظل) التي يعرفها العرب، استؤصلت من جذورها، واقتُلِعتْ من الأرض، فلا خيرَ فيها ولا نموٌ، ولا نفعَ ولا ثمر، إلّا طعمُها المرّ العلقم، وذلك مثلُ الكافرِ، وعملِه الخبيثِ، لا يُقبلُ منه عملٌ، ولا يَصْعد له فعلٌ صالح، لأنه ليس له أصلٌ في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء صاعد، وهذا مثلُ الكافر، وكيف تثمر أعماله وقد كفر بالله؟ فمثلُه كمثل الشجرة الخبيثة، التي لا ثبات لها ولا قرار، تربتُها خبيثةٌ، وثمرها خبيثٌ، غارَ ماؤها، وكثُر شوكُها، واقتلعت أصولُها من جذور الأرض، وبهذين المثلَين يتضح الفارق بين الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر. ا

رُوي أن النبيّ ﷺ كان جالساً ذات يوم مع أصحابه، فقال لهم: أخبروني بشجرةٍ تُشبهُ الرجلَ المسلمَ، لا يتَحاتُّ ـ أي لا يسقط ـ ورقُها، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حين ـ أي تُعطي ثمرها في جميع الأوقات ـ قال ابن عمرَ: فوقعَ الناسُ في شَجَر البوادي، ووقع في قلبي أنها (النخلةُ) فاستحييتُ أن أقولَ ـ لصغر سِنّه ـ ورأيتُ أبا بكر، وعمر لا يتكلّمان، فلمّا لم يعرف أحدٌ ما هي تلك الشجرة، قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: هي النخلةُ، قال: فلمّا خرجنا من عند رسول الله ﷺ قلتُ لأبي

عمر: يا أبَتاه، والله لقد وقع في نفسي أنها النخلةُ، فقال: ما منعَكَ أن تتكلَّمَ؟ قلتُ: لم أرَكم تتكلَّمون، فكرهتُ أن أتكلَّم أو أقول شيئاً!! فقال لي أبي: لأن تكون قلتها أحبُّ إليَّ من كذا، وكذا) رواه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٧٧.

التمثيل للموقف المخزي للظالمين

٤ ـ ومن التمثيل إلى التشبيه الرفيع البديع، يقول القرآن الكريم عن الظَّلمة والظالمين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

أي لا تظننَّ أن اللهَ غافلٌ عن أعمال الظَّلمة، إنما يؤخِّر عقوبتَهم ليوم عصيبٍ رهيب، تطيشُ فيه العقولُ، وتَشخصُ فيه الأبصار، من شدة الهولِ والفزع، كحال المجرم الذي يساقُ إلى حبل المشنقة، لا يفكِّر في شيء ممَّا حوله، ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ فيه تشبيه بليغ، حُذفت منه أداةُ التشبيه، ووجهُ الشبه، فأصبح بليغاً، أي قلوبهم كالهواء، خالية من العقل لا تدري ما تفعل، لفرط الحَيْرة والدَّهشة، كقولنا: عليٌّ أسدٌ أي كالأسد في الشجاعة.

ومعنى ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر، ولْنتصوَّرْ هذه الصورةَ المفزعة، صورة الإنسان الخائف الفزِع، الذي رفع رأسه مبهوتاً، لا يُحرِّكه يمنةً ولا يسرة، وقد جَمَد في مكانه، فلم يعد يستطيع الحركة ولا المشي، وعيناه مفتوحتان لا تتحرك أجفانُها، من فرط الحيرة والدهشة!! كيف يكون حالُه في ذلك الموقف الرهيب العصيب!؟ ويا له من موقفٍ مُخْزٍ مخيفٍ، لأولئك الظلمة المتجبِّرين.!

والغرضُ تشبيه حال الظالمين يوم القيامة، بحال من فَقَد عقلَه ورشدَه، وطار صوابُه، لكارثةٍ فادحةٍ، حلَّت به، فلم يعد يُبصِرُ ما حوله، فأصبح مبهوتاً مدهوشاً، لا يدري ما يصنع.!



الإبداع البيانيّ في سورة الحِجْر

١ ـ **قولُه تعالى**: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحِجْر: ٢]

﴿رُّبَمَا﴾ ربَّ للتقليل، و(ما) نكرةٌ موصوفةٌ اتصلت بها، أي ربَّ شيءٍ يتمناه الكفار يوم القيامة، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أن (ربَّ) هنا للتكثير، أي كثيراً ما يتمنى الكفارُ لو كانوا مسلمين، حينما يرون عذاب الجحيم، وأنكر الزجّاجُ والنحاسُ أن تجيء (ربَّ) للتكثير، وقالا: هذا ضدُّ ما تعرفه العرب، وهي على أصلها للتقليل، والآية خارجةٌ مخرج الوعيد.

قال النحاس: فأمّا معنى (ربَّ) ههنا فإنما هي في كلام العرب للتقليل، وأن فيها معنى التهديد، وهذا تستعمله العربُ كثيراً لمن تتوعده وتهدّده، يقول الرجل للآخر: ربّما ندمتَ على ما تفعل، ولا يشكُّون في ندمه، ولا يقصدون تقليلَه، بل حقيقةُ المعنى أنه يقول: لو كان هذا مرةً واحدة، أو ممّا يقلُّ، لكان ينبغي أن لا تفعله!! وأمّا من قال إن (ربَّ) تقع للتكثير، فلا يعرف في كلام العرب، قال: والدليلُ على أنه وعيدٌ وتهديد، قوله سبحانه بعده: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحِجْر: ٣] اهـ معاني القرآن للنحاس ٤/٨ وهو كلام نفيس.

٢ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحِجْر: ٤] في الآية (مجازٌ مرسلٌ) لأن المراد من القرية أهلُها، لا أسوارها وبيوتُها، وهو من باب (إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه) أي وما أهلكنا أهلَ بلدةٍ من البلاد، الظالم أهلُها، إلّا ولها أجلٌ محدّدٌ لهلاكها، لا يتقدّم ولا يتأخر.

٣ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحِجْر: ٦] قالوه للرسول ﷺ على جهة (الاستهزاءِ والتهكّم) لأنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا بمنْ أُنزل عليه، ومرادُهم: يا من تزعمُ وتدّعي أن القرآنَ نَزَلَ عليك، إنكَ حقاً لمجنون، تتكلّمُ بكلام المجانين، خاطبوه لا تسليماً بنبوّته، بل سخريةً واستهزاءً، من غاية فجورهم وطغيانهم.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجْر: ٩] حِفظُ اللهِ لكتابه: يُراد به صيانته عن التحريف والتبديل، وعن الزيادةِ والنقصانِ، ذلك لأنه آخرُ الكتب السماوية، ومحمدٌ ﷺ خاتمُ الأنبياء، وآخرُ الرسل، فلو حُرِّف القرآنُ، كما حُرِّفت التوراةُ والإنجيلُ فعلاً، كما قال سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤٦] فأيُّ كتابٍ ينزل ليبيِّنَ لنا ما حُرِّف فيه؟ وأيُّ رسولٍ سيأتي ليخبرنا عمّا حُرِّف وبُدِّل فيه؟ لذلك تكفَّل اللهُ عزَّ وجلَّ بحفظه بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وأمّا الكتبُ السابقةُ فلم يتكفَّل اللهُ بحفظها، وإنما وَكَل حفظها إلى القسس والرهبان ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] أي طُلب منهم حمايتُها وحفظُها عن التلاعب والتبديل والتغيير، فافهم هذا السرَّ الإلهي، والحكمة الربانية، لحفظ الله للقرآن العظيم، والله يحفظك ويرعاك.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجْر: ٢١] في الآية (استعارةٌ تمثيليةٌ) بديعة، شبَّه تعالى أرزاقَ الخلائق والعباد، بخزائنَ تُحفظ فيها نفائسُ الأموال، واستعار لفظ (الخزائن) لهذا الشيء المودَع فيها، ثم إخراج كلِّ شيء يريده جلَّ وعلا، حسب ما اقتضته حكمتُه بطريق (الاستعارة التمثيلية) للأرزاق، والأعمال، والآجالِ، والأقدار.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحِجْر: ٢٤] في الآية (كناية لطيفة) كنَّى عن (الأموات) بالمستقدمين، وكنَّى عن (الأحياءِ) بالمستأخرين، وهي كنايةٌ بديعة.

قال ابنُ عباس: الأمواتُ منهم والأحياء، من تقدَّم منهم ومن تأخر. اهـ. مختصر ابن كثير ٢/ ٣١٠.

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحِجْر: ٣٠، ٣١] أي سجدَ جميعُ الملائكة، لم يتأخر واحدٌ منهم، يدلُّ عليه كلمة ﴿أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء منقطع، لأنه كان جنيًا، ولم يكن من الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] ولو كان من الملائكة لما عصى الأمرَ، والسجودُ لآدمَ كان سجودَ تحية وتعظيم، لا سجود طاعةٍ وعبادة، فافهم معانيَ كتابِ اللهِ الجليل!

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحِجْر: ٤٥، ٤٦] في الآية (إيجازٌ بالحذف) على إرادة القول، أي يُقال لهم

ادخلوا هذه الجنات، وهذا الحذفُ من الأساليب البيانية، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحِجْر: ٦٠] هذا من كلام الملائكة، وفي الآية (مجازٌ مرسلٌ) لأن المقدِّر هو اللّهُ عزَّ وجلَّ، وإسنادُ الملائكة التقديرَ إليهم، وَرَدَ بطريق المجاز، لِما لَهم من المكانة عند الله تعالى، ولأنهم أرسلوا بأمره تعالى، كما يقول خاصّةُ الملِك: دبَّرنا كذا، وفعلنا كذا، والمدبِّرُ والفاعلُ هو الملكُ.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحِجْر: ٦٦] في الآية (كناية بديعة) عن الإهلاك بعذاب الاستئصال، أي أوحينا إليه أن هؤلاء المجرمين من قومه، سَيُسْتأصلون عن آخرهم، فقطعُ الدّابرِ هنا: كنايةٌ عن الإفناء الكلّي والهلاك الشامل.

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحِجْر: ٧٢] ﴿لَعَمْرُكَ﴾ العَمْرُ: البقاءُ والحياة، واللّامُ لام القَسَم، أي لعمرك قسَمي، أقسم اللّهُ عزّ وجلّ بِعُمُر نبينا ﷺ وحياته، قال ابن عباس: (ما خَلَقَ اللّهُ، ولا ذَرَأ، ولا بَرَأ، نفساً أكْرَمَ عليه من محمد ﷺ وما سمعتُ اللّهَ عزّ وجلّ أقسمَ بحياة أحدٍ غيرِه) أخرجه البيهقي، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٥.

وفي قوله سبحانه: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في ضلالهم وغوايتهم يتخبّطون حَيَارَى، كالسكران الذي فَقَد عقلَه، والتعبيرُ بالسَّكْرة ومعناها: الغوايةُ والضلالةُ، وردت (بطريق الاستعارة) استعار لفظ (السَّكرة) لما هم عليه من الغواية والضلالة، تشبيهاً لهم بالسُّكارى، الذين فقدوا العقل والرشد.

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحِجْر: ٧٤] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) استعار (الإمطار) عن الإنزال فقال ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ أي أنزلنا عليهم حجارةً من السماء كالمطر، من طينٍ متحجِّر، طُبِخ بالنار، شبَّه تعالى الحجارة التي قُذفوا بها، بالمطر الهاطل بشدة وكثرة، بطريق (الاستعارة التبعيّة) والتعبيرُ بالمطر يوحي بالشدّة والكثرة، كأنه غيثٌ ماطر، وبركانٌ ثائر.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحِجْر: ٨٧] في الآية (كناية بديعة) كنّى عن الفاتحة (بالسبع المثاني) لأنها سبعُ آياتٍ، تُتلى وتُكرّرُ آياتُها، في كل ركعةٍ من ركعات الصلاة.

روى البخاريُّ عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي: السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيته.

والمعنى: آتيناكَ الفاتحةَ أمَّ الكتاب، وآتيناكَ القرآن العظيم، فهو من باب (عطفِ العامّ على الخاصّ) اعتناءً بشأن الخاصّ.

١٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحِجْر: ٨٨] في الآية (استعارةٌ تبعيّة) بديعة، شبَّه إلانةَ الجانب، والتواضعَ والرفقَ بالمؤمنين، بخفضِ الجناح من الطائر، بجامعِ العطف والرِقّة في كلٍّ، واستُعِيرَ اسمُ المشبَّه به وهو (الطائر) للمشبَّهِ وهو الرسول ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ تشبيهاً بالطائر إذا كفَّ عن الطيران، خَفَضَ جناحيه، وهذا من ألطف الاستعارة، وأبلغ التعبير.

١٥ ـ قولُه تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحِجْر: ٩٠، ٩١] المقتسمون: هم أهلُ الكتاب، ومعنى ﴿عِضِينَ﴾ أي أجزاءً متفرّقة.

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (هم أهلُ الكتاب ـ اليهودُ والنصارى ـ جزَّأوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه)، فتح الباري ٨/ ٣٨٢.

١٦ ـ قولُه تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحِجْر: ٩٤] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) عبَّر عن الجهر والتبليغ لدعوة الله (بالصَّدْع) من صَدَعَ بالحجة إذا تكلَّم بها جهاراً، ولمَّا نزلت هذه الآية، خرج رسول الله ﷺ مع أصحابه، وجهر بالدعوة في وجه المشركين، بعد أن كان مستخفياً بدعوته، تنفيذاً لأمر الله تعالى، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٩.

❁ ❁ ❁

الإبداعُ البيانيّ في سورة النحل

١ ـ قولُه تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] في الآية الكريمة (استعارةٌ تمثيلية) بديعة، شبّه حالَ أولئك الكفرة، الماكرين برسلهم وأنبيائهم، بحالِ قوم بنَوْا بناة عالياً، شديدَ الدعائم، فخرّبَ اللّهُ عليهم أصولَه وأساسه، فهُدمت القواعدُ، وسقط عليهم البنيانُ، فهلَكوا وبادُوا، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، فائقُ الجمال، ووجهُ العِبْرةِ أنّ ما خبّروه سبَباً لبقائهم، عادَ سبَباً لزوالهم وفنائهم، كقولهم في الأمثال: «من حَفَر حُفْرةً لأخيه سقط فيها».

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠] في الآية أيضاً (حذفٌ بالإيجاز) في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ حُذف منه الفعلُ (أنْزَلَ) أي قالوا أنزلَ اللّهُ خيراً، دلَّ عليه ما سبَق ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ فهو جوابٌ موجزٌ، لكنه بديعُ السَّبْك، محكم البيان.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤] في الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديره: أرسلناهم (بالبيّنات) أي بالمعجزات الواضحة، والحجج الساطعة (والزُّبر) أي وبالكتب المقدّسة، ويسمى هذا النوع (حذفَ الإيجاز) لدلالة السياق عليه، وهو من إيجاز البيان بمكان!!

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] في الآية جملةٌ اعتراضية، فلفظةُ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ معترضة بين الفعلِ وجوابِه، وذلك لتعجيبِ الخلق من هذا الجهْلِ القبيح، ومعناها: تنزّه اللّهُ وتقدّس عما يقوله السفهاءُ، وأصلُ الكلام: ويجعلون لِلّهِ البناتِ ولهم ما يشتهون.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢] قولُه تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ هذا من بليغ الكلامِ وبديعِهِ ـ كما يقول الشهابُ الخفاجي ـ استعار لفظ (تصف) للقول، أي

تقول ألسنتهم الكذب بأن لهم الجنة، ولكنّ التعبير جاء في أسمى درجات البيان، وأبلغ منازل الإبداع، على حدّ قولهم في المرأة الجميلة: (عينُها تَصِفُ السّحرَ) ساحرة، أي من شدة الجمال، ولو قال: تقول ألسنتُهم الكذبَ، أو ألسنتهم كاذبة، لضاعَ هذا الجمالُ الأخّاذ، فانظر روعةَ البيان، في تصوير القرآن.

٦ـ قولُه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [النحل: ٦٥] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) استعار لفظ الموت لليُبْسِ والجَدْب، أي أحيا بالمطرِ الأرض بعد أن كانت جرداءَ يابسة، تشبهُ الميْتَ، فكما أحيا الأرضَ بالمطر، كذلك يحيي اللّهُ البشر، وفي الآية الكريمة تشبيهُ القلوب الميتة، بالأرض الجرداء الميتة، فالقرآنُ حياةٌ للقلوب، والكفرُ موتٌ لها. تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩٥.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ . . . ﴾ [النحل: ٨١] في الآية (إيجازٌ بالحذف) أي والبَرْدَ، حُذِفَ الثاني استغناءً بذكر الأول، والمعنى: جعل لكم ثياباً من الصوف والقطن، تتحصنون بها من الحرّ والبرد، والسّربالُ، الثوبُ الذي يلبسه الإنسانُ.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا . . . ﴾ [النحل: ٩٤] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) استعار القدمَ للرسوخ في الدين، والتمكّن فيه، لأنّ أصلَ الثبات يكونُ بالقَدَم، ولمّا كان الزّلَلُ عن محجّةِ الحقّ، يشبه زَلَلَ القَدَم، عبّر به عن الانزلاق الحسيّ، بطريق (الاستعارة التمثيلية)، أي لا تجعلوا أيمانكم خديعةً ومكراً، فتخرجوا من طريق الاستقامة، إلى طريق الخيانة.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] هذا من باب إطلاق (اسم المسبَّب على السَّبب) فيه (مجازٌ مرسلٌ) عبّر عن الإرادة بالقراءة، أي إذا أردتَ قراءةَ القرآن، فاستعذ باللّه، لأن الاستعاذة لا تكون بعد القراءة، بل قبلَها، وهذه مثلُ قوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ ﴾ [المائدة: ٦] أي إذا أردتم الصلاة.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) استعار لفظ (اللسان) للُغةِ والكلام، والعربُ تستعمل اللسانَ بمعنى اللغة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ

﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] أي بلغة قومه، قال الشاعر:

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا وَخُنْتَ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَخُونَا

والمعنى: لغةُ الرجل الذي يزعمون أنه علّمه القرآنَ أعجميةٌ غيرُ بيِّنة، وهذا القرآنُ الكريم لغته عربيةٌ فصحى، فمن أين للأعجمي أن يتذوّق بلاغة هذا الكتاب المعجز، في فصاحته وبيانه؟

١١ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] اللباسُ لا يُذاق بل يُلبس، وجاء هنا بأساليب العرب البليغة، بطريق (الاستعارة التمثيلية) شبَّه أثرَ الجوع والخوف، باللباس المحيط باللّابس، واستُعيرَ له لفظُ الإذاقة عن طريق الاستعارة، وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه، كما في قول الشاعر:

فَطَعْمُ المَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ



روائع التمثيل في سورة النحل

التمثيل للمخترعات الحديثة بالأسلوب الحكيم

١ ـ ما أسمى القرآن! وما أروع إشاراته وعباراته!!

فحين تحدّث القرآنُ عن المخلوقات، التي خلقها الله للبشر، ذكر منافع بعض هذه الحيوانات، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] هذا تذكير بمنافع هذه الأنعام، أي خلق اللهُ لكم الخيلَ، والبغالَ، والحمير، لتركبوا على ظهورها في أسفاركم، وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو ختمٌ في غاية الروعة والإبداع، وبالأسلوب الذي يتقبّله العقلُ البشري في ذلك الزمان... والقرآن حكيمٌ في نظمه وتشريعه، وفي أسلوبه وبيانه، وقد خاطبهم بما يفهمون ويدركون، ولو قال لهم: هذه الخيلُ والبغالُ والحميرُ وسائلُ للركوب، وستكون هناك وسائلُ أخرى غيرها، من سيارات، وقاطرات، وعربات لا تجرُّها خيول، وستكون هناك مراكب فضائية، وطائرات نفّاثة، تطيرون بها بين السماء والأرض، لسارعوا إلى السخرية والتكذيب للقرآن، لأن عقولهم لا تتحمل ذلك، فجاءهم بهذا الخبر الرائع: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فسبحان من أبدع بهذه العبارة القصيرة، ما يتمخّضُ عنه العلمُ في المستقبل، من أنواع المخترعات والمكتشفات، التي ظهرت في هذه الأزمان، ونُسبت إلى الله تعالى، مع أنها من صُنع الإنسان، لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه هو الذي خلق للإنسان هذا العقل الجبّار، ومَنحه هذه الحواسّ، فألهمه ما يصنع ويكتشف، من هذه المخترعات الحديثة، التي كلُّها من تعليم الله للإنسان، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: (حدّثوا الناس بما يعقلون، أتحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه) فسبحان اللهِ المبدع الحكيم!!

التمثيل لمكر الماكرين بالبنيان ينهدم على أصحابه

٢ ـ وفي سورة النحل تمثيلٌ بديع، لمكر الأعداء بالرسل الكرام، مثّل له

بالبنيان، الذي يتهدّم على أصحابه الذين بنوه، فعاد الدمار عليهم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] مشهدٌ رائعٌ، ووصفٌ بديع، للهلاك والدمار الذي أصاب المجرمين، الذين أرادوا إطفاء نور الله، بالفتك بالرسل الذين بُعثوا لهدايتهم... مثّل تعالى لما دبّره أولئك الأشقياء، بحال قوم بنوا بنياناً، شديد الدعائم، قويَّ الأساس، فدمَّر اللهُ بنيانهم من أساسه، فذهب الأساسُ، وهُدمت القواعد، وسقط عليهم السقفُ، فبادوا وهلكوا، وجاءهم الدمار من حيث لا يخطر على البال، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، فائقُ الجمال، فالبناءُ الذي بنَوْه لبقائهم، عاد سبباً لفنائهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وفي الأمثال: (من حفر حفرةً لأخيه وقع فيها).

مثلان في بطلان عبادة الأصنام والأوثان

٣ - ومن روائع وبدائع الأمثال، في بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ما ضربه الله عزَّ وجل للآلهة التي عبدها المشركون، فقد ضرب مثلين، كلٌّ منهما في منتهى الروعة والإبداع.

أمّا المثلُ الأولُ: فهو قول الله عزَّ وجل: ﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

توضيح المثل: عبدٌ رقيقٌ مملوك، لا يملك الكسبَ والمال؛ ضعيفُ القدرة، ضعيفُ الحيلة، عاجزٌ عن التصرُّف، وسيّدٌ حرٌّ مالكٌ لهذا العبد، يفعل ما يشاء، ثم هو غنيٌّ موسرٌ، وافر المال، يُنفق من هذا المال، على نفسه وعلى عبده، ينفق ببذلٍ وسخاء، ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فهل يتساوى السيّد المالك، مع العبد المملوك؟

هذا المثلُ ضربه الله عزَّ وجل لنفسه، وللأوثان التي يعبدونها من دون الله، فاللهُ هو المالكُ لكل شيء، وهو الرازق لكل المخلوقات، يُنفق كيف يشاء على عباده، والأصنامُ والأوثانُ مملوكةٌ عاجزة، لا تقدر على شيء؛ فكيف يجعلونها شركاء لله، ويعبدونها من دون الله؟ مع التفاوت العظيم بين الإله القادر، والوثن العاجز؟

وهذا المثلُ مأخوذٌ من واقع حياة الناس، فقد كان لهم عبيد مملوكون، لا يملكون شيئاً، ولا يقدرون على شيء، وإذا كان هؤلاء الحَمْقى الجاهلون، لا يسوُّون بين السيِّد المالك، والعبد المملوك، فكيف يسوُّون بين سيِّد العباد، ربِّ العزة والجلال، وبين هذه الآلهة المزعومة؟ وإذا كان في منطق البشر، عدمُ التسوية بين السيد المالك، والعبد المملوك، مع أنهما متساويان في البشرية، فما الظنُّ بربِّ العالمين، حيث يشركون به أعجز المخلوقات وهي الأصنام!؟ فكيف يتساوى الخالق مع المخلوق؟

أمَّا المثل الثاني: فقد ضربه للإله المعبود بحقّ، وللوثن الذي يُعبد من دون الله ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] شبَّه تعالى الأصنام التي يعبدونها، برجلٍ أخرس أبكم، لا يتكلَّمُ ولا ينطقُ بخير، ولا يقدر على شيءٍ بالكلية، أينما أرسلتَه لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ﴾ وهو ثقيلٌ، عالةٌ على سيِّده ووليِّه، وحيثما أرسله سيِّدُه لا ينجح في مسعاه، لأنه أخرسُ، بليدُ الذهن والحسِّ، أبكمُ القلبِ واللسان، هل يستوي هذا الأخرسُ الأبكمُ، مع الرجل الفصيح البليغ، المتكلِّم بأفصح لسانٍ، وأحسن بيان؟ وهو يسير على هدى من نور القرآن!؟

إذا كان العاقل لا يسوِّي بين هذين الرجلين، فكيف يمكن التسوية بين الإله الحقِّ القدير، وبين الصنم العاجز الحقير؟ وكلا المثلين بالغُ الإبداع والجمال.

التمثيل لناقض العهد بالمرأة الحمقاء

٤ ـ وهناك مثل رائع يتجسَّدُ في هذه الصورة، صورة امرأةٍ حمقاء، تغزِلُ غزلاً ثم تنقضُه، ولا تجني من ورائه، إلاَّ التعبَ والعناء، ضربه القرآن الكريم لمن نقَض العقد، ونكث في العهد ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ... ﴾ [النحل: ٩٢].

هذا مثلٌ بديع للناقض للعهد، إنه صورةٌ لامرأةٍ جاهلة حمقاء معتوهة، تغزل غزلاً وتفتله محكماً، حتى إذا أوشكت على الانتهاء منه، نقضته فجعلته أنكاثاً أي قطعاً محلولةً مبعثرة، تقضي حياتها فيما لا يعود عليها بشيءٍ من النفع

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أي تجعلون أيمانكم، التي عاهدتم عليها الناس، خديعةً ومكراً ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ من أجل أن تكون منكم طائفة وجماعة، أعزّ وأوفرَ جاهاً ومكانةً من غيرها، وأكثر عدداً وقوة.

قال المفسرون: كانوا في الجاهلية يحالفون حلفاءهم، ثم يجدون جماعةً أعزّ منهم وأوفر، فينقضون حِلفهم مع أولئك، ويحالفون الآخرين.

وقال ابن كثير: هذا مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، بسبب الأيمان الحانثة، فصدَّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمنَ قد عاهده، ثم غَدَر به، لم يعدْ له وثوقٌ بالدين، فيصدُّ بذلك عن الدخول في الإسلام.

التمثيل لجحود نعمة رسالته ﷺ

٥ ـ مثَّل تعالى لكفار مكة، بقصة أهل بلدٍ، كانوا في أمنٍ وأمان، وراحةٍ واطمئنان، وفي سعةِ رزقٍ ورخاء، ولكنهم كفروا بنعمة الله، فبدَّل اللهُ حالهم، فسلبهم نعمةَ الأمن والراحة، وأذاقهم آلامَ الجوع والحرمان ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

ذلك هو مثلُ أهلِ مكة، كانوا في أمنٍ وراحةِ بال، في جوار بيت الله الحرام، مع سعة الرزق، ورغد العيش، تأتيهم الخيراتُ من جميع البلاد، والناسُ من حولهم يُتخطَّفون، وقد أكرمهم اللهُ عزَّ وجلَّ، ببعثة خاتم الأنبياء، ولكنهم كذَّبوه وآذوه، واضطروه للهجرة، فعذَّبهم الله بالقحط والجدب، وأذاقهم آلام الجوع، والخوف، والحرمان، وحلَّتْ بهم الكوارث والمصائب، عقوبةً لهم على كفرهم وعصيانهم، وإيذائهم للرحمة المهداة ﷺ، وممَّا يؤكِّد أن المثلَ يُراد به أهلُ مكة، أنَّ اللَّهَ أتْبع الآية بقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٣].

قال ابن عباس: هذا مثلٌ لأهل مكة، أنعم الله عليهم بالإسلام، والقرآن، ونعمةِ بعثة النبيّ عليه الصلاة والسلام، فكفروا بجميع هذه النعم، فغيَّر الله حالَهم، فعذَّبهم بالقحط والجدب (سبع سنين) حتى أكلوا الجِيَفَ والعظام، بدعوة رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**اللهمَّ اجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف**»[1]!!

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٠/١٢٨ ومختصر ابن كثير ٢/ ٣٥٠.

ولْنقف قليلاً أمام هذا التعبير القرآني البديع ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ فإن اللباسَ ما يلبسه الإنسانُ، ولكنه في الآية الكريمة، جاء بشكل بديع، وتعبير رائع، شبّه الخوفَ والجوعَ، بلباسٍ خشنٍ، كريه الشكل، والرائحة، والملبس، يحيط بالإنسان من جميع أطرافه، على طريقة (الاستعارة التمثيلية) وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه، قال الشاعر:

فَطَعْمُ الموْتِ في أمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عَظِيمِ

والموتُ ليس طعاماً يُذاق، حتى يشعر الإنسان بطعمه، ولكنه الإبداعُ في التعبير، بطريق (الاستعارة) التي تمنح الكلام رونقاً وبهاءً، وحُسْناً وجمالاً.!



الإبداع البياني في سورة الإسراء

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] عبَّر عن الظلمة (بالمَحْو) يعني الطمس، أي جعلنا الليلَ مظلماً، والنهارَ مضيئاً، تشبيهاً للَّيل بالظلمة ثم الإشراق، والنهارُ لا يُبصِرُ بنفسه، إنما تُبصَر فيه الأشياءُ، فهو من باب (إسناد الشيءِ إلى زمانه) لأنه الوقتُ الذي يبصِرُ به الناسُ أمورَ معايشهم، وفيه (مجازٌ عقلي) يُدرك بالعقل.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] في الآية (استعارة لطيفةٌ) بديعة، استعار الطائرَ لعملِ الإنسان، خيراً كان العملُ أو شرًّا، كأنه طار إليه من خِزَانة الغيب، وعُشِّ القَدَر، وزيادةً في التصوير لشدة الملازمة، بين الإنسان وعمله، ذكر العُنُقَ ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ أي ألزمناه عمله، بحيثُ لا يفارقه أبداً، بل يلزمُه لزومَ القلادة، أو الغُلِّ للعُنُق، فإن كان عملُه خيراً، كان كالحِلْيةِ له يَزِينُه، وإن كان شرًّا، كان كالغُلِّ يَشِينُه، وكلُّ هذا الإبداع البياني، جاء عن طريق التصوير بالطائر الميمون أو المشئوم، وكان العربُ يتفاءلون أو يتشاءمون بالطير.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] في الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديره: يُقال للإنسان يوم القيامة: اقرأ كتابَ عملك، كفى بك اليوم أن تكون شاهداً على نفسك.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] في الآية الكريمة (مجاز بالحذف) في موضعين:

الأول: ﴿نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ المراد أهلَ القرية، فهو على حذف مضاف.

الثاني: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ فيه محذوفٌ تقديره: أمرناهم بطاعة الله، وطاعة رسوله، فخالفوا وفسقوا فيها، ويدلُّ على ذلك أن الله تنزَّه عن القبيح، لا يأمر بالفسق والفجور، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] فكيف يأمرهم بالفسق، ثم يعاقبهم ويدمِّرهم؟ وهذا النوعُ من

الحذف معروفٌ في أساليبِ العرب، يقول أحدُهم عن خادمه: أمرتُه فعصَاني، فهو لم يأمره بالعصيان، وإنما تمرّد عليه وعصى أمره، وهنا أمرهم اللّه بطاعته فعصَوْا أمرَ اللّه، فاستحقُّوا العذاب، فأهلكهم اللّه إهلاكاً فظيعاً.

قال الحافظُ ابن كثير: أمرهم بالطاعات، ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، فدمّرهم اللّهُ تدميراً. اهـ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] القرونُ لا تُهلك، إنما الهلاكُ لأصحابها، ففي الآية (مجازٌ مرسلٌ) والمعنى: لقد أهلكنا يا معشر قريش، كثيراً من الأمم الطاغية، المكذّبة لرسلها، وفي الآية تهديدٌ لكفار مكةَ الذين كذّبوا خاتم المرسلين.

قال الحافظ ابن كثير: والمعنى: إنكم أيها المكذّبون، لستم أكرمَ على اللّه منهم، وقد كذبتم أشرفَ الرسل، وأكرمَ الخلائق، فعقوبتكُم أولى وأحرى. تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] كنّى بالعاجلة عن (الدنيا) أي من كان يريد نعيمَ الدنيا فقط، لا همّ له غيرها، عجّلنا له من نعيمها ما نشاء تعجيلَه نحنُ، لا كما يحبّ هو ويهوى، قابَلَ بين العاجلة ـ الدنيا ـ وبين ما أعدّه اللّهُ للمؤمنين يوم القيامة بقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩] فتحقّق أن المراد بالعاجلة هي الدنيا، وشهواتُها الفانية.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] في الآية (استعارة مكنية) بديعة، وقد تقدّم بيانها في سورة الحِجْر ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] خفضُ الجناح مستعارٌ من خفض الطائرِ جناحه، إذا أراد أن ينحطّ على الأرض، أي تواضعْ لِمَن معكَ من فقراء المؤمنين، وهي (استعارةٌ بديعة) من روائع أنواع الاستعارة.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) في غاية الإبداع البياني، وقد تقدّم الحديثُ عنها في هذا الكتاب بإسهاب ص٨٠.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠] بَسْطُ الرزقِ: كنايةٌ عن التوسعة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ كنايةٌ عن التضييق في الرزق، أي يوسّع

الرزق على من يشاء من عباده، ويضيّق على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، وهو القابضُ الباسطُ، المعطي المانع، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] ففي الآية كنايةٌ لطيفة.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] المنعُ محالٌ في حقِّه تعالى، لأنه لا يمنعه عن إرادتِه شيءٌ، فهو هنا (مجازٌ) عن الترك، أي ما كان سببُ تركِ إرسالِ المعجزات، إلّا تكذيبُ الأولين، وما تركنا إجابة المعاندين إلى ما طلبوا واقترحوا، من (إحياء الموتى، وإزالةِ الجبال، وإجراءِ الأنهار) إلّا لعِلْمِنا بعدمِ إيمانهم، فلو أُعْطوها لكذَّبوا، وعند ذلك يستحقُّون الهلاكَ، واللّهُ يعلم أنَّ منْ أبنائهم من يؤمنُ باللّه، فلذلك لم يُجِبْهم إلى ما طلبوا، لئلا يهلكوا كما هلك السابقون، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥١.

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] في الآية (مجازٌ عقلي) نسبَ الإبصارَ إلى الناقة (مبصرةً) ولا يراد به أن الناقة تُبصِرُ، إنما لمَّا كانت معجزةً باهرة، وسبباً لإبصار الحقّ، ومعرفةِ صدق رسالة (صالح) عليه السلام، نَسَبَ الإبصارَ إليها (بطريق المجاز)، والعلاقةُ هي (السببيّةُ).

والمعنى: أعطينا قوم صالح الناقة، علامةً بيِّنةً، ومعجزةً ساطعة، يبصرون بها الحقَّ، ويعرفون صدق رسالة نبيِّ اللّه (صالح) فكفروا بها وجحدوا، بعد أن سألوها، فأهلكهم اللّه، وما نرسل بالخوارقِ الكونية كالزلازل، والصواعق، والفيضانات، إلا تخويفاً للعباد، ليرتدعوا وينزجروا.

١٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، مَثَّلت حالَ الشيطان في تسلُّطه على من يُغْويهم، من أتباعه الضالين، بفارسٍ مغوار، يصيح بجنوده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم، والآية تمثيلٌ لجمع قوى الشرّ على بني آدم.

قال ابن عباس: صوتُه كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية اللّه تعالى. ابن كثير ٣/ ٥٣.

١٣ ـ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أصلُ الإمام هو الذي يتقدَّم الناس للصلاة بهم، واستعير هنا (لكتاب الأعمال) أي تدعو كل إنسان بكتابِ عمله، ليسلَّم له بيده، وينالَ جزاءه، ففي الآية (استعارةٌ

تبعيّة) تشبيهاً للكتاب بالإمام، الذي يتقدم المصلّين، والدليلُ على أن المراد بالإمام (كتاب العمل) قوله تعالى في سورة يسٓ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يسٓ: ١٢] أي جمعناه وسجّلناه في كتاب واضح، ليكون شاهداً على عمل كل إنسان.

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١] الفتيلُ: مَثلٌ يُضرب للقلّة والحقارة، أي ولا يُنقص من أعمالهم شيءٌ ولو بمقدار الخيط الذي يكون في شِقّ النواة.

١٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) المرادُ بالعمى هنا (عمى البصيرة) لا عمى البصر، تشبيهاً لمن ضلّ الطريق، بالأعمى الذي لا يرى ما أمامه.
والمعنى: من كان في الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى رشده، ولا يرى طريق النجاة، فهو في الآخرة أشدُّ عمًى وضلالةً، من الأعمى فاقدِ البصر.

١٦ ـ قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] المراد بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: صلاة الفجر، أطلق على الصلاة بعضَ أركانها، وهي القراءةُ بطريق (المجاز المرسل) لأن القراءة جزءٌ من الصلاة، وركنٌ من أركانها، فهو من باب (إطلاقِ الجزء، وإرادةِ الكل) ومعنى ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ زوالها عن كبد السماء وقت الظهيرة ﴿وغَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ظهور ظلمته الحالكة. والآية أشارت إلى الصلوات الخمس، التي فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين.

١٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] أسند الخير إلى الله تعالى ﴿وإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾ فنسب الخيرَ إليه، وعند ذكر الشرِّ لم يضفه لنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وذلك لتعليمنا الأدبَ مع الله تعالى، وهذا كقول إبراهيم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ نسبَ الهداية إلى الله، ولمّا ذكر المَرَض، لم ينسبه إلى الله تعالى، وإنما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فتدبَّرْ روائع البيانِ الحكيم في تعابير القرآن.

۞ ۞ ۞

روائع التمثيل في سورة الإسراء

التمثيلُ لعمل الإنسان بالطائر

١ ـ يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣] الطائر هنا: استعارةٌ عن عمل الإنسان الذي فَعَله في الدنيا، من خيرٍ أو شرٍّ، فعَمَلُه ملازمٌ له كالطَّوْق في العُنق، لا ينفكُّ عنه، وقولُه: ﴿ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ تصويرٌ لشدة اللزوم، وكمالِ الارتباط، بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة للعُنق، أو الغُلِّ لليد، فإن كان عملُه خيراً، كان حِلْيةً له يزيِّنه، وإن كان شرّاً كان كالغُلْ يقبِّحه، ويَشِينُه، وقد خاطب اللَّهُ العربَ بما يعرفون، إذ كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطَّيْر، سارحَةً وبارحَة، فأخبرهم تعالى بأوجز لفظٍ، وأبلغ إشارة، إلى أن جميع ما يفعل الإنسانُ، من خير وشرٍّ، ملازمٌ له لا ينفكُّ عنه، حتى يلقى جزاءه في الآخرة، على طريق (الاستعارة المكنيَّة) وهي استعارة بديعة، شبَّه تعالى العَملَ بطائر، يطير إليه من عُشِّ الغيب، فيلازمه ملازمة الطوق للعنُق، والسوار للمعصم، فيرى فيه حسناته وسيئاته.

قال الحسن البصري: (يا ابن آدمَ، لقد أنصفَكَ ربُّك، عَدَلَ واللّهِ من جعلَكَ حسيبَ نفسِكَ، فاعملْ ما شئتَ، أَقْلِلْ أو أكثِرْ، فإذا مِتَّ طُويتْ صَحيفَتُك، فجُعلتْ في عُنقك معك في قبرك، حتى تخرج يومَ القيامة كتاباً منشوراً)، وهذا من أحسن الكلام وأبدعه[1].

التمثيل للتواضع للوالدَيْن بخفض الجناح

٢ ـ يقول اللّه تعالى آمراً بالتواضع للوالدين: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤] ما أسمى هذا الأسلوب البياني، الذي عرضه القرآنُ، في تصوير تواضع الإنسان لوالديه ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦٨.

جناح الذل من الرحمة﴾ فقد شبّه الذُلّ، بطائرٍ له جناح، إذا طار فتح جناحيه ونشرَهما، وإذا توقّف عن الطيران، قَبَض جناحَيْه إليه، فشبّه شدّة التواضع لهما بقبض الجناح، ولم يكتف بذكر الجناح، بل أضافه إلى الذل ﴿جناح الذل﴾ ليشعره بالانكسار والخضوع والتذلل لهما، كأنه لذُلّه جناحٌ مكسور، وإنه لتصوير بالغ الروعة والجمال، بطريقة (الاستعارة المكنيّة).

ومعنى الآية الكريمة: تواضعْ لهما بتذلل وخضوع، من فرط رحمتك وعطفك عليهما، وقل: يا رب ارحم والديَّ، وأكرمهما برحمتك الواسعة، كما أحسنا تربيتي في صغري.

التمثيل للبخل بقبض اليد وبسطها

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ [الإسراء: ٢٩].

مثّل تعالى للبخيل بتمثيل رائع بديع، شبّه البخيلَ بإنسان شُدّتْ يدُه إلى عُنقه، فلا يستطيع أن يخرج من جيبه شيئاً من المال، لينفِقَ منه، ولا يقدر على مدّها، لأنها مغلولةٌ أي مربوطة بالعُنُق، وشبّهْ المسرفَ المبذِّر، بإنسانٍ يلقي كلَّ ما في يده من المال، حتى لا يبقى معه شيء منه، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهما تمثيلان بديعان، لمنع شُحِّ الشحيح، وإسراف المبذِّر.

ومعنى الآية الكريمة: لا تكن أيها الإنسان العاقلُ بخيلاً، مَنُوعاً عن الإنفاق، كمن حُبِست يدُه، وشُدّت إلى عُنقه، ولا تكن مسرفاً مبذراً، تتوسّع في الإنفاق توسعاً مفرطاً، بحيث لا تترك شيئاً في يدك، فتصير مذموماً عند الله وعند الناس، يلومك الناسُ ويذمُّونك، وتصبح محسوراً منقطعاً عن الإنفاق والتصرف.

والحسيرُ في اللغة: الدابة تعجز عن السير، فتقف ضعفاً وعجزاً، كذلك من أسرف ماله وبذّره، انقطع عن توفيرِ حاجاته، كمن ينقطع في سفره بانقطاع مطيته، والآية على وجازتها أرست قواعد الاقتصاد الماليّ، فلا بُخل ولا شُحّ، ولا سَرَف ولا تبذير.

التمثيل للمتكبِّر بالمتطاول على الجبال

٤ ـ وفي تصوير المتكبّر المختال، بالمتطاول على الأرض والجبال، تمثيلٌ بديع، يسمو إلى ذُرَى الفصاحة والجمال، يقول سبحانه: ﴿ولا تمش

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] أي لا تمشِ في الأرض مِشْية المتكبِّر المختال، المعجب بنفسه، فإنك أيها الإنسان ضعيفٌ هزيلٌ، لا يليق بك الكبرياء، فلن تستطيع بمشيتك، مهما كنت ضخماً أن تخرق الأرض، فتقهرها وتُشعرها بعظمتك، ولا أن تتطاول على الجبال، فتصل إلى قِمَمِها وذُرَاها... وفي الآية (تهكُّمُ لاذع) وسخريةٌ بالمتكبرين الشامخين بأنفسهم، فما هي عظمة الرجال أمام شموخ الجبال؟ وما هو ثِقَلُ الإنسان أمام ثِقَل الأرض والجبل؟ وما أبدع قول القائل:

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ إِلَّا تَوَاضُعاً ... فَكَمْ تَحْتَها قَوْمٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ

رأى رجلٌ من الصالحين، شخصاً يمشي متبختراً، فقال: قفْ، أتدري من أنت؟ أوَّلُك نُطْفةٌ مَذِرة ـ مهينة ـ وآخِرُك جيفةٌ قَذِرة، وأنت فيما بين ذلك تحمِلُ العَذِرة!! يعني النجاسة، فكانت له درساً بليغاً.

التمثيل لإضلال إبليس للبشر

٥ ـ لمَّا طرد اللّهُ إبليس من الجنة، لمعصيته أمر اللّه، واستكبارِهِ عن السجود لآدم، أقسم عدوُّ اللّهِ أن يهلك ذرية آدم بقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] أي لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال. ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣] أي من أطاعك من ذرية آدم، فجزاؤكم جميعاً نار جهنم، جزاءً وافياً كافياً، ثم جاء التمثيل لإضلال إبليس للبشر، بقوله سبحانه: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] أي حَرِّكْ من أردت أن تستفزّه، بدعائك له إلى الشرّ والفساد، واجمعْ لهم أعوانَك وجنودَك، من جميع الرُّكْبانِ والمُشاة، وعدْهم بالوعود الكاذبة، فلن تغويَ منهم إلّا أتباعَك المجرمين.

والآية تمثيلٌ لجمع قوى الشرّ على بني آدم، مُثّل حالُ إبليس في تسلُّطه على من يُغْويه، بفارسٍ مغوار، أغار على قوم، فصوَّت بهم صوتاً، يستفزُّهم عن أماكنهم، ويُقْلِقهم عن مراكزهم، وصاح عليهم بجنوده من خيّالةٍ، ورجّالة حتى استأصلهم[1].

---

(١) تفسير الكشاف ٢/ ٣٦٨.

ففي الآية (استعارة تمثيلية) شُبِّهت حالُ الشيطان في تسلُّطه على من يُغويه، بالفارس الذي يصيح بجنوده، من كلِّ راكبٍ على الخيل، أو ماشٍ على قدميه، للهجوم على الأعداء لاستئصالهم، والإجلابُ: الصياحُ بالصوت المرتفع، قال ابن عباس: صوتُه: كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى.

وقال مجاهد: صوتُه: الغناءُ، والمزاميرُ، واللهوُ، والطربُ.

التمثيل بعمى القلب

٦ ـ يقول الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢] لا يراد بالآية عَمَى البصر، إنما يراد به (عمى القلب) شُبِّه الضالُّ الذي لا يهتدي إلى الحقّ، بالأعمى الذي فَقَد بصرَه، فلم يهتد إلى الطريق، حيث رأى الضلال هدى، والهدى ضلالاً، والباطلَ حقاً، والحقَّ باطلاً، فهذا العمى أخطرُ من عمى البصر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فعمى البصر هو الحقيقة، وعمى القلب مجازٌ.

يُحكى أن رجلاً أعمى يزعم العلم، كان جالساً في حلقة درسٍ، وكان هناك شيخ عالم فاضل، يفسّر قول الله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]. فقال الشيخ: هذه الآية مجاز، لأن القرية سقفٌ وجدران لا تسأل، والعير ـ أي الإبل ـ لا تُجيب، فالمسؤولُ أهلُ القرية، وأهلُ الإبل، فالآيةُ (مجازٌ مرسل) على حذف المضاف، فأنكر عليه الأعمى هذا القول، وقال غاضباً منكراً عليه: اتق الله فالقرآنُ كلُّه على الحقيقة، وليس فيه مجاز، فأجابه العالمُ على البديهة، ما تقولُ في قول الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾؟ فإذا كانت الآيةُ محمولةً على الحقيقة (عمى البصر) فالعميانُ جميعاً في جهنم وأنت منهم، وإن كان يُراد بها (عمى القلب) فهي مجاز، فبُهت الأعمى المعترضُ، وانقطعت حجّتُه، وانعقد لسانُه، وكانت درساً بليغاً له.

التمثيل لطغيان الإنسان

٧ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ [الإسراء: ٨٣].

هذه الآية تمثيل لطغيان الإنسان الكافر، فإن أصابته النعمةُ بَطِر وتكبّر، وإن أصابته النقمةُ والشدّةُ، أَيِس وقَنِط، مثّل له بمن يأتيه إنسانٌ بطبقٍ من الطعام الشهيّ، فيه أنواعُ اللحوم الحلوى، فيُعْرِض عنه، ويُدير له ظهره، كِبْراً وعناداً، وهو تمثيلٌ بديع لطغيان الإنسانِ الكافر، الجاحدِ لنعم اللّٰه.

التمثيل للرزق بخزائن الملك

٨ ـ قال اللّٰه تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] في هذه الآية تمثيلٌ لرزق اللّٰه لعباده، بخزائنَ مفاتيحها بيد اللّٰه جل جلاله لا يملكها أحد من البشر، **والمعنى**: قل يا أيها الرسول لهؤلاء المقترحين للخوارق والمعجزات: لو أنكم كنتم تملكون مفاتيح خزائن رزق اللّٰه، وأوكلَ اللّٰهُ إليكم أمرَ الإنفاق على البشر، لبخلتم وأمسكتم عن الإنفاق، لأنكم أشحّاءُ بخلاءُ، فكيف وأنتم لا تملكون شيئاً من ذلك؟

فقي الآية تمثيل بديع للرزق، بخزائن مفاتيحُها بيد الرحمٰن جل جلاله.

قال الزجّاجُ: أعلَمَهُم اللّٰه تعالى أنهم لو مَلَكوا خزائنَ الأرزاقِ، لأمسكوا شُحّاً وبُخلاً، خشيةَ أن يُنفقوا فيفتقروا، وإيرادُ الكلام بلفظ: ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ بصيغة المبتدأ والخبر، دلالةٌ على أنهم هم المختصُّون بالشح، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً ممسكاً لا ينفق خشيةَ الفقر. اهـ فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٦٧.



الإبداع البياني في سورة الكهف

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) بديعة، شبَّه حالَه عليه السلام مع المشركين، بحال من فارقه الأحبابُ، فكاد يُهلك نفسَه حُزناً وغمًّا عليهم، وذلك من شدة حرصه على إيمان قومه.

والغرضُ من الآية: تسليةُ النبي ﷺ وتخفيفُ الأحزان التي كانت تنتابه، لعدم إيمان أولئك المشركين، وكأنَّ الآية تقول له: لا تُهلكْ نفسَك فإنهم أشقياء، لا يستحقون أن يتحسَّرَ أو أن يحزن عليهم أحد.

يقالُ في اللغة: بَخَع نفسَه: أي أتلفَها وقتَلها غمًّا، وفي الآية (كناية بديعة) فقد كنّى عن القرآن العظيم بلفظ (الحديث) في قوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي بهذا القرآن، سُمِّي القرآنُ حديثاً، لأن فيه أنبأ الأمم وأخبارهم، وفيه المواعظُ والنصائحُ والتذكيرُ للبشر بما فيه خيرهم وسعادتهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ [الكهف: ١١، ١٢].

في الآية (استعارةٌ لطيفة) عبَّر عن النوم الذي أصابهم وهم في الغار، بالضرب على الآذان، تشبيهاً للنوم الثقيل الذي تغشّاهم، ومَنْع وصولِ الأصوات إليهم، بضرب الحجاب عليها بطريق (الاستعارة التمثيلية) أي ألقينا عليهم النوم الثقيل، الذي كان يداعب أجفانهم، حتى لم يشعروا بمن دخل عليهم، وسددنا أسماعهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، سنين عديدة، ثم أيقظناهم من تلك النَّومةِ الثقيلة التي تشبه الموت بعد ثلاثمائة وتسع سنوات، لبيان قدرتنا العظيمة.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

[الكهف: ١٤] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) أيضاً أي قوّينا عزائمهم حتى صدَعوا بالحقّ، في وجه المَلِكِ الطاغية، وأعلنوا إيمانهم بالواحد الأحد، دون خوفٍ ولا فزع، عبّر عن التثبيت وتقويةِ العزيمة: بالرَّبْط على القلب، لأن الربط هو الشدُّ، والمراد شددنا على قلوبهم، كما تُشدُّ الأوعيةُ بالأوكية، بطريق الاستعارة، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] أي لولا أن ثبّتناها وألهمناها الصبرَ.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢] ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا . . .﴾ الآية، فيها تشبيه يُسمّى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه التشبيه منتزعٌ من متعدد، وقد تقدّم توضيح المثل في أماكن سابقة.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أصله من إحاطة العدو، ثم استعير في كل إهلاك، وفي الآية (كناية بديعة) عن التحسُّر والتفجُّع والندم، لأن النادم في العادة يضرب إحدى كفَّيه على الأخرى، كما هو حالُ النادمين.

قال في بحر العلوم: تقليبُ اليدين، وعضُّ الكفِّ والأنامل، وأكلُ البَنان، وحرقُ الأسنان، كلُّها (كناياتٌ) عن النَّدم والحسرة.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) فالجدارُ ليس له قدرةٌ ولا إرادة، والإرادةُ من صفاتِ العقلاء، وإسنادُها إلى الجدار ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ من لطيفِ الاستعارة، وبليغ المجاز، شبّهه بإنسانٍ له رغبةٌ في السقوط، أو في الانتحار، فنسبَ الإرادة إليه، كقول الشاعر:

يُـريـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـرَاءٍ ... وَيَـرْغَـبُ عَـنْ دِمَـاءِ بَـنِـي عَـقِـيـلِ

نسب الإرادة والرغبة إلى الرمح، وهي لصاحبها حامل الرمح.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وبعدها قال في الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] نَسَبَ إلى نفسه ما ظاهره الشرُّ، وهو إرادةُ العيبِ للسفينة، ونَسَبَ إلى الله تعالى ما فيه خيرٌ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ لتعليم البشر الأدبَ مع الله عزّ وجلّ في كلامهم، كما في الدعاء المشهور (الخيرُ بيديك،

والشرُّ ليس إليك) وإن كان الخيرُ والشرُّ، بتقديرٍ من الله عزَّ وجلَّ.

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩] في الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديرُه: يأخذ كل سفينةٍ «صالحةٍ لا عيب فيها» غصباً، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩] ولو كان الملكُ الظالمُ، يصادر كل سفينة صالحة أو غير صالحة، لَمَا كان هناك وجهٌ لقلع أحد ألواحها، وتعريضِ ركّابها للخطر، وهذا الحذفُ من إيجاز البيان، ومعنى ﴿ وَرَآءَهُم ﴾ أي أمامهم.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف: ٩٩] في الآية (استعارةٌ تبعيّة) لطيفة، شبّهَ الناسَ لكثرتهم، وتداخل بعضِهم في بعض، عند قيام الساعة، بموْجِ البحر المتلاطم، واستعارَ لفظ (يموج) المأخوذ من موج البحر، لشدة الهولِ والفزعِ، على طريق (الاستعارة التبعية) أي يضطرب بعضُهم ببعض كأمواجِ البحار المتلاطمة.

١٠ ـ **قوله تعالى:** ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف: ١٠١] في الآية (تمثيلٌ رائعٌ بديع) لحال أولئك الأشقياء المجرمين، فقد كانوا ينظرون إلى الآياتِ الكونية، المبثّةِ في الآفاق فلا يعتبرون، وتُعرض عليهم الآياتُ والمواعظ، فلا يؤمنون ولا يتّعظون، وفي الحقيقةِ لم تكن أعينُهم معميّةً، أو عليها غِطَاءٌ، ولم تكن أسماعُهم صمّاءَ أو عليها حجابٌ، وإنما جاء هذا الوصفُ لهم بطريق (الاستعارة التمثيلية) ويا له من تمثيل بديع!!



الأمثال في سورة الكهف

الكناية اللطيفة في قصة أصحاب الكهف

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١] الضربُ على الآذان: كنايةٌ عن الإنامة الثقيلة، أي: ألقينا على الفتية، الذين دخلوا الكهف، النوم الثقيلَ، الذي يشبه الموتَ، سنين عديدة /٣٠٩/ ثلاثمائة وتسع سنوات، دون أن يموتوا، ثم أيقظناهم من نومهم، لندلَّ الخلق على قدرتنا على بعث الخلائق بعد موتهم، للحساب والجزاء، ولهذا قال بعده: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ...﴾ [الكهف: ١٢] فهذه من الكنايات البديعة، كنى عن النوم بالضرب على الآذان، وهي من الكنايات اللطيفة.

التمثيل لرضوان الله بذكر الوجه

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ...﴾ [الكهف: ٢٨].

مثّل تعالى عن رضوان الله بإرادة الوجه بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يريدون بعملهم رضوانَ الله تعالى... (روي أنّ أشراف قريش، اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له: نحِّ هؤلاء العبيدَ الصعاليك عن مجلسك، حتى نؤمن بك، ونسمع كلامك، فإنّا أشرافُ قريش وسادتُها، إن أسلمنا أسلم الناسُ، ونحن نأنفُ أن نجلس في مجلس واحدٍ مع هؤلاء الصعاليك، فنزلت الآية الكريمة، فخرج رسول الله ﷺ يلتمس الفقراء، فلما رآهم جلس معهم، وقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم**») رواه مسلم، وكثيراً ما يعبّر القرآنُ عن رضوان الله، بإرادة الوجه، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] أي يريدون رضاه، وهو من الكنايات البديعة.

التمثيل لمن يشكر النعمة ومن يكفرها

٣ ـ ضرب اللهُ مثلاً لمن يشكر نعمة ربه، ولمن يكفرها، برجلين صديقين في الأمم السابقة.

أحدهما: وسَّع اللّه عليه في الرزق والمال، فكان له بستانان عظيمان، فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار، من كلّ ما يخطر على البال، من العنب، والرطب، والرمان، وشجر النخيل والتفاح، وجميع أنواع الفواكه والثمار، وفي وسط هذين البستانين، يجري نهر يتدفّق بالماء العذب السلسبيل، يحمل معه روح الحياة للبساتين، يسقي النبات، والأشجار، والثمار، فيزداد الثمر، وتكثر الخيرات، وتزداد الغلّة، وقد تضخّمتْ ثروته، حتى أصبحت فوق الحدّ والعَدّ، وأخذته العزّةُ بالإثم، فطغى وبغى، وجحدَ نعمةَ اللّه، وأخذ يتباهى بما هو عليه من سعة الرزق، وكثرة المال، وبما هو فيه من الرفاهية والسعادة، وانتهى به المطاف أن يكفر بالله، وينكر لقاءه، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ إلى نهاية قوله: ﴿نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣].

أمّا الثاني: فرجلٌ مؤمنٌ صالح، أنفق مالَه في مرضاة اللّه، وفي وجوه الخير والإحسان، حتى أوشك أن ينفد مالُه، وجمعهما اللقاءُ بعد طول الفراق، وجرى بينهما الحديث الآتي: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] أخذ هذا الغنيُّ بيد صديقه، ودخل به الحديقة يطوف فيها، ويريه ما فيها من الأشجار والثمار، وهو معجبٌ بما فيها، يقول له متبجّحاً: أنا أكثر مالاً منك، وأكثر خدماً وأنصاراً، أمّا أنت فقد ضيّعتَ مالك، وأشقيتَ نفسك بما لا يعود عليك نفعه!! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] أي دخل هذا الجاحد لفضل ربه بستانه، وهو معجبٌ بنفسه وبغناه وثرائه، ويقول مزهواً متبجّحاً: ما أظنُّ أن تفنى هذه البساتينُ أبداً، وما أعتقد أن هناكَ داراً آخرة، ولئن كانت هناك حياة بعد الموت، كما تزعم أنت، فسوف يعطيني اللّهُ خيراً من هذا وأفضل، فكما أكرمني في الدنيا، سيكرمني في الآخرة، بما هو أعظم وأبدع!! ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] أي قال له صاحبه المؤمنُ، وهو يراجعه الحديث ويكلّمه: يا هذا أجحدتَ نعمةَ ربك، وأنكرتَ فضله عليك، وكفرتَ باللّه الذي خلقك من ترابٍ، ثم من منيٍّ دافق، ثمّ سوّاكَ إنساناً سوياً؟ في أحسنِ شكلٍ، وأجمل صورة؟ ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨] لكنّا أصلها «لكنْ» «أنا» أدغمت بها فصارت (لكنّا).

والمعنى: لكنْ أنا أصدِّق بوجود اللّه، وأعترف بفضله وإنعامه، فهو ربي وخالقي، لا أعبد غيره. ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] أي فهلّا حين دخلتَ حديقتك، وأُعجبتَ بما فيها من الأشجار، والثمار، والأنهار، قلتَ: ما شاء اللّه، لا قوة ولا قدرة لنا على طاعة اللّه، إلّا بتوفيقه ومعونته!! ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۞ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٣٩، ٤٠] يقول له المؤمن: إن كنتَ ترى أني أفقرُ منك، وتعتزُّ عليَّ بكثرة مالك وأولادك، فإني أتوقَّع أن يقلبَ اللّهُ حالي وحالَك، فيرزقني لإيماني، ويسلبَ عنك نعمتَه لكفرك، أو يرسل على حديقتك صواعقَ من السماء تدمِّرها، فتصبح أرضاً جرداء ملساء، لا نبات فيها، ولا شجر ولا ثمر!!

وينتهي الجدال والحوار، وننتقل من مشهد النعيم والازدهار، إلى مشهد الخراب والدمار ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] وفي قوله: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كنايةٌ لطيفة عن الحسرة والندم، وهذه القصة مثلٌ بديع رائع، لمن يشكر نعمة ربه، ولمن يكفر النعمة ويجحدها، والغرضُ منها توضيح الفارق الكبير، بين العبد المؤمن الشاكر لنعم اللّه، والكافر الجاحد لفضل اللّه وإحسانه، وفيها عظةٌ وعبرة لكل إنسان!!

مثل بديع للحياة الدنيا وفنائها

٤ ـ يقول اللّه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] هذا مثلٌ للدنيا وزينتها، وبهرجها الخادع، مثَّل تعالى لها بماءٍ نزل من السماء، فخرج به النباتُ وافياً غزيراً، ونما به الشجرُ والثمرُ، وخالط النباتُ بعضُه بعضاً من كثرته وتكاثفه، وخرج الحبُّ فشبَّ ونما، ثم بعد ذلك ذَبُل وزَوَى، فأصبح يابساً متحطِّماً متكسِّراً، تنسفه الرياح ذات اليمين، وذات الشمال.

هكذا حال الدنيا: نعيمٌ يزول، وسرورٌ غير دائم، ومتعةٌ تنقضي، ثم موتٌ وفناء، لا يغترُّ بها إلا الأحمقُ الجهول، ولا يدوم إلّا الحيُّ القيوم، والعاقلُ من آثر ما يبقى على ما يفنى. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهو مثل رائع بديع، يكشف لنا روعة الأمثال في الكتاب العزيز.

الحكمةُ والغايةُ من ضرب الأمثال

٥ ـ من حكمة الله عزَّ وجل، ورحمته بالعباد، أن يضرب لهم الأمثال، ويوضّح لهم الحجج، حتى لا يَضيعُوا في متاهات الحياة، وليتذكروا ويتدبروا ما في هذه الأمثال، من العِبَر والعِظات، ومع كل هذه الأمثال، التي ضربها لهم القرآن، لم يتعظ البشر ولم يعتبروا، بل ظلّوا في جهالتهم يجادلون، وفي غيّهم يعمهون ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

والمعنى: لقد بيّنا في هذا القرآن الأمثالَ، وكرّرنا وردّدنا الحججَ والمواعظَ لجميع البشر، بوجوهٍ كثيرة، وأساليب متنوعة، ليتّعظوا ويعتبروا، ويكفّوا عما هم عليه من الضلال، ولكنَّ طبيعة الإنسان الجدلُ والخصومة، لا يُنيب إلى حقٍ ولا ينزجر عن الغيِّ والضلال، يجادل ويكابر، وكلُّ هذا من تعاسته وشقائه.

إن العاقل يعتبر بما يرى أمامه من وقائع وأحداث، ومعظمُ البشر لا يتّعظون ولا ينتهون، وماذا تُغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون!!

التمثيل لإعراض الكفار عن الذكر الحكيم

٦ ـ يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧] في الآية تمثيل بديع، لإعراض الكفرة والفجار، عن آيات الله البيِّنات، شبَّههم تعالى بمن أُحيط قلبُه بأغطية، وحُجُبٍ كثيفة، فلم يعدْ يفقه شيئاً، وأصابه الصَّممُ، فلم يعُدْ يسمع شيئاً، فكيف ينتفع ويتّعظ بآيات القرآن؟

والمعنى: لا أحدَ أشقى وأظلم، ممن وُعظ بآيات الله البيِّنة، وحججه الساطعة، فتعامى عنها وتناساها، ولم يُلْقِ لها بالاً، ونسيَ ما اقترفته يداه من الجرائم الشنيعة، ولم يتفكّر في عاقبتها، ولإجرامهم جعلنا على قلوبهم أغطية، تحولُ بينهم وبين فهم القرآن المنير، وإدراك أحكامه وأسراره، وهذا تمثيلٌ بديع لإعراضهم عن الهدى، شبّههم بمن غُلِّف قلبُه بحجبٍ كثيفة، فما عاد يرى قلبُه النور الإلهيّ الوضّاء، كما جعلنا في آذانهم صمماً، يمنعهم من سماع القرآن،

سماع فهم وانتفاع، وإن دعوتهم إلى الإيمان، فلن يستجيبوا لك أبداً، لأنهم كالبهائم السارحة، لا يفقهون ولا يعقلون، وهذه (كناية لطيفة) عن عمى البصيرة وسوء الفهم.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: ١٠١] في الآية (استعارة تمثيلية) مثّل لهم بالعُمْي والصُمّ، أي كانوا في الدنيا كالعُمْي عن دلائل القدرة والوحدانية، لا ينظرون ولا يتفكرون، وكانوا كالصُمّ لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله لظلمة قلوبهم.

قال العلّامة أبو السعود: وهذا تمثيل عن إعراضهم عن الأدلة السمعية، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار، فكأنهم عُمي صمٌ. تفسير أبي السعود ٣/ ٢٦٧.

التمثيل لسعة علم الله وعظمته

٨ ـ يقول اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية تمثيلٌ لسعة علم الله تعالى، وعظمة جلاله.

والمعنى: لو كانت بحار الدنيا كلُّها حِبْراً ومداداً، وكُتبتْ بها كلماتُ الله، الدالةُ على علمه، وعظمته، وجلاله، لنَفِد ماءُ البحر على كثرته وانتهى، وما نفدت كلماتُ الله، ولو جئنا بمثل ماء البحار مراراً وتكراراً، ويُقاربُ هذه الآية في التمثيل المبدع قولُ الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: ٢٧].

فكلٌّ من الآيتين، تمثيل للعلم الإلهي، الذي لا يحدُّه شيء، ولا يحيط به أحد من الخلق، وتصويرٌ لعظمة الله وجلاله، وكبريائه وسلطانه.



الإبداعُ البيانيُّ في سورة مريم

١ ـ **قولُه تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي . . .﴾ [مريم: ٤] وَهَنَ بمعنى ضَعُفَ، أي ضعف عظمي، وذهبت قوتي من الشيخوخة، وكِبَر السنّ، ففي الآية (كناية لطيفة) عن ذهاب القوة، وضعف الجسم، والوصول لسنّ الشيخوخة الذي يصبح فيه الإنسان كالطفل الصغير.

٢ ـ **قولُه تعالى:** ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] في الآية (استعارةٌ تبعيّة) بديعة، شبّه انتشارَ الشيبِ وكثرتَه، باشتعال النار بالحطب، واستعار لفظ الاشتعال للانتشار، واشتق منه (اشتعل) بمعنى انتشر، بطريق (الاستعارة التبعية) وما أجملها من استعارة! وما أبدعه من تمثيل!! ولو قال: «شاب رأسي» لما كان له ذلك الإبداعُ البياني الرائع.

ومعنى الآية الكريمة: لقد انتشر الشيبُ في رأسي، انتشار النار في الهشيم، ولم تخيِّبْ يا ربِّ دعائي في وقتٍ من الأوقات، بل عوّدتني الإحسانَ والجميلَ، فاستجبْ دعائي الآن.

٣ ـ **قولُه تعالى:** ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] المسُّ هنا (كناية لطيفة) عن الجماع، وهذه من الآداب التي نبّهنا إليها القرآن الكريم، أن لا نتحدث في كلامنا باللفظ الصريح الفاحش، بل نستعمل الكنايةَ في كلامنا، ولهذا قال ابن عباس: (اللَّمسُ، والمسُّ: بمعنى الجماع، ولكنَّ اللّه تعالى حَيِيٌّ، كريمٌ يَكْنِي) ومثلُ هذه قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] كنى بها عن الجماع.

٤ ـ **قولُه تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ الصّدقُ ليس له لسانٌ، وإنما كنّى عن الذكرِ الحسنِ، والثناءِ الجميل باللسانِ، لأن الثناء يكون باللسان، وهي (كنايةٌ لطيفة) كما يُكَنّى عن العطاء باليد، فيقال: له عليَّ يدٌ لا أنساها.

والمعنى: جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس، لأن جميع أهل الملل والأديان، يثنون عليهم.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٧].

في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) شبَّه المكانةَ العظيمةَ، والمنزلة السامية الرفيعة، بالمكانِ العالي الذي يرتفع إليه الإنسانُ.

والمعنى: رفعنا لنبيِّ اللّه (إدريس) ذكرَهُ، وأعلينا قدرَهُ، بشرف النبوَّة، والقربِ من اللّه عزّ وجلّ.

٦ ـ **قولُه تعالى:** ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] المرادُ بالإنسان هنا: الكافرُ الذي لا يؤمن بالبعث، بدليل قوله بعده: ﴿خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧] فهو المنكر للبعث والنشور، والآية من باب (إطلاق العام وإرادة الخاصّ) ففيها (مجاز مرسل) ولا يراد به عمومُ البشر.

٧ ـ **قولُه تعالى:** ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩] أي نأمر الملائكةَ بكتابةِ أعماله وجرائمه، ونضاعفُ له العذاب، أسندَ الكتابةَ إليه، وهي من وظيفة الملائكة، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]. فهو من باب إسناد الشيء إلى سببه بطريق (المجاز المرسل).

٨ ـ **قولُه تعالى:** ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٩٧] كنَّى باللسان عن اللغة، أي إنما أنزلنا عليك هذا القرآن بلغة قومك (اللغة العربية) لتبشِّر به أهل التقوى والإيمان، وتخوِّف به أهلَ الكفر والعصيان، ففي الآية (كناية لطيفة) مِن بديع أنواع الكِناية.



الإبداع البيانيّ في سورة طه

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ • إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه: ٩، ١٠] الاستفهام هنا ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ ليس على حقيقته للاستفسار عن القصة والخبر، إنما هو أسلوب تشويق وترغيب لذكر القصة، أي هل بلَغَ إلى سمعك أيها الرسولُ أو أيها السامعُ خبرُ موسى وقصّته الغريبةَ العجيبة؟ فهو أسلوبُ حثٍّ وتشويق للإصغاء إلى القصة والخبر.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا...﴾ [طه: ١٥] الساعةُ لا يعلمُ وقتَها إلّا اللّهُ عزّ وجلّ، وهي مخفيّةٌ عن جميعِ الخلق، فما معنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ و(كَادَ) للمقاربة، وهي مخفيّةٌ فعلاً؟

والجوابُ: إنّ هذا جاء على سبيل المبالغة، في كتم السرّ، **والمعنى:** أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟

قال المبرِّد: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون في كتمان الشيء: كتمتُه عن نفسي، على طريقة المبالغة في كتم السرّ.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢] أصلُ الجناح للطائر، ثم استعير لجنب الإنسان، فإن جناحَيْ الإنسان جَنْبَاه: الأيمنُ، والأيسرُ، تشبيهاً له بجناحَيْ الطائر، ففي الآية (استعارةٌ تصريحيّة) بديعة.

والمعنى: أدخلْ يدك تحت عضدك ـ إبطك ـ ثم أخرجْها تخرجْ ساطعةً مضيئة، من غير عيبٍ ولا قبح!! كنّى بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عن البَرَص.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) بديعة، مثّل لشدة الرعاية، وفَرْطِ الحفظ والعناية، بمن يصنع شيئاً بمرأى من المحبوب الناظر له، وكأنه يرعاه بعينه، ويرقبُه بنظره، لأن الحافظَ للشيء يديمُ النظرَ إليه، فمثّل له بصورة من يُصنع على عين الآخر.

والمعنى: زرعتُ محبتك في القلوب، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، حتى أحبَّك فرعون، ولتكون في حفظي وكلأي ورعايتي.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] في الآية (استعارة تبعيّة) بديعة، شبَّه ما منحه به من القرب والمحبة، بحال مَلِكٍ يرى شخصاً، أهلاً للكرامة، وقرب المنزلة، فيختارُه وينتقيه لنفسِهِ، دونَ غيره من الأشخاص، وهذا على سبيل (الاستعارة التبعية).

والمعنى: اخترتُك من بين سائر بني إسرائيل لرسالتي ووحيي، فأنت اليوم قريبٌ وحبيب، ولا ينالك أذًى من أعدائك، بمعجزاتي التي أيدتك بها.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] المُثْلَى: تأنيثُ الأمْثَل، بمعنى: الأفضل، وهي كنايةٌ عن (الدِّين) والمذهب، أي غرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه، الذي هو أفضلُ الأديانِ، ومرادُهم ما عليه فرعونُ وقومُه، سمَّوْهُ (دِيناً) لقول فرعون عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤] في الآية (كنايةٌ لطيفة) كنَّى عن الأمر (بالكيد) لأنَّ تشاورهم كان بالخفاءِ، عن موسى وأتباعه، وهو يشبهُ كيدَ الكائدين.

والمعنى: أحْكِموا أمرَكم ولا تتنازعوا فيه، وكونُوا اليوم صفًّا واحداً في وجه موسى، وقد فاز اليومَ من عَلَا وغَلَب خَصْمَه.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] في الآية حذفٌ يسمى (حذفَ الإيجاز) تقديرُه: قال بل ألقوا أنتم، وابدأوا بالإلقاءِ، فألقَوْا ما في أيديهم، فإذا حبالُهم وعصيُّهم، تتحرَّكُ وتسعى على بطونها، كأنها حيَّات، حُذِفَ لدلالة المعنى عليه، ومثلُ هذا قولُه سبحانه: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ بعد قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه: ٦٩] حُذِفَ منه كلامٌ طويلٌ (للإيجاز) والاختصار، وهو من البلاغةِ بمكان، وأصلُ الكلام: فألقى موسى عصَاه فتلقَّفتْ ما صنعوا من السحر، فأُلقِيَ السحرةُ سجداً، وإنما حَسُن الحذفُ لدلالة الكلام عليه، والبلاغةُ: الإيجازُ كما يقول علماءُ البيان.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] الأسلوبُ ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أسلوبٌ يدلُّ على التهويلِ والتفظيع لما

أصابهم، لم يقل تعالى: فغرقوا، وإنما أورده بأسلوبٍ يدلُّ على التهويل، لما دهاهم وأصابهم، أي تبِعهم فرعونُ بجنوده، فعلاهم من الأمر الهائل المخيف ما غلَاهم، وأصابهم من الأهوال ما اللّهُ به عليم، وهذا من جوامع الكلم، لما دهاهم من أنواع الشدة، والكرب، والبلاء.

١٠ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩] أي سلك بهم مسلكاً، قادهم به إلى الهلاكِ والدَّمار، وفيه تهكُّمٌ بفرعون وسخريةٌ، حيث دلَّهم على طريق الشقاءِ، وكانَ وَعدهم بالأمن والرشاد، في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وأيُّ رشاد أوصلهم إليه، هذا الكافرُ الفاجر!؟

١١ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) فقد مثَّل لمن نَزل عليه غضبُ اللّه، بإنسانٍ سَقَطَ من أعلى برجٍ، فهوى إلى الأرض محطَّماً مهشَّماً، فاستعارَ لفظ (هوى) وهو السقوطُ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، للهلاكِ والدمار.

١٢ ـ **قولُه تعالى**: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١] شبَّهَ الذنوبَ والآثامَ، بالحملِ الثقيلِ الذي يُوهِنُ كاهلَ حامله، بطريق (الاستعارة التصريحية) وصرَّح بالمشبَّه به، وهو الحملُ الثقيلُ الذي يُحمل على ظهر الدابة، تشبيهاً للأوزار بالأحمال الثقال، وهو تشبيهٌ بادي الروعة والجمال.!

١٣ ـ **قولُه تعالى**: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] في الآية (كناية لطيفة) كنَّى بها عن أخبار الدنيا، وأمور الآخرة، أي يعلم سبحانه أحوال الخلائق، فلا تخفى عليه خافية، من أمور الدنيا وأمور الآخرة.

١٤ ـ **قولُه تعالى**: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] في الآية الكريمة سرٌّ بديع من البلاغة، وهو ما يُسمَّى (قطع النَّظير عن النَّظير) فقد قَطَع الظمأ عن الجوع مع أنه يناسبه، وقطع الضُّحُو عن العُرْيِ ـ والضُّحوُ: حرُّ الشمس ـ مع أنه يناسبه، وقَرَنَ بين (الجوع، والعُرْيِ)، وبين (الظمأ وشدة حرِّ الشمس)، للتذكير بأنَّ كل واحدة منها نعمةٌ مستقلَّةٌ، ولو قرن بين الجوع والعطش، والعُري وحر الشمس، لظُنَّ أنهما نعمتان فقط، لذلك فَصَل بينهما، لتظهر فيها أربع نعم: الجوعُ، والعطشُ، والعُرْيُ، والبروزُ لحر الشمس، فتدبر أسرار الكتاب العزيز.

١٥ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾

[طه: ١٢١] أي أخذا يُلْصِقان الورق على سوآتهما للتستُّر، وفي وصفه آدمَ بالعصيان ـ مع صِغَرِ الزلّة ـ تعظيمٌ للمخالفةِ لأمر الله، وزجرٌ لأولادِه عن أمثالِها، كأنه يقول: اعتبروا بأبيكم آدم، فقد أخرجته زلّتُه من الجنّة، ولا يخدعنكم الشيطانُ بوساوسه الخبيثة.

قال ابنُ قتيبة: يجوز أن يقال: عصى آدمُ، ولا يجوز أن نقول: آدمُ عاصٍ، لأنه إنما يقال: لمن اعتاد فعلَ المعصية، كالرجل يخيط ثوبه يُقال: خاطَ ثوبه، ولا يقال: هو خيّاط حتى يعتاد ذلك، ويعاوده مراراً، وهو كلام بديع!!

❁ ❁ ❁

الأمثال في سورة طه

التمثيل للجرائم بالحِمْل الثقيل

١ ـ قال الله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠٠، ١٠١] مثّل تعالى للجرائم والأعمال القبيحة، التي يفعلها الكفرةُ، المكذّبون بالقرآن العظيم، بالحمل الثقيل الذي يحمله الإنسانُ على ظهره، ويهوي بسببه في نار الجحيم، جزاء كفره وتكذيبه لآيات الله، بطريق (الاستعارة التصريحية).

والمعنى: من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به، ولم يتّبع هداه، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً، وذنباً عظيماً جسيماً، يُثقله في نار جهنم، مع الشقاء الدائم، والخلود في نار الجحيم، كما يحمل المسافر أحماله الثقيلة، ويا لَها من أحمال، ترهق كاهلَ الجاحد الكافر!!

التمثيل لنعيم الدنيا بالزهر الفوّاح

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] أي لا تنظر إلى هؤلاء المترفين، وما هم عليه من نعيم الدنيا وبهجتها، وإلى ما منحنا به أصنافاً من الكفار، لنبتليهم فيه، فإنما هي زهرة زائلة، ونعمة سريعة الزوال، لا ينبغي أن يُخدع بها العاقلُ، ولْنمعن النظر في قوله سبحانه: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن المال والجاه والسلطان، كلُّ ذلك من المتاع الزائل، كالأزهار تخرج من الأرض، برّاقةً، لمّاعةً، جذّابة، تشتهيها النفوس، ولكنها سرعان ما تذبُلْ، فتذهب نضارتُها وبهاؤها، بعد ما كان فيها من رُوَاء وبهجة، وهكذا نعيم الدنيا إلى زوال وفناء، وهذا من (التشبيه التمثيلي) البديع، الفائق في الجمال.

❁ ❁ ❁

الإبداع البيانيُّ في سورة الأنبياء

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) القذفُ هو الرمي الشديدُ بالجُرْم الصُلْبِ، شبّهَ الحقَّ بقذيفةٍ ناريَّة، يُرمى بها رأسُ الباطل، فتشدخُه وتكسِرُ دماغه، وتُرديه قتيلاً، وهو تمثيلٌ رائعٌ بديعٌ، لغلَبة الحقِّ على الباطل، وإزهاقه بالكليَّة.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، شبّه الكفارَ بالصُمِّ الذين لا يسمعونَ الكلامَ، لأنهم كالبهائم، التي لا تسمع الدعاء، ولا تفقه النداء، وقد تكرَّر في القرآن الكريم، التشبيهُ للكفار بالصُمِّ، والبُكم، والعمي، بطريق (الاستعارة التمثيلية) البديعة.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] النَّفحةُ، والنَّسمةُ، والهبّةُ، ألفاظٌ متقاربة في المعنى، كلُّها تمثيلٌ لأخفِّ وأدنى أنواع العذاب، فكيف لمن يُحرق بنار الجحيم؟ والمعنى: لئن أصابهم أقلُّ شيء من العذاب، ولو كان يسيراً خفيفاً، ليعترفُنَّ بجرائمهم، ويَدْعُون على أنفسهم بالهلاك والدمار.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) بديعةٌ، شبّهَ تعالى رجوعَهم عن الحقِّ إلى الباطل، بانقلابِ شخصٍ في هيئته وصورته، بحيث يصبح أسفلُه أعلاه، رجلاهُ إلى الأعلى، ورأسُه إلى الأسفل، فكيف يستقيم فهمُه وتفكيره؟ وكيف يفكرُ بعقله؟ وإنه لتصويرٌ بطريق (الاستعارة التمثيليَّة) بادي الحُسن والجمال.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] كنّى عن (القلّةِ والحقارة) بحبة الخردل، وهي كنايةٌ ترمز إلى حقارة الشيء، فإنَّ (حبة الخردل) مَثَلٌ في الصِّغَر.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥] الرحمة صفةٌ من الصفات، لا يمكن أن يحلَّ بها الإنسانُ، والمراد أدخلناه في (الجنّة) التي هي مكان رحمتنا، ففي الآية (مجازٌ مرسلٌ) من باب (إطلاقِ الصفةِ وإرادة الموصوف) أو بتقدير حذف مضاف أي أهل رحمتنا، الذين يستحقون فضلَ اللهِ وإنعامه، فيكون في الآية (مجاز بالحذف).

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] المرادُ بالروح: (جبريل) عليه السلام، نفَخ في فتحة ثوب مريم، فحملت بعيسى عليه السلام، وأضافَ الروح إليه تعالى ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ على جهة التشريف والتعظيم، لأنها كانت بأمره سبحانه، كقوله سبحانه: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] أضاف الناقة إليه تشريفاً، لأنها كانت معجزةً باهرة، بخلق الله عزّ وجلّ لها من صخرٍ أصمّ، فالإضافة في كلّ للتشريف والتعظيم.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] المرادُ بالأمة في الآية: الدينُ والمِلَّة، كنَّى بالأمة عن الدِّين، أي دينُكم أيها الناسُ دينٌ واحدٌ، هو الإسلامُ دينُ جميع الأنبياء والمرسلين، كلُّهم بعثوا برسالة التوحيد (لا إله إلا اللهُ) وليس الاختلافُ بينهم في أصول الشريعة، لأنها لا تتبدَّل بتبدُّل العصور والأزمان ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وأمّا الشرائعُ وهي الأحكامُ، والمناهجُ التي شرَعها الله للخلق، فتختلف من أمةٍ إلى أمة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فالدينُ عند اللهِ واحد، والشرائعُ مختلفة، فتدبَّرْ الفارقَ بين الشريعة والدين، واللهُ يهدي إلى صراطٍ مستقيم.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣] مثَّل اختلافهم في الدين، وتفرُّقهم فيه إلى شِيَعٍ وأحزاب، بجماعةٍ وَرِثُوا ثَوْباً، كلُّ واحدٍ ينتزعُ منه قطعةً، فتمزَّق الثوبُ، وتقطَّع قِطَعاً قِطَعاً، ولم يحصل أحدٌ منهم بفائدةٍ ترجع عليه، وهذا من (لطيف أنواع الاستعارة).

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] في الآية (استعارةٌ لطيفة) استعارَ لفظ حرام للشيء الذي يمتنع

حدوثه، بطريق التمثيل له بالشيء الحرام، الذي لا يجوز فعله، وفي الآية أيضاً: (حذفٌ بالإيجاز) فقد نُسب الهلاك للقرية وهو لأهلها.

والمعنى: ممتنعٌ على أهل قريةٍ من القرى أهلكناهم، أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية، بمعنى أنه مستحيل عودتُهم إلى الدنيا بعد الهلاك، حتى تقوم الساعةُ، فيحييهم الله، فيرجعون للحساب والجزاء، فالتعبيرُ واردٌ بأسلوب الاستعارة البديعة.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧] في الآية (إيجازٌ بالحذف) حُذفت كلمة (يقولون) قبل ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾، وأصلُ الكلام: يقولون: يا حسرتنا ويا هلاكنا، فقد كنّا في الدنيا غافلين، عن هذا المصيرِ المشئوم، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيه حذف للإيجاز، تقول لهم الملائكة: هذا يومكم.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] في الآية (تمثيلٌ رائع) شبّهَ المشركين ومعبوداتهم، بالحَطب الذي يلقى في النار لإضرامها، يُحْصَبون في جهنم فيكونون وقودَها، على طريق (التشبيه البليغ) أي كالحطب للإحراق، وفي هذا التمثيل تصغيرٌ وتحقير للعابدين والمعبودين، كأنهم مع آلهتهم المزعومة، حجارةٌ من حصباء، تُقذفُ في جهنم قذفاً، من دون رفقٍ ولا أناة، كما يقذف الإنسانُ بالنوى!!

رُوي أن الآية لمّا نزلت، جاء أحَدُ المشركين إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أتزعم أن كلَّ من عُبد من بدون الله سيكون في جهنم مع من عَبَده؟ فنحن نعبدُ الملائكةَ، واليهودُ يعبدون عُزيراً، والنصارى يعبدون المسيحَ، فنحن نرضى أن نكون معهم في الجحيم ـ وظنَّ الأحمقُ أنه أقام الحجةَ على الرسول ﷺ ـ والآية وردت بلفظ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ و«ما» لما لا يعقل، فلم يدخل فيها (عيسى، وعُزير، والملائكة) وإنما هي في الأوثان والأصنام.

❁ ❁ ❁

الأمثال في سورة الأنبياء

تشبيه الحقّ بقذيفة ضخمة تشدخ رأس الباطل

١ ـ قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] في الآية تشبيهٌ رائعٌ بديع، شبَّهَ الحقَّ بقذيفةٍ نارية ضخمةٍ، تُشبه (قذائف الهاون) التي ابتكرها البشر، تُقْذف على رأس الفجور والباطل، فتشدخه وتُرديه صريعاً قتيلاً، تُزهقُ روحه.

والغرضُ من هذا التشبيه، أن الحقَّ الساطعَ المبين، يُرمى به في وجه الباطل المتزعزع، فيمحقه ويُزهقه، ولكم العذاب والدمارُ يا معشر الكفار، وهو معنى رائع صوَّره القرآنُ بهذا التصوير البديع، وفيه (استعارة تمثيلية) في غاية الإبداع والجمال، تَصوَّرْ رَصاصةً تنطلق على رأس إنسان فتُرديه قتيلاً، فكأنَّ الحقَّ قذيفةٌ يُقذف بها على رأس الباطل، تُزهق روحَه.

التمثيل بانتكاس الإنسان رأساً على عقب

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤، ٦٥] التعبيرُ القرآني هنا بالغُ الروعة في (التمثيل والتصوير) فقد شبَّهم تعالى في عَوْدهم إلى الباطل، ورجوعهم إلى الحماقة والسُّخف، بإنسانٍ انقلب على رأسه، فلم يبق له عقلٌ ولا فهم. تصور شخصاً نكَّسْناه وقلبناه، فجعلنا رأسه إلى الأسفل، وقدماه إلى الأعلى، كيف يكون سليم العقل والتفكير؟ وقد اختلَّ عقلُه، وضاع رشدُه؟

وتوضيح الآية: أنهم رجعوا إلى عقولهم، وتفكَّروا في أمرهم، فعرفوا خطأ عبادتهم، لحجارة صمَّاء بكماء، لا تنفع ولا تضرُّ، فقالوا: نحن الظالمون لأنفسنا، في عبادة ما لا يسمع ولا ينطق، وكانت هذه الكلمة منهم بادرة نورٍ وخير، أعقبها الظلامُ والضلالُ، فعادوا إلى الباطل، وقالوا: لقد علمتَ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟

لقد أقاموا الحجة على أنفسهم، دون فهم ولا تبصُّر، وأيَّةُ حجة لإبراهيم عليه السلام على هؤلاء الحمقى، أقوى من أنْ يقولوا بأنفسهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكانوا كمن انقلب رأساً على عقب، ففي الآية (استعارة تمثيلية).

التمثيل لاختلاف الناس في الأديان

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣] مثَّل تعالى اختلاف الأمم، وتفرقهم في الدين، إلى شِيَع وأحزاب، بجماعة جاءوا إلى ثوب جديد، فاختطفوه بينهم، فأخذ كلُّ واحد منهم قطعةً، فأصبح الثوبُ مِزَقاً باليةً، لم يبق الثوب على حاله يُنتفع منه، ولا هم استفادوا ممّا في أيديهم من القِطَع الممزَّقة، فما أروعه من تمثيل؟ وما أبدعه من تصوير!!

لقد تفرّق البشرُ في أمر الدين، فمنهم من هو مسلم، ومنهم من هو يهودي، أو نصرانيٌّ، أو مجوسي، أو عابدُ وَثَن وصنم، كلُّ واحدٍ يعبد ربه على هواه، بينما الرسُل الكرام، جاءوا بدينٍ واحد، هو الإسلام، فَلْيعتبر الإنسانُ كيف أضلهم الشيطان!؟



الإبداع البياني في سورة الحج

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] استعار لفظ الشيطان؛ لكلِّ طاغيةٍ عاتٍ متمرِّدٍ على اللَّه، والمرادُ بهم رؤساءُ الكفر والضلالة، ففي الآية (استعارة تصريحية) تشبيهاً للمفسدين بالشياطين، نزلت الآية في (النضر بن الحارث) كان كثيرَ الجَدَل، يخاصم بالباطل، وكان يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآنُ أساطيرُ الأولين، والملائكةُ بناتُ اللَّه، إلى آخر تلك الأباطيل، ففيه نزلت الآيةُ الكريمة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] وردت الآية على (طريقةِ التهكُّم) لأن الهدايةَ تكون للخير والسعادة، ولا تكونُ إلى عذاب الجحيم، ففي لفظ (يهديه) سخريةٌ وتهكُّم بالزائغ عن هداية اللَّه.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] في الآية (استعارةٌ تبعيّةٌ) لطيفة، شبَّه الأرض بإنسانٍ نائم، لا حسَّ له ولا حركة، ثم دبَّ فيه الشعورُ، فتحرّك وانتعش، واستيقظ من سُباته، كذلك الأرضُ تَدِبُّ فيها الحياةُ بنزول المطر، فتنتفخُ وتزدادُ، ويظهر فيها النباتُ والثمر، استعار لفظ (اهتزَّت) بطريق (الاستعارة التبعيّة) بَدَلَ قوله: ظَهَر فيها النباتُ وأورق فيها الشجرُ.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [الحج: ٩] ثَنْيُ العِطْف: كنايةٌ عن التكبر والغطرسة، لأن العِطْف معناهُ الجانبُ، ويسمى (المِعْطف) معطفاً لأنه يوضع على الجانبين، أي يمشي لاوياً عُنُقه متكبراً، معرِضاً عن الحقّ، إذا ما دُعي إليه، وهذا نهايةُ الاستعلاء والاستكبار.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠] كنّى باليد على ما يقترفه الإنسانُ من أعمال ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ لأن اليد آلةُ الكسب، ففي الآية (كناية) أي ذلك الخزيُ والعذابُ، بسبب ما اقترفْتَهُ من الكفر والمعاصي، وسائر الأعمال القبيحة.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ...﴾ [الحج: ١١] في الآية الكريمة (استعارةٌ تمثيلية) بديعة، مثّل للمنافقين وما هم عليه من قلَقٍ واضطرابٍ في أمرِ الدِّين، برجلٍ وَقَفَ على طرف هاوية سحيقة، يريدُ العبادة والصلاة، واستعار لفظ (حرف) لطَرَف المكان، وحافّته الخطيرة، فإنْ أصابته عاصفةٌ أو أقلُ ريح، هَوَى إلى ذلك الوادي السحيق، ويا له من تمثيل رائع بديع!!

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] في الآية (إيجازٌ بالحذف) والمراد بالخصمين: الفريقان: فريقُ المؤمنين، وفريقُ الكافرين، بدليل الجمع (اختصموا) حُذف من قوله: ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي اختصموا في أمر دينه، الذي بعَثَ به رسوله محمداً ﷺ، فهو كما يقولون: على حذف مضاف.

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ...﴾ [الحج: ١٩] هذا التعبيرُ جاء بطريق (الاستعارة التمثيلية) يعني: فُصِّلَتْ لهم ثيابٌ من نارٍ، على قدر أجسادهم، شبّهَ النارَ التي تحيط بهم من كل جانب، بالثيابِ التي تُفصّل على قدر كل لابسٍ، وليس في جهنم ثيابٌ لأولئك الأشرار الفجار، إنما هو تشبيهٌ وتمثيل للنار الهائلة، التي تحيط بهم من كل جانب، فلا يستطيعون الخلاص منها، بطريق التمثيل الرائع.

قال الأزهري: شُبّهت النارُ بالثياب، لأنها مشتملةٌ عليهم كاشتمال الثياب، وعبّر بالماضي عن المستقبل، تنبيهاً على تحقق وقوعه. اهـ تفسير الشوكاني ٣/ ٤٤٢.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] في الآية (تشبيه تمثيلي) بديع، شبّهَ من أشرك بالله، بمن سَقَط من السماء، من عُلُوٍّ ساحق، فتخطّفته الطيرُ فمزّقته كلَّ ممزّق، أو بمن هَوَى من شاهقِ جبل، فقذفته الريحُ إلى هوّة سحيقة، ليس لها قرارٌ، فتحطَّمَ وتكسّر، وهو مثلٌ لمن سَقَط من أوج الإيمان، إلى حضيض الكفر والضلال، وهو تشبيه رائع بديع.!

١٠ ـ **قوله تعالى:** ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] في الآية (مجاز بالحذف) فالمأذون فيه لم يُذكر في الآية، لدلالة

السياق عليه، والتقديرُ: أُذن لهم بالقتال، دفاعاً عن أنفسهم، بسبب أنهم ظُلِموا، وهذه أوّلُ آيةٍ نزلتْ في مشروعية القتال، بعد أن كانوا ممنوعين عن حمل السلاح، وقتال المشركين، ولمّا صار للمسلمين في المدينة المنورة، قوةٌ ودولةٌ، أُذِنَ لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] في الآية الكريمة (تأكيدُ المدح بما يُشبِهُ الذمّ) أي لا ذنب لهم إلا أنهم عَبَدُوا اللّهَ وحدَه، وهجروا عبادةَ الأصنام والأوثانِ، وهذا ليس بذنبٍ، يوجبُ إخراجهم من الأوطان، فهو مدحٌ في صورة ذمٍّ، لأن الإيمانَ ليس بذنبٍ، يوجبُ تهجيرهم من الوطن.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥] هذا من أحسن وأبدع (أنواع الاستعارة) لأن العقيمَ هي المرأةُ التي لا تلِدُ، شَبّهَ اليومَ الأخيرَ من أيام الدنيا (بالمرأةِ العقيم) لأنه لا يومَ بَعْدَه، فالأيامُ كأنها حُبالَى، يلِدْنَ الأيامَ التي تأتي بعدَها، وآخرُ أيام الدنيا، لن يأتي يومٌ بعده، فكأنه يومٌ عقيمٌ، لأن الزمان قد مضى، والتكليف قد انقضى، ومن هنا صار التشبيه له باليوم العقيم، بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة.

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ [الحج: ٧٢] المعرفةُ تدركُ بالعقل والقلب، ولا تُرى بالبصر، وقد استعار لفظ (تعرف) للرؤية والمشاهدة أي ترى وتشهدُ في وجوه الكفار، الكراهية والإنكار حين تقرأ عليهم آياتِ الذكر الحكيم، وهذا مِثْلُ قولهم: عرفتُ في وجه فلانٍ الشرَّ، وتحكي عَيْناه الغَدْرَ، فهذا كلّه بطريق (الاستعارة التَّبعية البديعة).

وقد جاء في هذه السورة الكريمة مثلٌ رائع بديع، وهو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] خطاب عامٌ شامل للبشر، يُراد منه عبدةُ الأوثان والأصنام خاصة، يقول لهم: تفكّروا في هذا المثل البديع: إن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الرحمن، لن تقدر على خلق ذبابة، ولو تعاونت على ذلك، ولو اختطفت الذبابةُ شيئاً من الطِّيب أو الطعام، لما استطاعت تلك الآلهةُ استرجاعَه، ضَعُفَ

العابدُ والمعبود، فكلٌ منهما حقيرٌ وضعيف.

قال ابن القيّم رحمه الله: حقيقٌ على كل عبدٍ أن يستمع بقلبه لهذا المثل، ويتدبّره حقّ تدبُّره، فإنه يقطع موادَّ الشرك من قلبه.

وذلك أن المعبود أقلُّ درجاته، أن يقدر على إيجادِ ما ينفع، ودفع ما يضرُّ، والآلهةُ التي يعبدها المشركون، لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلُّهم لخلقه، فكيف بما هو أكبر منه!؟ بل لا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً من الطعام أو الطّيب، فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب، الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟

وهذا المثَلُ من أبلغ ما أنزله الله في بطلان الشرك، وتجهيلِ أهله، وتقبيح عقولهم، حيث أعطوا الآلهةَ القدرةَ على جميع المقدورات، ويختار هنا ذكر (الذُّباب) بالذات، لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وهو ضعيف حقير، ليبرز حقارة معبوداتهم التي جعلوها آلهة، وهي في هذه المهانة!! اهـ التفسير القيّم ص٣٦٨.

١٤ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧] في الآية (مجازٌ مرسلٌ) من باب إطلاق الجزء على الكلّ، أي صلُّوا لربكم، ولا يراد به أن يركع المؤمن ويسجد فقط، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنهما أعظم أركان الصلاة.



الأمثال في سورة الحج

١ ـ **قول الله تعالى:** ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

في الآية تشبيه رائع بديع، شبّه الأرض بنائم، استغرق في نومه، فلا حركة له ولا سمع ولا بصر، ثم تدبُّ فيه الحياةُ، فيستيقظ ويتحرّك وينتعش، كذلك الأرض تحيا بنزول المطر، فتنتفخ وتزداد، ويظهر فيها النبات والثمر، وتدبُّ فيها الحياةُ، فتُخرج من كل صنفٍ عجيب، ما يسرُّ الناظر ببهائه، وحسن منظره، مع اختلاف الأشكال، والألوان، والطعوم والروائح، فمن الذي أحياها بعد الموت؟ ففي الآية (استعارة تمثيلية) من لطيف أنواع الاستعارة.

التمثيل للمنافق في تقلبه واضطرابه

٢ ـ **قال الله تعالى:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

مثّل تعالى حال المنافقين، وما هم عليه من قَلَق واضطرابٍ في أمر الدين، بمثَلِ رجلٍ وقف على شفا هاوية سحيقة، فليس هو على أرضٍ صلبةٍ راسخة، ولا على ركيزة ثابتة، إن أصابته أدنى عاصفة من الريح، هوى إلى ذلك الوادي السحيق، ويا له من تمثيلٍ رائع بديع.!.

وقوله سبحانه: ﴿مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ تصويرٌ دقيق للمنافق، الذي يعبد الله على جانبٍ وطرفٍ من الدين، لا يعبده عن إيمان ويقين، وهو كالذي يقف في آخر الجيش، ينتظر النتيجة، إن أحسّ بظفر قرّ، وإن أحسّ بهزيمةٍ فرّ! ففي الآية (استعارة تمثيلية) في غاية الوضوح والجمال.

التمثيل لمن أشرك بمن هوى من السماء

٣ ـ ضرب تعالى مثلاً للمشرك، في ضلاله وهلاكه، وضياع عمله، في غاية الوضوح والإبداع، فقال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ

﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] مثَّل تعالى للمشرك بمثل من سقط من السماء، فاختطفته الطيورُ، ومزَّقته كلَّ ممزَّق، أو هوى من شاهق جبلٍ عالٍ، فقذفته الرياح في هوة سحيقة، بعيداً عن الأنظار، في حفرة ليس لها قرار، وهو تشبيهٌ بديعٌ، لمن سقط من أوج الإيمان، إلى حضيض الكفر والهوان، ويا لها من شقاوة فادحة!! ففي الآية (تشبيه تمثيلي) من بديع أنواع التشبيه، لأن وجه التشبيه منتزع من متعدِّد.

مثلٌ لمن عبد الأصنام والأوثان

٤ ـ **قال الله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ...﴾ [الحج: ٧٣] سُمِّي هذا مثلاً، لأنه في جلائه ووضوحه يشبه المثل، ويا له من مثل رائع، فيه إبداعٌ وجمال، وهو من السهولة والبساطة، بحيث يدركه الذكيُّ والغبيُّ، والعالم والجاهل.

لقد عبد المشركون حجارةً وأوثاناً، عمياءَ بكماءَ صمَّاءَ، لا تستطيع مجتمعةً أن تخلق ذبابةً، فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً، ويختار القرآنُ الذبابَ بالذات، وهو ضعيفٌ حقير، ليُبْرِز حقارة معبوداتهم، التي جعلوها شركاءَ مع الله، فإذا عجزتْ عن خلقِ ذُبابة، فكيف تقدر على خلق ما هو أضخم وأعظم كالإنسان!؟ ولو اختطف الذبابُ من هذه الأصنام شيئاً، لا تستطيع ارتجاعه منه.

قال المفسرون: كانوا يلطخون الأصنامَ بالطِّيب والعَسَل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذبابُ من الكوى فيأكله.

وخلاصةُ المثل: أن هذه الأصنام لو اجتمعت جميعها فلن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، أو استرداد ما سلبته منها، فكيف يليق بالعاقل، أن يجعلها معبوداً من دون الله؟

والذبابُ أعدى عدوٍّ للبشر، يحمل بين حناياه الموت الزؤام، بسبب ما ينقله من أمراض خبيثة فتَّاكة، كالتيفوئيد، والسلِّ، والرَّمد، فسبحان من جعل من ضرب المثل بالذباب، أعظم إنذار لما يحمله الذباب من خطرٍ على البشر.

قال الزمخشري: سُمِّيت القصةُ الرائقة، المتلقَّاةُ بالاستحسان مَثَلاً، تشبيهاً لها بالأمثال، التي تضرب تنبيهاً وتحذيراً للبشر[1]، فلا عجب أن يضرب القرآنُ به المثل.

(1) تفسير الكشاف للزمخشري.

الإبداع البياني في سورة المؤمنون

١ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] الناسُ لا ينكرون الموتَ، ولكنْ غفلتهم عنه، وعدمُ استعدادهم له، بالعمل الصالح، يُعدَّانِ من علاماتِ الإنكار، ولذلك جاء التأكيد بمؤكِّدين هما (إنَّ) و(اللام) ويُسمَّى في المعاني: (إنزالُ غيرِ المُنْكِرِ منزلَةَ المُنْكِر).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنونُ: ١٧] يُراد بالطرائق: السمواتُ السبعُ، سميت بذلك لأنَّ بعضَها فوق بعض، ولأنَّ الملائكة تسلك طُرُقَها، ففي الآية (استعارةٌ لطيفةٌ) تشبيهاً لها بالألواح التي يوضع بعضُها فوق بعض، وتبقى متطابقةً في هيئتها وشكلها، ومنه قول الحذَّاء: طابقَ النَّعْلَ فوق النَّعْلِ.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] في الآية (استعارةٌ بديعة) تسمى (الاستعارة التمثيلية) عبَّر عن المبالغة في الحفظ والرعاية، بصنعِ الشيءِ تحت بَصَر الإنسان وسمعه، لأنَّ الحافظَ للشيء، لا بدَّ أن يرعاه ببصره، خشيةَ الضياع أو السرقة، وقد تقدم توضيحها في صفحة (١٣٤) من هذا الكتاب.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١] في الآية (تشبيهٌ بليغ) أي جعلناهم كالغثاء في سرعة زواله، ومهانةِ حاله، حُذِفَ منه وجهُ الشبه، وأداةُ التشبيه، فأصبحَ بليغاً، مثل قولهم: عليٌّ أسدٌ، أي كالأسد في الشجاعة والقوة، والغُثاءُ في اللغة: ما يحمله السَّيْلُ من الزَّبَد، واليابس من الحشيش على سطحه، ثم يزول سريعاً.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] مثَّل تعالى اختلافَهم في الدين، وتفرُّقهم فيه إلى شِيَع وأحزابٍ مختلفة، هذا مجوسيٌّ، وهذا يهوديٌّ، وهذا نصرانيٌّ، كلُّ فريق مسرورٌ بدينه، مثَّل لهم بجماعةٍ مزَّقوا ثوباً جديداً فضفاضاً، فأخذ كلٌّ منه قطعةً، فلم ينتفعْ أحدٌ

بما في يدِه، ولم يَبْقَ الثوبُ ملبوساً لأحد، وهذا من بليغ التشبيه، و(لطيف الاستعارة).

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] أصلُ الغَمْرة: الماءُ الذي يغمُرُ قامةَ الإنسان، استُعِير للجهالة والغفلةِ والضلالة، شبَّه تعالى ما هم فيه من الجهالة والضلالة، بالماء الذي يغمُرُ القامةَ، حتى يُحيط بالإنسان من كل جهةٍ ومكان، ففي الآية (استعارةٌ تصريحيةٌ) بديعة، أي اتركهم في غفلتهم وجهلهم وضلالهم، إلى حين موتِهم، وزَهَاقِ أرواحهم، فإنهم أشباهُ البهائم، لا فطنة لهم، ولا شعور.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢] الكتابُ ليس له لسان، والنُّطْقُ لا يكون إلّا ممن يتكلّم بلسانه، ووَصْفُ الكتابِ هنا بالنُّطق ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ إنما ورد بطريقِ (الاستعارةِ البديعة) مبالغةً في وصفه، بإظهار البيان، وإعلان البرهان، تشبيهاً له باللسان الناطق.

والمعنى: عندنا كتابُ أعمالِهم، يُظهِرُ الحقَّ، ويبيِّنُ كلَّ ما فعلُوه من قبائح وجرائم، وكأنه إنسان ينطِقُ عليهم بما اقترفوه، وهذا من (بديع الاستعارة).

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦] الأعقاب جمع عَقِب، وهو مؤخرُ القدَم، والنكوصُ: الرجوعُ إلى ما كان عليه، شبَّه تعالى إعراضهم عن الحقّ، وتكذيبَهم لخاتم الأنبياء، بالراجع القهقرى إلى الخَلْف، تشبيهاً لإعراضهم عن الإيمان، بالمتكِسِ الراجع إلى حضيض الكفرِ والضَّلال، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي من لطائف أنواعِ الاستعارة.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] أطلق لَفظَ ﴿كَلِمَةٌ﴾ على الجملة، التي يقولها الكافر يوم القيامة وهي: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] وهذا (مجازٌ مرسلٌ) من باب (إطلاق الجزء وإرادةِ الكُلّ) كما نقول: (تستمعون إلى كلمة يلقيها على مسامعكم سماحةُ المفتي) وتكون محاضرة طويلة.

❁ ❁ ❁

الكناية والاستعارة في سورة المؤمنون

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] جاء الرسل الكرام بالمحبة والوئام، والألفةِ والاتحاد، وتفرَّقَ أتباعُ الرسل، إلى فِرَقٍ وجماعات، وأصبحوا أحزاباً شتَّى، وجماعات متناحرة، هذا يهودي، وذاك نصراني، وآخر مجوسي، إلخ... وقد جاء التعبيرُ عنهم في غاية الإبداع.

ضرب تعالى مثلاً للدينِ الذي أرسلَ به الرسل، بالثوب الجميل الفضفاض، اختصم فيه جماعة فتخاطفوه، فأصبح في يد كلِّ واحدٍ قطعةٌ منه، فتمزّق الثوب، وذهبَ بهاؤه وجمالُه، ومضى كلُّ إنسانٍ بالقطعة التي اختطفها، فرحاً مغتبطاً بما هو عليه، وهكذا أصبح أمر الأمة الواحدة، متشتِّتاً متمزِّقاً، وهذا معنى قوله (زُبُراً) أي قِطَعاً متناثرة، وهو تمثيلٌ لاختلاف أهل الأديان، بصورة فنيَّة جميلة، من أجمل صور البيان.!

٢ ـ وقوله سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] أصلُ الغمرة: الماءُ الذي يغمر قامة الإنسان، شبَّه تعالى ما هم عليه من الجهالة والضلالة، بالماء الذي يغمر الإنسان، من فَرْقِهِ إلى قدمه، على وجه (الاستعارة التصريحية) والمراد هنا: أن الغفلةَ والضلالةَ، قد غطَّتْ على قلوبهم فأعمتها، قال ابن عطية: والغَمْرةُ: ما عمَّهم من ضلالهم، وفعَل بهم فِعْلَ الماء الغَمْرِ الكثير. اهـ المحرر الوجيز ١٠/ ٣٦٨. أي دعهم في غفلتهم وجهلهم إلى انتهاء آجالهم، فاللَّهُ تعالى لهم بالمرصاد.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة النور

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ٤] أصلُ الرَّمي: القذفُ بالحجارة، أو بشيءٍ صُلْبٍ، ثم استُعير للقذفِ باللسان، كما قال الشاعر:

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ وَلَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

وقد أجمع العلماء على أن المراد بالآية هنا (الرميُ بالزنى) ففي الآية (استعارةٌ تصريحيةٌ) تشبيهاً للقذف بالزنى بالرمي بالحجارة، لأنه أشدُّ إيلاماً وأعظم إيجاعاً، من الضرب بالسوط، أو الرمي بالحجر، لأنه هتْكٌ لِعِرْضِ الإنسان.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] جواب (لولا) محذوفٌ لتهويلِ الأمر، وتفظيعه، ليذهب الوَهْمُ في تقديره كلَّ مَذْهب، فيكون أبلغ في البيان، وأبعدَ في التهويلِ والوعيد، والتقديرُ: لولا فضلُ اللهِ عليكم بالتوبة لحلّ بكم من العذاب، ما لا يتصوّرُه أحدٌ، ولا يخطرُ على بال.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١] شبَّه تعالى سلوكَ طريق الشيطان، والسَّيْرَ في ركابِه، بمن تحرّى شخصاً في مشيته، فتتبّع خُطُواته خُطْوةً خُطْوة، بطريق (الاستعارة التمثيلية).

والمعنى: لا تسلكوا الطُّرُق التي يدعوكم إليها الشيطانُ، ويزيِّنُها لأعينكم، فتضلُّوا، وهي (استعارةٌ لطيفةٌ) بديعة.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ [النور: ٢٢] في الآية (إيجازٌ بالحذف) حُذفت من الآية (لا) لدلالة المعنى عليها، وأصلُها (أن لا يؤتوا) لأن الآية نزلت في أبي بكر الصدِّيق، حَلَف أن لا يُنْفِق على «مِسْطح» بعد أن خاضَ مع من خاضَ في عائشة رضي اللّه عنها، فنزلت الآية تأمره بالإنفاق.

والمعنى: لا يحلفْ أهلُ الفضلِ في الدِّين، وأصحابُ الغنى واليَسار، أن لا يؤتوا أقاربَهم من الفقراء والمساكين، وليعفُوا عنهم وليَصْفحوا وليعُودوا إلى ما كانوا ينفقونه عليهم، فلمَّا سمعها أبو بكر قال: بلى واللّهِ، إني لأحبُّ أن يغفر اللّهُ لي، فأعادَ النفقةَ إلى مِسْطَح، وقال: واللّهِ لا أنزعها منه أبداً. اهـ تفسير ابن جرير.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠] في الآية (إيجازٌ بالحذف) لأن المراد غضُّ البصر عمَّا حرَّم اللّهُ، وليس غضُّ البصرِ عن كل شيء، حُذف ذلك اكتفاءً بفهم أولي النُّهى، وذُكر في الآية (مِنْ) التي هي للتبعيض، في غضّ البصر ﴿ مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ولم تُذكر في رديفتها ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ لأن حكم النظرِ أخفُّ من حكم الفَرْج، إذ يحل النظرُ إلى بعض أعضاءِ المحارم، كالذراع، والصَّدْر، والساقِ، ولا يجوز إلى الفرج مطلقاً، فأمرُ الفروج أعظمُ وأخطر من كلِّ العورات.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . . ﴾ [النور: ٣١] المراد بالزينةِ هنا: مواضعُ الزينة، كالعُنُق، والأُذن، والصَّدْر، والمِعْصَم؛ فإنَّ هذه أماكنُ الزينة، فالآيةُ على حذف مضاف، ووردت بطريق (المجاز المرسل) من باب (إطلاق اسم الحالِّ على المحلّ).

قال في الكشاف: وذِكْرُ الزينةِ دون مواضِعها، للمبالغة في الأمرِ بالتستُّر والتصوُّن.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٤] في الآية (استعارةٌ لطيفةٌ) استعار لفظَ التقليب (يُقلِّب) لتعاقب الليلِ والنهار، يعني مجيئهما بدوام واستمرار، مع نقصٍ في أحدهما، وزيادةٍ في الآخر، وليس المرادُ التقليبَ الحِسّي للأمور الذاتية وإنما هو استعارة بديعة، عن دوامهما، يأتي الليلُ فيذهب النهار، ويأتي النهارُ فينمحي الليلُ، تشبيهاً لتعاقبهما بتقليب الطفل من جَنْب إلى جَنْب، أو بتقليب القارئ لصفحات الكتاب.

٨ـ قولُه تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ . . . ﴾ [النور: ٥٣] الجَهْدُ: الطاقةُ والقوة، شبَّه تعالى أَيْمانَ المنافقين في قُوَّتها وشدَّتها، بمن يُجْهِد نفسه في أمرٍ شاقّ، ويبذلُ أقصى وُسْعِه وطاقته فيه، على طريق (الاستعارة) واستعار لفظ الجَهْد لها.

والمعنى: أقسموا بالله بَالِغينَ أقصى مراتبِ اليمين في الشدّة، لئن أمرتهم بالخروج للجهاد، ليخرجنّ معك يا محمد وهم كاذبون.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] المعنى: على الرسول ما كُلِّف به من أمر التبليغ، وعليكم ما أُمرتم به من أمر الطاعة والتسليم، فالآية من باب (المشاكلة) وهي الاتفاقُ في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فما حُمّلَ به الرسولُ، غيرُ ما حُمّلَ به البَشَرُ، فاللفظُ متفقٌ، والمعنى مختلفٌ، كنّى عن التكليف بالحِمْل الشاقّ.

الأمثال في سورة النور

التمثيل لطاعة الشيطان باتباع خطواته

١ ـ **قال الله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ...﴾ [النور: ٢١] **خُطواتُ الشيطان: طرائقُه ومسالكُه** جمع خطوة وهي ما بين القدمين عند السير، شبّه تعالى سلوك طريق الشيطان، والسير في ركابه، بمن يتتبّع خطواتِ إنسان خُطوةً خُطوة، وهو تمثيلٌ بديع، لمن سار في طريق الشيطان، وتحت رايته وقيادته، **والمعنى: لا تسلكوا** الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان، ويزيّنها لأعينكم، فإنه لا يريد لكم إلّا كل قبيح ومنكر، ليوقعكم في المهالك.

قال قتادة: كلُّ معصيةٍ من المعاصي فهي من خطوات الشيطان.

التمثيل بالخبيث
والطيب للصالح والفاجر

٢ ـ **قال الله تعالى:** ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ...﴾ [النور: ٢٦] **مثّل تعالى للمرأة الفاجرة والرجل الفاجر: (بالخبيثة، والخبيث) وللمرأة العفيفة الطاهرة والرجل الطاهر: (بالطيبة، والطيب).**

والمعنى: الخبيثاتُ من النساء، للخبيثين من الرجال، والطيباتُ من النساء، للطيّبين من الرجال، وحيث كان سيّدُ الخلقِ محمد ﷺ أطيبَ الأطيبين، وأطهر الطاهرين، فلا بدَّ أن تكون زوجته (عائشة) أم المؤمنين، من أطيب النساء وأطهرهنَّ، كما يُقال في الأمثال: (إن الطيور على أشكالها تقع) وهذا كالدليل على براءة السيدة (عائشة) رضي الله عنها ممَّا رماها به المنافقون، لأنها زوجةُ أكرم مخلوق، وأشرف رسول، وما كان اللهُ ليجعلها زوجةً لأحبِّ عباده، لو لم تكنْ عفيفةً شريفةً طاهرة!! فالجنس يألفه الجنس.

كان مسروق إذا حدّث حديثاً عن عائشة، أو روى عنها خبراً، كان يقول: حدثتني الصدِّيقة بنتُ الصدِّيق، حبيبةُ رسول الله ﷺ المبرَّأةُ من السماء، ثم يروي الحديث.

ويُحكى أنَّ قسّيساً أراد أن ينال من السيدة عائشة رضي الله عنها، بحضور بعض المسلمين، فقال: إن الناسَ رَمَوْها بالإفك ـ يعني الزنى ـ ولا تدري أهي بريئةٌ أم متَّهمة؟ فردَّ عليه بعض المسلمين على الفور بقوله: اسمعْ يا هذا!! هناك امرأتان اتُّهمتا بالزنى، وقد برّأهما القرآن الكريمُ، إحداهما ليس لها زوجٌ وقد جاءت بولد، والأخرى لها زوجٌ ولم تأتِ بولد، فأيَّتُهما أولى بالتُّهمة؟ هل التي لها زوج، أم التي ليس لها زوج؟ أخبِرْني إن كنت عاقلاً تُريد المعرفة؟ يريد بذلك السيدة مريم، والسيدة عائشة، فأخرسَ القِسُّ ولم يَنْبِسْ ببنتِ شفة، وردَّ الله كيد الفاجر في نحره.

التمثيل للنور الإلهي في قلب المؤمن

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥] الله جلَّ ثناؤه ليس له نظيرٌ ولا مثيل، وهذا تمثيلٌ لنور المؤمن، لا لنور الله، وفي الآية ما يسمى (بالتشبيه التمثيلي) شبَّه نوره الذي وضعه في قلب عبده المؤمن، بالمصباح الوهّاج، في فتحةٍ في الحائط، في هذه الفتحة سراجٌ ضخمٌ ثاقبٌ، له زجاجةٌ تشبهُ الكوكبَ المنير، في الحسنِ والصفاء، وإنما سُمِّي تشبيهاً تمثيلياً، لأن وجهَ الشَّبه منتزعٌ من متعدِّد، وهذا كلُّه واردٌ على وجه التمثيل لقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

هذا مثلٌ بديعٌ للنور الإلٰهي، في قلب العبد المؤمن، شبَّه تعالى نور الله، الذي وضعه في قلب عبده المؤمن، بالمصباح الوهّاج، يكون في فتحة داخل الحائط، يشبه في زماننا (الثريّا الكهربائية) الساطعة بالنور الوهّاج، كأن الزجاجة في صفائها وضيائها، كوكبٌ ساطعٌ يضيء بنفسه من صفائه، وحسن ضيائه، تكامل فيه النور من جميع جهاته، فقد اجتمع نور المصباح، مع صفاء الزيت، مع حسن الزجاجة، فاكتمل نور العبد المؤمن بإذن الله، ففي الآية (استعارة تمثيلية) لأن وجه التشبيه منتزعٌ من متعدد، ولا يراد بالآية تمثيل نور الله بالمصباح، لأن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] إنما هو مثلٌ للقرآن في قلب العبد المؤمن الذي أنار الله بصيرته، فخلص من ظلمات الشك والشرك، والنفاق والرياء، ولهذا قال تعالى في ختم الآية الكريمة: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال الطبري: ذلك مثل ضربه الله عزَّ وجل للقرآن في قلب أهل الإيمان، وعنى بزيت الزيتونة، أن حجج الله على خلقه، تكاد من بيانها ووضوحها تضيء، لمن فكّر فيها ونظر[1].

التمثيل لبطلان أعمال الكفار ومعتقداتهم

٤ ـ ضرب الله تعالى مثلين لبطلان أعمال الكفار الخيرية، وهما في غاية الوضوح والبيان.

المثل الأول: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]. مثلٌ بديع فقد مثّل لأعمالهم الخيرية، التي ظنوها أعمالاً صالحة، بالسّراب الذي يراه الإنسان في الصحراء، يظن من بعيد أنه ماء، فإذا وصل إليه لم يرَ ماءً، وإنما رأى سراباً، فعظمت حسرته وخيبته، وهكذا أعمال الكفار يوم القيامة، تذهب أدراج الرياح، لأنها غشٌ وخداع.

٥ ـ **المثل الثاني: قال تعالى:** ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

هذا مثل في غاية البيان والإبداع، فقد مثّل تعالى لعباداتهم الباطلة، وأعمالهم الخبيثة، بالظلمات المتكاثفة، المتراكم بعضُها فوق بعض، فالبحرُ عميق، والظلماتُ كثيفة، والموج هائل، من فوق ذلك الموج سحابٌ كثيف، فقد أحاطت بهم الظلمات الثلاث (ظلمة البحر، وظلمةُ الموج، وظلمةُ السحاب) حتى لا يكاد الإنسان يرى يده، من شدة هذه الظلمات، فكذلك شأنُ الكافر، يتخبط في ظلمات الجهل والضلال، فكان هذا البيان والتمثيل في غاية

---

(١) جامع البيان للطبري ١٨/ ١٠٥.

الإبداع، وإنه لتشبيهٌ فائقُ الحُسْن في منتهى الجمال والروعة، فالكافر كلامُه ظلمة، وعملُه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، ومن لم يجعل اللّهُ له نوراً فما له من نور!!

والبحرُ اللجيُّ: هو البحرُ العميق المظلم، وهو ما يعرف بالمحيطات الكبرى الخمس.

سمع بعض قبطان البحر هذه الآية، فسأل هل ركب محمد البحر؟ قالوا: لا، فقال: أشهد أنه رسولُ اللّه!! فقالوا: ومن أين عرفتَ ذلك؟ فأجاب إنَّ هذا الوصفَ للبحر، لا يعرفه إلّا من عاش عمره في البحار، ورأى الأهوالَ والأخطار، إنها فترات تمرُّ علينا ونحن في البحر، وتأتينا هذه الأمواج الدافقة العاتية، فلا نكاد نرى ما حولنا، حتى لا يكاد يرى الإنسان رفاقه، أو حواشه، فعرفت أنه وحيٌ من عند ربِّ العزة والجلال، ولا يمكن أن يكون هذا الوصف الدقيق، من إنسان عادي، لم يركب البحر، ولم يعرف أهواله ومخاطره.

٦ ـ قال جلْ ثناؤه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ... ﴾ [النور: ٤٥] المراد بالماء: النطفةُ من الإنسان أو الحيوان، وعبَّر بالمشي عن الزُّحف على طريق (الاستعارة اللطيفة) أي منهم من يزحف على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، وقدَّم ما هو أظهرُ في القدرة وأعجبُ، وهو الماشي بغير آلة من أرجل وقوائم، ثم بالماشي على رجليه، ثم بالماشي على أربع، وهذا النوع من التمثيل يسمى بـ(الاستعارة) استعار عن الزحف لفظ المشي، لأن المشي يكون للإنسان والحيوان، أمَّا الحيَّةُ والديدان فإنها تزحفُ زحفاً، وتسميةُ حركتها مشياً جاء بطريق الاستعارة، مجاراةً لما بعدها من مشي الإنسان على رجليه، ومشي الدابة على أربع.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ... ﴾ [النور: ٥٣] شبَّه الأيمان التي يُقسم بها المنافقون، بالغين فيها أقصى مراتب اليمين، في الشدة والتأكيد، بمن يُجهد نفسه في أمرٍ شاقٍّ لا يستطيعه، ويبذل فيه أقصى طاقته ووُسعه، واستعار لفظ الجهد، مكان التأكيد والمبالغة في الشدة، وذلك بطريق (الاستعارة التصريحية).

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة الفرقان

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] الهباءُ: الغبارُ الناعمُ المتطايرُ في الجوِّ، شبَّهَ تعالى أعمالَ الكفار التي عملوها في الدنيا، من إطعام المساكين، وصلةِ الأرحام، ورعايةِ الأرامل والأيتام، بالغُبار المنثورِ في الجوِّ، في حقارته وعدم نفعه، وحذفَ أداةَ التشبيه، ووجهَ الشَّبه منه، فهو (تشبيهٌ بليغ) والمعنى: أن أعمالهم الصالحةَ ذهبتْ أدراجَ الرياح، كالغبار المنثورِ في الجوِّ.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧] عضُّ اليدين والأنامل (كنايةٌ) عن النَّدم والحسرة، والمرادُ بالظالم هنا (عُقبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ) كما وضَّحه أسبابُ النزول، وانظر تفسير الرازي، وتفسير ابن كثير.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤] الضلالُ لا يُنسب إلى المكان، إنما هو لأهله، ففي الآية (مجازٌ مرسلٌ) علاقتُه المكانية، أي أولئك الكفارُ الفُجّارُ، شرٌّ منزلاً ومصيراً يوم القيامة، وأضلُّ من الأنعام السارحة، لأنهم ضيَّعوا عقولهم فصاروا شراً من البهائم.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] الاستفهام هنا (للتهكُّم والاستهزاء) يقولون: أهذا الذي بعثه الله رسولاً إلينا؟ أما وجدَ اللهُ رسولاً غير يتيم أبي طالب؟ ويقولون ذلك سخريةً واستهزاءً برسول الله ﷺ.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧] في الآية تشبيهٌ بديع، يسمى (التشبيه البليغ) أي جعل لكم الليلَ كاللِّباسِ يستركُم بظلامه، وجعلَ النومَ راحةً للأبدان، قاطعاً للأعمال، حُذف من الآية أداةُ

التشبيه، ووجهُ الشَّبَه، فأصبح بليغاً، على منهج قولِ البلغاء: العلمُ نورٌ، والجهلُ ظلامٌ، ووجهُه قمر.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ...﴾ [الفرقان: ٤٨] ﴿بُشْرًا﴾ أي مبشرة بنزول المطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أراد بالرحمة الغيث والمطر، استعار اليدين لما يكون أمامَ الشيءِ وقُدّامه على طريق (الاستعارة البديعة) كما نقول: بين يدي الموضوع، وبين يديْ السورة، وليس للموضوع يدان، ولا للمطر يدان، وفي الآية الكريمة جمالٌ وروعةٌ وبيان، فإن (الرحمة) بمعنى: ماء المطر، (وبين يديْ) أي أمامه وقُدّامه، فالسحاب يحمل الماءَ، والرياحُ تسوق السحابَ، كالراعي الذي يسوقُ أغنامه أمامه (ريحٌ، ثم سحابٌ، ثم مطرٌ) وهذا المطر لمنافع البشر، ينزِله الله عَذْباً فراتاً، وقد ذكر تعالى الحكمة من إنزال المطر، بقوله: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩] أي أرضاً مجدبة ميتة، لا نبات فيها ولا ثمر، والأناسيّ هم البشر الكثيرون، أي نسقي بهذا المطر الأنعام والبشر فما أعظم رحمة الله بعباده!!

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] في الآية (إيجازٌ بالحذف) أصلُه: جعلَ الليلَ خلفةً للنهار، وجعلَ النَّهارَ خلفة للَّيل، يخلُفُ كلٌّ منهما الآخر، فجَمَع في الآية ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ووصف كلاً منهما بأنه (خِلْفَةٌ) على طريق الإيجاز.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿هَوْنًا﴾ أي بسكينةٍ وتواضع، من غير تبخترٍ ولا استكبار، ذُكر بالمصدرِ مبالغةً، وأضافهم تعالى إليه ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ للتشريف والتكريم.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] في الآية (استعارةٌ تمثيليةٌ) بديعة، فقد شبَّه تعالى الكفارَ المعرضين عن تدبر آيات الرحمن، بالصُمِّ والعُمْي، ونفَى عن المؤمنين مشابهتهم للكَفرة الغافلين، فهو ثناءٌ على المؤمنين، بأسلوبٍ بديع، والمعنى: إذا وُعظوا بآيات الذكرِ الحكيم، لم يكونوا كالعُمْي الصُمِّ، لا يفهمون معناها، ولا يتأثرون بما فيها من الزواجر والقوارع، بل يسمعونها بآذانٍ واعية، وعيونٍ راعية، وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الضدّ ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا

صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ تعريضاً بما يفعله الكَفَرةُ والمنافقونَ، حيث يتعامَوْن عن آياتِ اللّهِ النيِّرة.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ كناية لطيفة بديعة عن الفرحة والمسرَّة، كما أن (الغرفة) كناية عن الدرجات العالية في الجنة، أي اجعل لنا ذرية صالحة تقرُّ بهم أعيننا.

الكناية والاستعارة في سورة الفرقان

١ ـ قوله سبحانه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) شبّه تعالى صوت غليان النار، وشدّة حرارتها بصوت المغتاظ الحَنِق، الذي اشتدّ غضبُه وغيظُه على عدوه، على طريق (الاستعارة التمثيلية) أي سمعوا صوت لهيبها وغليانها، كحالة الغضبان إذا غلى صدره من الغيظ، وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار حين يزفُر ويشهق إلى الشعير، ومثّل له بهذا التمثيل الرهيب، الذي يُفْصِح عن غيظ جهنم على أعداء الله، وشدّة نارها المستعرة، فالغيظُ يكون من الإنسان، والزفير من الحيوان، وهو تمثيل لوصف النار بالاهتياج والاضطرام، على عادة المغيظ الغضبان، ويا له من تمثيل مفزع رهيب!!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾ [الفرقان: ٤٨] الرحمةُ يراد بها الغيثُ والمطرُ، والمطرُ ليس له يدان، وإنما هو تعبيرٌ بلاغي، بطريق (الاستعارة) استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقُدّامه، كما تقول: بين يدي السورة، وبين يدي الموضوع، وهذا من لطيف الكلام، وبديع الاستعارة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] المراد أنهم إذا وُعظوا بآيات القرآن، لم يعرضوا عنها، بل سمعوها بآذان صاغية، وقلوب واعية، ولم يجعلوها خلف ظهورهم بمنزلة من لم يسمع ولم يبصر، وهذا التعبير من أحسن الاستعارات وألطفها وأبدعها، وإنما عبّر عن ذلك بنفي الضدّ ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرةُ والمنافقون، حيث يصمُّون الآذان عن سماع القرآن، ويعرضون عن آيات الذكر الحكيم.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة الشعراء

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] في الآية (كنايةٌ لطيفةٌ) كَنَى بقوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ عن الذُّلِّ والهَوانِ الذي يلحقُهم، بعد أن كانوا في العِزِّ والكبرياء، وهي (كنايةٌ بديعةٌ) تشبيهاً لهم بالدابة، تخضعُ وتنقاد لقائدها.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾؟ [الشعراء: ١٨] في الآية (إيجازٌ بالحذف) دلَّ على هذا الحذف سياقُ القصة، والتقديرُ: فأتَيا فرعونَ فدخلا عليه، وقالا له: أرسلْ معنا بني إسرائيل، فقال فرعونُ لموسى: ألم نربِّك فينا وليداً؟ إلخ وكذلك فيما سَبَق أيضاً (إيجازٌ بالحذف) في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٣].

قال في الكشاف: أصلُ الكلام أرسلْ جبريلَ إلى هارونَ، واجعلْهُ نبيًّا، وآزرني به، واشدُدْ به عَضُدِي.. إلخ فأحسنَ في الاختصار غايةَ الإحسان. اهـ. تفسير الكشاف ٣/ ٢٣٥.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] في الآية (إيجازٌ بالحذف) في قوله: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ﴾ أي فضرَبَهُ فانفلَقَ وصار فيه اثنا عَشَر طريقاً، بعدَدِ أسباطِ بني إسرائيل، وكلُّ فِرْقٍ منه كالجبل الشامخ، الثابتِ في مكانه لا يتزحزح، وفيه تشبيه يسمى (المرسل المجمل).

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ • وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ • وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠] في الآية الكريمة منتهى (رعاية الأدب) مع الله عزّ وجلّ، فقد نسَبَ الهداية إلى اللّهِ، والرزقَ والطعام والشفاءَ إليه تعالى، ولمّا تَحدَّثَ عن المرض وهو شرٌّ في الظاهر، نَسَبه إلى نفسه ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: وإذا أمرضني، تأدباً مع الله تعالى، لأن

الشرُّ لا يُنسب إلى الله أدباً، وإن كان المرضُ والشفاءُ بيده سبحانه.

٥ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] المراد باللسان: الثناءُ العاطرُ، والذكرُ الحسنُ، ففي الآية الكريمة (استعارةٌ لطيفة) استعارَ اللسان للذكر الجميل، والثناءِ الحسن، وهي من (ألطف الاستعارة).

٦ ـ **قولُه تعالى**: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] أراد بالمرسلين (نوحاً) عليه السلام، وإنما ذَكَره بصيغة الجمع ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ للتنبيه على أن من كذَّب رسولاً، فقد كذَّب جميع المرسلين، لاتفاقِ جميعِ الرسلِ على دعوة التوحيد، فهو من باب (إطلاقِ الكلِّ وإرادة البعض).

٧ ـ **قولُه تعالى**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨] في الآية (استعارةٌ تبعيَّةٌ) لطيفة، استعار الفتح للحُكْم، والفتّاح للحاكم، لأنه يَفْتَح المنغلقَ من الأمر، ويُزِيل الظلمَ، والمعنى: احكمْ بيننا وبينهم بحكمك العادل.

٨ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] أطلقَ القريةَ وأرادَ أهلَها، ففي الآية (مجازٌ مرسلٌ) وقد تقدَّم أمثالها، في مواطن مواطن كثيرة من هذا الكتاب، في سورة الأنعام، وهود، والحِجْر.

٩ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] في الآية (استعارةٌ مكنية) شبَّه التواضعَ ولينَ الجانب للمؤمنين، بخفضِ الطائرِ جناحَه، وذلكَ عند إرادته الانحطاطَ، وحَذَفَ المشبَّه به وهو (الطائر) ورمَزَ إليه بشيء من لوازمه، وهو (خفضُ الجناح) والمرادُ بالآية: تواضعْ لأتباعك المؤمنين، وتقد تقدَّم مثلها في ص ١٧٠ من سورة الحِجْر.

١٠ ـ **قولُه تعالى**: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٥] في الآية (استعارةٌ تمثيليةٌ بديعة) شبَّه تعالى الشعراء وهم يخوضون في أشعارهم، بالمديح والثناء، والذمِّ والهجاء، بقومٍ سلكوا شِعَاباً متفرّقةً، في صحراءَ شاسعة، فتاهوا في أوديتها، فمنهم من نجا، ومنهم من هَلَك، وهكذا حالُ الشعراء، يمدحون بالحق والباطل، حسب الهوى والمِزَاج، دَيْدَنُهم الكذبُ، والخوضُ في أبواب المديح والهجاء، حتى قيل عن الشعر: (أعذبُه أكذبُه) فقوله سبحانه: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ من (ألطف الاستعارات) ومن أرشقِها وأبدعها، وهي (استعارةٌ تمثيلية).

١١ ـ قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]
هذا وعيدٌ أكيدٌ، وتهديدٌ شديدٌ، عامٌ في كل ظالم، تتفتّتُ له القلوبُ ألماً، وتتصدّع له كَمَداً، وقد أصبحَ كالمثل السائر، يُقال لكلِّ فاجر ظالم، وقولُه: (سيعلم) فيه من التهويل ما فيه، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من الإطلاق والتعميم، وفي قوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ من الإبهام والتفظيع ما فيه، أي وسيعلم الظالمون أي مصيرٍ يرجعون إليه!! وقد استثنى اللّه من الشعراء، المؤمنين الصالحين، الذين لا يخوضون في الباطل. فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٧٧].

لطيفة: الشاعرُ قد يمدح الشيء ويذمُّه حسب هواه، بحلاوةِ لسانه وقوَّة بيانه، ومن ألطفِ ما سمعتُه عن بعض شيوخي، ما قاله بعضهم عن العسل:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحاً وَقَدْحاً وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... (سِحْرُ البَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ)

❁ ❁ ❁

الكناية والاستعارة في سورة الشعراء

١ ـ قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] هذه كناية لطيفة، كنّى بها عن الذلّ والهوان الذي يلحقهم، بعد الاعتزاز والكبرياء التي كانوا عليها، أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً، فتظل أعناقهم منقادةً خاضعةً لأمر الله، ولكنْ سبق في علمنا شقاؤهم فلا تحزن عليهم.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] في الآية (استعارة لطيفة) الصدقُ ليس له لسان، فاستعار اللسانَ للذكر الجميل، والثناء الحسن، يريد أن يقول: يا ربِّ اجعل لي ذكراً حسناً، وثناءً عاطراً، فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة، فعبَّر باللسان عن هذا، لأن الثناء إنما يكون باللسان، وهذا من ألطف الاستعارات.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٣] في الآية استعارة لطيفة، شبَّه العذاب الذي نزل عليهم بالمطر (بطريق الاستعارة) لأنه كان غزيراً متتابعاً يشبه المطر، أي قذفناهم بحجارة من السماء، كانت تنزل عليهم كالمطر الدافق، فأهلكناهم عن بَكْرة أبيهم، استعار لفظ المطر للرمي بالحجارة التي قُذفوا بها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ تشبيهاً له بالمطر الدافق، لبيان غاية الشدّة والكثرة.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] في الآية (استعارة مكنيّة) شبَّه التواضع ولين الجانب، بخفض الطائر لجناحه عند الهبوط، فإن الطائر له جناحان، يقبضهما إليه عند الانحطاط، فحذفَ الطائرَ، ورمزَ إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو الجناحُ على سبيل (الاستعارة المكنيّة).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ • أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٥] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) بديعة، مثّل تعالى

لمديح الشعراء وهجائهم، بالحقّ أو الباطل، وإفراطهم في الثناء والمديح، على من لا يستحقُّ الثناء، بالرجل الذي دخل الصحراء، فهامَ على وجهه، لا يدري أين يسير، ولا أيَّ وادٍ يسلك؟ وأخذ يطرق أنواع الدروب في الوديان، خائباً غير رشيد، وهذا اللون من الاستعارة، من ألطف الاستعارات، وأرشقها وأبدعها. وإنما ذمّ تعالى الشعراء، لمغالاتهم في المديح أو الهجاء، ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يصفوا أجبن الناس بأنه أشجع من عنترة، وأبخلَ الناس بأنه أكرم من حاتم، وربما رفعوا شخصاً إلى أوج الكمال، ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض.

❁ ❁ ❁

الإبداعُ البيانيُّ في سورة النمل

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] في الآية (إيجاز بالحذف) حُذفت جملةُ (فألقاها فانقلبتْ إلى حيّة) إلخ وذلك لدلالة سياق الآية على المحذوف، والبلاغةُ في الإيجاز.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣] في الآية (استعارةٌ بديعة) استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان، لأن الإنسان يُبصر الأشياء بالعينَين، فكأنَّ هذه المعجزات الخارقةَ للعادة، في جلائها، ووضوحها، كأنها تُبصر نفسها، وتُبصر الأشياء التي حولها.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] في الآية (استعارةٌ بديعةٌ) شبَّه تعالى سرعةَ مجيئه بالعرش، برجوع الطُّرْف للإنسان، أي أنا آتيك به قبلَ تحريكِ جفنك للنظر إلى شيء من الأشياء، وهذا غايةٌ في الإسراع، وتمثيل بديع.

فإن قيل: كيف قدر على الإتيان بالعرش، وهوغيرُ نبيّ؟

فالجواب: أنه يجوز أن يُخَصَّ غيرُ النبيّ بكرامةٍ، كما خُصَّت مريمُ بأنها كانت تُرزق من عند الله من فاكهة الجنة، وزكريا لم يُرزق منها، ولا يلزم من ذلك فضلُها على زكريا!!

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] سمّى تعالى إهلاكهم وتدميرهم (مكراً) على سبيل المشاكلة، وقد تقدم أمثالها، في سورة آل عمران، وفي سورة الأنفال، فانظرهما هناك، واللهُ يرعاك!!

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] في الآية الكريمة ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟ أسلوبٌ عجيب يُسمّى (أسلوب السخريةِ والتهكّم) إذْ ليس في عبادة الأوثان والأصنام شيء من الخير، حتى يُقارن بينها وبين الخالق الرازق!!

٦ ـ قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ استعار الظلمات للشدائد والأهوال، ويدخل معها ظلماتُ الليل الحالكة.

وفي قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ استعار اليدين لما يتقدَّم نزولَ الرحمة أي المطر، فاستعار اليدين للشيء الذي يتقدَّم نزول الغيث، وهي استعارةٌ بديعة.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] في الآية (استعارةٌ لطيفةٌ) استعار العَمَى للتعامي عن الحقّ، وعدم التفكر والتدبر لأحوال الآخرة.

ومعنى الآية: أنَّ المشركين لا يصدِّقون بالآخرة، لأنهم شاكُّون في وقوعها ومجيئها، ثم أضرب عن ذلك إلى بيان ما هو أشدُّ وأفظع من الشكّ، وهو تعاميهم عنها، فلماذا يسألون عن الساعة، وهم لا يؤمنون ولا يصدِّقون بالآخرة؟

٨ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] القَصَصُ لا يوصف به إلّا الناطقُ المميِّزُ للكلام، وقد استعير لفظ (يقصُّ) للتَّبيين، أي يبيِّنُ لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من الدين، لأن القرآن لمّا تضمَّن نبأ الأولين، كان كالشخص الذي يقصُّ على الناس الأخبار، ففي الآية (استعارة تبعيّة) بديعة، من روائع أنواع الاستعارة

٩ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] التعبيرُ بالموتى، وبالصُّمّ، والعُمي، كلُّ ذلك جاء بطريق (الاستعارة التمثيلية) فهو تمثيلٌ لأحوال الكفار، في عدم انتفاعهم بالإيمان، بأنهم كالموتى، وكالصُّمّ، والعُمْي، لا حسَّ لهم، ولا فهم، ولا عقل، وتقييدُه بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ لتكميل التشبيه، فإنهم مع صَمَمهم، معرضون عن الداعي إلى الهدى، مولُّون أدبارهم عنه، فكيف يسمعون أو يفهمون!!

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦] في الآية ما يُسمّى بـ(الاحتباك) حُذف من أوله ما أُثبت في آخره، وبالعكس، وأصلُه: ألم يروا أنا جعلنا الليل (مظلماً) ليسكنوا فيه، وجعلنا النهار مبصراً (ليتصرَّفوا فيه) فحذَفَ (مظلماً) لدلالة مبصراً عليه، وحَذَف (لتتصرَّفوا فيه) لدلالة قوله: ليسكنوا فيه.

١١ـ قولُه تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] في الآية (تشبيه بليغ) أي وهي تمرُّ كمرِّ السحاب في السرعة، حُذفت الأداةُ ووجه التشبيه فأصبح بليغاً، مثل: محمدٌ أسدٌ، وفي الآية إشارةٌ رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهي سبقٌ علميٌ فريد، وانظر كتابنا (حركة الله ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن الكريم) ففيه روائعُ وبدائع حول الموضوع.



الكناية والاستعارة في سورة النمل

١ - **قوله تعالى:** ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٣] استعار لفظ الإبصار ﴿آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ للوضوح والبيان، لأن بالعَيْنين يبصر الإنسانُ الأشياء، فكأنها لوضوحها وجلائها إنسانٌ يُبصر، ولسانٌ ينطق، بأنها حقٌّ من عند الله، وبابُ الاستعارة بابٌ وسيعٌ، استعمله العربُ في أساليب مخاطباتهم وأحاديثهم، كقول بعضهم: قال الحائطُ للمسمار: لِمَ تشقُّني؟ قال: سَلْ من يَدُقُّني، وبهذا النوع من التعبير، يزداد الكلام حلاوة وجمالاً، وأنساً وبهاء.

التمثيل للسرعة بارتداد الطرف

٢ - **قوله تعالى:** ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾ [النمل: ٤٠] هذه كناية لطيفة، عن إحضار العرش بلمح البصر، كنَّى عن سرعة مجيئه للعرش، برجوع الطَّرْف للإنسان، وارتدادُ الطرفِ معناه: انطباقُ الجَفْن العُلوي على الجَفْن السُّفْلي، وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعة، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] يقول الرجلُ المؤمنُ من خواصِّ (سليمان) عليه السلام: أنا آتيك بالعرش قبل تحريك جَفْنك، وهذا غايةٌ في الإسراعِ، ومثَلٌ يضرب للسرعة الفائقة، يُقال: سأحضر لكَ المتاعَ بلمح البصر، وأحضرُ إليك قبل أن يرتدَّ إليك طرفك.

٣ - **قوله تعالى:** ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] استعار العمى للتعامي عن الحقّ، وعدم التفكر والتدبر في آلاء الله، فصاروا كمن عمي بصرُه، صيَّرهم كالبهائم والأنعام، لا يتدبرون ولا يبصرون، ومعنى قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي هل تلاحق وتدارك علمهم بالآخرة، حتى يسألوا عن الساعة وقيامها؟ إنهم لا يؤمنون بالآخرة فلماذا يسألون عنها؟ وهذا أسلوبُ سخريةٍ بهم وتهكُّم!!

٤ - **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

[النمل: ٧٦] القَصَصُ والأحاديثُ لا يوصف بها إلّا الناطقُ المميِّز من البشر، ولمّا كان القرآن العظيم، قد تحدَّث عن قصص الأمم السابقين، وحوى أخبار الرسل مع أممهم، صار كأنه شخصٌ ناطقٌ متحدِّثٌ، يخبر عن أنباء القرون السابقة، بلسانٍ صريحٍ فصيحٍ، على طريقة (الاستعارة التبعيَّة) البديعة، حيث حذف المشبَّه به وهو الإنسانُ، وأشار إلى شيء من لوازمه، وهو القصة والحديث.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠ ـ ٨١]. في الآية (استعارة تمثيلية) مثَّل تعالى للكفار، المكذِّبين لخاتم الأنبياء (بالموتى، وبالصُّمّ، والعُمْي) فإنّ الكفار لتركهم التدبر والاعتبار، كالموتى لا حِسَّ لهم ولا عقل، والأصمُّ إذا ناديْتَه لم يسمع نداءك، مهما رفعتَ الصوتَ، لا سيَّما إذا كان مدبراً عنك، فقد اجتمع عليه بُعْدُ المسافةِ والصَّمَمُ.

والغرضُ من الآية بيانُ أنَّ هؤلاء الكفار كالموتى، وكالعُمْي، والصُّمّ، وإن كانوا سليمي الحواسّ، فلذلك لا يسمعون ولا يعقلون ولا يبصرون، شبَّهَ تعالى من لا يسمع ولا يعقل بالموتى، وإن كانوا أحياء، ثم شبَّههم ثانياً بالصُّمّ وبالعمي لأنهم لا يفقهون، ولا يتدبرون، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وختم الآية بأن الذين يسمعون كلام الرحمٰن، سماع تدبر وإفهام، هم المؤمنون وحدهم، فهم العقلاء المستبصرون.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] في الآية الكريمة تشبيهٌ رائع بديع، يسمى (التشبيه البليغ) حُذفت منه أداةُ التشبيه ووجه الشَّبَه فأصبح بليغاً، والأصلُ في الكلام: تمرُّ مروراً سريعاً، كمرّ السحاب في مشيه وحركته السريعة، وفي هذه الآية إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهو سبقٌ علمي فريد، لم يعرفه البشر إلّا في هذا العصر، عصر اختراع (المراكب الفضائية) التي دارت حول الأرض، ووصلت إلى القمر، وصوَّرت لنا الأرض وهي تتحرك وتدور، وتشرق وتغرب عنهم، كما تشرق الشمس وتغرب عن سكان الكوكب الأرضي، وانظر كتابنا (حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن) ففيه روائع وبدائع تثبت إعجاز القرآن من الناحية العلمية، وسبقه للعلوم العصرية.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة القصص

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ [القصص: ١٠] هذه (كنايةٌ لطيفةٌ) كنّى بها عن ذهاب الرشد والعقل، لِمَا دَهَمَها من الخوف والحَيْرة على ولدها، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، وهي من (أبدع الكنايات) أي طار عقلُها من فرط الجزع والغمِّ.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) شبَّه تعالى ما قذف في قلبها من الثبات والصبر، بربط الشيء المنفلت خشيةَ الضياع، كمن يربط الفرسَ بإحدى الأعمدة، واستعار لفظ الربط للصبر، أي ألهمناها الصَّبرَ على طريقة (الاستعارة التمثيلية) البديعة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ... ﴾ [القصص: ٣٢] الرَّهْبُ: الخوفُ الشديدُ، وفي الآية (استعارةٌ لطيفةٌ) استعار الجناح وهو للطائر، للإنسان تشبيهاً له بالطائر، إذا خافَ نَشَر جناحيه، وإذا أمِنَ ضمَّهما إليه، أي أدخلْ يدكَ إلى صدرك يذهبْ عنك الرُّعبُ، وهي (استعارة تمثيلية) بديعة.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ... ﴾ [القصص: ٣٥] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) شبَّه حال موسى في تقويته بأخيه هارون، بإنسانٍ وَضَع يدَه في يد رجلٍ آخر، واستعانا معاً لشدِّ حبلٍ، رُبط بسيارة لسحبها، لأن اليد تتقوى بالأخرى، فهي من الكنايات البديعة.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ... ﴾ [القصص: ٤٥] الآيةُ هذه على (حذف مضاف) أي أنشأنا أمماً وأجيالاً هم أهل القرون، فتطاول عليهم الزمن، فغيَّروا الشرائع والأحكام، فالمراد بالقرون: الأمم الذين عاشوا في تلك الأزمنة، نُسب إلى القرون بطريق (المجاز العقلي).

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ . . .﴾ [القصص: ٥٧] الأمنُ لأهل الحرم وسُكّان الحرم، وأُضيف الأمنُ إليه ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وهو لأهله، من باب إضافة الشيء إلى مكانه، ففيه (مجازٌ مرسلٌ) أي حَرَماً ذا أَمْنٍ، مَنْ دَخَله أَمِنَ على أهلِه، ونفسِه، ومالِه.

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦] في الآية (استعارة بديعة) أي صارت الأخبارُ كالعمى عنهم، لا تهتدي إليهم، وأصلُه: فعَمُوا عن الأنباء، وقد عُكِسَ للمبالغة، فجعلَ الأنباءَ لا تهتدي إليهم، وضُمِّن معنى الخفاء، فُعدِّي بـ(على) ففي الآية أنواعٌ من البلاغة، الاستعارةُ، والقلبُ، والتضمينُ، ومعنى الآية: خفيت عليهم الحُجَجُ، وأظلمتْ عليهم الأمورُ، فهم حيارى لا يعرفون ما يقولون.

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ . . .﴾ [القصص: ٧٣] جَمَعَ الليلَ والنهار، ثم قال: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فأعاد السُّكنَ ـ يعني الراحةَ ـ إلى الليل، والابتغاءَ لطلب الرزق إلى النهار، ويسمى هذا عند علماء البيان والبديع بـ(اللفِّ والنشر المرتَّب) لأن الأوَّل عاد إلى الأوَّل، والثاني عاد إلى الثاني، وهو من المحسنات البديعية.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] أطلق الجزءَ وهو (الوجهُ) وأراد الكلَّ وهو (الذاتُ) أي كلُّ شيءٍ يفنى ويهلك، إلّا ذاتُ الله تبارك وتعالى، ففي الآية (مجاز مرسل).

قال الحافظ ابن كثير: عبَّر بالوجه عن الذات، فهو سبحانه الدائمُ الباقي، الحيُّ القيُّومُ، الذي تموتُ جميعُ الخلائقِ ولا يموت. اهـ. تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٤.

الكناية والاستعارة في سورة القصص

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠] فراغُ القلب في قوله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ كناية عن ذهاب العقل، أي طار عقلُها من فرط الحزن والغمّ، حين سمعت بوقوع ولدها في يد فرعون، وكادت تصيح: وا إبناه لِمَا دَهَمها من الأمر الشديد، فكأنها فقدت رشدها، كنّى عن شدة فزعها وخوفها على ولدها (بفراغ القلب) أي ذهاب الرُّشد والعقل، وهي من ألطف أنواع الكناية.

وفي قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ استعارة لطيفة، شبّه ما قذف الله في قلبها من الصبر، بربط الشيء المنفلت خشية الضياع، واستعار لفظ (الربط) للصبر، على طريقة الاستعارة التصريحية، والمعنى: لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر لصاحتْ: ذهب ابني، فانكشف أمرها أمام فرعون.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ... ﴾ [القصص: ٣٥] في الآية (مجاز مرسل) من باب إطلاق السبب وإرادة المسبَّب، لأنَّ شدَّ العضد يستلزم القوة أي سنقوّيك بأخيك ونُعينك به.

وقال الشهاب الخفاجي: ويمكن أن تكون الآية من باب (الاستعارة التمثيلية) شبّه حال موسى في تقويته بأخيه، أمام جبروت فرعون، بحال اليد في تقويتها بيدٍ أخرى شديدة، تتقوّى بها، ويدُ الله مع الجماعة.

٣ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ... ﴾[القصص: ٤٥] القُرون جمع قَرْن، وهو الزمنُ الطويل، وكلُّ قرن مائةُ عام، والمراد به الأممُ والأجيالُ المتعاقبة، ففي الآية (مجاز عقليّ) يُدرك بالعقل، لأن الأمم تُخلق في تلك الأزمنة، فنسبت إلى القرون بطريق (المجاز العقلي).

والمعنى: لقد خلقنا أمماً وأجيالاً من بعد موسى، فتطاول عليهم الزمان، فنسوا ذكر الله، وبدّلوا وحرّفوا الشرائع، فلذلك أرسلناك رسولاً لتجدّد أمر الدين.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [القصص: ٥٧] نسبَ الأمنَ للحرم (حرماً آمناً) والمرادُ به أمنُ أهلِ الحرم، فهو على حذف مضاف، ففيه (مجاز عقلي) والمعنى: أولم نجعل لهم مكة بلد أمنٍ، يأمنُ أهلُها على أموالهم وأنفسهم، والناسُ من حولهم يُتخطفون!؟ فالأمن حاصلٌ لهم، بحرمة البيت العتيق.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[القصص: ٦٦]. الأنباءُ بمعنى الأخبار والحجج، وفي الآية أنواع من البلاغة: (الاستعارةُ، والقلبُ، والتضمينُ) استعار العمى لعدم الاهتداء، أي فهم لا يهتدون إلى الحجج لفرط الدهشة والحيرة، فهم حيارى واجمون، لا يعرفون ماذا يقولون!! بمعنى أنه صارت الأمورُ والأنباءُ كالعمى عنهم، لا تهتدي إليهم، وأصلُه فعموا عن الأنباء، وقد عُكس للمبالغة، وضُمّنت معنى الخفاء أي خفيت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، فكان منها أنواع من البلاغة كما ذكرنا، القلبُ، والاستعارةُ، والتضمينُ.!

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣] في الآية ما يُسمَّى عند علماء البيان والبديع (اللفُّ والنشر المرتَّب) فقد جمع الليلَ والنهارَ، ثم قال: ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أعاد السَّكَنَ إلى الليل، والابتغاءَ لطلب الرزق إلى النهار مرتَّباً، أعادَ الأولَ للأول، والثاني للثاني، والأصلُ في الكلام: جعل الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتبتغوا من فضله، فجمع بينهما في الآية، ثم فرّق على الترتيب، وهو من (المحسّنات البديعية) كما هو معروف عند علماء البيان.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨] أطلق الوجهَ وأراد به الذات أي كلُّ شيء هالكٌ، إلّا اللّهُ ربُّ العزّةِ والجلال، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) ويسمى هذا (بالمجاز المرسل).

قال الحافظ ابن كثير: هذا إخبار بأنه تعالى الباقي الدائم، الحيُّ القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، فعبّر بالوجه عن الذات كقوله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٤.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة العنكبوت

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ...﴾ [العنكبوت: ١٣] شبّه الذنوب بالأثقال، بطريق (الاستعارة التبعية) لأنها تُثقِل كاهلَ الإنسان، أي سيحملون ذنوبهم التي ارتكبوها، وذنوبَ من أضلُّوهم.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩] استعار الحيّ للمؤمن، والكافر للميت، وهي استعارة بديعة في غاية الحسن والإبداع، وقد تقدّم أمثالها في آل عمران، والأنعام، ويونس.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] أي ذوقوا جزاء أو عقاب ما كنتم تعملونه في الدنيا، جعَلَ الجزاءَ عينَ ما كانوا يعملونه، للمبالغة، بطريق إطلاق (اسم المسبَّب على السبب) ففيه مجازٌ مرسل.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] في الآية الكريمة (تشبيهٌ بليغٌ) بديع، شبّه الدنيا بلعب الأطفال، وبالأشياء التافهة التي يتسلّى بها الصبيانُ، فهي حقيرةٌ تافهة، وأصلُ الكلام: كاللّهوِ واللعب، حُذفت أداةُ التشبيه، ووجهُ الشبه فأصبح بليغاً، على حدّ قولهم: عليٌّ أسدٌ، أي كالأسد في الشجاعة، وفي الآية (إيجازٌ بالحذف) حُذف جوابُ الشرط لدلالة السياق عليه، أي لو كانوا يعلمون، كما آثروا الدنيا على الآخرة!!



الكناية والاستعارة في سورة العنكبوت

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ...﴾ [العنكبوت: ١٠] التشبيه هنا يسمى (التشبيه المرسل المجمل) حُذف منه وجهُ الشَّبه، فصار مجملاً، أي جعل فتنة الدنيا، كعذاب الله في الشدة والإيلام، مع أنّ عذابَ الله لا يماثله شيء، وفي الآية بيانُ شرفِ المؤمن الصابر، وخِسَّةُ الكافر المنافق، المؤمنُ أُوذي في سبيل الله ليترك الدينَ فلم يتركه، وأوذي المنافقُ الكافرُ، فترك الإيمانَ، وترَكَ اللهَ نفسه، فما أعظم الفارق بينهما!!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] الأثقالُ يراد بها الذنوبُ والأوزار، شبّه الذنبَ بحملٍ ثقيل، يضعف الإنسانُ عن حمله، بطريق (الاستعارة التمثيلية) ولأن هذه الذنوب تُثقل كاهل الإنسان سُميت (ثِقلاً)، فالمضلُّون يحملون أوزارهم، وأوزار من أضلُّوهم، لأنهم كانوا سبباً في انحرافهم عن الهدى، وسلوكهم طريق الشيطان.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٤١] هذا مثل في غاية الروعة والجمال، ضربه الله تعالى لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه، أي مثلُ هؤلاء الكفار في عبادتهم للأصنام والأحجار، كمثل العنكبوت، صنعت لها بيتاً، لا يغني عنها من حرٍّ ولا برد، لتفاهته وحقارته، يتهاوى من هبَّة نسيم، أو نفخة فم، ولو كانت لهم عقول سليمة، لعرفوا حقارة هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله!

إنه تصوير عجيب، وتمثيل رائع يأخذ بالألباب، يدلُّ على ضعف عقولِ هؤلاء العابدين، وحقارة هذه المعبودات، من أصنام وأوثان، والعاقلُ يدرك

بداهة، روعة التمثيل ببيت العنكبوت، فإنه لا أضعفَ ولا أوهى من هذا البناء، الذي تتصوره هذه الحشرة، قصراً مُنيفاً، يقيها من المخاطر، وعاديات الأزمان، وهو بيت هزيل واهن، يكاد يطير من هبَّة ريح، ولذلك كان سريع الزَّوال والاضمحلال، ويا له من تمثيل بديع رائع!!

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] في الآية تشبيه بديعٌ يسمى (التشبيه البليغ) وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي ليست الدنيا إلَّا كاللهو وكاللَّعب، في سرعة الذهاب والاضمحلال حُذفت أداةُ التشبيه، ووجهُ الشُّبه، فأصبح بليغاً، كقولنا: محمد قمرٌ، أيْ كالقمر في الحسن والبهاء، وعليٌّ أسدٌ أي كالأسد، في الشجاعة والبطولة.

ومعنى الآية الكريمة: ليست هذه الدنيا إلَّا غرورٌ وباطل، يُخْدع بها الجاهلُ، وما هي إلَّا شهواتٌ وملذات، سرعان ما تنقضي وتزول، وهي تشبه لُعَب الصِّبيان يلعبون بها، ثم ينفضُّون عنها ويتفرَّقون، وهكذا الدنيا إلى زوال وفناء، والدارُ الآخرةُ دارُ السعادة والنعيم، وهي الحياة الحقيقية الكاملة، التي لا كَدَر فيها ولا موت ولا مرض، لمن أراد الراحة والهناء.

ومعنى (الحيوان): الحياةُ السعيدةُ الهنيئة، دار الخلود، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «الدنيا سجنُ المؤمن، وجنةُ الكافر» رواه مسلم.



الإبداع البياني في سورة الروم

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] أطلق الجزء (الوجه) وأراد الكل (الذات) والمعنى: توجَّهْ في طاعتك وعبادتك بكلِّيتك، إلى ربِّك جلَّ وعلا، ولا تلتفتْ إلى غيره، ففي الآية (مجازٌ مرسلٌ) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) وهذا مشهور عند العرب.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] أي بسبب ما فعل الناس من المنكرات والقبائح، أطلق الأيدي وأراد بها أعمال الناس ومعاصيهم، ففي الآية (مجازٌ مرسلٌ) من باب (إطلاق الجزء وإرادةِ الكل) لأن أكثر الأعمال تكون بالأيدي.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] شبَّه من قدَّم الأعمالَ الصالحةَ، التي تُقرِّبه من الله، بمن يمهِّدُ فراشَه للنوم، على طريق (الاستعارة التبعيَّة) وقد تقدَّم.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا...﴾ [الروم: ٤٧] في الآية (مجازٌ بالحذف) حُذف من الآية: (فكذبوهم واستهزأوا بهم) فانتقمنا من الذين أجرموا، دلَّ عليه سياق الآية.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢] أي لا تسمع الكفار لأنهم كالموتى، فيها (استعارةٌ تصريحية) تقدم مثلها في الصفحة (١٣٢).

الكناية والاستعارة في سورة الروم

١ ـ قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ...﴾ [الروم: ١٩] استعار الحيَّ للمؤمن، والميْتَ للكافر، أي يخرج المؤمنَ من الكافر، والكافرَ من المؤمن، وهي استعارةٌ في غاية الإبداع والجمال، والقرآن الكريم يُمثّل للمؤمن بالحيّ، وللكافر بالميت، كقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾ [الأنعام: ١٢٢] فقد شبّه المؤمن بالحيّ، يسير بنور الله، بينما الكافر يتخبّط في ظلمات الكفر والجهل، وهذا التفسير مرويٌّ عن ابن عباس، وهو من ألطف أنواع الاستعارة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ [الروم: ٣٠] أطلق الوجهَ وأراد به كامل الإنسان، فهو (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزءِ وإرادةِ الكُلّ) كقولهم: أرسل الأمير عيونه، أي بعث الجواسيس.

ومعنى الآية الكريمة: توجّهْ إلى الله بكلّيتك، واستمسكْ بالدين الحقّ ـ دين الإسلام ـ الذي بعث الله به رسله وأنبياءه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...﴾ [الروم: ٤١] في قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بما ارتكبوه من جرائمَ، ومعاصي، وآثام، فعليّة أو قوليّة، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) لأن القبائح والمعاصي لا تكون جميعها باليد، بل إن بعضها يكون بالكلام القبيح، وبعضها بالنظر إلى المحرّمات، ومنها ما يكون بأكل المال الحرام، أو بالمشي إلى دور البغاء والفجور، فنُسبت إلى فعل الأيدي مجازاً، كقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

[الروم: ٤٤] في الآية الكريمة ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ استعارة لطيفة، شبّه من قدّم الأعمال الصالحة، بمن يمهّد فراشه ويوطّئه للنوم عليه، لئلا يناله في مضجعه ما يؤذيه، وينغّصُ عليه نومه، والمهاد: الفراشُ، اشتقّ منه لفظ (يمهدون) أي يهيّئون لهم فراشاً ومنزلاً في الجنة، على طريقة (الاستعارة التبعية) وهذا من الأسلوب البيانيّ البديع!!

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم: ٥٢] شبّه تعالى الكفار بالأموات، أنه لا ينفعهم نصح ولا تذكير، فهم صمٌّ لا سمع لهم، عميٌ لا يهتدون إلى طريق الإيمان والسعادة.

وهذا مثلٌ ضربه الله للكفار، على طريقة (الاستعارة التصريحية) شبّههم بالموتى، وبالصُّمّ، والعمي، فإن الميْت لا يسمع الدعاء، ولا يستجيب للنداء، والأصمُّ لا يسمع الكلام وهو مقبلٌ نحوك، فكيف إذا كان مدبراً عنك؟ والأعمى كيف يهتدي لرؤية الطريق؟

وهو تصوير فنيٌ بديع، ورَدَ بطريق (الاستعارة البيانية) فإنّ من يرى الكون وما فيه من دقائق الصنعة والإبداع، ثم ينكر وجود الله، فإنه ميْت الحسّ، لا خير فيه ولا حياة، إنما هو كالحيوان، يعيش بلا غاية ولا هدف، بل الحيوان أكرمُ منه وأفضلُ، لأنه مهديٌ بفطرته إلى مصالحه، والذي يسمع آيات الله، ولا يتدبرها ولا يستجيب لها، فإنه أصمٌ وإن كانت له أذنان، والذي لا يبصر آيات الله في هذا الوجود، فإنه أعمى ولو كانت له عينان! وكلُّ هذا الجمال الباهر، جاء عن طريق (الاستعارة البيانية) البديعة.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥] المراد بالساعة الأولى: القيامةُ، وبالثانية: المدةُ القصيرةُ من الزمان، ويسمى هذا (الجناس التام) فقد اتفقت اللفظتان بالحروف، واختلف معناهما، وهذا من المحسّنات البديعية، كما يقول علماء البديع.

ومعنى الآية: يوم يبعث الناس للحساب، وتأتي القيامةُ بأهوالها وشدائدها، يحلف المجرمون أنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعةٍ زمنية، يستقصرون حياتهم، من هولِ ما يرون من الشدائد والأهوال.

٧ ـ قال العلامة الشوكاني: سُمّيت القيامةُ ساعة، لأنها تقوم في آخر ساعةٍ

من ساعات الدنيا، وهؤلاء الكفرة يحلفون أنهم ما لبثوا في الدنيا أو في القبور غير ساعة، وقد كَذَبوا في هذا الحلف، لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا، فقد علموا مقداره، وإن أرادوا لبثهم في القبور، فقد حلفوا على جهالة، لأنهم لا يعرفون الوقت في البرزخ. اهـ فتح القدير ٤/ ٢٢٤.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة لقمان

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦] شبَّه تعالى حالَ الضالِّين عن سبيل الهدى، بحال من يشتري سلعةً هو خاسرٌ فيها، واستعار لفظ (يشتري) لمعنى يستبدل بطريق (الاستعارة البديعة). وانظر توضيح هذه الاستعارة في الصفحة (٢٩) من سورة البقرة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧] في قوله: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ الوَقْرُ: الصَّممُ، شبَّهه بمن هو أصمُّ لا يسمع الكلام، ذُكرت أداةُ التشبيه، وحُذف وجه الشبه فهو (مرسلٌ مجمل) وقولُه سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوبُ تهكُّم وسخرية، لأن البشارة لا تكون بالعذاب، وإنما تكون بالخير والمسرَّة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] يعني أوحشُ الأصوات صوتُ الحمير، شبَّهَ الرافعينَ أصواتَهم من غير ضرورة، بالحميرِ حينما تنهقُ، ولم يذكر أداةَ التشبيه، بل أخرجه مخرج (الاستعارة التمثيلية) للمبالغة في الذمّ، والتنفير من رفع الصوت.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] في الآية (مجازٌ مرسلٌ) أطلق الوجهَ وأراد الذات، أي من فَوَّضَ أمرَه إلى الله، واستسلمَ بكلِّيته مخلصاً لربه، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) وفي قولِهِ سبحانه: ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ هذا جارٍ على سبيل التمثيل، يعني كأنه تمسَّك بحبلٍ متين، لا ينقطع، وقد تقدَّم توضيحها في الأمثال في سورة البقرة.

❁ ❁ ❁

الكناية والاستعارة في سورة لقمان

١ ـ قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان: ٦] اللَّهْوُ: كلُّ باطلٍ ألهى عن الخير، وطاعةِ الله، ممّا لا خير فيه ولا فائدة، وفي الآية (استعارة لطيفة)، استعار لفظ يشتري لمعنى (يستبدل) شبّه حال أولئك السفهاء، بحال من يشتري سلعة ليربح فيها، فيخسر فيها أشدّ الخسارة، على طريقة (الاستعارة التصريحية) لأن الشراء إنما يكون للأمور المادّية الحسيّة، لا للأمور المعنوية، لذلك استعار لفظ الشراء للاستبدال.

سبب النزول: نزلت في (النضر بن الحارث) كان يشتري المغنّيات، فلا يسمع بأحدٍ يريد الإسلام، إلّا انطلق إليه بالمغنّية، يقول لها: أطعميه، واسقيه الخمر، وغنّيه، ويقول له: هذا خير ممّا يدعوك إليه محمد، من الصلاة، والصيام، وأن تقاتل بين يديه حتى تموت!!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧] في قوله: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ تشبيه بديع، يسمى (التشبيه المرسل المجمل) ذكرت فيه أداة التشبيه (كأن) فهو مرسل، وحُذف منه وجه الشبّه فهو مجمل، أي كأنّ في أذنيه ثِقلاً وصمماً يمنعانه من استماع كلام الله، ثم فيها أسلوبُ السخرية والتهكم، في قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأن البشارة تكون في الخير لا في الشر، واستعمالُها في الشرّ وهو العذاب الأليم (سخريةٌ وتهكم).

٣ ـ قولُه سبحانه: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ ﴾ [لقمان: ١٦] في الآية تمثيلٌ لسعةِ علم اللهِ عزّ وجلّ، وإحاطته بجميع ما في الكون من صغيرٍ وكبيرٍ، وجليلٍ وحقيرٍ، فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء، في أخفى الأمكنة، والمعنى: إن كانت المعصيةُ والخطيئةُ مهما كانت صغيرةً وخفيّة، فإنّ الله يأتي بها ويحاسب عليها، ولو كانت وزن حبة الخردل، في

أخفى مكان وأضيقه، لأنه عالم ببواطن الأمور، والغرضُ من الآية: التمثيلُ بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، يعلم السرّ وأخفى، وإليه مرجع جميع المخلوقات.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] في الآية (استعارة تمثيلية) شبَّه الرافعين أصواتهم بالحمير، التي تشهق وتنهق، ولم يذكر أداة التشبيه كصوت الحمير، وإنما قال: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، ليَخرجَ التشبيهُ مخرجَ (الاستعارة) للمبالغة في الذمّ، والتنفيرِ من رفع الصوت عالياً، فأقبحُ الأصوات صوتُ الحمير، أوّله زفيرٌ، وآخرُه شهيق، ولذلك ضرب اللّهُ المثلَ به، لقباحته وشناعته.

قال الحسن البصري: كان المشركون يتفاخرون بالصياح، ورفعِ الأصوات، فردَّ اللّهُ عليهم بأنه لو كان خيراً لَفَضَلتهم الحمير.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ . . .﴾ [لقمان: ٢٢] أطلق الجزء (الوجه) وأراد الكلّ يعني الذّاتَ والنّفْسَ، أي من يستسلم بكلّيته للّه عزّ وجل، ويُقبلُ على الله بالصدق والإخلاص، وهو مؤمنٌ صادقُ الإيمان، فقد تمسك بأوثق العرى، ففي الآية (مجاز مرسلٌ) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكلّ).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] شبّه من استمسك بالإسلام من جميع جوانبه، بمن تعلّق بأوثق حبال النجاة، وتدلّى من أعلى جبلٍ شاهق، فسلِمَ ونجا، وردت الآية (مورد التمثيل) كأنه تمسّك بحبلٍ متين لا ينقطع، وحُذفت من الآية أداة التشبيه للمبالغة.

خلاصةُ التمثيل: رجلٌ واقفٌ على قمة جبلٍ شاهق، يخاف أن تنزلق قدمه، فيهوي إلى الوادي السحيق، فتعلّق بحبلٍ وثيق، نزلَ به إلى الأرض بكل أمان.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وصفُ العذابِ بالغِلَظ (استعارةٌ بديعة) لأن الغلظ إنما يكون للأجرام، فاستعارةُ الغِلظ للشدّةِ وهي من المعاني، فيه تشبيه لها بالجُرم الغليظ، أي نمهلهم قليلاً، ثم نلجئهم إلى عذاب شديد لا ينقطع، هو عذاب الجحيم.

۞ ۞ ۞

الإبداعُ البيانيُّ في سورة السجدة

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] جواب (لو) حُذف للتهويل وتفظيع الأمر، أي لرأيتَ أمراً مَهُولاً مفزعاً، ترتعدُ له القلوبُ، وتطيشُ من هوله الأحلامُ.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] الآية فيها (كنايةٌ لطيفةٌ) عن ترك النوم، والانقطاعِ للعبادة والصلاة.

۞ ۞ ۞

الكناية والاستعارة في سورة السجدة

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] في هذه الآية (استفهامٌ إنكاري) غرضه الاستهزاءُ والتكذيبُ، يقول المشركون المستهزئون بدين الله: هل إذا هلكنا وصرنا تراباً، مختلطاً بتراب الأرض، سنرجع إلى الحياة مرة ثانية، بعد أن نغيب في جوفها؟ وهو استبعاد للبعث مع السخرية والاستهزاء، ولذا قال تعالى بعده: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي بل هنالك ما هو أبلغُ وأشنعُ من الاستهزاء، وهو كفرهم وجحودهم للقاء الله بعد الموت.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] هذا خبرٌ حُذف جوابُه، والتقديرُ: لو رأيتَ حالة المجرمين وهم مطرقو رؤوسهم أمام ربهم، من شدة الندم والخجل، لرأيتَ أمراً فظيعاً هائلاً، ترتعد له الفرائصُ، وهذا النوع يسمى (الإيجاز بالحذف) حُذف جواب (لو) للتهويل وشدة الأمر.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ [السجدة: ١٤] في هذه الآية ما يُسمّى بـ (المشاكلة) وهو الاتفاق باللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فإن النسيان من الله عز وجل مستحيل لا يُتصوّر ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وهو غير النسيان من الكفار، لأن النسيان منهم: الترك لأوامر الله، وعدم الإيمان بلقاء الله، وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ [السجدة: ١٤] فالمراد منه: نترككم في العذاب ترك الشيء المنسيّ، سُمّي نسياناً من باب (المشاكلة) وهذا على حدّ قول بعضهم:

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ ... قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً

فإن الجبة والثوب يُخاطان ولا يطبخان، وإنما جاء التعبير بأسلوب (المشاكلة) أي المشابهة باللفظ، مع الاختلاف في المعنى.

٤ ـ **الكناية اللطيفة في قوله سبحانه:** ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] كنّى به عن كثرة الصلاة والعبادة، لأن التجافي معناه ترك النوم للتفرغ للصلاة وذكر الله، وهو من الكنايات البديعة.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ . . .﴾ [السجدة: ١٧] (قرة أعين) كناية عن النعيم الخالد الدائم، الذي أعدّه الله لعباده المتقين، من أنواع المآكل والمشارب، والاستمتاع بالحور العين، كما جاء في الحديث القدسي: (أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر) واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾) رواه البخاري ومسلم.



الإبداعُ البيانيُّ في سورة الأحزاب

١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ . .﴾ [الأحزاب: ٦].

في الآية (تشبيهٌ بليغ) أي كأمهاتهم في واجب التكريم والاحترام، وحرمة النكاح بهنَّ على وجه الدوام.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ . . .﴾ [الأحزاب: ٦] في الآية حذفٌ يُسمى (مجاز الحذف) أي أولى ببعضٍ في التوارث، وهو نسخٌ لما كان بين المهاجرين والأنصار، بالتوارث بالأخوّة الإيمانية.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) تقدَّم توضيحها في سورة النساء.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] قَضى نحبَه: أي استشهد وقُتل في سبيل الله، فيها (استعارة لطيفة) قال ابن قُتَيبة: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي قُتل، وأصلُ النَّحب: النَّذْرُ، كانوا قد نَذَروا إن لقوا العدوَّ أن يُقاتلوا حتى يُقتلوا، أو يفتح اللهُ لهم، فقُتلوا. اهـ تفسير الشوكاني ٤/ ٢٦٤.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] في الآية (استعارة تمثيلية) فعِرْضُ العاصي الخائن يتلوَّثُ، كما يتلوّثُ بدنُ الإنسان بالأرجاس.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ . . .﴾ [الأحزاب: ٤٩] كنّى عن (الجِماع) بالمسِّ، وهي من الكنايات البديعة، التي اشتهرتْ في القرآن الكريم، لتعليم المسلمين الأدبَ، في التخاطب فيما يتعلق بالنساء.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا . . .﴾ [الأحزاب: ٧٢] في الآية (استعارة تمثيلية) الآيةُ الكريمة وردتْ

بأسلوب عجيب، على طريقة التشبيه والتمثيل، والمرادُ أن تلك الأمانةَ في عِظَم الشأن والأهميّة، بحيث لو كُلِّفت بها السمٰوات الضخمةُ، والجبالُ الشاهقة، والأرضُ الواسعة، لأشفقت منها وخافتْ أن لا تقوم بواجب الوفاء بهذه التَّبِعة الضخمة، وهو تمثيلٌ ظاهر الروعة والإبداع.

❀ ❀ ❀

الكناية والاستعارة في سورة الأحزاب

١ ـ قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] وردت الآية بصيغة التنكير (لرجل) لإفادة الاستغراق والشمول، حتى ولو كان هذا الرجل رسولاً أو ولياً، وإدخالُ حرف الجر الزائد (من) لتأكيد الاستغراق، والأصلُ: ما جعل الله لرجلٍ قلبين، وذكرُ الجوفِ ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ مع أن القلب لا يكون إلا في الجوف، لزيادة البيان في الإنكار، فجاءت الآية على أبلغ الصور البيانية في إنكار الدعوى، للردّ على مزاعم العرب، أن الرجلَ اللبيبَ الأديبَ، له قلبان في جوفه، فردّ الله سبحانه هذا الزعم الكاذب، أي ما جمع الله قلبين في رجلٍ واحد، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى، لإبطال ما بعده من أحكام كان عليها أهل الجاهلية، وهي أن المرأة التي ظاهر منها زوجها بقوله: (أنتِ عليَّ كظهر أمّي) تصبح أماً، وأن الولد من التبنّي، يصبح ولداً كالولد الصلبيّ، وكلّها مزاعم باطلة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦] في الآية الكريمة تشبيهٌ بديع، يسمى (التشبيه البليغ) وهو الذي تُحذف منه أداةُ التشبيه، ووجهُ الشبه، فقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي زوجاتُه الطاهرات كالأمهات للمؤمنين، في وجوب الاحترام والتعظيم، وحرمة النكاح، فهنّ منزّلات منزلة الأمهات، وفي هذا (التشبيه البليغ) تكريم عظيم لأمهات المؤمنين، زوجات الرسول ﷺ الطاهرات، فإذا كنّ أمهات للمؤمنين، فالرسول بلا شك أبٌ للمؤمنين، بمفهوم الآية الكريمة، ولهذا كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] في الآية استعارةٌ لطيفة، استعار لفظ (الغِلَظ) الذي هو خاصٌ بالأجسام، للشيء المعنوي وهو (الميثاق) لأنه لا يمكن أن يوصف الميثاق بالغلظ، إلّا بطريق (الاستعارة) للتنبيه على حرمة الميثاق، وعِظَم شأنه، وثِقل حمله.

والمعنى: أخذنا من الأنبياء العهد المؤكَّد الموثَّق، على الوفاء بما التزموا به، من تبليغ رسالة الله إلى عباده.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] في الآية مبالغة في التصوير والتمثيل، صوَّر القلوبَ في خفقانها واضطرابها، كأنها خرجت من مكانها، حتى كادت تبلغ الحناجر، ففي الآية تمثيل بليغ، لشدة ما لاقوه من الهول والفزع، وإن لم تبلغ القلوب الحناجر حقيقةً.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ . . .﴾ [الأحزاب: ١٥] تولية الأدبار (كناية لطيفة) عن الفرار من المعركة، والفرار من الزحف بأسلوبٍ لطيفٍ رشيق، فيه تحقيرٌ وإهانةٌ لهم.

والمعنى: كان المنافقون قد عاهدوا ربهم، وأعطوه العهودَ والمواثيقَ، قبل (غزوة الأحزاب) ألَّا يفرُّوا من المعركة، ولا ينهزموا أمام الأعداء، ثم نقضوا عهدهم مع الله، وتوليةُ الأدبار هي أن يجعل ظهره في وجوه الأعداء، بمعنى أن ينهزم أمامهم، فيصبح ظهره لهم، وهذه من لطيف أنواع الكناية.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] في الآية تشبيه عجيب يسمى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه التشبيه ليس مفرداً، بل هو صورةٌ منتزعةٌ من متعدِّد، دورانُ الأعين، وسكراتُ الموت، وذهابُ الوعي والإدراك، وشدةُ الخوف والفزع، أي رأيتهم في شدة رعبٍ لا مثيل لها، ينظرون إليك نظراً غريباً، كنظر من غُشي عليه من معالجة سكرات الموت، تدور أعينهم في أحداقهم، من شدة الخوف والفزع، وحقاً إنها لصورةٌ عجيبة غريبة لهؤلاء المنافقين وهم في ميدان القتال، يشاهدون بوارق السيوف، فيفزعون ويُصْعقون!!

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] في الآية (استعارة مكنية) شبَّه اللسانَ بالسيف الحاد المصلت، الذي يقطع الرؤوس، ويبتر الأعضاء، وحذف ذكر المشبَّه به وهو (السيفُ) ورمَزَ له بشيء من لوازمه وهو (السَّلْق) بمعنى القطعُ والضربُ، على طريقة (الاستعارة المكنية)، ولفظ (حِدَاد) ترشيح للاستعارة.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] (قضى نحبَه): النَّحْبُ: النَّذْرُ والعهدُ، استعير للموت، لأنه كنذرٍ لازمٍ في عُنُق

المسلم، وهو نهايةُ كلّ حيّ، ففي الآية (استعارة لطيفة) والمعنى: منهم وفّى نذرَه فمات أو استشهد في سبيل الله، ومنهم من ينتظر الشهادة، لينضمَّ إلى قافلة الشهداء، نزلت في (أنس بن النضر) الذي قال: لئن أشهدني الله قتالاً، ليرينّ اللهُ ما أصنع؟ فلما كان يومُ أُحُد، قاتل قتالاً شديداً حتى استشهد، ومُثّل به الأعداءُ، حتى لم يعرفه أحدٌ من الصحابة، إلّا أختُه عرفته من رؤوس أصابعه، ففيه نزلت الآية.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] في الآية تشبيه يسمى (التشبيه البليغ) حذفت منه أداة التشبيه، ووجهُ الشَّبه فصار بليغاً، أي ولا تتبرّجن مثلَ تبرُّج نساءِ الجاهلية، في كشف الصدور، والنحور، وفي التكسُّر والتغنُّج، وغيرها مما لا يليق فعلُه، ليفتن بكنّ الرجالُ، وقد زاد التبرُّجُ في عصرنا، إلى درجةٍ فاقتْ تبرُّجَ نساء الجاهلية، حتى كاد يصل إلى العُهر والفجور، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

١٠ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] في الآية (استعارةٌ لطيفة) استعار لفظ (الرجس) للذنب الذي يفعله الإنسان، والرجسُ: القذرُ والنجاسةُ، شُبّه الذنبُ به، لأن المقترف للقبائح والذنوب، يتلوّث بها ويتدنس، كما يتدنّس بالنجاسة، كما استعير لفظ التطهير للتقوى، لأن عرضه مصون كالثوب الطاهر.

١١ - قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وصفُ النبيّ ﷺ بالسراج المنير، فيه تشبيهٌ رائع بديع، يسمى (التشبيه البليغ) فقد شبّهه تعالى بالسراج، وهي الشمس الساطعة اللامعة التي تجلو الظلام، لأن الله جلا به ظلماتِ الشركِ، والجهلِ، والضلالة، كما يُجلى ظلامُ الليل بالسراج المنير، واهتدى به المهتدون كما يهتدي الناسُ إلى معايشهم، بالشمس المشرقة في وضح النهار، كما قال القائل:

كَأَنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

١٢ - قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩] في الآية تشبيه يسمى (التشبيه التمثيلي) أي لا تؤذوا نبيكم محمداً ﷺ كما آذى اليهودُ نبيَّهم موسى عليه السلام، حيث قالوا: إنَّ في جلده عيباً، من برَصٍ، أو أُدرة - انتفاخ الخصية - فبرأه الله من ذلك، شبّه حالَ

بعض المؤمنين، في إيذائهم لخاتم المرسلين ﷺ حين تزوّج بالسيدة زينب فقالوا: تزوّج بزوجة ابنه من التبنّي، بحال اليهود حين آذوا موسى، واتهموه بأنه منتفخ الخصية وبجلده مرضٌ من بَرَصٍ وغيره، فبرّأه اللّه من ذلك، ولَعَنهم وأخزاهم، وانظر التفسير الواضح ص١٦٠.

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] في الآية (استعارة تمثيلية) شبّه الأمانة في ضخامتها وعظمها، بأنها من الثُقل بحيث لو عُرضت على السموات والأرض، لامتنعت عن حملها، وخافت من ثقلها، وهو (تمثيلٌ رائع) بديع لضخامة المسؤولية ولتهويل شأن الأمانة، قال اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] فالأمانةُ حملٌ ثقيلٌ، وأمرُها خطير.!



الإبداع البياني في سورة سبأ

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ . . .﴾[سبأ: ٢٤]
حُذف الخبرُ لدلالة السياق عليه، تقديره: قل اللّهُ الخالقُ الرازقُ للعباد.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]
هذا نهاية الإنصاف مع الخصم، فمن المعلوم المتيقَّن، أن من عَبَد اللّهَ وحدَه كان مهتدياً، ومن عَبَد غيرَه من جماد كان ضالاً، ففي الآية تعريضٌ بضلالهم، وهو أبلغُ من الردِّ باللفظ الصريح، وفي الآية إرشادٌ إلى (المناظرات العلمية) لأن الإنسانَ إذا قال للآخر: أنت مخطئٌ، أو ما تقوله خطأٌ، فإنَّه يغضبُ، وعند الغضبِ يكون العنادُ، والتعصُّبُ للرأي، أمَّا إذا قال له: أحدُنا من غير شك مخطئٌ، والتَّمادي في الباطل قبيحٌ، والرجوع إلى الحقِّ أفضلُ، فإنه لا يغضب، ويجتهد في الأمر، ويترك التعصُّبَ، وفي قوله تعالى بعدها: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥] ملاطفةٌ بديعة وتنزُّل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، حيث أسندَ الإجرامَ إلى نفسه ﴿عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ والعملَ إلى المشركين المبطلين ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولله درُّ التنزيل!

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١] ليس للقرآن يدانِ، وإنما وردَ التعبيرُ بطريق (الاستعارة البديعة) حيث شبَّه ما سَبَقه من الكتب السماوية، المنزلة من عند اللّه، بشخصٍ يقفُ أمامك، وقد بَسَط يديه نحوك يتحدث إليك، وذلك بطريق الاستعارة البديعة.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ . . .﴾ [سبأ: ٣١]
حُذف جواب (لو) للتهويل والتخويف، أي لو ترى حالَهم لرأيتَ أمراً فظيعاً مَهُولاً، تتقطَّع له الأكبادُ.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ . . .﴾

[سبأ: ٣٣] أسندَ المكرَ إلى الليل، وهو للمشركين بطريق (المجاز العقلي) أي مكركم بنا في الليل والنهار، فهو من باب إسناد الأمر إلى محلّه، وهو الليلُ والنهارُ.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩] بَسْطُ الرّزق (كنايةٌ لطيفة) عن التوسعة والتضييق، وقد تقدّم أمثالُها في مواطن عديدة من الكتاب العزيز.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] استعارَ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان، لأنَّ العذاب ليس له يدان، وإنما هو تصويرٌ بارع، في منتهى الروعة والجمال، كأن العذابَ يوشك أن يقع بهم، وقد تقدّمهم النذيرُ بخطواتٍ يُحذّرهم منه، كالصارخ الذي يصرخ بالناس، من اندلاع حريق فظيع، يوشك أن يلتهم البشرَ، وما هذا النذيرُ إلّا محمدٌ ﷺ الرءوفُ الرحيمُ بالمؤمنين!!

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) بديعةٌ، شُبِّه من يتكلّم بغير علم، بمن يرمي هَدَفاً من مسافة بعيدة، فيخطئ الهدفَ، ولا يكون من ورائه إلا الندم.



الكناية والاستعارة في سورة سبأ

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ... ﴾ [سبأ: ١٢] في الآية (إيجازٌ بالحذف) أي تقطع في الصباح مسيرةَ شهر، وفي المساءِ مسيرةَ شهر، فتقطع في يوم واحد مسيرةَ شهرين، ذاهبةً وآيبةً، من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، فحُذف من الآية الكريمة لفظ (مسيرة) وهو بيانٌ لغاية سرعتها، لدلالة السياق على المحذوف، ويسمى (الإيجاز بالحذف).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: ١٣] (جِفان): جمعُ جَفْنة وهي القصعة الكبيرة التي يوضع فيها الطعامُ، ﴿ كَٱلْجَوَابِ﴾: جمعُ جابية وهي الحوض الكبير يُجمع فيه الماءُ، شبَّه تعالى الأواني التي يوضع فيها الطعامُ بالأحواض الكبيرة الواسعة، فقد كان يجلس على القصعة الواحدة ألف رجل لكثرة جنده، وفي الآية تشبيه (مرسل مجمل) لذكر أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١] ليس للقرآن يدان، وإنما هو تعبيرٌ بياني بديع، يُراد به ما سبقه من الكتب السماوية، أي لن نؤمن بالقرآن ولا بالتوراة والإنجيل والزبور التي سبقت القرآن، ففي الآية (استعارة) بديعة من روائع أنواع الاستعارة.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أسند المكر إلى الليل والنهار، والليلُ والنهارُ لا يمكران، إنما المراد به مكرُ المشركين بالليل والنهار، ففيه (مجاز) يُدْرَكُ بالعقل، يسمى (المجاز العقلي).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] في الآية (استعارة لطيفة) استعار لفظ اليدين، لما سيكون أمام الإنسان، من أهوال وشدائد عظام، وهو تصوير وتمثيلٌ بارع، في منتهى الروعة والجمال، كأن العذاب

يوشك أن يقع عليهم، وقد تقدَّمهم النذيرُ بخطوات يُحذِّرهم منه، كالصارخ الذي يصرخ بالناس، من اندلاع حريق، يوشك أن يلتهم البيوت والبشر.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩] في الآية (كناية لطيفة) كنّى بقوله: ﴿ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ عن زهوق الباطل ومحقه، بحيث لا يبقى له بدءٌ ولا عودٌ، أي جاء الإسلام بنوره الوضاء الساطع، وذهب الكفرُ والباطلُ إلى غير رجعة.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥١، ٥٢] جوابُ (لو) محذوفٌ للتهويل والتفظيع، أي لو ترى حال الكُفَّار الفُجَّار، حين يخرجون من قبورهم فزعين ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي فلا نجاة لهم، ولا مَخْلصَ ولا مهرب من العذاب، وأخذوا من أرض المحشر، إلى نار الجحيم، لرأيتَ أمراً مهولاً فظيعاً، يتقطَّع له قلب الإنسان ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي آمنّا بالله وبالقرآن ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ التّناوشُ: بمعنى التناولُ، أي من أين لهم تناولُ الإيمان، وقد ذهبت عنهم الدنيا فصارت بمكانٍ بعيدٍ؟ وهذا تمثيلٌ رائعٌ بديعٌ، شبَّه حالَهم بحالِ من يريد تناول شيءٍ ببيده، وبينه وبين هذا الشيء، مسافاتٌ شاسعةٌ بعيدةٌ، كمن يريد أن يقطف بعضَ الفواكه والثمار، وبينه وبين تلك الأشجار، آلاف الأمتار، هذا مستحيلٌ لا يمكن الوصولُ إليه، يريد أن الإيمانَ محلُّه الدنيا، وقد ذهبت عنهم الدنيا، فكيف يصلون إليه وهم الآنَ في الآخرة، على أبواب جهنم التي كانوا يسخرون منها ويهزءون!؟

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥٣] العرب تقول لكل من تكلَّم بما لا يعرف: إنه يرجم بالغيب، على جهة (التمثيل والتشبيه)!!

شبَّه الذي يقول بغير علم، ويتكلَّم بما لا يعلم، بالشخص المغفَّل الذي يرمي سهماً من مكان بعيد، فلا يصيب الهدف، ولا يصل إلى الغاية، لأنه لم يسدِّد الإصابة عن قُرب، ولم يكن متقناً للرمي، فيصبح سهمه طائشاً، لا يصيب الهدف، واستعار لفظ القذف ﴿ وَيَقْذِفُونَ ﴾ للرمي بطريق (الاستعارة التصريحية) كأن الذي يتكلم بدون علم، يرسل قذائف طائشة، لا تصيب الهدف، وهو (تمثيل بديع) وتشبيه في غايةِ الجمال، وما أروعه من تشبيه وتمثيل!!

الإبداع البيانيّ في سورة فاطر

١ ـ قولُه تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا . . .﴾ [فاطر: ٢] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) شبّه تعالى إرسالَ النّعم عليهم، بفتح خزائن الأموالِ والخيرات الكثيرة، من رزقٍ، وصحة، وأمنٍ، وحكمةٍ، وعلم، وهو تمثيلٌ بديع للخيرات التي يغدقُها اللّه على العباد، فالفتحُ والإمساكُ (كنايةٌ) عن العطاء، والمنع.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢١] في الآية (استعارةٌ تصريحية) بديعة، تقدّم توضيحها في سورة الرّعد.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] في الآيةِ (كنايةٌ لطيفةٌ) كنّى بالنذير عن الشّيب، لأن الشيبَ دليلُ الشيخوخةِ والهَرَم، وهذا ما ترجم له الإمام البخاريُّ، وهو مرويٌّ عن عكرمةَ، وابن عباس، قال الشاعر:

فَقُلْتُ الشَّيْبُ نَذِيرُ عُمْرِي وَلَسْتُ مُسَوِّداً وَجْهَ النَّذِيرِ

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ . . .﴾ [فاطر: ٤٥] في الآية (استعارة مكنيّةٌ) بديعة في غاية الحسن، والجمالُ، شبّه الأرضَ بدابة يركبها البشر، وسيأتي توضيحها في هذا الكتاب.

الكناية والاستعارة في سورة فاطر

١ ـ قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر: ٢] في الآية الكريمة (استعارةٌ تمثيلية) شبّه إرسال النعم للعباد، من صحةٍ، وأمنٍ، ورزقٍ، بفتح الخزائن للعطاء الإلٰهي، ومنح العباد لفضل الله، وشبّه حبسَ النعم عنهم بالإمساك، واستعير لفظُ (الفتح) للعطاء، ولفظ (الإمساك) للمنع، بطريقة (الاستعارة التمثيلية).

ومعنى الآية: أن ما يمنحه الله للعباد من خيرٍ عميم، وفضلٍ جسيم، فلا يقدر أحد من البشر على إمساكه ومنعه، وما يمنعه ويحبسه عنهم، فلا يقدر أحد على إعطائه، لأنه تعالى هو وحده المتصرِّفُ في شؤون العباد، لا تلك الأصنامُ والأوثانُ!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] في الآية (إيجازٌ بالحذف) حُذف جوابه لدلالة السياق عليه، أي هل من أغواه الشيطانُ، فزيّن له قبيحَ عمله حتى رآه حسناً، كمن اهتدى إلى طريق الإسلام، واستنار قلبُه بنور الإيمان؟ هل يستويان عند الله، ودلّ على المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] ذهابُ النفس: (كنايةٌ) عن الهلاك والموت، أي لا تُهلِك يا أيها الرسولُ نفسَكَ حسرةً عليهم، لعدم إيمانهم، وهي من الكنايات اللطيفة، لأنَّ النفسَ إذا ذهبت، هلَكَ الإنسانُ ومات، كما نقول: قُضى فلانٌ نَحْبَه، أي هلك ومات.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ • وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] في الآية استعارةٌ من روائع أنواع الاستعارة، شبّهَ الكافرَ بالأعمى، في عدم اهتدائه إلى طريق الحقّ والسعادة، وشبّهَ المؤمنَ

بالبصير، في استنارة قلبه، واهتدائه إلى طريق الخير والإيمان، بجامع الظلمة على الكافر، ووضوح الرؤية للمؤمن، واستعار المشبَّه به، وهو لفظُ (الأعمى) للكافر، ولفظ (البصير) للمؤمن، بطريق (الاستعارة التصريحية) ومعنى الآية الكريمة: لا يتساوى أبداً الكافرُ والمؤمنُ، ولا الباطلُ والحقُّ، ولا الهدى والضلالُ، فالباطلُ ظلمة، والحقُّ نور.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ [فاطر: ٢١] أي ولا تتساوى الجنةُ مع النار، ولا نعيمُ الأبرار مع عقاب الكفار.

ضرب تعالى (الظلَّ) مثلاً للجنة، وظلّها الظليل، وثمارها اليانعة، وضربَ (الحرورَ) وهو شدة حرّ الشمس اللاهب، للنار وسعيرها، وشدة لهيبها وجحيمها، وكلُّ ذلك بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة، التي تفوق كل وصفٍ وجمال، كما قال سبحانه: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩] شبّه تعالى الأجر والثواب، الذي يناله المؤمنون في الآخرة، بالتجارة الرابحة، التي لا تخسر ولا تكسدُ أبداً، لأنها تجارة مع الله، بطريق (الاستعارة التمثيلية) أي يرجون بعملهم الصالح تجارةً رابحة، هي رابحة على الدوام، كمن يتاجر بمهارة فيربح دائماً، وفي الآية ترشيح بقوله: ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ أي لن تكسد ولن تخسر أبداً، زيادةً للبيان والتوضيح، ففيها من لطيف الاستعارة، وشفيف العبارة، ما يرغِّبُ في الدخول في هذه التجارةمع الله عزّ وجل.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٤٠] في الآية استفهام للتقريع والتوبيخ، يسمى (الاستفهام الإنكاري) أي أخبروني يا معشر الجهلة الكفار: ماذا خلقت هذه الأصنام والأوثان، من مخلوقات حتى عبدتموها من دون الله؟ والغرضُ منها التقبيح والتشنيع عليهم، لعبادتهم من لا يستحقُّ العبادة، وهي جماداتٌ تستحقُّ التحطيمَ لا التعظيم.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥] في الآية (استعارة مكنية) شبّهَ الأرض بدابة، تحمل على

ظهرها أنواع المخلوقات، من البشر وسائر الأنعام، ثم حَذَف المشبَّه به وهي (الدابة) ورمز إليها بشيء من لوازمها وهو الظهر (على ظهرها) بطريقة (الاستعارة المكنيّة).

والمعنى: لو آخذ اللّهُ الناسَ بذنوبهم، لأهلك أهل الأرض جميعاً، ولكنه سبحانه حليم بالعباد، لا يعجّلُ لهم العقوبة، ليفسح المجالَ أمامهم للتوبة والإنابة.



الإبداع البياني في سورة يس

١ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ [يس: ٨] في الآية تمثيلٌ عجيبٌ وغريب، يسمى (التشبيه التمثيلي) مثّل تبارك وتعالى لحال المشركين، بصورتين عجيبتين، تكشفان عمّا انطوت عليه نفوسُهم، من الكفر والضلال، والجحود والإنكار، فقال في المثل الأول: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا . . . ﴾ الآية.

هذه هي الصورة الأولى: صورة الإنسان الذي شُدّت يداه إلى عنقه، بالسلاسل والأغلال، فأصبح رأسُه مشدوداً، لا يستطيع خفضَ رأسه ليرى ما أمامه، ولا رَفْعه ليرى ما فوقه، ولا يستطيع تحريكه يمنةً أو يسرة، فأصبح رأسُه مرفوعاً، لأن اليدين مغلولتان بقيود من حديد، وقد وصلت الأغلالُ إلى الأذقان، فظلّوا رافعين لرؤوسهم، غاضّين لأبصارهم ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ والإقماحُ: رفعُ الرأس، وغضُّ البصر، وفيه تشبيه لهم بالبعير، الذي رفع رأسه عند حوض الماء، وامتنع عن الشرب، وهؤلاء الكفار لا يلتفتون إلى الحقّ، ولا ينظرون إلى حجج القرآن، بل هم معرضون عنه، كالبعير الذي يُعْرِض عن شرب الماء.

٢ ـ أمّا التشبيه الثاني ففي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩] هذه هي الصورة الثانية من التمثيل، صورة الشخص الذي حُصِر بين سَدّين عظيمين: سدٌ منيع من أمامه، وسدٌ آخرَ من خلفه، وسُدّت الطرق في وجهه، فكيف يبصر طريق الهدى؟ أو يرى ما أمامه من أشياء، وقد حُصِر بين هذين السدّين؟ ولهذا قال في ختم الآية: ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي غطّينا بهذين السدّين أبصارهم وأعميناهم، فهم لا يبصرون طريقهم إلى الإيمان!! وحقاً إنه لتصويرٌ رائع، يكشف عن حال أولئك الأشقياء الفجار، لذلك لم ينتفعوا من الإنذار، لغاية غيّهم وضلالهم. ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس: ١٠] فالإنذارُ لا يُحيي القلوب الميتة، إنما يوقظ القلوب الحية، المستعدّة لتلقّي نور الهداية والإيمان، لذلك

يستوي عندهم تخويفُك لهم من عذاب الله، وعدمُه، فهم بسبب طغيانهم وجبروتهم لا يؤمنون.!

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٣، ١٤] هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للأشقياء من أهل مكة، الذين كذَّبوا خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ، والقريةُ إذا أُطلقت في القرآن، يُراد بها المدينة، والمشهور أنها مدينة (إنطاكية) كان أهلُها كفاراً، يعبدون الأوثان والأحجار، فبعث الله إليهم رسولين كريمين فكذبوهما، فشدَّ أزرهما برسول ثالث، فهدَّدوا الرُّسل الكرام بالقتل، وتنتهي القصة بهلاك الطغاة الظالمين، بصيحة من السماء أزهقت أرواحهم ﴿ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۞ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٨، ٢٩] والآية فيها تصغيرٌ لشأنهم، وتحقيرٌ لهم، أي لم نحتج في إهلاكهم إلى إنزال ملائكة من السماء، وما كنا منزلين الملائكة من أجلهم، لأنهم كانوا أذلَّ من ذلك علينا وأهون، وما كانت عقوبتهم إلّا صيحةً واحدة، صاح بهم جبريل، فإذا هم هالكون ميِّتون، قد أُخمدت أنفاسهم، حتى صاروا كالنار الخامدة.

وفي هذه القصة يبرز شخصٌ مؤمن، صادق الإيمان، جاء مسرعاً ينصح قومه، يحذِّرهم من انتقام الله وعذابه لهم، إن هم تعرَّضوا للرسل بالأذى، اسمه (حبيب النجار) فلم يكن من أولئك الأشقياء، إلّا أن وثبوا عليه وثبةَ رجلٍ واحد، ووطئوه بالأقدام حتى فاضت روحه، ولمّا مات أدخله الله الجنة يتنعَّم فيها ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

قال ابن عباس: نصحَ قومه حياً وميتاً، وأهلك الله قومه الظالمين.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧] التعبير هنا ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ جاء في غاية الجمال، وغاية الإبداع البياني، الذي لا يستطيع أن يأتي بمثله البشر، فهو يصوِّر النهار، وكأنه لباسٌ كثيف ساتر، يلفُّ جسد الليل، فيغطِّي ظلمته، فإذا خلعنا الثوب عن الجسد، بدت ظلمةُ الليل الدامس!!

ولتوضيح هذه الصورة الفنيّة البديعة، التي صوَّر بها القرآن الليلَ والنهار، صورةَ شاةٍ لها لحم، يستره جلد جميل لطيف، فإذا نزعنا الجلد عن الشاة، بدا

فيها اللحمُ والجسدُ العاري، كذلك الليل والنهار، جسدٌ وعورة، سُتر بلباسٍ كثيف من النور، فإذا نُزع الثوبُ وأُزيل، بدت ظلمةُ الليل الحالك ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام الكثيف، هذه هي الصورة البديعة الرائعة، التي صوَّرها القرآن الكريم ببيانه المعجز، فهل باستطاعة البشر، أن يأتوا بمثل هذا الإبداع الفني في كلمات قلائل؟ إن هذا الجمال والإبداع إنما جاء عن طريق (الاستعارة التصريحية) حيث استعار اسم السلخ للإزالة والإخراج، واشتقَّ من السلخ (نسلخ) بمعنى نخرج ونزيل، ويا لها من استعارة بديعة!!

٥ - قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] العرجونُ: غصنُ النخلِ اليابسِ، إذا يبسَ انحنى وتقوَّس، والتعبيرُ هنا ﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ بديعٌ وعجيب، فالقمرُ في لياليه الأولى هلال، وفي لياليه الأخيرة هلال، ولكنه في بداية الشهر، يبدو كأنه (فتى) في ريعان الصِّبا، فيه نضارة وجمال، وفي آخر الشهر يطلع وكأنه (كهلٌ) هرم، فيه شحوبٌ وذبول، ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي العتيق، فإذا عَتِق وقَدِم، دقَّ وتقوَّس واصفرّ، فما أجمله وأبدعه من تشبيه!! ويسمى هذا (التشبيه المجمل المرسل) وجهُ الشبه فيه محذوف، مركَّبٌ من ثلاثة أشياء: الرِقَّة، والانحناء، والصفرة، وكلُّها غير مذكورة، ولهذا يسمى (مجملاً مرسلاً).

٦ - قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] يعني أن الشمسَ لا تُذهِبُ نور القمر، ولا القمر يطمس نور الشمس، وكلٌّ منهما يمشي باتِّزان وانتظام، في مدارٍ له لا يتعدَّاه، وهذا التعبير المعجز ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا﴾ يُضفي عليها وهي جمادات، صفة العقل والحكمة، فلم يقل تعالى عنها: لا تدخل الشمسُ في مدار القمر، وإنما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا﴾ وكأنها عاقلة تجري وتسير، بكل حكمة واتِّزان، ولهذا ختم الآية بصيغة جمع العقلاء: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ولم يقل: تسبح، وهي صورة بديعة، من صور الجمال الفنِّي في القرآن، نُزِّل غيرُ العاقل منزلة العاقل، لغاية الإبداع البياني، فما أسمى تعبير القرآن!!

٧ - قوله تعالى: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] في الآية (استفهام إنكاري) أي لا نعطي من حَرَمهُ اللّهُ ولو شاء لأطعمه، وغرضُهم من هذا (التهكُّم والاستهزاء) فإن المشركين كانوا إذا دُعوا

إلى إطعام الفقراء والمساكين، قالوا على وجه السخرية والاستهزاء: أيفقره اللَّهُ ونطعمه نحن؟ وكانوا يهزأون ويقولون: إن كنتم تعتقدون بأن اللَّه هو الرازقُ، فلمَ تطلبونَ منّا إطعامهم؟ لو شاء اللَّه لأطعمهم!! نزلت في (العاص بن وائل) كان إذا سأله مسكين، قال له: اذهب إلى ربك، فهو أولى منّي بك، أيفقرك اللَّهُ وأطعمك أنا[1]؟

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ [يٓس: ٦٦] صوّر تعالى هؤلاء المشركين السفهاء، بصورتين عجيبتين غريبتين، تليق بما هم عليه من السفاهة والاستهزاء، في غاية الإبداع البيانيّ.

الأولى: صورة مجموعة من العميان، يتسابقون الطريق، وهم في ركضهم يتخبّطون ويتساقطون، فيصطدم بعضهم ببعض، فكيف يصلون إلى نهاية الطريق، وهم عميٌ لا يبصرون؟

٩ ـ الصورة الثانية: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يٓس: ٦٧].

هذه هي الصورة الثانية: صورة الإنسان الممسوخ، الذي مسخه اللَّه من صورةٍ (آدمية) إلى صورةٍ (بهيمية) فصار بشراً في صورة قرد، وإنساناً في صورة حمار، وآخر في صورة خنزير، وسلب اللَّه منهم العقل والفهم، ألا تثير مثل هذه المشاهد الضحك والسخرية، وهو يرى جسد إنسانٍ برأس حمار!؟ أو جسد إنسانٍ بصورة قردا؟ أو إنساناً يمشي على أربع في صورة بغل!؟ حقاً إنها لمناظر بشعة تثير الضحك العميق!!

ومعنى الآية الكريمة: لو نشاء لبدّلنا صُوَرَهم الجميلة إلى صُوَرٍ قبيحة، فمسخناهم إلى قردة وخنازير، وسلبنا منهم الحواسَّ، فجعلناهم كأصنامهم، حجارةً صمّاء بكماء، لا تتحرك ولا تنطق، فلا يستطيعون الحركة، ولا الذهاب أو الإياب، أفلا يتعظون!؟ إنهما مشهدان مثيران للانتباه، فيهما من التشنيع والتقبيح، بقدر ما فيهما من الاستهزاء والسخرية، السخرية بالمكذبين، والاستهزاء بالمستهزئين.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يٓس: ٧٠]

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥/ ٣٧.

في الآية (استعارة لطيفة) من أبدع أنواع الاستعارة، وذلك بتمثيل المؤمن بالحيّ، والكافر بالميّت، شبّه تعالى الكافر بالميّت، من حيث إنه لا ينتفع بما يسمع، من آيات الذكر الحكيم، وشبّه المؤمن بالحيّ، لأنه ينتفع ويستنير عقلُه وقلبه بالوحي المبين، والمعنى: لينذر بهذا القرآن، من كان مؤمناً حيّ القلب، مستنير العقل والبصيرة، ويتحتّم العذاب على الكافر، لأنه كالميت، لا يفهم ولا يعقل، واستعار لفظ الحيّ للمؤمن، بدليل اقترانه بالكافر، في قوله سبحانه: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذه من ألطف أنواع (الاستعارة التمثيلية)!!

١١ ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] الأنعامُ يُراد بها: الإبلُ، والبقرُ، والغنمُ، والماعز، ولا يدخل بها البغالُ والحميرُ، لأن الله امتنّ على العباد بأكل لحومها، والتعبير بقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ عبّر عن (الخلْق) بالعمل، بطريق (الاستعارة البديعة) لأنّ الأنعام تُخلق ولا تُعملُ بالأيدي، فشبّه اختصاصه تعالى بالخلق والتسخير ـ أي التذليل ـ بمن يعمل بنفسه وبيديه شيئاً عظيماً، لينبهنا سبحانه إلى أن هذه الأنعام التي خلقها، كأنه عملها بيده لنا لمنفعتنا، واستعار لفظَ (العَمَل) للخلق، بطريق (الاستعارة التمثيلية).

ثم تسخيرها لنا نعمة أخرى، فإن الجمل مثلاً أضخم جثة من الإنسان، ولولا تسخيره لنا لما استطعنا أن نركبه، ولا أن نأكل لحمه، فقد جعلها الله مقهورةً ذليلةً لنا، لا تمتنع عن أحد، حتى لو جاء طفل صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، حتى ولو كان القطار مائة بعير، لسار الجميع بسير الصغير!!

وهنا يحسُّ الإنسانُ أنه مغمورٌ بفيضٍ من نعم الله، في كل شيء حوله، ويصبح كلَّ مرة يركب دابة، أو يأكل قطعةً من لحم، أو يشرب جَرْعةً من لَبَن، أو يلبس ثوباً من شَعَرٍ أو صوف، يشعر بوجود الخالق، ورحمته، ونعمته، وتعود حياته كلُّها تسبيحاً لله، وحمداً وتمجيداً، كما قال سبحانه: وصدق الله ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ﴿مُقْرِنِينَ﴾ يعني قادرين ومطيقين لركوبه.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥] في الآية تشبيه بديع، في أبدع صور التشبيه، يسمى (التشبيه البليغ) صوّر

المشركين كالجُنْدِ والخدم لهذه الأصنام، يذبُّون عنها، ويَفْدُونها بالروح والمال، وهي لا تستطيع نصرتهم، ولا أن تدفع الأذى عنهم، فصار المشركون العَبَدَة للأصنام، كالجند والخدم لها، وهذا غايةُ السُّخف والحماقة، حُذفت من الآية أداة التشبيه، ووجهُ الشَّبه، فأصبح بليغاً، والأصلُ: هم كالجند المعدَّة للدفاع عن الأصنام، وكالخدم لهذه الآلهة المزعومة، في الدفاع عنها، والاستماتة في سبيلها، حتى ولو قدَّموا أرواحهم من أجلها، وعادَوْا رسلَ اللّٰه وقاتلوهم، حفاظاً على كرامتها.

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يٓس: ٨٢].

في الآية تمثيلٌ بديع للقدرة الإلهية الفائقة، شبَّه سرعة تأثير قدرة اللّٰه تعالى، ونفاذها في جميع الأمور والمخلوقات، بأمرِ سلطانٍ مُطَاع، ذي عزَّة ومَنَعة، يأمر بالأمر، فينفَّذ من غير توقف ولا امتناع، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهذه من لطائف الاستعارة، فإذا أراد تعالى شيئاً قال له: (كنْ) فكان، وهذه قدرة الرحمٰن.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة الصافات

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ۝ من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] الأسلوب هنا: ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أسلوب (تهكُّم وسخرية) لأن الهداية إنما تكون لطريق الخير لا الشر، وإلى طريق النعيم، لا إلى طريق الجحيم، والمعنى: عرِّفوهم طريقَ جهنم، ووجِّهوهم إلى نار السعير، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى نار الجحيم!! ويا لها من سخرية باهرة، كأنها سياط لاذعة! والمراد بالأزواج في الآية ﴿ وأزواجهم ﴾ أي أمثالهم وأشباههم في الكفر والإجرام، كلُّ واحدٍ مع نظيره، السارقُ مع السارق، والزاني مع الزاني، وشاربُ الخمر مع شارب الخمر، وهكذا كلُّ مجرمٍ مع أشباهه ونظرائه.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ۝ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ [الصافات: ٢٧، ٢٨] اليمين هنا: (كنايةٌ) عن القوة والشدَّة، لأن الإنسان يضرب بيمينه، ويعمل بيمينه، فكنَّى عن القوّة والقهر باليمين، أي كنتم تأتوننا بأقوى الوجوه، بالقوّة والإجبار، فتزيِّنُونَ لنا الباطل، وتحسِّنون لنا القبيح، وتصدُّوننا عن الهدى، لأننا كنَّا أتباعاً، وكنتم سادة، وكنا ضعفاء، وكنتم قادةً، زيَّنتم لنا طريق الضلال، فاتبعناكم، ففي الآية (كناية لطيفة) عن القوّة والقهر.!

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ۝ كأنهن بيض مكنون ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩] كنَّى بقوله: ﴿ قاصرات الطرف ﴾ عن الحور العين، أي نساءٌ من الحور العين عفيفات، قصرن أعينهنَّ عن النظر لغير أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم عفّةً وحياءً، وهنَّ مع العفة، واسعاتُ العيون، جميلات الصورة والشكل ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ كأنهن اللؤلؤ المكنونُ في أصدافه، وهذا قول ابن عباس، واستشهد عليه بقوله سبحانه: ﴿ وحور عين ۝ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣] والغرض من هذا بيانُ أنهنَّ مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّرِّ في أصدافه، مع رقّةٍ، ولُطفٍ، ونُعومة.

وفي هذا التشبيه البديع ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾ ما يسبي العقول والألباب، لما فيه من التشبيه الفائق الرائع، ويسمى (التشبيه المرسل المجمل).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ [الصافات: ٦٢] النُّزل في اللغة: الضيافةُ والتكرمةُ التي تقدَّم للضيف، وأيُّ كرامةٍ وضيافة لمن يكون طعامُه الزقومُ، وهي شجرة خبيثةٌ مُرّةٌ، كريهةُ الرائحة؟ والآية وردت بأسلوب (السخرية والتهكُّم) وقد وصفها تعالى بـ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥] فهل في هذه خير؟ أو أدنى لذة ومتعة؟

ومعنى الآية الكريمة: هل ذلك النعيم الخالد لأهل الجنة، وما فيها من الأشجار والأنهار، والفواكه والثمار، كرامة وضيافة؟ أم شجرة الزقوم التي هي مُرٌّ علقم، وهي ضيافة أهل الجحيم؟

ولا يمكن لأيِّ عاقل أن يُفاضل ويقارن، بين ضيافة أهل الجنة، وضيافة أهل النار، وهو كما ذكرنا أسلوب (السخرية والتهكم)!

فإن قيل: كيف قال: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥] وهو تشبيهٌ بالمجهول، فإنَّ أحداً لا يعرف رؤوسَ الشياطين؟ فالجوابُ أن هذا (تشبيهٌ بالمخيَّل) كتشبيه الفائقِ في الحُسن بالمَلَك، وتشبيهِ القبيح الصورة بالشيطان، لأنه قد استقرَّ في النفوس، أن الشياطينَ قبيحةُ المنظر، وأن الملائكة حسنةُ الصورة والشكل، والعربُ إذا رأتْ منظراً قبيحاً، قالت: كأنه شيطانٌ، لما استقرَّ في الأذهان، من قُبحِ صورة الشياطين.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] في الآية استعارة لطيفة تسمى (استعارة تبعيّة) شبّه إقبالَه على ربّه بالصّدق والإخلاص، بمن قدم على الملِك بتحفة جميلة ثمينة، ففاز بالرضى والقبول، واستعار لفظ ﴿ جَاءَ رَبَّهُ ﴾ لقبول الله ورضاه عن عمله، لأن الله ليس في مكانٍ في الأرض، حتى يأتيه بنفسه، وإنما هو تعبيرٌ عن الصّدق والإخلاص.

ومعنى الآية: وإن من أنصار نوح وأعوانه، وممن هو على منهجه وطريقته، إبراهيم خليل الرحمٰن، حين جاء ربَّه بقلب طاهرٍ نقي، خالص من الشكّ والشرك، سالمٍ من الحقد والحسد، والمكر والخبث، لم تدنسه شهواتُ الحياة.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[الصافات: ١٣٩، ١٤٠] شبّه ذهابه وخروجه بغير إذن ربه، بإباقِ العبدِ من سيّده، بطريق (الاستعارة التصريحية) فاستعار لفظ (أَبَقَ) أي هرب مكان لفظ (ذهب) والمعنى: حين ذهب إلى السفينة المملوءة بالرجال والمتاع، وأصلُهُ الهربُ من السيّد، لكنْ لمّا كان هربُه من قومه، بغير إذن ربه، حَسُن إطلاقُ الهرب عليه.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧] في الآية (استعارةٌ تمثيلية) بديعة.

والمعنى: إذا نزل العذاب بفِناء المكذّبين، فبئس هذا الصباحُ صباحهم، مثَّل للعذاب بجيشٍ كثيف، مدجَّج بالسلاح، هَجَم عليه وقت الصباح، فأحاط بهم من كل جانب، ونَصَحهم بعض الناصحين فلم يلتفتوا له، ولم يأخذوا أهبتهم، حتى اجتاحهم الجيش وقَطَع دابرهم.

قال صاحب الكشاف: وما فُصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يُروقكَ موردها، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. اهـ تفسير الكشاف ٤/ ٥٢.

وقد استعملها رسول الله ﷺ مع يهود خيبر، حين دخل مدينتهم (خيبر) فقال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين، قالها ثلاثاً» رواه البخاري[1].



(١) فتح الباري ٢/ ٩٠.

الإبداعُ البيانيُّ في سورة صٓ

١ ـ قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] القرنُ: مائةُ عام وهو زمانٌ لا يُهلك، والمرادُ إهلاكُ أهلِه، ففيه مجازٌ بالحذف يُسمى (المجاز المرسل).

والمعنى: وكثيرٌ من الأمم الطاغية قبلهم، أهلكناهم بأنواع العذاب، فاستغاثوا واستجاروا طلباً للنجاة، وليس الحينُ حينَ فرارٍ ومهرب ونجاة من العذاب، وأصلُ (لات): لا بمعنى (ليس) زيدت عليها التاءُ للتأكيد، فصارت (لات).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢] الأوتادُ: جمعُ وَتد وهو ما يُغرز في الأرض، لشدِّ الخيمة وتثبيتها، وهي هنا (استعارةٌ لطيفة) عن المباني الضخمة، وثبات المُلْكِ ورسوخه، ومنه قول الشاعر:

«فِـي ظِـلِّ مُـلْـكٍ ثـابِـتِ الأَوْتَـادِ»

والمعنى: كذّب قبل كفار قريش أممٌ كثيرون، منهم قوم فرعونَ الجبار، ذو المُلْك الثابت، والمباني العظيمة الضخمة، ومنها (الأهرامات) شبّه المُلْكَ بخيمةٍ عظيمة، شُدّت دعائمها بالأوتاد، لتثبيتها في الأرض، لئلا تقتلعها الرياح، على طريقة (الاستعارة المكنية) وذِكْرُ (الأوتاد) تخييلٌ.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] في قوله: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ كناية لطيفة، فقد كنّى عن (القوة) بالأيد، التي أصلُها الأيدي، أي ذا القُوّة في الدين، والقوّة في البدن، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويحيى نصفَ الليل بالعبادة، مع ما منحه اللهُ من النبوّة والمُلْك، فكان (مَلِكاً نبياً) آتاه الله قلباً ذاكراً، ولساناً شاكراً، وصوتاً رخيماً يتلو به الزبور، ولهذا قال ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله تعالى.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] فيها (كنايةٌ بديعة) فقد كنّى عن العَقْر والذبح بالمسح، ولا يُراد بالمسح على الأعناق: مسحُها بيده تكرمةً لها كما قال البعضُ، وإنما هو ذبحُها ليوزِّعها على المساكين، كما قاله الحسن البصري، ولهذا عوّضه الله عن الخيل بما هو خيرٌ وأفضل، الريحُ التي كانت تحمله من بلدٍ إلى بلد، أسرعَ من الخيل العاديات.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] أسند الضرر إلى الشيطان، مراعاة للأدب، وإن كانت الأشياء كلها، خيرها وشرُّها من الله تعالى، ولكن لا يُنسب الشرُّ إلى الله أدباً.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] في الآية (استعارة تصريحية) من بديع أنواع الاستعارة، استعار (الأيدي) للقوة في الطاعة والعبادة، و(الأبصارَ) للقوة في الدين.

والمعنى: اذكر عبادنا الأخيار (إبراهيم) و(إسحاق) و(يعقوب) إنهم كانوا من أولي القوة في العبادة، والفقه في الدِّين، جمعوا بين الطاعة والعبادة، والبصيرة الثاقبة في أمور الدين، فهذه من لطيف الاستعارة. قال قتادة: أعطوا قوةً في العبادة، ونصراً في الدِّين. تفسير الشوكاني ٤/ ٤٢٢.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢] كنّى عن (الحور العين) بقاصرات الطرف، ومعناها أنهن قَصَرْن نظرهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، عفةً واحتشاماً، ومعنى (أتراب) أي في سنٍّ واحدٍ، بينَ الصبا والشباب، ليس فيهن عجائز، بنات ثلاث وثلاثين كما هو سنُّ أزواجهن، وفي الحديث الشريف: «يدخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ جُرْداً، مُرْداً، مكحَّلين، أبناء ثلاث وثلاثين سنة، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، لكل امرئٍ منهم زوجتان، على كل زوجةٍ سبعون حُلّة، يُرى مخُّ ساقها من ورائها» رواه الترمذي، ومعنى (مُرْداً) أي ليس لهم لحى في وجوههم، على صورة الشباب المُرْد، لأن الجنّةَ دارُ التشريف، والدنيا دارُ التكليف.

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة الزمر

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] من المعلوم المقطوع به، أنَّ الأنعامَ تُخلَقُ ولا تنزلُ من السماء، وإنما عبرَّ عن (الخلق) بالإنزال، بلطيف الاستعارة، لأن وجودَ هذه الحيوانات، إنما هو بسبب نزول المطر، الذي يُخرِجُ الزرع والكلأ، والحيواناتُ تأكل هذا العشب، فتكبر وتسمن، ولولا العُشبُ والمرعى لَمَا عاشت هذه الأنعام، ففي الآية (استعارةٌ بديعة) حيث استعار لفظ الإنزالِ للخَلْقِ، لأن هطول الأمطار من السماء، سببٌ لوجودها وبقائها.

قال الشوكاني: لمَّا كانت الأنعامُ لا تعيشُ إلَّا بالنباتِ، والنباتُ إنما يعيش بالماءِ النازلِ من السماء، كانت الأنعامُ كأنها مُنزَّلة، كما يُطلق لفظُ (السماء) على المطر مجازاً في قول الشاعر:

إِذَا نَــزَلَ الـــسَّـــمَـــاءُ بِـــأَرضِ قَـــوْمٍ رَعَـيْـنَـاهُ وَإِنْ كَـانُـوا غِـضَـابـاً[1]

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] تسميتُها بالظُّلل (للتهكم والسخرية) فإن الظلة ما يستظل بها الإنسان من الحر، فإذا كانت من نار جهنم، كانت أحرَّ وأقطع، فالنارُ تُظَلِّلُهم بحرِّها وسعيرها، من جميع الجوانب، وهي محيطة بهم من جميع الجهات، إحاطةَ السِّوار بالمِعْصَم، ويا لها من ظُلَّة تحرق الأجساد والأكباد، بحرِّها وسعيرها!! والظُّللُ: عبارة عن إطباق النار عليهم من كل جانب، سُمِّيت بالظُّلَلِ لمزيد السخرية والتهكُّم.

قال علماء البيان: معنى الآية: تغشاهم نارُ جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، فكأنها تظلِّلهم بسعيرها، وتسميتُها (ظُلَلاً) تهكُّمٌ وسخريةٌ، لأن الظُّلَّة تقي من الحرِّ، وهذه تحرق الأجساد والأكباد، فكيف تكون لهم ظُلَّة!؟

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٣٤.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] في الآية (مجاز مرسل) أطلق المسبّب وأراد السبب، لأن الضلال سببٌ لدخول النار، والمعنى: هل تستطيع أن تنقذ من هو في الضلال والكفر؟

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ . . .﴾ [الزمر: ٢٢] في الآية الكريمة (مجاز بالحذف) حُذف جوابه تقديره: كمن هو أعمى القلب، مطموسُ نورِ البصيرة، ودلّ على هذا المحذوف ما بعده وهو قولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

والمعنى: هل من أنار اللّهُ بصيرته، وشرح صدره بالإسلام، فاستضاء بنوره واهتدى، كمن هو أعمى القلب، يتخبّط في ظلمات الكفر والضلال؟

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .﴾ [الزمر: ٢٤] عبّر تعالى هذا التعبير المفزع ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ لبيان شدة عذاب الكافر وهَوْلِه، لأن الكافرَ في نار جهنم، تكون يداه مغلولتان إلى عنقه، فلا يجد ما يدفع به العذابَ، إلا بملامسة وجهه لنار الجحيم، وهذا أبشعُ أنواع العذاب، وجوابُه محذوف أيضاً كما في الآية السابقة، والتقديرُ: هل من يُكبُّ على وجهه في نار جهنم، فلا يستطيع أن يتّقيَ العذاب إلّا بوجهه، هل هو كالمؤمن المنعّم في الجنة؟ لا يستويان أبداً، وهذا أيضاً من باب (الإيجاز بالحذف) وهو من البلاغة بمكان. !

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] مَثَلٌ من أروع وأبدع الأمثلة، ضربه اللّه عزّ وجلّ للمؤمن الصادق، يعبد إلهاً واحداً، وللمشرك الوثنيّ يعبد آلهةً شتى، وهذا المَثَلُ في غاية الوضوح والبيان وهو (تشبيه تمثيلي)، وتوضيحُ المثل: عبد مملوكٌ، يملكه رجال ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ مختلفون متنازعون، شرسو الخُلُق والطباع، هذا يأمره بأمر، وذاك يأمره بضدّه، وهو متحيّرٌ موزّع القلب، لا يعرف لمن يرضي (هذا مثلُ المشرك عابدِ الأوثان، يعبد آلهةً شتّى) ورجلٌ آخرُ لا يملكه إلّا شخصٌ واحد، حسنُ الأخلاق، فهو عبدٌ مملوكٌ لسيّدٍ واحد، يخدمه بإخلاصٍ، ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيِّده إلّا كلَّ خيرٍ وإحسان (هذا مَثَلٌ للمؤمن، يعبد إلهاً واحداً) هل يستوي هذا مع هذا؟ هل يستويان في حُسن الحال، وراحة البال؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن

الموحِّد، مع الوثنيّ المشرك!! وهو مَثَلٌ ضُرب في غاية الحُسْن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد، وفي غاية الوضوح والبيان.

قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ ضربه الله للمشرك الوثني، يعبد آلهة متعددة، وللمؤمن المخلص، يعبد إلهاً واحداً، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الحمد لله على وضوح الحجة، ونَصَاعة الإيمان، بل أكثرُ المشركين ـ لفرط جهلهم ـ لا يعلمون الحقّ، يشركون بالرحمن، ويعبدون الأوثان!

٧ ـ قوله سبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] التعبير بقوله سبحانه: ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي في جانبه، وحقّه، وطاعته، فهي (كنايةٌ) لطيفة بديعة، عن التمسك بطاعة الله، وعبادته، وعدم انتهاك محارمه.

قال ابن عطية: قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾ أصلُها يا حسرتي، رُدَّتْ ياءُ الإضافة ألِفاً، ونداءُ الحسرةِ معناه: النداءُ بالويل على نفسه، أي هذا وقتُك وزمانُكِ فاحضُري، ومعنى ﴿فَرَّطتُ﴾ أي قصَّرتُ ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي في جهة طاعته، وتضييع شريعته، والجَنْبُ: يُعبَّر به عن الجانب، والقُرب، والجهة، تقول: فعلتُ كذا لجانبك أي لأجلك، وهو من (باب الكناية) قال كثيِّر عَزَّة:

أمَا تتَّقينَ اللهَ في جَنْبِ عَاشِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ؟

اهـ المحرِّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٢/ ٥٥٥ وانظر تفسير الشوكاني ٤/ ٤٥٤.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣] المقاليدُ: المفاتيحُ جمع مِقْلاد وهو المفتاح، وفي الآية (استعارة بديعة) شبَّه الخيرات، والبركات، والأرزاق، بخزائن لها مفاتيح، واستعارَ لفظ (المقاليد) لها بمعنى المفاتيح، على طريقة (الاستعارة المكنية) أي بيده جلَّ وعلا مفاتيحُ خزائن جميع الأشياء، لا يملك أمرَها غيرُه سبحانه.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ...﴾ [الزمر: ٦٧] في هذه الآية (استعارة تمثيلية) وهي في غاية الإبداع والجمال، مثَّل تعالى لعظمته وقدرته، وكمال كبريائه،

بمن قَبَض شيئاً عظيماً بكفِّه، وطوى السموات السبع بيده اليمنى، على طريقة (الاستعارة التمثيلية).

ومعنى الآية: ما عرفوا اللَّهَ حقَّ معرفته، ولا عظموه حقَّ ما يستحقُّ من التعظيم، حيث عبدوا معه ما لا يضرُّ ولا ينفع، وهو سبحانه الموصوف بالقدرة الباهرة، فالأرضُ في قبضته يوم القيامة، والسموات على عظمتها وسعتها بيمينه، وهو المالك للمُلْك، لا مالك سواه، وفي الحديث الشريف: «يقبض اللَّهُ الأرضَ، ويطوي السمواتِ بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض؟» رواه البخاري.

قال الزمخشري: والآية الكريمة لتصوير عظمته جلَّ وعلا، والتوقيف على كُنْه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة من الجهات، لأن الغرضَ الدلالة على القدرة الباهرة، ولا ترى باباً في (علم البيان) أدقَّ، ولا أرقَّ، ولا ألطفَ من هذا الباب. اهـ.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ...﴾ [الزمر: ٧١] زمراً يعني جماعات جماعات، أهلُ النار يساقون إلى جهنم بالعُنْف والإهانة، وأهلُ الجنَّةِ يُساقون على النجائب مَساق إعزاز وتشريف، للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وشتَّان شتَّان بين المساقَيْن، ونلحظ سراً دقيقاً في التعبير القرآني البديع، وهو أن جهنم تُفتح لأصحابها فجأةً، بعد أن كانت مغلقة ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وأمَّا أهلُ الجنة فتكون أبوابها مفتَّحة كما قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] ولهذا ذكرت هنا بالواو ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ فتدبر أسرار القرآن.



الإبداع البياني في سورة غافر

١ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] في قوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ مجاز لغويٌ أطلق (الرزق) وأراد به (المطرَ) لأن الماء سببٌ في جميع الأرزاق، فهو من باب (إطلاق المسبَّب، وإرادة السَّبب)، أي ينزّل لكم المطر، ليخرج لكم به الزرعَ والثمر، فهو (مجاز مرسل) علاقته السببيّة، ومن الحماقة والغباء، أن نحمل الآية على ظاهرها، فنقول: إن اللّه ينزلُ من السماء البطاطس، والباذنجان، والبصل، والكوسا، وأنواع الفواكه والثمار، فهذا لا يقول به عاقل، إنما ينزل اللّه المطَرَ، الذي يخرج لنا به الثّمر، فعبّر عن المطر (بالرّزق) لأنه سببٌ لرزق العباد.!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ رفعةُ الدرجات كناية عن عظمة الشأن والسلطان، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ الروح هنا كنايةٌ عن الوحي الإلهي، لأنه كالروح للجسد، وإنما سُمّيَ الوحي (روحاً) لأنه يسري في القلوب، سريان الروح في الجسد.

قال ابن عطية: والدرجاتُ: صفاتُه العُلا، وعبّر تعالى بما يُقرّب لأفهام السامعين، اهـ المحرر الوجيز ١٣/ ١٧، وقال الشوكاني: معنى رفيع الدرجات: أي رفيع الصفات، أو رفيع درجات الملائكة، أو رفيع درجات الأنبياء في الجنة. اهـ فتح القدير ٤/ ٤٦٧.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ . . .﴾[غافر: ١٨] الآزفةُ: كنايةٌ لطيفةٌ عن القيامة، سميت (آزفة) لقرب مجيئها بما فيها من أهوال، من أزِفَ الشيءُ إذا اقترب، والتمثيلُ بقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ تمثيلٌ لهول الموقف، وشدة الكرب، حتى كأنَّ القلوبَ تبلغ الحناجر، من شدة الخوف والجزع، فتلتصق بحلوقهم، ولا تخرج فيستريحوا بالموت، وهو تمثيلٌ لهول الموقف العصيب، في غاية الحُسْن والإبداع!!

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] (خائنةُ الأعين) كنايةٌ عن النظرة الخائنة التي يسترقها الرجلُ، فينظر إلى المرأة بشهوة، دون أن يشعر به الناسُ.

قال ابن عباس: هو الرجلُ يكون جالساً مع الناس، فتمرُّ المرأةُ، فيسارقهم النظر إليها.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر: ٢٠] ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي يحكم بالعدل بين العباد، عن علم وخبرة، وقولُه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي والأوثان والأصنَام التي يعبدونها من دون الله، لا يحكمون بشيء أصلاً، لأنها جمادات لا تدرك ولا تعقل، فلا شأن لها في الحكم والقضاء، وهذا الأسلوبُ واردٌ على سبيل (التهكم والسخرية) لأن الجماد لا يُقال له: يقضي، أو لا يقضي، لعدم العقل والإحساس، فالغرضُ (السخريةُ) بالأصنام وعابديها.

٦ ـ قولُه سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨] في الآية ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ استعارةٌ لطيفة عن المؤمن والكافر، والمهتدي والضال، استعار الأعمى للكافر، والبصيرَ للمؤمن، لأن الكفر عمى، والإيمان نور وبصيرة، وقد تقدَّم أمثالها في سورة فاطر.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] من المعلوم أن النهار ليس له عينان يبصر بهما، لأنه ليس بذي روح يبصر الأشياء، وإنما لإشراقه وضيائه يبصر الناسُ فيه الأشياء، ففي الآية (مجاز عقلي) وهو من إسناد الشيء إلى زمانه، لأن النهار زمانٌ للإبصار، أي جعل النهار مضيئاً لتبصروا فيه مصالحكم، من باب إطلاق اسم الفاعل، وإرادة اسم المفعول، أي تُبْصَرُ فيه الأشياءُ، وتُرى فيه جميعُ الأمور.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ . . .﴾ [غافر: ٦٤] هذا على (التشبيه والتمثيل)، أي جعل لكم الأرض كالفراش، ممهَّدة صالحة لسكناكم، تبنون عليها الدور والقصور، وجعل لكم السماء كالسقف المرفوع فوقكم، فضلاً منه وكرماً، فالأرضُ كالأساس للبيت، والسماءُ كالسقف للبيت، الأرضُ تُقِلُّكم، والسماءُ تُظِلّكم، وخلقكم في

أجمل صورة، وأبدع شكل، منتصبي القامة، متناسبي الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسي الرءوس، تمشون على أربع، وليس معنى ﴿قَرَارًا﴾ أنها جامدة ثابتة لا حركة فيها، وإنما المعنى: أن الله جعلها مكان استقرار للبشر.

قال الشوكاني: أي جعلها موضع قرار، فيها تحيون وفيها تموتون. اهـ فتح القدير ٤/ ٤٨٠.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ كناية عن العذاب الذي سيحل بهم، وهو عذاب الهلاك والاستئصال، وكثيراً ما يرد هذا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤] يعبِّر به عن الهلاك والدمار.

قال الشوكاني: ﴿جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي جاء الوقتُ المعيَّنُ لعذابهم، وخسر في ذلك الوقت المبطلون، الذين يتَّبعون الباطلَ ويعملون به. اهـ فتح القدير ٤/ ٤٨٣.



الإبداع البياني في سورة فصلت

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] الآية وردت (مورد التمثيل) لطغيانهم وفجورهم، فقد كانت حواسُّهم سليمة، لم يكن في آذانهم صمم، ولا على قلوبهم حُجُبٌ وأغطية، ولكنهم لطغيانهم وجحودهم، أصبحوا لا يفهمون كلام اللّٰه، ولا يتدبرونه، فكأنَّ قلوبهم وأسماعَهم قد طُمس عليها، فهي لا تسمع ولا تفقه، وكأنَّ بينهم وبين الرسول حُجُباً وحواجز، وهذه واردةٌ بطريق (الاستعارة التصريحية) لاستثقال آذانهم ما يسمعونه، من جوامع البيان، وقوارع القرآن، وفيها التمثيلُ لإعراضهم عن اتباع الحقِّ، بمن غطَّتْ الحجُبُ والحواجزُ، على قلبهِ وسمعه!.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] لنقفْ وقفةً قصيرة عند هذا التعبير المعجز، فإن فيه سراً عجيباً، يفوق الخيالَ في روعة الجمال، يشير إلى انقياد هذا الكون، لأمر خالقه ومبدعه، كانقياد العبد لسيِّده، والجنديِّ لقائده، وقد عبَّر عن هذه الطاعة والاستسلام، بتمثيل رائع بديع، يجعل من الجماد كأنه إنسان عاقلٌ، يُؤمر فيلبِّي، ويُكلَّف بتكليف، فيسمع ويطيع، على حدِّ قول العرب في أساليبهم البيانية: (قال الحائطُ للمسمار: لمَ تشقُّني؟ قال: سَلْ من يدقُّني)! والغرضُ من الآية هنا: تصويرُ نفوذ قدرته سبحانه في المخلوقات، بصورة العبد المطيع، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيده، فكلُّ ما في الكون من شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وبحار، وأنهار، مستسلمٌ لأمر اللّٰه، منقادٌ لحكمه وتدبيره، انقياد العبد لسيده، ففي الآية (استعارة تمثيلية) من لطائف أنواع الاستعارة.

قال الشوكاني: الكلامُ من باب التمثيل، لتأثير قدرته، واستحالة امتناعها، وجَمْعهما جَمْعَ مَنْ يعقلُ، لخطابهما بما يُخاطَبُ به العقلاءُ. فتح القدير ٤/٤٨٨.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] في الآية وعيد وتهديد شديد، يهزُّ القلب هزّاً، ويُلْقي في النفس

الهَلَع والفزع، فقد شبّه الإنذار، (بصاعقة مدمّرة)، تأتي عليهم فتفنيهم، كما عاقب (عاداً) بالريح الصرصر العاتية، و(ثمود) بالزلزلة العظيمة الفظيعة.

والغرضُ: بيانُ أن هذا العذابَ، عذابٌ هائلٌ شديدُ الوقع، ولهذا لمّا سمع (عُتبةُ بنُ ربيعةَ) هذه السورة من رسول اللّه ﷺ ووصل إلى هذه الآية، وضعَ عُتبةُ يدهُ على فم النبي ﷺ وقال له: أنشدكَ اللّهَ والرّحِمَ، وكاد أن يسلم، ورجع إلى قومه متأثراً بما سمع من القرآن[1].

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] في الآية (استعارة تمثيلية) من أبدع أنواع الاستعارة، مثّل القرآن الكريمُ للأرض اليابسة الجرداء، بصورةٍ بديعة فائقة، تفوق كلَّ معاني الحُسْن والإبداع: صورة رجلٍ بائسٍ مسكين، جلس على قارعة الطريق، يستجدي إحسانَ المحسنين!! وإنَّ اللسان ليعجز عن تصوير البلاغة الفائقة، في جمال الأسلوب المبدع.

تأمَّلْ معي الروعة البيانية، وتصوّر التناسق الفنيّ في التعبير والأداء!! تأمل لفظ (الخشوع) و(الاهتزاز) والنموّ والانتفاخ للأرض اليابسة الجرداء، كيف تصبح بعد نزول الماء، وكأنها عروس فاتنة، تزينت بأبهى حلل الزينة، وهي تَميسُ طَرَباً، وتختال عُجْباً، فتُخرجُ لنا من أنواع النبات، والزهور، والثمار ما يُدهش الأبصار ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها ماء المطر، دبّتْ فيها الحياةُ، فازدهرت وأنبتتْ من كل نوع من أنواع الثمار والنبات، ثم جاء التمثيل لبعث الأموات من القبور، بإخراج النبات من الأرض ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي كما أخرج النّبات من الأرض الجدباء، كذلك يخرج الموتى من القبور، وحقاً إنه منتهى الجمال والإبداع، في تصوير بعث الخلائق والبشر، بإخراج الثمار والنبات بالمطر.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠] الأمر هنا خرج عن صيغته الأصلية، إلى (الوعيد والتهديد)، كما تقول لإنسان: افعلْ ما تشاء، لا تريد بذلك تخييرَهُ بفعل كل ما يشتهي، إنما هو الوعيدُ الملفّحُ

---

(١) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ٤/٩٨.

بسياج التهديد، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مطّلعٌ على أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

٦ ـ قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] خبرُ (إنَّ) محذوفٌ لتهويل الأمر، والمعنى: إن الذين كفروا بالقرآن العظيم أول ما سمعوه، من غير تبصُّر ولا تفكُّر، وسارعوا في تكذيبه قبل معرفة أسراره وإعجازه، إنهم لن يُفلتوا من عذابنا، وكأنه يقول: إنَّ فعلتَهم الشنيعة لا تكاد تُوصف، وعذابهم متروك إلى من بيده السلطان والأمرُ، حُذف الخبر لتهويل الأمر، وتفظيع الفعل وتشنيعه، فالحذفُ هنا أبلغ، لأن النفس تذهب فيه كلَّ مذهب.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] قولُه سبحانه: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ في الآية حذفٌ تقديره: أقرآنٌ أعجميٌّ، ونبيٌّ عربي؟ كيف يكون هذا؟ ومرادهم التنكُّر للكتاب العزيز، حتى ولو نزل بلغتهم العربية التي يتحدثون بها.

والمقصود أن القرآن لو نزل بغير اللغة العربية كالأعجمية، لجعلوا ذلك متمسّكاً يتمسكون به، وقالوا: هلّا نزل بلغتنا العربية لنفهمه؟ فنحن عرب لا نفهم كلام الأعاجم، فكيف ينكرونه وقد نزل بلغتهم العربية، بأفصح لسانٍ، وأوضح بيان!؟

وقولُه سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] واردٌ مورد (التمثيل والتصوير)، لكفرهم وعنادهم، صوّرهم سبحانه بمنزلة من في أذنيه صممٌ، وعلى عينيه غشاوة، فهم كالصُّمِّ والعمي، لا يسمعون ولا يفقهون، على طريقة (الاستعارة التصريحية) ويؤيد هذا ختام الآية، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] أي هم كمن يُنادى من مكان بعيد، فإنه لا يسمعُ ولا يفقه ما يُقال له.

قال ابن عباس: يريد أنهم مثلُ البهيمة، التي تسمع الصوت، ولكن لا تفهم المعنى.

٨ ـ قولُه سبحانه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠] الغِلَظُ يكون للأشياء الحسِّية كالحبل، والعمود، والجبل، وأمثال ذلك، واستعمالُه في العذاب إنما جاء بطريق (الاستعارة المكنية) شبَّه العذاب

بحبلٍ غليظ، رُبط به المجرم، وحذف المشبَّه به وهو الحبل، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الغلظ بطريق الاستعارة المكنية.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١] الآية وردت (مورد التمثيل) لإعراض الكافر عن دين الله، وجحوده لنعمائه، مثّل له بمن جاءه فقير يستجديه، فأدار ظهره له، وتكبّر عليه وترفّع، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وفي قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ مثلٌ للكثرة واستمرار الدعاء ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ ليدلَّ على إلحاحه وكثرة دعائه، عند نزول المصيبة به، بطريق الاستعارة أيضاً، وهي من ألطف أنواع الاستعارة.

١٠ ـ **قوله سبحانه:** ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] المراد بالآيات هنا: الآيات الكونية، الدالة على جلال الله، وعظمته، وباهر قدرته، في أنحاء الكون المنظور، أي سنطلعهم على عجائب وغرائب مخلوقاتنا في هذا الكون، في أنحاء السموات وأقطارها، وفي أنفسهم وتركيبهم العجيب، ليعلموا حقَّ العلم، أن القرآن كلامُ ربِّ العزة والجلال، وأن محمداً بحقٍّ رسولُ الله، الموحَى إليه من السماء.

وقد رأينا بعض شواهد هذا الوعد الإلهي، في عصرنا الذي نعيش فيه، فعصرنا الحاضر عصر المكتشفات والمخترعات، وعصر الأقمار الصناعية، والمراكب الفضائية.

من كان يخطر بباله، أن البشر سيصلون إلى القمر؟ ويدورون حول الكرة الأرضية؟ ومن كان يُصدِّق أنَّ الإنسان وهو في المشرق، يرى أهلَ المغرب، ويسمع كلامهم؟ وهل كان يدور بخُلْدِ أحدٍ أن يتناول شخص طعام الغداء في الفضاء، وهو ما بين الأرض والسماء؟ وأن ينتقل من قارّة إلى قارة، ومن بلدٍ إلى بلدٍ آخر، في سويعات بواسطة (الطائرة النفّاثة)؟ وهل كان أحد يعرف عن النجوم، تلك المسافات البعيدة التي تُقاس بالسنوات الضوئية؟

لقد أطلعنا اللهُ عزَّ وجلَّ على بعض عجائب هذا الكون الفسيح، وعرف البشر أن أرضهم التي كانوا يظنون أنها (مركز الكون) ما هي إلّا ذرّةٌ صغيرة تابعة للشمس، تدور بقدرة الله في هذا الفضاء الواسع، وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة، وصغيرة جداً بالنسبة لبعض النجوم، وعرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرّة!!

وأن الذرة تتحوّل إلى إشعاع، وكان من وراء ذلك، تفجير (القنبلة الذرية) وقد كان الأجدرَ بالبشر، أن يرجعوا إلى اللّه، ويؤمنوا به، ويستخدموا هذه المكتشفات الحديثة فيما ينفع الناس، لا في دمار البشرية وإفناء العالَم.

لقد أطلعنا اللّه سبحانه على بعض عجائب هذا الكون، وكلّما تقدّم الزمنُ وتطوّر العلم، ستظهر لنا خوارق وعجائب، مما أخبرنا عنه القرآن الكريم، ويتحقق الوعد الإلهي بظهور معجزة القرآن ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾!!

وقد ختم اللّهُ الآية بهذا الوعيد الشديد ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي ألا يكفيهم برهاناً على صدقك، أن اللّه تعالى شاهدٌ على كل شيء! لا تخفى عليه خافية؟ والجملة مسوقةٌ لتوبيخهم وتقريعهم، على تكذيبهم لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.



الإبداع البياني في سورة الشورى

١ ـ قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا . . .﴾ [الشورى: ٧].

في قوله سبحانه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مجاز بالحذف أي لتنذر أهلَ مكة، لأن الإنذار لا يكون للبلدة (مكة) شرّفها الله، إنما يكون لأهلها، سميت (أم القرى) أي أصل البلاد، إجلالاً لها، لأن فيها البيت، وزمزم، ومقام إبراهيم، والعربُ تسمي أصلَ كلّ شيء أمه، حتى يُقال: هذه القصيدة من أمهات القصائد.

٢ ـ قوله سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الشورى: ٩] الاستفهام إنكاري للتعجيب والتوبيخ.

والمعنى: هل اتَّخذَ المشركون آلهةً من الحجارة والأوثان، يعبدونها من دون الرحمن؟ يطلبون منها الرزق والشفاعة، فاللّهُ وحده هو الوليُّ والناصرُ، وهو القادر على إحياء الموتى، لا هذه الأوثان، فإنها لا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضُرًّا.

٣ ـ قولُه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] المِثْلُ هنا يُراد به: الذاتُ، أي ليس له تعالى شبيهٌ، ولا مثيلٌ، ولا نظيرٌ، لا في ذاته، ولا في صفاتِه، ولا في أفعاله، فهو الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصَّمدُ، والكافُ هنا (كمثله) زائدة، لتأكيد النفي من جميع الوجوه، أي ليس مثلَه، وليس كذاتِه شيء جلّ وعلا، كما تقول: مثلُكَ لا يفعل هذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه.

قال ابنُ قُتيبة: العربُ تقيم المثْلَ مقام النفس، فتقول: مثلي لا يُقال له هذا!! أي أنا لا يُقال لي هذا، ومعنى الآية: ليس كاللّهِ جلّ وعلا شيء[1].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٥٤.

وقال الشوكاني: المرادُ بذكر المِثْلِ هنا: المبالغةُ في النفي، بطريق (الكناية) فإنه إذا نَفَى الشيءَ عمَّن يُناسبُه، كان نفيُه عنها أَوْلى، كقولهم: مِثْلُك لا يَبْخلُ، وغيرُك لا يجودُ، والكافُ زائدةٌ للتوكيد، أي ليس مثلَه شيء، قال الشاعر:

عَلى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ المَرْءُ نَفْسَهُ وَإِنْ بَاتَ مِنْ لَيْلَى عَلَى اليَأْسِ طَاوِياً

تفسير فتح القدير للشوكاني ٤/ ٥٠٧.

٤ ـ قولُه سبحانه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢] المقاليدُ: المفاتيحُ، أي بيده جلَّ وعلا مفاتيح أرزاق العباد، لايملكها غيرُه، يوسِّع الرزق على من يشاء، ويُضيِّق على من يشاء، حسب المصلحة والحكمة الإلهية، ففي الآية (استعارة بديعة) بتشبيه الأرزاق بخزائن مفاتيحُها بيد الرحمن جلَّ وعلا، بطريق (الاستعارة التمثيلية). والبسطُ: كنايةٌ عن التوسعةِ، والقَدْرُ: كنايةٌ عن التضيق.

٥ ـ قولُه سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ...﴾ [الشورى: ٢٠] شبَّه تعالى العمل الصالح، الذي يعمله المؤمن لآخرته، بالزارع الذي يزرع الزرع، ليجني منه الحبَّ والثمر، فمن زَرَع لدنياه فقط فهو الخاسر، ومن زرع لآخرته فهو الفائز الناجح، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيليَّة) وهي من لطائف أنواع الاستعارة.

٦ ـ قولُه سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢] (الجوار): جمع جارية وهي السفينة، و(الأعلامُ): جمعُ عَلَم، وهو الجبلُ العظيم، والتشبيه هنا (كالأعلام) تشبيهٌ (مرسلٌ مجمل) أي كالجبال في الضخامة والعِظَم.

ومعنى الآية: هذه السفنُ الجارية في البحر، كأنها الجبال الشاهقة، تجري فوق سطح الماء، دون أن تغوص في أعماق البحر، والماءُ جسمٌ لطيفٌ تغوص فيه الحصاة الصغيرة، فكيف حمل الماء هذه الأجسام الثقيلة، وهذه السفن الضخمة التي هي كالأبراج؟ فيها البشر، والسيارات، وآلاف الأطنان من الحديد، ولم تغص في البحر؟ إنها قدرةُ اللهِ العجيبة، لو فكَّر فيها البشرُ، لاعتبروا وآمنوا بالله العزيز الحميد.

٧ ـ قولُه سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

[الشورى: ٤٠] سُمِّيت الثانية (سيئة) لمشابهتها للأولى في الصورة، وهذا من باب (المشاكلة) وهو الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فإن معاقبة المعتدي لا تسمى سيئة إلا من هذا الوجه.

٨ ـ قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢] سمّى الله سبحانه القرآن (روحاً) لأنه للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، يُحييها من ظلمات الجهل والضلالة، ففي الآية (استعارة لطيفة) استعار لفظ الروح للقرآن العظيم، بطريق (الاستعارة التصريحية).

قال ابن عطية: الرُّوحُ في هذه الآية: القرآنُ وأنوارُ الشريعة، سمّاه اللهُ روحاً من حيث يُحيي به البشرَ، كما يحيا الجسدُ بالروح، وهذا على جهة التشبيه والتمثيل. اهـ المحرر الوجيز ١٣/ ١٩٤.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة الزُّخرف

١ ـ **قوله سبحانه:** ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥] في الآية (كناية لطيفة) كنّى (بضرب الذكر) عن الإعراض عنهم، وتركِ النصح والتذكير لهم، لأن معنى صفحاً: إعراضاً، يقال: ضربتُ عنه صفحاً: إذا أعرضتُ عنه وتركتُه.

والمعنى: هل نتركُ تذكيركم إعراضاً عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن، لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، لن نترككم بغير نصح وتذكير، رحمةً منّا بكم، وما ألطفها من كناية!؟ والاستفهامُ للإنكار والتوبيخ، والصَّفْحُ مصدر صفحتُ عنه: إذا أعرضتُ عنه. فتح القدير ٤/ ٥٢٦.

والغرضُ من الآية: أن الله عزَّ وجلَّ لا يترك هؤلاء الكفّار، على كفرهم وفجورهم وضلالهم، دون أن يبعث إليهم من ينصحهم ويذكّرهم، وإن كانوا معرضين عن الإيمان، مسرفين في الكفر والعصيان، لأن لطف الله ورحمته بالعباد، تقتضي التذكير والتبصير، ولو رُفع القرآنُ حين كذّبوا الرسول لهلك البشر.

٢ ـ **قوله سبحانه:** ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١] شبَّه الأرض الجرداء، التي لا نبات فيها، بالإنسان الميْت الذي لا روح فيه، ثم أحياها الله بالمطر، واستعار لفظ ﴿ مَّيْتًا ﴾ للدلالة على خلوِّها من النبات والخضرة، بطريق الاستعارة البديعة، وتسمى (الاستعارة التبعيّة).

٣ ـ **قوله سبحانه:** ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥] عبَّر عن الولد بالجزء بطريق (الاستعارة التبعيّة) لأن الولد بعضُ أبيه، وجزءٌ منه، فأطلق الجزء على ما نَسَبَ إليه المشركون وأهلُ الكتاب، من الذرية والنسل.

والمعنى: جعل السفهاء المشركون للّهِ جزءاً من عباده، وهو زعمهُم أن

الملائكةَ بناتُ اللّٰهِ، وقولُ اليهود: عُزَيرٌ ابن اللّٰه، وقولُ النصارى: المسيحُ ابنُ اللّٰه، وهو سبحانه المنزَّه عن الشبيه والنظير، فكيف يكون له ولد؟ و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؟ [الشورى: ١١] وهو افتراء شنيع على ربِّ العزّة والجلال!

٤ ـ **قولُه سبحانه:** ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦] في هذا الاستفهام (إنكارٌ وسخرية) وتهكُّم مع التعجيب، **والمعنى**: هل اتخذ الرحمنُ لنفسه البنات، واختار لكم البنين؟ كأنه يقول: ما أقبح ما تنسبون إلى ربكم!! أَمَا تخجلون أن تجعلوا للّٰه ما تكرهون؟ أليس لكم عقول تحجزكم أن تجعلوا للّٰهِ الإناث، وأنتم تكرهونهن؟ وتجعلون لأنفسكم البنين الذين تحبونهم؟ فالآية وردت للتشنيع عليهم، والتعجيب من جهلهم بعظمة اللّٰه وجلاله، والتنبيه على سخافة عقولهم، حيث وصفوا ربهم بما لا يليق به!

د ـ **قولُه سبحانه:** ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨] المراد بالكلمة هنا: كلمة التوحيد، وهي (لا إله إلا اللّٰه) أي لا معبود بحقٍّ إلّا اللّٰهُ عزَّ وجلَّ، وتبرُّؤه من عبادة الأوثان. ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق الجزء وهي الكلمة، وأراد الكل وهي كلمة التوحيد الخالص، والبراءة من الشرك، وعبادة الأصنام.

٦ ـ **قولُه سبحانه:** ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] في الآية الكريمة (مجازٌ بالحذف) ويسمى (حذف الإيجاز) فقد حُذف (على الكفر) لدلالة السياق على المحذوف.

والمعنى: لولا خشية أن يفتتن الناسُ، ويصبحوا أمة واحدةً (على الكفر والضلال)، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، فجعلنا لهم القصور العالية، السُّقُف، والأبوابُ، والمصاعدُ، والسُّرُرُ، من الذهب والفضة، وهذا النعيم كلُّه ما هو إلّا متاعٌ موقّت، حقير وتافه، بالنسبة لنعيم الآخرة في جنان الخلد، ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

وفي الحديث الشريف: «**لو كانت الدُّنيا تَزِنُ عند اللّٰهِ جَناحَ بعوضة، ما سَقَى كافِراً منها جُرعة ماء**» رواه الترمذي.

٧ ـ **قولُه تعالى:** ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ

مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ٤٠] شبّه تعالى الكفار بالصُمّ الذين لا يسمعون، وبالعُمْي الذين لا يبصرون، وهذا على سبيل التمثيل لهم في ضلالهم وطغيانهم بالصُمّ والعُمي، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي استعارةٌ بديعة في غاية الوضوح والبيان، فمهما بذل الإنسان جهده لإسماع الأصمّ، أو هداية الأعمى إلى الطريق، لا يرجع بأيّ فائدة، لفقدهما حاسة السمع، والبصر، فكذلك هؤلاء الكفار، ليس باستطاعتك يا محمد أن تُسمع من به صممٌ، أو تهدي من كان أعمى القلب والبصيرة، والآية فيها تسلية للنبي ﷺ، فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلّا تعامياً عن الحق، وضلالاً، وطغياناً.

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] هذا الأسلوب يسمى (أسلوب الفرض والتقدير) وليس على الحقيقة، لأن ربّ العزة والجلال، منزّهٌ عن الزوجة والولد.

والمعنى: لو كان لله ولد ـ على زعمكم وتقديركم ـ فأنا أول من يعبده، لأنني عبد مطيع لأوامره، ولكنّ هذا مستحيل، فأنا لست معانداً ولا مفترياً على الله، فلو كان له ولد، لكنت أوّلَ العابدين له.

والمقصود رفْضُ نسبةِ الولد لله تعالى، بالحجة القاطعة الدامغة، وبالأسلوب الحكيم، **قال الشوكاني:** هذا الأمرُ لرسول الله ﷺ قولٌ يُلزِمُهم به الحُجّةَ، ويقطع ما يوردُونه من الشُبْهَة، أي إن كان لله ولدٌ ـ في قولكم وعلى زعمكم ـ فأنا أوّلُ من عَبَد اللّهَ وحدَه، لأن من عَبَده وحدَه، دَفَع أن يكون له ولدٌ، هذا قولُ ابن قُتَيبة، **وقال بعضهم:** المعنى: إن ثَبَت للّهِ ولدٌ، فأنا أوّلُ من يعبدُ هذا الولدَ، الذي تزعمون ثبوتَه، ولكنه يستحيلُ أن يكون له ولدٌ، وفيه نفيٌ للولد على أبلغ وجه، وأتمّ عبارة، وأحسنِ أسلوب، وهو الظاهرُ من النظم الإلهي الجليل. اهـ تفسير الشوكاني ٤/ ٥٤٢.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] ليس المعنى أنّ هناك إلهين: إله في السماء، وإله في الأرض، إنما الإله هنا بمعنى المعبود بحقّ، ومعنى الآية: هو جلّ وعلا معبودٌ في السماء، ومعبودٌ في الأرض، تعبده الملائكة في السماء، كما يعبده المؤمنون الأبرار في الأرض، وهذا هو المعنى الصحيح للآية الكريمة، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

الإبداع البياني في سورة الدخان

١ ـ قولُه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]
الآية وردت مورد التمثيل، شبّه موتهم بإنسانٍ عزيزٍ غالٍ، فقده أهلُه وأصحابُه، فبكوا عليه وناحوا، ولكنَّ هؤلاء الأشقياء الفجار، ما تأثَّر لموتهم أحد، ولا حَزِن عليهم إنسانٌ، لأنهم فجرة أشقياء، وبكاءُ السماء والأرض (كناية) عن الحُزْن والتفجُّع عليهم، والعرب تقول لموت عزيز، أو شريف: كُسفت لموته الشمس، وبكت عليه السماء، يريدون أن المصيبة كانت به فادحة، وفيه تهكُّمٌ وسخريةٌ بهم وبحالهم، بحيث لم يحزن لفقدهم أحد، لأنهم لا يستحقون البكاء.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[الدخان: ٤٥، ٤٦]
فيه تشبيه يسمّى (التشبيه المرسل المجمل) لوجود أداة التشبيه (الكاف) وحذف وجه الشبه، والمعنى: إن هذه الشجرة الخبيثة (شجرة الزقوم) التي تنبت في قعر جهنم، هي في بشاعتها وشناعتها، كالنحاس المذاب إذا انصهر، واشتدت حرارته، يغلي كغليان الماء الشديد الحرارة، وكغليان القِدْر بالطعام الذي فيه.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (سخريةٌ وتهكُّمٌ) أي ذُقْ هذا العذابَ، فأنت عندنا المعزَّزُ المكرَّم! وأيُّ عزّة وكرامة لمن يلقى هذه الإهانة!؟

نزلت هذه الآيات في (أبي جهل) فقد كان عدوُّ اللّه، يسخر من كلام اللّه، ويقول لأصحابه: إن محمداً يعدنا بالزقُّوم في جهنم، أتدرون ما هو الزقوم؟ ثم يأتي لهم بالزُّبد والرُّطب النفيس، ويقول لهم: كلُوا فتزقَّموا، فإنَّ هذا هو الزقُّوم الذي يعدكم به محمد، فأنزل اللّه هذه الآيات، وأخبر أن شجرة الزقوم هي طعام كل آثم فاجر، وليست كما يقول الشقيُّ الخاسر: الزُّبدُ والرُّطب، ويُقال له على سبيل (السخرية والاستهزاء) ذق هذا العذاب، فأنت من المعزَّزين المكرَّمين عندنا اليوم، ويا لَها من سُخْريةٍ لاذعة!!

روى المفسّرون عن عكرمة قال: (لقيَ رسولُ اللّه ﷺ أبا جهل، فقال له: إن اللّهَ أمرني أن أقولَ لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤] فنزع يده من يده وقال: أتوعّدني وتهدّدني يا محمد؟ ما تستطيع أنتَ ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئاً، واللّهِ إني لأعزُّ أهل الوادي ـ يعني مكة ـ فلمّا كان يومُ بدر صَرَعه اللّهُ، وقتَله شرَّ قتله، وأنزل اللّه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٤] تهكُّماً وسخرية) اهـ فتح القدير للشوكاني ٤/ ٥٥٦.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦] ليس في الآخرة موتٌ، والاستثناء في الآية منقطع، ومعناه: لا يذوقون في الجنة الموت، لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا، فلم يعد ثَمّة موتٌ، ونجّاهم ربهم من عذاب جهنم الأليم.

قال ابن قُتيبة: إنما استثنى الموتة الأولى، وهي في الدنيا، لأن السعداء حين يموتون، يصيرون بقدرة اللّهِ ولطفه إلى أسباب الجنة، يلقَوْن فيها الرَّوْح والريحان، ويرون منازلهم في الجنة، وتُفتح لهم أبوابها، فإذا ما توافي الدنيا، انتقلوا فوراً إلى جنان النعيم، فكأنهم ماتوا في الجنة. اهـ نقلاً عن فتح القدير ٤/ ٥٥٥.

وفي الحديث الشريف: «يُؤتى يومَ القيامة بالموت، على صورة كبشٍ أملح ـ فيه بياضٌ وسواد ـ فَيُذبح على مرأى من أهلِ الجنة، ومرأى من أهلِ النار، ثم يُنادَى: يا أهلَ الجنةِ خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ النارِ خلودٌ فلا موت» رواه البخاري.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨] اللسانُ هنا: كنايةٌ عن اللغة، وهي (كناية لطيفة).

والمعنى: أنزلنا هذا القرآن العظيم، بلغة العرب، وجعلناه سهلاً ميسّراً، كي يفهمه قومُك، ويتذكّروا ويتعظوا بآياته البيّنات، والكنايةُ في مثل هذا مشهورة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] أي بلغة قومه، وهي من ألطف أنواع الكناية.



الإبداع البياني في سورة الجاثية

١ ـ **قولُه تعالى:** ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ [الجاثية: ٥] سمّى تعالى المطر رزقاً، لأنَّ بسببه يحصل الرزق، ففي الآية (مجاز مرسل) علاقته المسببيّة، لأن الأرزاق والخيراتِ لا تنزل من السماء، ولكنْ ينزل المطرُ الذي ينشأ عنه النبات، والفواكهُ، والثمار، وسائر الخيرات، كما قال سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] أراد بالرزق المطر الذي هو سبب للخيرات.

٢ ـ **قولُه تعالى:** ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ...﴾ [الجاثية: ٥] الموتُ يُطلق على الإنسان والحيوان، وعلى كل ذي روح على (الحقيقة)، ويُطلق على جَدْب الأرض ويُبْسِها على (المجاز).

شبَّه الأرضَ حين تكون يابسة، لا نبات فيها ولا زرع، بالميْت الذي لا روح فيه، فإذا نزل عليها المطرُ دبَّت فيها الحياةُ، فانتعشت وظهر فيها النبات والثمر، وهذه (استعارة بديعة)، وردت في القرآن بوجوهٍ متنوعة، وأساليب عجيبة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]

٣ ـ **قولُه تعالى:** ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨] التشبيه هنا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يسمى (التشبيه المرسل) لوجود أداة التشبيه، أي كأنه لم يسمع آيات الذكر الحكيم، لانطماس نور بصيرته، مع وضوحها وبيانها، وفي البشارة له بالعذاب الأليم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه سخرية وتهكُّم به، لأن البشارة تكون بالخير، واستعمالها في الشر للسخرية والاستهزاء.

٤ ـ **قولُه تعالى:** ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] في الآية استعارة بديعة، تسمى (الاستعارة التصريحية) شبَّه كتاب الأعمال، بشاهدٍ يشهد على الإنسان، ويُدْلي بشهادته أمام القاضي، فينطق بما سمعه ورآه منه، بطريق (الاستعارة التصريحية).

ومعنى الآية: هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحقّ، من غير زيادة ولا نقصان، فكلُّ ما فعلتموه مثبتٌ هنا ومحفوظ، لأنّا كنا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم، والاستعارةُ هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه، أقوى من شهادة الإنسان بلسانه، والنطق يكون من الإنسان لا من الكتاب، ولكنّه لقوّة شهادته وبيانه، كأنه إنسانٌ عاقلٌ، ينطق بالحقّ والعدل.

٥ ـ **قوله تعالى**: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ . . .﴾ [الجاثية: ٣٠] في الآية (مجاز مرسل) علاقتُه المحلّية، أي يدخلهم ربهم في الجنة، لأنها مكان تنزّل رحمة الله، والرحمة لا يمكن أن يسكنها أحد، لأنها أمرٌ معنوي، أمّا الجنةُ فهي مكان سكنى المؤمنين الأبرار، وهي مكان نزول الرحمة والرضوان، ولهذا جاء في الحديث الشريف: «أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» رواه البخاري.

٦ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤] في الآية (استعارة بديعة) تسمّى (الاستعارة التمثيلية) وهي من لطائف أنواع الاستعارة، شبّه تركهم في العذاب دون سؤالٍ عن حالهم، بمن حُبس في مكان ضيّق، ثم نسيه السّجّانُ من غير أن يسأل عنه، حتى هلك، بطريق (الاستعارة التمثيلية) والمرادُ من الآية: نترككم في العذاب، ونعاملكم معاملة الناسي، لترككم العملَ لهذا اليوم الرهيب، لأن الله تعالى لا يضلُّ ولا ينسى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

قال مجاهد: ﴿الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾ أي نترككم كما تركتم العمل للآخرة، لأن اللهَ تعالى لا يضلُّ ولا ينسى. اهـ التفسير الواضح الميسر ص١٢٦٢.

روى مسلم في صحيحه: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقولُ اللهُ للعبد يوم القيامة ألمْ أُكرمْك؟ وأزوّجْك؟ وأُسَخّرْ لك الخيلَ والإبلَ؟ فيقول العبد: بلى يا ربّ!! فيقولُ اللّهُ له: أفظننتَ أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا، فيقولُ اللهُ تعالى له: اليومَ أنساك كما نَسِيتَني» رواه مسلم، فهذا معنى نسيان اللهِ للعبد، هو تركُه في العذاب.

الإبداع البياني في سورة الأحقاف

١ ـ **قوله تعالى**: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ...﴾ [الأحقاف: ١٠] **في الآية (حذفٌ بالإيجاز) دلَّ السياق عليه**

والمعنى: أخبروني يا معشر الكافرين: إن كان هذا القرآنُ كلامَ اللّه حقاً، ولم يكن سحراً، ولا مفترى كما تزعمون، وكذَّبتم به وجحدتموه، وقد شهد على صدقه رجلٌ من كبار علماء بني إسرائيل، فآمن به، واستكبرتم عن الإيمان!! كيف تظنون أن اللّه سيفعل بكم؟ ألستم تكونون أفجر الناس، وأشقى الناس؟ حُذف من الآية جوابُ الشرط كما وضّحنا، بدلالة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠] ففيه مجازٌ بالحذف، حُذف منه جواب الشرط، وهو: كيف يكون حالكم؟ وكيف تظنُّون أن يفعل اللّهُ بكم؟ أليس تكونون أخسرَ الناس؟

أمَّا الشاهد الذي أشارت إليه الآية، فهو (عبدُ اللّهِ بنُ سَلام) رئيس أحبار علماء اليهود، أسلم حين هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، بعد أن امتحن النبيَّ ﷺ بثلاثةِ أسئلة، لا يعلمهنَّ إلّا نبيٌّ ـ كما في رواية البخاري ـ فلما أخبره عنها قال: «**أشهد أن لا إله إلا اللّهُ، وأن محمداً رسولُ اللّه**» وأسلمَ رضي اللّه عنه، وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: «**من أحبَّ أن ينظر إلى رجلٍ يمشي على وجه الأرض، من أهل الجنة، فلْينظُرْ إلى عبد اللّه بن سلام**»!! انظر صحيح البخاري كتاب التفسير.

٢ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ...﴾ [الأحقاف: ١١] ليس كلامُ الكفار عن الدين والقرآن، بطريق المواجهة والخطاب للمؤمنين، إنما قالوه فيما بينهم، من أجل إيمان المؤمنين، حكاه القرآنُ الكريمُ عنهم، وفي كلامهم إزراءٌ وتحقيرٌ للمؤمنين، يقول بعضهم لبعض: لو كان ما جاء به محمد، من الدين الجديد، فيه خيرٌ، ما سبقنا إلى

الدخول فيه، أمثالُ هؤلاء الفقراءِ الصعاليك، مثل (عمار، وصُهيب، وبلال، وخبّاب) وأمثالهم، انتقاصاً منهم لقدر هؤلاء الفقراء، الذين سارعوا إلى الدخول في الإسلام، ولمّا لم يهتدوا بالقرآن ـ مع وضوح إعجازه وبيانه ـ قالوا عنه: هذا كذبٌ قديم، مأثور عن الناس الأقدمين، أتى به محمد ونسبه إلى الله!! وهذا من فجورهم وطغيانهم، يقولون عن القرآن: إنه أساطير الأولين.

٣ ـ **قولُه تعالى:** ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً . . . ﴾ [الأحقاف: ١٢] سمّى التوراةَ (إماماً) أي إماماً يُقتدى به في دين الله، بطريق (الاستعارة) كما يقتدي المصلُّون بالإمام، تشبيهاً لها بالإمام، لأنها كلام الله، الذي أوحاه إلى موسى عليه السلام ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤] وذلك للرد على المشركين، في زعمهم أن القرآن أساطير الأولين، وأنه إفكٌ قديم، والمعنى: ومن قبل القرآنِ الذي أنزله الله عليك يا أيها الرسول، أنزلنا التوراة على موسى، قُدوةً يؤتَمُّ بها في شرائع الله، ورحمة لمن آمن بها، واستضاء بضيائها، فكلاهما من مصدر (الوحي الإلهي) الصادق.!

٤ ـ **قولُـه تـعـالـى:** ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى . . . ﴾ [الأحقاف: ١٧] القرونُ يُراد بها أهلُها، أي مضت أجيالٌ وأجيال ماتوا، ولم يُبعث أحدٌ منهم، ولو كان البعث حقاً لعادوا إلى الحياة، ففي الآية (مجازٌ) كنّى عن الخلائق والأجيال بالقرون جمع قرن، وهو مائة سنة، تسمية للشيء باسم من يكون فيه، ويسمى (المجاز المرسل) وعلاقتهُ (المحلّية) أي مضت الأمم.

٥ ـ **قولُـه تـعـالـى:** ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٩] استعار الدرجات للمراتب الرفيعة التي ينالها المؤمنون الأبرار، وللدركات التي تكون للأشقياء الفجار.

والمعنى: ولكل فريق من المؤمنين والكفار، مراتبُ بحسب أعمالهم، فللمتقين جناتُ النعيم، وللمجرمين دركات الجحيم، وأصلُ الدرجة المرتبة الرفيعة، وتستعمل في الخير كقوله سبحانه: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وقوله: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٥] وهذا هو الغالب، وقد تُستعمل للخير والشر، كما في الآية التي نحن بصددها، وفي الآية (إضمارٌ) تقديره: ولكل فريقٍ منهم درجاتٌ، أو دركات، حُذف الثاني اختصاراً، لدلالة المذكور عليه.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠] في الآية الكريمة (إيجازٌ بالحذف) ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ تقديره: أي يُقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: لقد انشغلتم بلذائذ الدنيا وشهواتها الفانية عن آخرتكم، انشغلتم بالمآكل، والمشارب، والمراكب، ونلتم حظوظكم في الدنيا، ففي هذا اليوم تنالون الذلّ والهوان، بسبب كفركم وفجوركم، وخروجكم عن طاعة الرحمن.

ففي الآية (إيجاز بالحذف) مع التوبيخ والتقريع، والآية وإن نزلت في الكفار، لكنها تشمل كلّ من انشغلوا باللذائذ والشهوات عن طاعة الله، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: لو شئتُ لكنت أطيبَكم طعاماً، وأحسنَكم لباساً، ولكنّي أستبقي طيّباتي لحياتي الآخرة.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ [الأحقاف: ٢٦] الآية وردت بأسلوب الإطناب، بتكرار اللفظ لزيادة (التقبيح والتشنيع) عليهم، فقد تكرّر ذكرُ السمع والبصر والفؤاد، ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ ﴾ بعد ذكرها في أول الآية، للتشنيع عليهم، ثم هناك إبداعٌ في ذكر (إن) بدل (ما) لئلا تترادف الحروف، فيثقل النطق بها، في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ (إن) هنا نافية بمعنى (ما).

والمعنى: ولقد مكنّا عاداً وأقدرناهم على الذي لم نمكّنْكم يا أهل مكة فيه، من القوة، والسّعة، وطول الأعمار، وقوة الأجسام، بدليل الآية الأخرى، ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦] ولو جاء اللفظُ على الأصل، بوضع (ما) لثُقُل النطقُ بها، ونَبَتْ على السمع، حيث تتكرر الميم ثلاث مرات فيصبح وضع الآية هكذا: ولقد مكنّاهم (فيما ما مكنّاكم فيه)، فما أجمل تناسق الحروف والكلمات، في أسلوب القرآن؟ حتى لا يكون شيء ينبو على الأسماع، في ألفاظه وحروفه البديعة، وهو أبلغُ في التعبير، وأظهرُ في الحثّ على الاعتبار، وهذا من سحر البيان الذي اختصّ به القرآن.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة محمد

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد: ٢] هذا من باب (ذكر الخاص بعد العام) للتنويه بشأنه، وتفخيم أمر الرسول ﷺ، والإيمان به على وجه الخصوص، لأنه أصلٌ في صحة الإيمان، فصار الإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين، كأنه الأصلُ الأصيل لقبول إيمان الإنسان.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤] الأوزارُ: الأسلحةُ والآلاتُ والعتادُ، يقال: وضعت الحربُ أوزارها أي انقضت وانتهت، وأسْنَدَ وضعَها إليها، وهي لأهلها (إسناداً مجازياً) بمعنى: حتى يُلقِيَ الأعداءُ أسلحتهم، وتنتهي الحرب بين المسلمين والمشركين، بعزة الإسلام واندحار أهل الكفر، شبّه تركَ القتالِ، بوضع الحرب أثقالَها، واشتقَّ من الوضع (تَضَع) بمعنى تنتهي، بطريق (الاستعارة التبعيّة).

قال الشوكاني: أسند الوضعَ إلى الحرب، وهو لأهلها، على طريق المجاز، والمعنى: حتى يضع الأعداءُ المحاربون أوزارَهم، وهو سلاحُهم بالهزيمة، أو الصلح، اهـ تفسير الشوكاني ٥/ ٣٢.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] في الآية (مجاز مرسل) علاقتُه الجزئية، أطلق الجزء (الأقدام) وأراد الكل أي يثبتكم أمام أعدائكم، وعبّر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها، وهذا مثل قوله: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠] أي بما كسبتم، وهو كنايةٌ عن النصر والمعونة في مواطن الحرب، كما في فتح القدير للشوكاني ٥/ ٣٢.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢١] هذا المبتدأ حُذف خبرُه، تقديره: طاعةٌ وقولٌ طيّبٌ جميل، خيرٌ لهم وأفضلُ وأحسنُ عند الله، لأن الآية وردت في المنافقين، الذين وصفهم تعالى بالجُبْن والهَلَع، وصوّرهم بصورة الذي أصابته الغشيةُ من

حلول الموت، عندما يسمعون كلمة الجهاد والقتال، وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جدّ الجِدُّ وفُرِض القتالُ، فلو أخلصوا النية، وجاهدوا طلباً لمرضاة الله، لكان خيراً لهم من التقاعس والعصيان، نَسَب العزمَ إلى الأمر، وهو لأهله، ففيه (مجاز عقلي) يدرك بالعقل، مثل قولهم: نهارُه صائم، وليلُه قائم، أي يصوم النهارَ، ويقوم الليلَ.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] في الآية (استعارة تصريحية) شبّه قلوبهم بالأبواب المقفلة، لا تنفتح لوعظ واعظ، ولا لنصح ناصح، وكأنها مكبّلة بالأقفال الحديدية، لا يدخل إليها نور، ولا يشرق فيها إيمان، وهذه من لطائف الاستعارات.

قال ابن القيم: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ قال ابن عباس: (يريد على قلوب هؤلاء أقفال) وكأنَّ القلب بمنزلة باب مُرْتَج ـ أي مغلق ـ ضُرب عليه قفل. فإنه ما لم يُفتح القفلُ لا يمكن فتحُ الباب، ولا الوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يُرفع الختمُ والقفلُ عن القلب، لم يدخل الإيمانُ ولا نور القرآن. اهـ شفاء العليل ص٩٥.

قال ابن عطية: في الآية (استعارةٌ) للرَّيْن ـ أي الحجاب ـ الذي منعهم الإيمانَ، يُروى أن وفداً من اليمن، وفدُوا على النبي ﷺ وفيهم شابٌ، فقرأ النبيُّ ﷺ هذه الآية، فقال الفَتى: عليها أقفالُها حتى يفتحها اللهُ ويُفرّجها!! ـ وكان عمر جالساً ـ قال: فعَظُم في عيني، فلمّا تولّى الخلافة، استعان بذلك الفتى لنباهته. المحرر الوجيز ١٣/ ٤١٠.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ [محمد: ٢٥] في الآية (كناية لطيفة) كنّى عن رجوعهم إلى الكفر، بعد دخولهم في الإيمان، بمن رجع القهقرى، مرتداً على أعقابه، وبدَل أن يتقدم أخذ يهرب من المعركة والميدان، نزلت في المنافقين، كانوا أسلموا ثم نافقتْ قلوبهم فارتدُّوا.

قال الشوكاني: والأقفالُ استعارةٌ لانغلاق القلب عن معرفة الحقّ، بحيث لا يدخل في قلوبهم الإيمانُ، ولا يخرج منها الكفرُ، لأن اللهَ طبَع عليها، فصار الطبع بمنزلة الأقفال للأبواب. فتح القدير ٥/ ٣٩.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا

يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦] في الآية تشبيه بديع يسمى (التشبيه البليغ) شبَّه الحياة الدنيا، في بهرجها وزينتها، بلُعَب الأطفال التي تشغل عقول الصغار، فيُقبلون عليها بشوقٍ وشَغَف، وحَذَف أداة التشبيه، ووجْهَ الشَّبه، فأصبح بليغاً، والمعنى: ليست هذه الحياة الدنيا، إلا كاللُّعب التي يتلهَّى بها الأطفال، فهي زائلة فانية، لا يُخَلَّد فيها أحد، ولا تدوم لإنسان، وهي باطل وغرور، في عدم نفعها ونعيمها، وفي الحديث الشريف: (لو كانت الدنيا تعدلُ عند اللّهِ جناحَ بعوضة، ما سَقَى منها كافراً شربة ماء) رواه الترمذي رقم/ ٤٧٦/ .



الإبداع البياني في سورة الفتح

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . . .﴾ [الفتح: ٢] سمّي تعالى ما صَدَر من رسول الله ﷺ عن اجتهاد، كإذنه للمنافقين في التخلف عن الغزو، وأخذه الفداء من الأسرى في غزوة بدر، واستغفاره لعمه أبي طالب، وأمثال ذلك، ممّا هو خلافُ الأولى، سمّاه (ذنباً) بالنظر إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار، سيئاتُ المقرّبين، فالرسولُ ﷺ لم يخالف أمر الله متعمداً، وإنما اجتهد وكان في اجتهاده نظرٌ، حيث صنع خلاف ما هو الأولى والأحسن، فغفر الله له ذلك، وعفا عنه لأنه كان عن نظر واجتهاد.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] شبّه تعالى المعاهدة التي جرت بين الرسول ﷺ وأصحابه في الحديبية، على التضحية بالأنفس في سبيل الله، طلباً لمرضاته، بعقد بيعٍ على صفقةٍ تجارية، فيها أخذٌ وعطاءٌ، واستعار اسم (المشبّه به) للمشبَّه، واشتقّ من البيع لفظ (يبايعون) بمعنى يعاهدون، على سبيل (الاستعارة التصريحية) وفي هذه البيعة تشريفٌ للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته ﷺ بمنزلة مبايعة الله عزّ وجلّ، لأن الرسول سفيرٌ مفوّضٌ عن الله، وتسمى هذه البيعة (بيعة الرضوان) وإنما سميت المعاهدةُ مبايعةً، تشبيهاً لها (بالمعاوضة المالية) فالصحابة التزموا طاعة النبي ﷺ في قتال المشركين، والنبيُّ ﷺ وعدهم بالثواب، وَرِضى الرحمن عنهم، فصارت في صورة (بيعة مالية) فيها إيجاب وقبول، حتى قال بعضُ الأنصار للرسول ﷺ: تكلّمْ يا رسولَ الله، وخُذْ لنفسك ولربكَ ما أحببتَ!! فقال لهم ﷺ: **«اشترطُ لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترطُ لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكُمْ، ونساءكم، وأبناءكم»**، فقال ابنُ رواحة رضي الله عنه: فإذا فعلنا ذلك فما لَنا؟ قال: **«لكمُ الجنّةُ»**، قالوا: ربحَ البيعُ، لا نُقيلُ، ولا نَستقيلُ!! وكان ذلك عند (بيعة العقبة) كما تكررت البيعة في الحديبية في بيعة الرضوان، وفيها نزل: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾

[الفتح: ١٨] وكانت بيعةُ الصحابة، أنهم بايعوه ﷺ على الموت في سبيل الله، كما روي في صحيح البخاري، من رواية سَلَمةَ بين الأكوع، وانظر التفسير الواضح الميسر ص١٢٨٩.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠] فيها أيضاً استعارة أخرى بديعة، شبَّه تعالى إطِّلاعه على مبايعة الصحابة لرسول الله ﷺ، وأخْذَ الرسولِ العهد منهم، على السمع والطاعة، والجهاد في سبيل الله، بمليكٍ عظيم، جَمَع الأمراءَ والجنود، ووضع يده في أيديهم، مبايعاً لهم وطوى ذكرَ (المشبَّه به)، وهم الجنود والأمراء، ورمز لذلك بشيء من لوازمه، وهو (اليد) ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ على طريقة (الاستعارة المكنيَّة)، وهي من لطائف الاستعارات، كأنَّ يدَ الرسول ﷺ عند المبايعة، يدُ اللهِ عزَّ وجلَّ تشريفاً لرسول الله ﷺ، قال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي يدُ الله عزَّ وجلَّ فوق أيديهم وقتَ المبايعة، لأنهم إنما كانوا يبايعون اللهَ ببيعتهم نبيَّه ﷺ.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥] في الآية استعارة لطيفة، حيث عبَّر عن (وعدِ اللهِ) بأن تكون مغانم خيبر، للذين شهدوا مع رسول الله ﷺ صلحَ الحديبية، فعبَّر عن ذلك بالتبديل لكلام الله.

والمعنى: يريد المنافقون الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية، أن يغيِّروا حكمَ الله ووعده، بأن تكون غنائم خيبر، خاصة بمن كان مع رسول الله ﷺ في الحديبية، دون الذين تَخَلَّفوا عنها، فالمراد بكلام الله ما وَعده تعالى للمؤمنين، الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ في (صلح الحديبية)، دون أن يشاركهم فيها أحد، فاستعار لفظ (كلام الله) عن الوعد الذي وعده الله للمؤمنين، وكنَّى عنه بكلام الله أي حكمه ووعده، قال ابن عطيَّة: المرادُ بكلام الله: يعني وعدَه لأهل الحديبية بغنيمة خيبر. المحرر الوجيز ٥/٤٤٧.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ورد اللفظ أولاً بصيغة الماضي ﴿لَّقَدْ رَضِيَ﴾ ثم ورد ثانياً بصيغة المضارع ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ لناحيةٍ بلاغية، وهي استحضار الصورة في الذهن، لأن المضارع يفيد الدوام والاستمرار، وكأننا الآن نشاهد الرسول ﷺ وهو يبايع

أصحابه على الجهاد، ومبارزة الأعداء، وقد خَلَع ربُّ العزة والجلال عليهم خلعةَ الرضوان ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ﴾ وحدَّد المكان الذي بايعوا فيه الرسول، وهي الشجرة ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وحضر هذه البيعة روح القُدُس (جبريل) عليه السلام، وسُطِّرت في الكتاب العزيز، بحروف من نور، لتبقى ذكرى خالدة، على مرّ الأزمان والدهور، لأنها كانت بيعةً غاليةَ الثمن، بيعةً على الموت في سبيل اللّه، فما أكرمها من بيعة!! وما أعظمه من ربح وأجر كبير!!

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] توليةُ الأدبار: (كنايةٌ لطيفة) عن الهزيمة من ساحة القتال، لأن المنهزم حينما يفرُّ من المعركة، يدير ظهره لعدوِّه، ليمعن في الهرب، فتوليةُ الأدبار: (كنايةٌ) عن الانهزام، ودُبُر الشيء هو الخلفُ والظهرُ الذي يقابل الأمام، قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]. أي لا تنهزموا أمامهم، بل اصمدوا واثبتوا في وجوههم ثبوت الرجال الأبطال.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] لمّا كان بطنُ الإنسان وسط جسده، سُمِّي بطناً، والمراد ببطن مكة في الآية (الحديبية) التي هي وسطٌ بين مكة، وجُدَّة، فكنّى عن الحديبية ببطن مكة، وهي (كناية لطيفة) لقربها من مكة، وقربها من جدة، رُوي أن ثمانين من جنود المشركين، هبطوا على رسول اللّه ﷺ من جهة التنعيم، عند صلاة الصبح، حتى وصلوا الحديبية، وهم يريدون الفتك برسول اللّه ﷺ، فأسَرهم المسلمون، وأُتِيَ بهم إلى رسول اللّه ﷺ، فعفا عنهم، وخلّى سبيلهم، ولم يقتلهم. فكان ذلك سبباً للصلح، ولم تقع حرب بين المسلمين والمشركين، وفيهم نزلت الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ رواه مسلم.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ٢٥] جواب الشرط (لولا) محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، وتقديره لأذِن اللّه لكم في قتالهم، وفي دخول مكة عَنوةً عنهم، ولسلّطكم عليهم، ودلَّ هذا الحذف على شدة غضب اللّه تعالى على كفار مكة، كأنه قيل: لولا الخشيةُ على وقوع قتلى من المؤمنين، الذين يعيشون في مكة بين أظهر المشركين، لفعل اللّهُ بهم، ما لا

يخطر على البال، ولا يحيط بوصفه البيان، ومعنى (المعرّة) الإثمُ والذنبُ العظيم، والمعنى: لولا أن في مكة رجالاً ونساءً، كانوا يُخفُون إسلامهم، خوفاً من طُغاة مكة، لا تعرفونهم فتقتلونهم، فينالكم إثم وذنب عظيم، لأذن لكم في قتال المشركين، ودلّ على ذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] أي لو تميّز المؤمنون عن المشركين، وانفصلوا عنهم، لعذبنا الكافرين عذاباً أليماً موجعاً، بتسليطكم عليهم.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] في الآية كناية لطيفة في قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ كنّى عن كلمة التوحيد والإخلاص (لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه) بكلمة (التقوى) لأنها أصلُ الإيمان، وركنُ الدّين الأول، فمن أضاعها فقد انسلخ عن الإيمان بالكلية، ولم يبق له حظٌ في التقوى.

رُوي أن المسلمين لمّا مُنِعُوا من دخول مكة، وأداء العمرة، وأراد الرسول ﷺ أن يكتب شروط الصلح، ويرجع إلى المدينة، جاء إليه عمر رضي اللّه عنه، فقال: يا رسول اللّه! ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، فقال عمر: فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا؟ فقال له الرسول ﷺ: «يا ابنَ الخطاب إني رسولُ اللّه، ولن يضيّعني اللّه أبداً» رواه البخاري. فرضي المسلمون بشروط الصلح طاعة لرسول اللّه ﷺ، وكان فيها كل الخير والمصلحة للمسلمين.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ . . .﴾ [الفتح: ٢٩] السِّيما: العلامةُ، هذا وصفُ أصحابِ رسول اللّه رضوان اللّه عليهم، علامتهم التي يُعْرفون بها، أنْ وجوههم تلوحُ فيها علاماتُ التهجُّد والسهر، وهي إشراقةُ الوجه بنور العبادة، وما يظهر عليها من البهاء والوقار، والمراد بالمثلِ هنا: الوصفُ، أي هذه صفتهم في التوراة: الشدةُ على الكفار، والرحمةُ بالمؤمنين، وكثرة الركوع والسجود، ثم ضرب لهم مثلاً آخر في الإنجيل فقال سبحانه:

١١ ـ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . . .﴾ [الفتح: ٢٩] في الآية الكريمة تشبيهٌ بديعٌ رائع، يسمى (التشبيه التمثيلي) ضرب لهم مثلاً بزرعٍ مبارك، نما بسرعة في أرضٍ

طيبة، فأخرج (شطأه) أي فراخه وفروعه، واشتدَّ فظهر فيه الحبُّ ﴿ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ فقوي الزرع حتى صار غليظاً، بعدما كان دقيقاً ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ وقف الزرع بنفسه، واستقام على أصوله، ونبت فيه الحبُّ وازدهر ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ يعجب هذا النبات الفلاحين لقوته وكثرته وحسن نباته، ليغتاظ بهم أعداء الله الكفار.

مثَّل تعالى لهم بالزرع ينمو ويقوى، ويشتدُّ بفروعه، حتى يصبح قوياً متيناً، واقفاً على ساقه، وقد نضج فيه الحبُّ وازدهر، وهذا مثلٌ ضربه الله عزَّ وجلَّ لأصحاب الرسول، كانوا قلَّةً فكثروا، وضعفاء فقوَّاهم الله، حتى عزَّ بهم دينُ الله، وصار الإسلام كالطَّوْد الراسخ، وانتشر في آفاق الدنيا، يملأ الأرض خيراً وعدلاً، ونوراً وبرّاً، ولم يزل أمرهم يزداد يوماً فيوماً، حتى دخل الناسُ في دين الله أفواجاً، ولمّا كان وجهُ التشبيه منتزعاً من متعدِّد، سُمّي (التشبيه التمثيلي) فالزرع محمد ﷺ، والأفراخُ أصحابُه رضوانُ الله عليهم أجمعين، وهو مَثَلٌ بديع في غاية الحسن والجمال!!

❁ ❁ ❁

الإبداع البيانيُّ في سورة الحجرات

١ ـ **قوله تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] في التعبير بقوله سبحانه: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ استعارةٌ بديعة لطيفة، تسمى (الاستعارة التمثيلية) شبّه حالَ المؤمنين مع رسول الله ﷺ، بحال ملكٍ عظيم، كان يسير معه الوزراءُ والأتباع، فتقدَّم للسير أمامه بعضُ أفرادِ الحاشية، ومقتضى الأدب أن يسيروا خلفه لا أمامه، فزجرهم بعضُ المقرّبين، والآية تمثيلٌ لما يجب أن يكون عليه المؤمنون، من توقير النبي ﷺ وتعظيم شأنه، فلا يُبرموا أمراً، ولا يُبْدوا رأياً، ولا يقضوا حكماً في حضرة النبي ﷺ حتى يستشيروه، وإذا سُئل عن مسألة، فلا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعامُ لا يبتدئون بالأكل قبله، وإذا ذهبوا معه إلى مكان، لا يمشون أمامه، وهكذا في جميع الأمور، عليهم أن يكونوا معه، مثلَ الجنديِّ مع قائده، والعبد مع سيده، احتراماً له وإجلالاً. كلُّ هذه المعاني النبيلة، أرشدت إليها الآية الكريمة: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي من روائع التمثيل البيانيّ البديع.!

٢ ـ **قوله تعالى**: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] ذُكرت في هذا التمثيل أداةُ التشبيه، وحُذف وجه الشَّبَه، فهو تشبيه (مرسل مجمل) أي عظّموا نبيَّكم ووقِّروه، وقولوا في خطابه: يا نبيَّ الله، ويا رسولَ الله، ولا ترفعوا أصواتكم عالياً في حضرته، وحافظوا على المقام الرفيع (مقام النبوة) كما هو الشأن في مخاطبة الملوك والعظماء، خشية أن تبطل أعمالكم الصالحة من حيث لا تدرون ولا تعلمون!! وسبب النزول أن أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما، اختلفا في أمر من الأمور، وارتفعت أصواتهما في حضرة النبي ﷺ فنزلت الآية، تعليماً للمسلمين الأدب أمام حضرة سيد المرسلين ﷺ.

روى البخاريُّ عن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال: (كادَ الخَيِّرانِ أن يَهلكا ـ أبو بكر

وعمر ـ رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ، حين قدم عليه ركْبُ بني تميم ـ أي الوفد ـ فأشار عمر بالأقرع بن حابس، وأشار أبو بكر برجل آخر، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلّا خِلافي، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ . . .﴾ الآية، فما كان عمر يُسمِعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه)أي يطلب منه أن يوضح له مراده، برفع الصوت. أخرجه البخاري رقم (٤٨٤٥).

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣] غضُّ الصوت: خفضُه وعدمُ رفعه عالياً، وأصلُ الغضّ: النقصانُ من الطَّرْف، والصوتِ، والمعنى: هؤلاء الذين يخفضون أصواتهم في مجلس الرسول ﷺ مراعاةً للأدب، وإجلالاً لمقام النبوة، هم الذين أخلص اللهُ قلوبَهم لمرضاته، وصفّاها من دنس سوء الأخلاق، وجعلها أهلاً ومحلاً لتقوى الله، والإجلال لرسوله، عبّر عن شرح قلوبهم بالإيمان، وتخليصها من رجس الشيطان، بقوله: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ بطريق (الاستعارة اللطيفة).

٤ ـ قولـه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] في الآية تشبيه يسمى (التشبيه البليغ) وأصل الكلام: المؤمنون كالإخوة الأشقاء، في وجوب التعاون، والتراحم، والتناصر، يقوّي بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، حذف منه أداة التشبيه، ووجهُ الشبه، فأصبح بليغاً (المؤمنون إخوة) ومقتضى الأخوّة الإيمانية، ردعُ الظالم، ونصرةُ المظلوم.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] في الآية تشبيه بليغ، وتمثيل رائع مفزع، ورد بطريق (التشبيه التمثيلي) مثّل للغيبة بصورةٍ فظيعة شنيعة، صورةِ إنسان نَبَش قبر شخصٍ ميْت، وجلس يأكل من لحمه، واللحمُ نَيْءٌ، إنه لحمُ إنسانٍ، وليس لحم شاةٍ أو بقرة، ثم إن هذا الإنسان الذي جلس يأكل لحمه، هو أخٌ له مسلم، وليس بعدوٍّ كافر، ثم هذا اللحمُ لحمُ إنسان ميْت، ويا له من تمثيلٍ قبيح شنيع، عظيم فظيع، يقطع أعناق المغتابين، فالتمثيل جاء بصور متنوعة، فيها مبالغاتٌ عديدةٌ، على آكدِ وجهٍ وأشنعه، ينفر منها الطبع السليم.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

الاستفهام هنا (استفهامٌ إنكاريٌ) للتوبيخ، أي أتخبرون اللّه بما في قلوبكم من الإيمان والحبِّ لدينه؟ عبَّر عن الإخبار بلفظ التعليم، للتشنيع عليهم، مبالغةً في التوبيخ، كأنهم في مقام من يُعلِّم اللّهَ بإيمانهم، وهذا منتهى الجهل!! وهؤلاء الأعراب ليسوا منافقين، إنما هم مسلمون، لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، ادَّعَوْا لأنفسهم مقاماً رفيعاً من الإيمان، بقولهم: آمنّا، فأدّبهم اللّه في هذه المقالة، ولو كانوا منافقين لعنّفوا وفُضِحوا، ففي الآية مزيد تجهيل، وتوبيخ لهم، على هذه الجراءة في دعوى الإيمان.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة ق

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] شبَّه تعالى إحياء الموتى وإخراجهم من القبور، بإخراج النبات من الأرض، بعد طول اليبس والجدب، وفيه تشبيه رائعٌ ساطعٌ، يدلُّ على كمال القدرة الإلهية، يُسمَّى (التشبيه المرسل المجمل) أي كما أحيينا بذلك الماء المبارك (المطر) أرضاً يابسةً مجدبةً، فأنبتنا به الكلأ والعُشب، كذلك نخرجكم أحياءً من قبوركم، بعد موتكم وفنائكم، وهو (تشبيهٌ بديع) ساطع الدلالة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) بديعة، مثَّل لعلم اللَّهِ بالإنسان، وما يمرُّ على قلبه، من هواجسَ وخواطر، وبما تحدِّثه به نفسُه من وساوس وأفكار، بحبل الوريد، القريب من القلب، وهو تمثيلٌ لقرب اللَّه من عبده، حيث لا تخفى عليه خافية من أعماله، ففي الآية (استعارة تمثيلية) واضحة الدلالة، وهذا كقول العرب: هو منِّي مَعْقِدَ الإزار، وهو بخاطري كجَفْنِ العين، لبيان فرط القرب، والحُبّ.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] في الآية الكريمة (إيجازٌ بالحذف) لدلالة الآية عليه، أصلُه عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، أي عن يمين الإنسان مَلَكٌ، وعن شماله كذلك مَلَك، فقد وُكِّل بالإنسان مَلَكان، مَلَكٌ عن يمينه، ومَلَكٌ عن شماله، لا يغيبان عنه في سفر ولا حضر، ولا في ليلٍ ولا نهار، يلازمانه كما يلازمه ظلُّه، ولا يتلفَّظ لفظةً، أو يتكلم كلمةً، من خيرٍ أو شرٍّ، إلَّا والمَلَك يُسجِّل عليه ما قاله.

وقوله تعالى: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وصفان للمَلَك، أي (رقيبٌ) عليه يكتب عمله، و(عتيد) أي حاضر معه، لا يغيب عنه أبداً.

قال مجاهد: وكَّل اللَّهُ بالإنسان ـ مع علمه بأحواله ـ ملكَيْن، يحفظان

عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] في هذه الآية استعارة لطيفة تسمى (الاستعارة التصريحية) استعار لفظ (السُّكْرة) للشدّة والهول، الذي يلقاه المحتضر عند وفاته، فسكرةُ الموت: شدّتُه الذاهبة بالعقل، وقوله: ﴿تَحِيدُ﴾ أي تفرّ وتهرب منه.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] هذه الآية واردةٌ على (منهج التمثيل) لتهويل أمر النار، وتفظيع شأنها، ففيها تمثيلٌ لسعة جهنم، وأنها تسع كلْ مجرم، وكلْ كافر، بحيث مهما أُلقي فيها من الإنس والجن، فإنها لا تضيق عنهم بل تسعهم، وتكون الآية من (باب التمثيل) على حذ قول العرب: (قال الحائط للمسمار لِمَ تَشُقُّني؟ قال: سَلْ مَنْ يدقُّني)؟ وليس للحائط لسان، ولا للمسمار جواب، وإنما هو الإبداعُ في (التصوير والتمثيل).

ويمكن أن تكون الآية على الحقيقة، فيخلقَ اللّهُ للنار لساناً تنطق به، وتقدر على المراجعة والحوار، لحديث: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربُّ العزّة قدمه، فتقول: قطْ، قَطْ» رواه البخاري. أي حَسْبي، ويكفيني ما حصَلني به ربي، واللّه على كل شيء قدير.

يُحكى أن أحد المستشرقين، زار أديبَ العربية (الرافعي) في مصر، وأراد أن يعرف رأيه في القرآن العظيم، فسأله هل أنت ممن يؤمن بإعجاز القرآن كعامّة المسلمين؟ فقال له: إذا أردنا أن نعرف قدر شيء، فعلينا أن نحاكيه في أسلوبه، ثم أعطاه ورقةً وقال له: اكتب ما يخطر على بالك، بأرقِّ لفظٍ وأبدعه، معبّراً عن جهنم وكِبَرِها، فكتب هذا المستشرق: إن جهنم واسعة جداً، إن جهنم لأوسعُ مما تظنون، إن جهنم لا يحيط بها خيال إنسان، وأمثال هذه العبارات، ثم قال له: هل جاء القرآن بتعبيرٍ أفضلَ من هذا؟ فضحك أديبُ العربية، ثم قال له: لقد كنا أطفالاً صغاراً أمام تعبير القرآن، وروعةِ إبداعه!! فقال: وماذا قال القرآن؟ قال اسمعْ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بهذا الأسلوب البديع المعجز، صوّر القرآن سعة النار، وضخامة حجمها، كأنه يقول للبشر: هذه جهنم التي تنتظر زبائنها من الكفرة الفجرة، فأُسقط في يد المستشرق، واتّضح له سرُّ الإعجاز في الكتاب العزيز

الإبداع البيانيّ في سورة الذاريات

١ ـ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥] الحديث عن قصة ضيوف إبراهيم عليه السلام، ورد بأسلوب يثير الانتباه، والترغيب لسماع القصة، يسمى أسلوب (التشويق والتفخيم) أي هل بلغك ووصل إلى سمعك، خبرُ ضيوف إبراهيم الأفاضل؟ كما تقول لإنسان: هل تدري ما حَدَث بالأمس؟ تُشوّقه لسماع الخبر.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ إيجاز بالحذف أي قالوا له: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليهم السّلامَ، على أكمل الوجوه، فاختصره القرآن بهذا اللفظ. وقولُه سبحانه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لم يقلها إبراهيم عليه السلام مشافهةً لهم، إنما قالها في نفسه، لأن خُلُقه الكريم، لا يسمح له بالجهر بها في وجه مؤانسة الضيوف، وإنما قال في نفسه: هؤلاء قوم غرباء لا نعرفهم، فما الذي قدِم بهم؟ ويدلُّ عليه قوله سبحانه في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] وإنما أنكرهم لأنهم دخلوا عليه في صورة شُبّان حسان، عليهم رونق وجمال فائق.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩] كنّى عن الجنود والجموع (بالركن) لأنه يحصل بهم التقوّي، والاعتمادُ عليهم، كما يُعتمد على الأركان في البناء، ويمكن أن تكون من باب (الاستعارة اللطيفة) استعار لفظ (الركن) للقوة والشّدة، كما يُطلق على الجيش لفظ (الأركان) فيقال: ثُكنة أركان الجيش المصري.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] وردت الآية بلفظ اسم الفاعل ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ والمراد اسم المفعول، أي مُلَامٌ على طغيانه وفجوره، ففيه (مجاز مرسل) من إطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول،

والمعنى: أخذنا فرعون مع جنوده وأتباعه وأصحابه، فطرحناهم في البحر لمّا كذّبوا رسولَنا موسى، وفرعونُ آتٍ بما يُلام عليه من الكفر والطغيان.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات: ٤١] في الآية استعارة لطيفة تسمى (الاستعارة التبعيّة) شبّه تعالى إهلاك قوم عاد، وقَطْعَ دابرهم، بالمرأة العقيم التي لا تحمل ولا تلد، ثم أطلق المشبَّه به على المشبَّه، واشتقّ منه لفظ (العقيم) تشبيهاً بعُقْم النساء، بطريق (الاستعارة التبعيّة)، والمعنى: أرسلنا على عادٍ الريح الشديدة المدمِّرة، التي لا خير فيها، ولا نفع، ولا بركة، وُصفت بالعقم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، فلم يكن فيها خيرٌ من إنزال مطر، أو إلقاح شجر.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤٢] الرَّميمُ: البالي المتفتِّتُ من كل شيء، من عظم، أو نباتٍ، أو جمادٍ، وفي الآية (تشبيهٌ مرسل مجمل) ذُكرت أداة التشبيه وهي الكافُ، وحُذِف منها وجه الشبه، والمعنى: ما تترك هذه الريح شيئاً مرَّت عليه، إلا جعلته كالتراب الناعم، والهشيم البالي المتفتِّت، في الدَّمار والضياع.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ • وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] الأيد هنا: القوةُ والقدرةُ الفائقة، كنّى عن القوة بالأيد، وهي (كناية لطيفة).

قال ابن عباس: (بأيدٍ) أي بقوة عظيمة منّا، رواه ابن كثير.

تأمّلْ عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق، الكبير المتعال، فيما خلَق وأبدع، فإن هذه الأرض التي نعيش على سطحها، ما هي إلّا ذرة صغيرة، تسبح في هذا الكون الفسيح، ومع ذلك فيها البحارُ، والأنهار، والجبالُ، والوديان، وهي كبيرة وعظيمة بالنسبة للإنسان، ولكنها بالنسبة للنجوم والمجرّات، لا تكاد تُذكر، وتمعّنْ وأنت تقرأ هذه الآية: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ عظمةَ الكون وسَعَته، وما حواه من غرائبَ وعجائبَ، لتسبِّح اللّه مع المسبِّحين، بلسانك وقلبك!!

وفي قوله: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ تشبيهٌ لها بالفراش الممهَّد، لاستقرار الإنسان ونومه عليه، فاللّهُ عزّ وجلّ جعل الأرضَ كالفراش والبساط للبشر، فإنها ـ مع كرويتها ـ واسعةٌ ممتدّة، فيها السهولُ الفسيحة، والوديانُ الخصيبة، والطرقاتُ

الواسعة، يبني الناس عليها ويسكنون، ويزرعون فيها ويحصدون، وبذلك تمّت نعمةُ الله على البشر، بسكناهم على ظهر هذا الكوكب الأرضي.

٧ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] عبَّر تعالى عن الإيمان بالله، ومعرفته وتوحيده (بالعبادة) ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لأنَّ معرفة الله وطاعته وتوحيدَه، أصلُ جميع العبادات المفروضة على الإنسان، ففي الآية مجازٌ، من باب إطلاق (العام وإرادة الخاص).

قال مجاهد: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ليؤمنوا بي ويوحِّدوني، وليعرفوا أني أنا ربهم، فيطيعوا أمري.

ومعنى الآية: ما خلقتُ الخلق، إنْسَهم وجنَّهم، إلَّا ليعرفوا ربهم، ويؤمنوا به ويوحِّدوه، ويقرُّوا له بالوحدانية والألوهية. تفسير الشوكاني ٥/ ٩٢.

٨ ـ **قوله تعالى**: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨] الآية الكريمة بيانٌ لاستغناء الله عزَّ وجلَّ عن الخلق، وأنَّ خَلْقَهم ليس لحاجة الله لهم ولعبادتهم، كما هو شأن السادة مع عبيدهم، يملكونهم ليستعينوا بهم، في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم، **ومعنى الآية**: لا أريد منهم أن يرزقوني، أو يرزقوا أنفسهم، بل أنا المتفضِّل عليهم بالتكفل برزقهم، وبما يُعيشهم في هذه الدنيا، ولا أريد منهم أن يطعموني فأنا الغنيُّ الحميد!! وفي الآية تعريضٌ بأوثان وأصنام المشركين، حيث كانوا يحضرون لها أنواع المآكل واللذائذ، فربما أكلتها الكلابُ، ثم بالت على الأوثان.

٩ ـ **قوله تعالى**: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩] الذَّنوب: النصيبُ الوافرُ من العذاب، سُمِّي ذَنُوباً تشبيهاً له بالدَّلْو العظيم المملوء ماءً، وفي الآية تشبيه (مرسل مجمل) ذكرت فيه أداة التشبيه (مثل) فهو مرسل، وحُذف منه وجهُ الشبه فهو مجمل، والمعنى: إن لهؤلاء الظالمين نصيباً وافراً من العذاب، مِثْلَ نصيب أسلافهم الكفار، في الشدة والغلظة، فلا يتعجَّلوا عذابي فهو نازل بهم لا محالة.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة الطور

١ ـ للقرآن تأثير عظيم، على من فتح قلبه لهذا النور الإلهي، وأراد الله له الخير والسعادة، فقد روي عن (جُبير بن مطعم) أنه قال: (قدمتُ المدينة المنوّرة، لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيتُه في صلاة المغرب وهو يقرأ سورة الطور. ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . . .﴾ [الطور: ١ ـ ٤] فلمّا وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨] فكأنما صُدِع قلبي ـ أي انشقّ قلبي من تأثير القرآن ـ فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب، فلما انتهى إلى قوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦] شعرت أن قلبي كاد يطير) الصفوة ٣/ ٢٧٠.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣] كنّى عن الخمر بالكأس، والمراد يشربون خمراً يتخاطفون كؤوسها، كما يفعل ذلك النّدامى في الدنيا، لشدة سرورهم، ليس في هذه الخمرة ما يخدش الحياء ويجرح الكرامة، ولهذا قال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: كلُّ كأسٍ في القرآن، يراد بها الخمر، تفسير ابن كثير.

٣ ـ **قولُه تعالى:** ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] فيه تشبيهٌ (مرسل مجمل) ذُكرت فيه أداة التشبيه فهو مرسل، وحُذف منه وجهُ الشّبه فهو مجملٌ، أي كأنهم في الحسن، والصفاء، والبهاء، اللّؤلؤُ المَصُونُ في الصَّدَف.

٤ ـ **قولُه تعالى:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] المنون: الموتُ لأنه يقطع الأعمار، ويفني الخلائق، وفي الآية (استعارة بديعة)، شبّه حوادث الدهر وصروفه بالريب، الذي هو الشكُّ، بجامع التحيُّر وعدم البقاء على حالة واحدة، واستعير لفظ (المنون) وهو الموتُ، على طريقة (الاستعارة التبعيّة) يعنون بذلك أنهم ينتظرون برسول الله ﷺ حوادث الدهر، حتى يموت فيستريحون منه.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] أحلامُهم: عقولهم، وهذا أسلوبُ (سخريةٍ وتهكُّم)، أي هل تأمرهم عقولهم الذكية بهذا الزور والبهتان؟ فإنَّ من له عقلٌ وفهم، لا يقول مثلَ هذا الكذب والبهتان، على سيد وَلَد عدنان؟!

٦ ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] وقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ [الطور: ٣٢] كُرِّرت (أم) في هذه السورة الكريمة (١٥) خمس عشرة مرة، وهي في جميع المواطن (للاستفهام الإنكاري)، وكلُّها تحمل طابع الزجر، والتوبيخ، والتقريع، على سفاهاتهم وجهالاتهم، وكأنها سياط لاذعة تلذعهم، أو قذائف نارية تحرقهم، فلا يستطيعون لها ردّاً ولا جواباً، وما أبدع هذه السخرية والتهكُّم بالكفرة المشركين!!

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] التعبير بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تعبيرٌ غريبٌ عجيب، يشير إلى مقدار رفعة قَدْر هذا النبي الكريم عند ربه، فيكفيه شرفاً أن يكون ربُّه هو الذي يرعاه، وأيُّ شرف أسمى من هذا الشرف؟ وهناك يكون أُنسُ الحبيب بالحبيب، والله هو السميع المجيب.

والمعنى: اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فإنك في حفظنا وحمايتنا، بحيث نرقبك ونرعاك، وجَمْعُ العين ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ للتعظيم والتفخيم، للتنبيه على غاية الرعاية والحماية، والحفظِ لرسول الله عليه أفضلُ الصلاة والتسليم.!

قال ابن عطية: المراد بالآية بأَعْيُنِ حفظنا ورعايتنا، كما تقول: فلانٌ يرعاه الملِكُ بعينِهِ، وهذه الآية ينبغي أن يرعاها كلُّ مؤمن في نفسه، فإنها تفسح مضايقَ الدنيا. المحرر الوجيز ١٤/ ٧٦.

۞ ۞ ۞

الإبداع البيانيّ في سورة النجم

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ • مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١، ٢] في الآية كناية لطيفة في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ فقد كنّى عن رسول الله ﷺ بقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل: محمد، لينبِّههم على سخافة عقولهم، في اتهام الرسول ﷺ بالكذب على الله، ورميهم له ـ وحاشاه ـ بالجنون، حين قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] كأنه يقول لهم: لقد صاحَبَكم محمد أربعين سنة، وهو يُشار إليه بالبَنان، في صدقه، وأمانته، وكمال عقله، حتى كنتم تسمُّونه بالصادق الأمين، أفلا تكفي هذه المدة الطويلة، لكي تعرفوا حقيقته، وصدق دعواه؟ كما قال سبحانه في حقه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]؟ أي أليست لكم عقول تفكِّرون بها، حول أمر دعوتي، فهذا هو السرُّ في ذكر لفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ • ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥، ٦] أي علَّم هذا القرآنَ مَلَكٌ كريمٌ، ذو قوةٍ عظيمة، شديدٌ قواه، وهو (جبريل) عليه السلام، ومن قوّته أنه اقتلع قرى قوم لوط، ثم قلبها بهم، وصاح صيحةً بثمود، فأصبحوا هالكين في ديارهم، ففي الآية كناية لطيفةٌ، كنّى عن (جبريل) بقوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ومعنى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي صاحبُ حَصَافةٍ في العقل، ومتانةٍ في الجسم، وذو منظر حسنٍ جميل.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] الضميرُ في قوله: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ يعود إلى الله تعالى، أي فأوحى جبريلُ إلى عبد الله ورسوله، ما أوحاه اللهُ إليه في كتابه العزيز، والإبهامُ في قوله: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ للتعظيم والتهويل، ومثلُه في قوله سبحانه: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤] أي غطّاها وغشّيها ما غشّيها من العجائب والغرائب، مما لا يحيطُ به الوصفُ ولا البيان، فالإبهامُ لتفخيم الأمر وتعظيم شأنه!!

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ • تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]

في الآية استفهام توبيخي مع السخرية والتهكُّم، يقول: عجباً لكم يا معشر قريش! أتجعلون لأنفسكم النوع المحبوب من الأولاد، وهم «الذكور» وتجعلون للّهِ النوعَ المذمومَ في نظركم، وهن (الإناث)؟ تلك إذاً قسمةٌ ظالمةٌ جائرة غير عادلة، حيث جعلتم للّه ما تكرهونه!!

يقول حجة الأدب العربي (مصطفى الرافعي) رحمه اللّه: وفي القرآن الكريم لفظةٌ غريبة، هي من أغرب ما فيه، وهي كلمة ﴿ضِيزَىٰ﴾ في قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ وما حَسُنتْ في كلام قطُّ إلّا في موقعها فيه، فإنّ حُسْنها في نظم الكلام، من أغرب الحُسْن، ومن أعجبه، ولو أدرتَ اللغة العربية ما صَلُح لهذا الموضع غيرُها، فإنّ مفاصل الآيات في هذه السورة على الألف المقصورة، فجاءت الكلمةُ فاصلةً من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام، فإنهم جعلوا الملائكةَ والأصنام بناتِ اللّهِ، مع كراهتهم للبنات ووأدهم لهن، فجاء القرآن ليقول لهم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ فكانت غرابة اللفظة، أشدَّ الأشياء ملاءمةً لغرابة هذه القسمة التي أنكرها القرآنُ، وكانت الجملةُ كلُّها كأنها تصوِّرُ في هيئة النطق بها، الإنكار في الأولى، والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصةً في اللفظة الغريبة، التي تمكّنَتْ في موضعها من الفواصل. (إعجاز القرآن للرافعي.. ص٢٦١).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ • وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ [النجم: ٣٣، ٣٤] (أكدى) أي قطع العطاءَ ومَنعه، مأخوذ من الكُدية وهي الصخرة التي تمنع الحافرَ من إتمام الحَفْر، وفي الآية استغرابٌ وتعجيب من شأن هذا الكاذب الفاجر، رُوي أن (الوليد بنَ المغيرة) جلس عند النبي ﷺ وسمعَ وعظَه، فتأثّر قلبُه بما سمع، وكاد أن يُسلم، فعيَّره رجلٌ من المشركين، وقال له: تركتَ دينَ آبائك وضلّلتهم، وزعمتَ أنهم في النار!؟ فقال له الوليدُ: إني خشيتُ غضبَ اللّه وعذابَه، فضمن له الرجلُ أن يتحمَّل عنه العذابَ، إن أعطاه شيئاً من المال، فأعطاه بعض الذي ضمن له، ثم بخل ومنعه الباقي، فارتدَّ الوليدُ ولم يوفِّ للرجل ما عاهده عليه، فأنزل اللّه في حقه هذه الآيات.

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ...﴾. **والمعنى:** أخبرني عن حال هذا الشقيِّ الفاجر، الذي أعرض عن الإيمان، وهُدى الرحمن، وأعطى لصاحبه ـ

الذي ضمن له تحمُّلَ العذاب ـ بعض المالِ، ثم ضنَّ وبخل بالباقي! أخبرني كيف يكون حالُه؟ هل عنده علمٌ بالغيب حتى يعلم أن صاحبه يتحمَّل عنه العذاب؟ ففي الآيات سخريةٌ لاذعة، وتهكُّمٌ واستهزاء بهذا الشقي الأثيم.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ • مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ • وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧] تدبَّرْ أسرار الكتاب المعجز، فقد تقدَّم في الآيات التعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ • وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا • وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ بلفظ (أنه) في الكلّ، ليدلَّ على وحدانيته، وعظيم قدرته، ولكنْ لمّا كان الكفارُ ينكرون أشدَّ الإنكار، العودةَ إلى الحياة، بعد الموت والفناء، جاء التعبيرُ بأسلوبٍ مغايرٍ، يدلُّ على وجوب الإعادة فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ كأنه تعالى أوجب على نفسه، إحياءَ البشر بعد موتهم، فجاء بأسلوبٍ يدلُّ على حتميَّة الإعادة، ولم يقل مثلاً: وأنه ينشئ النشأة الأخرى، وإنما قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فتدبر أسرار الكتاب العزيز!!

ثم انظر إلى القدرة الإلهية الباهرة، فإنه سبحانه خلق البشر من نطفةٍ تُراق من ماءٍ مهين هي (النُّطفة) هذه النطفة يصبُّها الرجل في رحم المرأة، فإذا هي بعد ذلك إنسانٌ كريم جسيم، ذكرٌ أو أنثى، والنطفةُ واحدة متناسبةُ الأجزاء، فكيف حدث هذا التنويع في الخَلْق؟ إنها والله عجيبة العجائب، ومعجزة المعجزات، ولكنَّ الناس عنها غافلون!! هل يستطيع أحدٌ أن يتحكَّم في نوع الوليد، إلا الله ربُّ العزَّة والجلال؟

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ • فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٤، ٥٥] لم يذكر تعالى ما أصاب الأمم الطاغية، من عذاب وبلاء، ولكن جاء بلفظ مبهم (للتهويل والتفظيع)، كأنه يقول: غطّاها ونزل بها من فنون العذاب، ما لا يُعرف أمرُهُ، ولا يُدرك هولُه، ففيه من التهويل والتفظيع، ما لا يخطر على بال، ولا يدرك هَوْلَه خيال.



الإبداع البياني في سورة القمر

١ ـ قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ١، ٢] هذه إحدى المعجزات الكونية للرسول ﷺ، أيده الله بها تصديقاً لرسالته، فقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزةً جليّة، تدلُّ على صدق نبوته، وخصُّوا بالطلب أن يشقّ لهم القمر، وأعطوه العهد والميثاق أن يؤمنوا برسالته، ويدخلوا في الإسلام إن أجابهم إلى ما طلبوا.

دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه، فاستجاب اللهُ دعاءه، وانشقّ القمر فصار فلقتين، وكانت الليلة مقمرةً ليلة بدر، فجعلوا يعركون أعينهم وينظرون، فيرونه منشقاً إلى نصفين، فقالوا: سحر محمد أعيننا!! فقال لهم أبو جهل: اصبروا حتى يقدم علينا المسافرون، فنسألهم عن ذلك، فإن رأوا ما رأيتم فقد صدق!! وإلّا فهو ساحر عظيمُ السّحر!! فلمّا قدم المسافرون سألوهم، فقالوا: رأيناه منشقاً في الليلة الفلانية، وفزعنا من ذلك أشدَّ الفزع، فقال المشركون ومعهم أبو جهل: سحر محمدٌ الناسَ جميعاً، وهذا سحرٌ بيِّنٌ دائم، فأنزل الله الآيات.

قال ابن الجوزي: إن قوماً شذُّوا فقالوا: لم ينشق القمر، وإنما سينشقّ يوم القيامة، وهو من علامات الساعة، وهذا القولُ الشاذُّ، لا يقاوم الإجماع على انشقاقه، لأن قوله تعالى: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ لفظُ ماضٍ، وحَمْلُه على المستقبل يفتقر إلى قرينة، وليس ذلك موجوداً، وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ دلّ على أنه قد حدث ذلك فعلاً، وهذا إحدى معجزات الرسول ﷺ. اهـ تفسير زاد المسير ٨/٨٨ لابن الجوزي.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١١، ١٢] في الآية (استعارة تمثيلية) عجيبة، من أروع أنواع الاستعارة وأبدعها، شبّه تعالى تدفُّق المطر بغزارةٍ من السحاب، بانصباب أنهار متدفقة، انفتحت بها أبواب السماء، وانشقّ بها أديمُ الخضراء، وكأنّ السُّحُب خزائنُ ضخمة، انفتحت أبوابها من العلياء، بالماء الثّجّاج الدافق، وكأنّ

الأرض تفجرت فيها العيون، فالتقى ماءُ السماء مع ماءِ الأرض، حتى علا الماء قِمَم الجبال، وهذا تمثيلٌ لكثرة الأمطار، وكثرة المياه المتفجرة من الأرض، بطريق (الاستعارة التمثيلية) بطريقةٍ قدرها اللهُ، لإهلاك المكذبين لإغراقهم بالطوفان.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] الدُّسُر: جمع دِسَار، والمرادُ بها المساميرُ، وقد كنّى عن السفينة بالألواح الخشبية التي ترتبط بالمسامير، بقوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي ذات أخشاب عريضة، ومسامير حديدية لتبقى قوية متماسكة، بطريق (الكناية اللطيفة) وهي من بديع أنواع الكناية.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤] في الآية (تشبيه تمثيليّ) مثّل لحفظ الله ورعايته للسفينة ورُكّابها، بتمثيل بديع، كمن يلاحظ شخصاً بعينيه، ويرعاه ويحفظه من كل مكروه بمقلتيه، بكل عناية ورعاية، وكأنه لا يغيب عن بصره، وهو تمثيلٌ بادي الروعة والجمال، بطريق (التشبيه التمثيلي).

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] في الآية تشبيه رائع، في غاية الإبداع والجمال، يسمّى (التشبيه التمثيلي) شبّه الريح العاصفة الباردة، شديدة الصوت، وهي تقتلع أجسامهم الضخمة، فترفعها إلى السماء، ثم ترمي بهم، فتدقُّ أعناقهم، ثم تتركها جثثاً هامدة، بأصول النخيل المنقلع من جذوره، وهو تمثيلٌ بديع، وتصوير عجيب، فالريح من قوّتها وشدّتها، تنتزعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتدقّ رقابهم، فتبقى أجسامهم بلا رؤوس، وكأنهم أعجاز نخلٍ محطّمة مهشّمة، مقلوعة من أصولها من الأرض، وهذا معنى (المنقعر) أي المنقلع من جذوره، ويا له من تمثيلٍ وتشبيهٍ مخيفٍ، يأخذ بالقلوب والأنفاس!!

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] كنّى عن الوحي والرسالة (بالذّكر) وهي كنايةٌ لطيفة، لأن الوحيَ الملقى إلى الأنبياء، فيه تذكيرٌ للبشر، منزلٌ من عند الله تعالى.

والمعنى: هل خصَّ اللهُ صالحاً بالنبوة والرسالة وحده؟ وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء؟ بل هو كذّابٌ أشِرٌ، أي بطر متكبّر، يريد أن يترفّع علينا بهذه الدعوى.

وصف المجرمون نبيَّهم (صالحاً) عليه السلام بوصفين ذميمين، بصيغة المبالغة، وهما ﴿كَذَّابٌ﴾ أي كثير الكذب، ولم يقولوا: كاذب، و﴿أَشِرٌ﴾ أي بَطِرٌ كثيرُ الغطرسة والكبرياء، لأن صيغة (فَعَّال) و(فَعِل) من صيغ المبالغة، وهذا منتهى الذمِّ والتقبيح لنبيِّ الله (صالح) عليه السلام، قاتلهم اللّهُ أنّى يُؤفكون.

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] فيه تشبيه بديع رائع، شبَّههم تعالى بعد هلاكهم، بورق الشجر وأغصانه المتساقطة، التي يجعل منها الراعي (حظيرةً لغنمه)، ثم تتساقط أجزاؤها وتتلاشى، فتُداسُ بالأقدام، فهو (تشبيه تمثيلي) في غاية الإبداع.

والمراد من الآية: أن اللّه أهلكهم بصيحة واحدة فظيعة، صاح بها جبريل فقطعت أنفاسهم، وأخمدت أجسادهم، حتى صاروا كالهشيم المتفتّت، وكيابس الشجر، إذا تهشَّم وتحطَّم.

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢] في الآية تشبيهٌ بديع، حُذفت منه أداةُ التشبيه، ووجه الشبه، يُسمَّى (التشبيه البليغ) أي أخذناهم أخذاً أليماً شديداً، في غاية الهول والشدَّة، مثل عقاب مَلِكٍ عظيم منتقم، قادرٍ على البطش بمن عصى أمره.

والمراد أن اللّه عزَّ وجلَّ، انتقم منهم انتقاماً فظيعاً بإغراقهم في البحر، وأخذهم أخذاً شديداً، أخذ إلهٍ عزيز قادر، لا يُفلت من عقابه ظالم، يناسب ما كانوا عليه من الجبروت والطغيان.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠] في الآية تمثيلٌ للقدرة الإلهية، في خلق الأشياء وإيجادها، **والمعنى:** خلقنا كل شيء بتقدير سابق، بحكمة وتدبير، فلا شيء يحدث صُدفة، ولا شيء بدون حكمة، وما شأننا في إيجاد شيء، إلا بكلمة واحدة، نقول له: كُنْ فيكون، لا يحتاج إلى تأكيد ثانية، وهو تمثيلٌ وتصوير لوجود الشيء بلمح البصر، والتشبيهُ ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ يسمى التشبيه (المرسل المجمل) أي كلمح البصر في السرعة والإيجاد، واللمحُ: النظرُ بالعَجَلةِ والسرعة، قال في الصحاح: لَمَحه، وألْمَحه: إذا أبصره بنظرٍ خفيف. اهـ.



الإبداع البياني في سورة الرحمن

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ • عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ • خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ • عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ •﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] بدأ تعالى السورة، باسم من أسمائه الحسنى الجليلة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لينبّه على أن نعمة الخلقِ، والنُّطقِ، والتعليم، كلُّ هذه النِّعم من فيوضات آثار اسمه الجليل (الرحمن) فمن رحمته بالعباد: تعليمُهم، وهدايتهم، وإنزالُ القرآن العظيم عليهم.. وقدّم سبحانه تعليم القرآن، على خَلْق الإنسان، مع أن الإنسان يُخلق أولاً، ثم يبدأ بالتعلم بعد أن يكبر، لينبِّه على فضل هذه النعمة الجليلة (نعمة القرآن) التي تفوق في المنزلة نعمة الخلق، ولهذا بدأ بها أولاً فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ • عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ • خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و(الرحمنُ) اسم للذّاتِ الإلهية المقدّسة، والجملُ الثلاثُ أخبارٌ مترادفة، لم تُعطف بالواو لأنها تعديدٌ للنِّعم، كما تقول: ربُّك أغناك بعد فقر، أعزّك بعد ذُلّ، كثّرك بعد قلة، فما تنكر من إحسانه؟ والمرادُ بالبيان: النطقُ، فالإنسانُ وحده من بين سائر المخلوقات هو الناطق، وبقيّةُ الأنعام لها أصواتٌ ولكنها لا تنطق، لأنها عجماوات، ولهذا سميت «بهائم» لأنها أبهمت عن النُّطق والكلام.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ • أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ • وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩] ذكر تعالى (الميزان) ثلاث مرات، وفي كل مرة له معنى جديد، فالأول يُراد به (العدل) والإنصاف، والثاني يراد به (الآلة) التي يُوزَنُ بها، والثالث يراد به (الموزون) والغرضُ من ذلك كلّه، مراعاةُ العدل في الأحكام، وفي المكيال، والميزان، فهذا ليس من التكرار، وإنما لاستكمال البيان والإيضاح.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ • بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] المرادُ بالبحرين: البحر، والنهر، وهو من باب التغليب، كما يُقال: للمشرق والمغرب: المشرقان، وللشمس والقمر: النيّران.

والمعنى: أنه سبحانه أرسل البحر، والنهر على سطح الأرض، يتجاوران

ولا يختلطان، بينهما حاجزٌ من اليابسة، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، ولو طغى البحر المالح على النهر العذب، لأفسد الحياة على سطح الأرض.

ومما يدلُّ على أن المراد بالبحرين: (البحار، والأنهار) قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] والعذبُ القراتُ لا يكون إلّا في النهر، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩١.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤] في الآية تشبيه بديع، يُسمّى (المرسل المجمل) شبّه تعالى السفن الضخمة، التي تسير بقدرة اللّه فوق الماء، ولا تغوصُ فيه بالجبالِ الشاهقة، والأعلامُ جمع علَم، وهو الجبل الطويلُ المرتفع، والمعنى: ومن دلائل قدرته ووحدانيته جلّ وعلا، السفن الجاريةُ في البحر. كأنها الجبالُ الشاهقة، تجري فوق سطح الماء، دون أن تغوص في أعماق البحار، ومن المعلوم أن الماء جسم لطيفٌ شفيفٌ، تغوص فيه الحصاةُ الصغيرة، فكيف حمل هذا الماءُ هذه البواخر الضخمة، التي هي كالأبراج؟ فيها البشرُ، والسيارات، وآلاف الأطنان من الحديد والأخشاب وسائر المعدَّات؟ إنها قدرةُ اللّه العجيبة، وهذا الوصفُ للسفن لا ينطبق إلّا على هذه البواخر الضخمة في زماننا، التي تشبه الجبالُ عظمةً وضخامة.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] في الآية (مجازٌ مرسل) من باب إطلاق الجزء وإرادة الكُلّ، أطلق (الوجْه) وأراد به (ذات اللّه) جلّ وعلا.

والمعنى: كل من على وجه الأرض يموت، ويبقى اللّه جلّ وعلا الحيُّ القيوم، وهذا المجاز مشهور عند العرب يقولون: أرسلَ الأميرُ عيونه، يعني أرسل الرجالَ الذين يأتون له بالأخبار، ولا يمكن أن يقلع العيون ويرسلها لتخبره عن أمور الناس.

قال الحافظ ابن كثير: (عبَّر بالوجه عن الذات، ومثلُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي إلّا اللّه. فهو إخبارٌ بأنه هو الحيُّ الدائم الباقي، الذي تموت الخلائقُ، ولا يموت). تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٤.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أطلق اليوم وأراد به المدة والزمن، ولو كانت قصيرة، يعني في كلّ لحظةٍ وساعة، هو سبحانه في شأن من شؤون الخلق، يغفر ذنباً، ويُفرّج كرباً، ويعزُّ

ويذلُّ، ويغني ويُفقر، وفي الآية ردٌّ على اليهود المفترين، حيث قالوا: إن الله لا يقضي شيئاً يوم السبت، لأنه يومُ راحة الربّ، فكذّبهم الله في هذا البهتان، **والمعنى**: يفتقر إليه ويحتاج له جميع الخلائق، يطلبون منه الرزق، والعون، والصحة، والأمن، وهو غنيٌّ عنهم، وفي الحديث: «مِنْ شأنِهِ أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويَضع آخرين» رواه البيهقي والطبراني.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] الآية وردت بأسلوب مفزع (أسلوب الوعيد والتهديد).

والمعنى: سنتفرّغ لحسابكم يا معشر الجن والإنس، **قال ابن عباس**: ليس بالله تعالى شُغل وهو فارغ، وهو وعيد من الله تعالى لعباده.

وقال البخاري: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في اللغة في كلام العرب، يُقال: لأتفرغنّ لك، وما به شُغل. اهـ صحيح البخاري. عبّر بالفراغ عن (الحساب) بطريق التمثيل، أو هو مستعارٌ من قول المتهدِّد لصاحبه: سأفرغ لك، وقد خاطبهم القرآنُ بالأسلوب الذي يعرفونه، والثقلان: الإنس والجن لثقلهما على الأرض.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] هذا الأمر ﴿فَانْفُذُوا﴾ أمرُ تعجيز، أي يقال لهم يوم القيامة: إن قدرتم أن تخرجوا من مُلك الله، هرباً وفراراً من عذابه، فاهربوا وخلّصوا أنفسكم من العقاب، لا تقدرون على ذلك، إلّا بقوةٍ وقهرٍ وغَلَبة، وأنّى لكم هذا؟ وأنتم في قبضة الله في أرض المحشر؟ فأين المنجى؟ وأين المهرب؟ **قال ابن كثير**: هذا في مقام الحشر، الملائكةُ محدقةٌ بالخلائق، سبعةُ صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحدٌ على الفرار والذهاب.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] في الآية ضربٌ من ضروب التشبيه، يسمى التشبيه (المرسل المجمل) لحذف وجه الشبه، ووجود أداة التشبيه، أي صارت وردةً حمراء في اللون، كلون الورد الأحمر ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي كدهن الزيت في رِقّته وسيلانه، من شدة الهول، ورهبة الموقف المخيف.

شبّه تعالى السماء بالوردة الحمراء، والأديم الأحمر، وأنها تذوب كذوبان

الدهنِ وجريانه، فتصبح حمراء من حرارة جهنم، فإذا كانت السماءُ بهذا الوصف المخيف، فكيف بحال البشر يوم القيامة؟ قال تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦] وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦] في الآية (كناية لطيفة)، كنّى بقاصرات الطرف عن (الحور العين)، والمعنى: في تلك الجنة، نساءٌ عفيفات طاهرات، في غاية الحُسْن والجمال، من الحور العين، لا تمتدُّ أبصارهنَّ لغير أزواجهن، وهنَّ أبكارٌ عذارى، لم يقربهن ولم يمسهنَّ أحدٌ من الإنس ولا من الجن، قبل أزواجهنَّ، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] فيه (تشبيه بديع)، أي كأنهنّ في الحسن والجمال، في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، شبههنَّ تعالى بالياقوت في حُمرة الوَجْنة ـ يعني الخدّ ـ وبالمرجان وهو ـ صغارُ الدُّر ـ في بياض البشرة وصفائها، وهو تشبيه رائع بديع.

وفي الحديث الشريف: «إن المرأةَ من نساءِ أهلِ الجنة، ليُرَى بياضُ ساقها، من وراءِ سبعينَ حُلّةٍ من حرير، حتى يُرَى مُخُّ ساقها» رواه الترمذي.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٧] ذكرت هذه الآية (٣١) إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة، والحكمةُ في هذا التكرار: التذكيرُ والتنبيهُ على كثرة نعم الله تعالى على عباده، ليحمدوه ويشكروه عليها، وهذا كما تقول لرجلٍ أحسنتَ إليه، وهو ينكر الإحسان: ألم تكنْ فقيراً فأغنيتُك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن جاهلاً فعلّمتُك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عَزَباً فزوّجتُك؟ أفتنكر هذا؟ والغرضُ من كل هذا، التذكيرُ للعباد بعظيم إحسان الله إليهم، ليطيعوه ويعبدوه!!

رُوي أن النبي ﷺ قرأ على أصحابه سورة الرحمن، من أوّلها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً؟ لقد قرأتها على إخوانكم الجنّ، فكانوا أحسن منكم ردّاً، كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: «ولا بشيءٍ من نعمك ربّنا نكذّب، فلك الحمد» رواه الترمذي والحاكم.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة الواقعة

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ • لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ • خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[الواقعة: ١ ـ ٣] (الواقعةُ) اسمٌ من أسماء القيامة، سميت (واقعة) لتحقُّق وقوعها، وفي قوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ مجاز عقليٌ، لأن القيامة لا تخفض ولا ترفع، إنما الخافضُ والرافعُ هو ربُّ العزة والجلال، أي يخفضُ اللهُ فيها أقواماً إلى أسفل سافلين، ويرفع فيها أقواماً إلى أعلى علّيين، فنسبةُ الخفض إليها (مجازٌ عقلي) كقول العرب: أنبتَ الربيعُ الزَّرعَ، والمنبتُ هو الله تعالى لا الربيع.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا • فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦] في الآية تشبيهٌ بليغ، حُذفت أداة التشبيه، ووجه الشَّبه، فصار (تشبيهاً بليغاً) كقولنا عليٌّ أسدٌ، ومحمد قمرٌ، أي كالأسد في الشجاعة، وكالقمر في الحسن والجمال، أي فُتِّتت الجبالُ وتطايرتْ، حتى صارت كالغُبار المنثور، المتطاير في الجو، في صغرها وتلاشي ذرَّاتها، والهباءُ: الغُبار المتطايرُ في الفضاء، وذرَّاتُ الرمل الناعم.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ • وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩] الأسلوبُ للتفخيم والتعظيم للسعداء (أصحاب اليمين) وللتفظيع والإهانة للأشقياء (أصحاب الشمال) كأنه يقول: أصحابُ الميمنة في سرور وحبور، في أسعد منزلة، وأحسن حال، وأصحاب المشأمة في أسوأ مكانة، وأقبح حال، وشتَّان شتَّان ما بين المنزلتين!!

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ • مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥، ١٦] (الموضونةُ): المنسوجةُ بالذهب، المشبَّكةُ بالدُّرِّ والياقوت، القويَّةُ اللُّحمةِ والسُّدى، والمعنى: أنهم جالسون على أسرَّة منسوجة بقضبان الذهب، مرصَّعة بالدُّرِّ والياقوت، شأن المنعَّمين المترفين، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهو وصفٌ لهم بحسن العِشرة، ومنتهى الأخلاق والآداب، أي إن أحداً لا يستدبر أحداً، ولا يكون خلفه.

قال ابن كثير: ﴿ مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ يعني وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحدٌ وراء أحد. ابن كثير ٤/٣٠٧.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] الولدانُ: جمع وليد وهو الغلامُ الذي لم يحتلم بعد، أي يدور عليهم للخدمة، غلمانٌ صغار، في نضارة الصِّبا، وجمال الصورة، لايكبرون ولا يهرمون، بأقداح من خمرٍ جارية من العيون، تجري من عيون دافقة في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥] كنّى عن الخمر بالكأس ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ وهي كناية بديعة لطيفة.

قال ابن عباس: كلُّ كأسٍ في القرآن، إنما يُراد بها الخمر، لكنها ليست بخمرٍ تُذهب العقول، ولهذا قال: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٩] أي لا يلحقهم بشربها صُداعٌ في رؤوسهم، ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا، من أنزف الشاربُ إذا ذهب عقلُه.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣] أي ولهم في الجنة نساءٌ، من الحور الجميلات الفاتنات، الواسعاتِ العيون، كأنهنَّ اللؤلؤ في الصفاء والنقاء ﴿ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أي المصون الذي لم تمسّه الأيدي، ذُكر في الآية أداةُ التشبيه الكافُ، وحُذف وجهُ الشبه، فهو تشبيه (مرسل مجمل) وهو من لطيف أنواع التشبيه.

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] أي لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً بذيئاً من الكلام، إلّا تحيّةً بعضهم بعضاً بالسلام، فحياتهم كلُّها أنسٌ وسرور، وصفاء وحبور، ولمّا كان السلامُ ليس من جنس اللغو، وليس فيه إثمٌ، بل هو محبوبٌ ومشروعٌ، لذا جاء الاستثناء بطريقة بديعة تسمّى (تأكيد المدح بما يشبه الذمّ) وهو من المحسنات البديعية، كقول القائل: لا ذنب لي عندكَ إلّا محبتك، وكقوله سبحانه: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [التوبة: ٧٤] ففيه المدحُ بصورة الذمّ، لأن إغناءهم ليس بمذموم حتى تقع فيه النقمة.

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۞ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤] الظِلُّ: ما يُستظَلُّ به من الحرّ، واليحمومُ: دخانٌ أسودُ من نار جهنم، شديدُ

السواد، وتسميةُ هذا بالظِلّ من باب (التهكُّم والسخرية) كأنه يقول: ظلُّهم يوم القيامة، من دخانٍ أسود كثيف، وشرابهم الحميمُ وهو الماء الحارُ، الذي بلغ نهاية الحرارة، فما أفضل هذا الظل؟ وما أكرم هذا الشراب؟ إنه ظلٌ حارٌ وضارٌ، ولهذا قال بعده ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي ليس هذا الظلُّ بارداً بدفع الحرّ، ولا كريماً نافعاً يقي صاحبه من أذى الحر الشديد، وهو (تهكّمٌ) صريحٌ بالكفرة الفجرة، أصحاب السعير.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] (النُزُلُ): أولُ ما يُهيأُ للضيف وقت قدومه، من التُحف والكرامة، وتسميةُ الزقُّوم والحميم (ضيافةً) ونُزُلاً، تهكُّم شديدٌ، وسخريةٌ لاذعة، تليق بالمكذّبين بآيات الله، فإن النُزُلَ للكرامة، وهذا العذابُ للإهانة والتحقير، وقوله تعالى: ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] أي شاربون من الماء الحار، شرب الإبل العطاش التي لا ترْوى.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] ظاهرُ اللفظِ نفيٌ للقسم، وحقيقته قسم، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ زيدت (لا) مبالغةً في التأكيد، كأنه يقول: أقسمُ لكم قسماً مؤكّداً بأبلغ وجوه التأكيد، إن هذا القرآنَ العظيم، كلامُ ربِّ العزّة والجلال، ليس بسحرٍ ولا كهانة، وجيء بين القَسَم، والمقسم عليه هذه الجملةُ الاعتراضية ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فهي اعتراضٌ قُصد به المبالغة، والأصل في الآية: فلا أقسم بمواقع النجوم، إنه لقرآنٌ كريم، وجيء (بالجملة الاعتراضية) للتنبيه على عظمة القسم، وفخامة شأن المقسم عليه، وهو القرآن العظيم.

١١ ـ هذه السورة الكريمة من السور المكية، وقد تحدثت عن أهوال وشدائد القيامة، وقسمت البشر إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والمقرّبون) وفي قراءتها فضلٌ عظيم، وأجرٌ جزيل.

روى الحافظ ابن كثير أن (عبد الله بن مسعود) لمّا مرض، زاره الخليفة الراشد (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، فسأله: ماذا تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني ـ يعني رب العالمين ـ قال: ألا آمر لك

بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك!! قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرتُ بناتي أن يقرأن كلَّ ليلة سورةَ الواقعة ـ وكان له خمسُ بنات ـ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ سورة الواقعة كلَّ ليلة، لم تُصبْهُ فاقة أبداً**» رواه ابن عساكر، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٨.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة الحديد

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ [الحديد: ٤] في الآية تمثيلٌ لإحاطة علمه تعالى بهم، أينما داروا وحيثما ساروا، والمراد بالمعيّة هنا ﴿وهو معكم﴾ معيّةُ العلم، لا معيّةُ الذات، كما نبّه على ذلك الحافظ ابن كثير، وحكى الإجماعَ على ذلك، وفي الحديث الشريف: «**أفضلُ الإيمان أن تعلمَ أن اللهَ معك حيثما كنت**» رواه الطبراني وأبو نُعيم في الحلية.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور﴾ [الحديد: ٦] الإيلاجُ: إدخال الشيء في الشيء، عبَّر عن إطالة النهار في الصيف وتقصير الليل، وإطالة الليل في الشتاء وقصر الليل (بالإيلاج) لأن كلّاً منهما يدخل في الآخر فيَنْقصُ منه، فكأن الليلَ يأكل من النهار، والنهار يأكلُ من الليل، وفيه من المحسّنات البديعية ما يسمى بـ (ردّ العَجُز على الصَّدر، وردّ الصَّدر على العَجُز) وهو معروف عند علماء البيان، وهو من الإبداع بمكان.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ [الحديد: ٩] في الآية استعارة بديعة، استعار لفظ (الظلمات) للكفر والضلال، واستعار لفظ (النور) للإيمان والهداية، ففي الآية (استعارة تصريحية).

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ [الحديد: ١٠] في الآية (حذفٌ بالإيجاز) حُذف منه جملة: ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، وذلك لدلالة الكلام عليه، والمراد بالفتح: (فتحُ مكة) لأن بفتحها عزَّ الإسلامُ، وكثر أتباعُه وأنصاره.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ [الحديد: ١١] في الآية (استعارة تمثيلية) لطيفة، مثَّلَ لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله، مخلصاً في إنفاقه، يبتغي بذلك رضوان الله، بمن يُقرض ربَّه قرضاً واجبَ الوفاء، فيعطيه الله أجره أضعافاً مضاعفة، ويكرمه بدخول جنات النعيم، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي من ألطف أنواع الاستعارة.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٥] المأوى: المسكنُ والمنزل، والمولى: المعينُ والناصر، والأسلوب هنا (أسلوبُ سخرية وتهكُّم).

والمعنى: مسكنكم ومصيركم نار جهنم، لا منزل لكم سواها ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هي عونكم وسندكم، وهي تتولى الدفاعَ عنكم، لا معين لكم غيرها!! وهو تهكُّمٌ لاذعٌ بالمجرمين المنافقين.

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦] ﴿ يَأْنِ ﴾ بمعنى يحِنْ يُقال: آنَى يأني مثل رَمَى يرمي، بمعنى حان، والآية عتابٌ لطيف لأصحاب النبي ﷺ، فإنهم حين قدموا المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا يقومون به، من الطاعات والنوافل، فنزلت الآية الكريمة. قال ابن مسعود: (ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاتبَنا الله بهذه الآية، إلّا أربع سنوات). رواه مسلم.

ومعنى الآية: أمَا حان للمؤمنين أن ترِقّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ولا يكونوا مثل (اليهود والنصارى) الذين طال عليهم الزمنُ، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وحرّفوه وبدّلوه، فأصبحت قلوبهم قاسية مثل الحجارة، لا ترِقّ لنصح ولا موعظة، وأكثرهم فاسقون خارجون عن طاعة الله.

٨ ـ **قوله تعالى:** ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧] الآية وردت (مورد التمثيل) وهي تمثيل لتليين القلوب بعد قسوتها، ولتأثير ذكر الله فيها، بالأرض القاحلة المجدبة، تعود طيِّبة مخصبة بالمطر، فكما تحيا الأرض بالغيث المدرار، كذلك تحيا القلوب القاسية بالحكمة ونور القرآن، ففيها تشبيه القلوب الميتة، بالأرض المجدبة، تحيا بالعلم والحكمة.

٩ ـ **قوله تعالى:** ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ... ﴾ [الحديد: ٢٠] في الآية تشبيه عجيب بديع يُسمّى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه التشبيه منتزعٌ من أوصاف متعددة، شبّه الدنيا في بهجتها ونُضرتها، بمثل مطرٍ غزير، أصاب أرضاً فأخرجت أنواع النبات الزاهي الخضر، تعجِبُ من حسنه الزُرّاع لِحسنه وبهائه،

ثم لا يلبث هذا الزرعُ أن يصبح هشيماً يابساً، بعدما كان خضراً نضراً، هكذا مثلُ الحياة الدنيا متاعٌ زائل، لا يلبث أن يفنى ويزول، كالفتاة الشابة تكتهل، ثم تصبح عجوزاً شوهاء، ولا يغترُّ بهذه الدنيا إلا الغافل الجاهل.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١] في الآية تشبيهٌ بديع يسمى التشبيه (المرسل المجمل) لوجود أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه، أي جنة واسعة فسيحة.

والتمثيل هنا للتقريب إلى الأذهان، وإلا فالجنة أعظمُ وأكبرُ ممّا يتصوره الخيال، ولهذا لم يقل: عرضها السموات والأرض، وإنما قال: ﴿ كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على وجه التشبيه والتمثيل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «أن أقلَّ أهلِ الجنة منزلةً يوم القيامة، من له قدرُ الدنيا وعشرةُ أمثالها» رواه مسلم.

والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟﴾ أي سارعوا إلى نيل الخيرات، مسارعةَ المتسابقين في الميدان، كأن المؤمنين في ميدان سباق، يتسابق فيه الفرسان.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ... ﴾ [الحديد: ٢٣] ﴿تَأْسَوْا۟﴾ تحزنوا. والمعنى: أخبرناكم أن كلّ ما يجري عليكم من مصائب الدنيا، بتقدير من الله تعالى، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا.

وليس المراد بالنهي عن الحزن والفرح، اللَّذيْن لا ينفكُّ عنهما الإنسانُ، فإنه ليس من أحدٍ إلّا وهو (يحزن) و(يفرح) ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً، وإنما المرادُ الحزنُ المخرج لصاحبه عن الصبر، والتسليم لقضاء الله، والفرح الملهي عن الشكر، فتدبّرْ هذا واللهُ يرعاك.!

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٧] قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ الاستثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تعالى، ومع أنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم، لكنّهم لم يراعوها ولم يحافظوا عليها، تظاهروا بالعبادة والدين، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وعاثوا في الأرض فساداً، وأصلُ الرهبانية: المبالغةُ في العبادة، ورفضُ النساء، وتركُ شهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع في قُلَل الجبال.

قال ابن كثير: هذا ذمٌّ لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداعُ في دين الله ما لم يأمر به اللهُ.

والثاني: عدمُ قيامهم بما التزموه، وزعموا أنه قربة لله!!

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] ظاهرُ قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ النفيُ، ومعناه الإثباتُ أي ليعلم أهلُ الكتاب، و(لا) مزيدة للتأكيد.

والمعنى: إنّما بالغنا في هذا البيان عن أهل الكتاب، ليعلموا أنهم لا يقدرون على حصر النبوة فيهم، ولا يملكون منعَ فضل الله عن أحدٍ من عباده، فالآية الكريمة ردٌ على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: الرسالةُ والوحيُ في (بني إسرائيل) لا تخرج عنهم، فردَّ الله عليهم ذلك الافتراء الكاذب، وبيّن أن فضله ليس محصوراً في طائفة، وليس بيد أحد، وإنما أمرُ النبوة والرسالة بيد الرحمن، يجعلها فيمن يشاء من عباده، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾!! [الأنعام: ١٢٤].

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة المجادلة

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] في الآية (عطفُ الخاصّ على العامّ) رفعاً لقدره، وتنبيهاً على شرفه، فقد دخل أولو العلم في جملة المؤمنين أولاً، ثم خُصُّوا بالذكر ثانياً، للدلالة على علوّ شأنهم، وسموّ مكانتهم عند الله تعالى، وكفى بهذا فخراً لأهل العلم.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً . . .﴾ [المجادلة: ١٢] في الآية (استعارة تمثيلية) شبّه تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ، بتقدُّم الجنود أمام الملك، أو أمام قائد الجيش، تعظيماً وتفخيماً له، كعادة السلاطين والعظماء، يتقدمهم الوزراء وقادة الجيوش.

والمعنى: إذا أردتم التحدث مع الرسول سرّاً، في بعض شؤونكم المهمّة، فتصدَّقوا قبلها على الفقراء والمساكين، والآيةُ نزلت حين أكثرَ الناسُ السؤالَ على رسول الله ﷺ حتى شغلوا وقته وأسأموه، فأمرهم الله بدفع شيء من المال، صدقةً على الفقراء قبل مناجاته، ليشعرهم بمكانة الرسول، وبقيمة وقته الثمين، ثم نسخَ اللهُ هذا الحكم تخفيفاً عليهم.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤] الأسلوب في الآية، أسلوبِ استغرابٍ وتعجيب من حال المنافقين، يقول: ألَا تعجب من هؤلاء المنافقين، الذين يزعمون الإيمان، ثم يتخذون اليهود أولياء، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين، ويحبونهم ويودُّونهم، وهؤلاء ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود، إنما هم أناسٌ منافقون مذبذبون، يحلفون الأيمان المغلَّظة، وهم كفرةٌ فجرة، ألَا تعجبْ لحالهم، وجرأتهم على الإقدام على الحلف بالله كاذبين!؟

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة ١٩] الاستحواذُ: الإحاطةُ بالشيء من كل جانب، أي استولى الشيطانُ عليهم وعلى قلوبهم ومشاعرهم، حتى نسوا ربهم، فلم يذكروه بقلوبهم ولا

بألسنتهم، تشبيهاً بإحاطة جيش الأعداء بكتائب المقاتلين، حتى لم يعد لهم نجاة ولا مخلص، وهذا إبداعٌ في التعبير، يشير إلى تملُّك الشيطان لهم، من كل جهة ومن كل جانب، حتى كأنهم أصبحوا في قبضته، ورهن إشارته.!

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] جاء الأسلوب بصيغة النفي ﴿لَّا تَجِدُ﴾ ولم يرِدْ بأسلوب النهي، مبالغةً في التذكير، والتحذير من محبة أعداء الله، كأنه يقول: هذا لا يحدث ولا يُتصوَّر أن يحبَّ مؤمنٌ من عادى اللّهَ ورسوله، فلا يمكن أن يجتمع في قلب واحدٍ، حبُّ اللّهِ وحبُّ أعدائه، كما لا يمكن أن يجتمع النور مع الظلام، ومجيئهُ بطريق الإخبار، أبلغُ من مجيئه بطريق النهي.

نزلت هذه الآية في (أبي عُبيدة) قَتَل أباه الجرَّاح في غزوة بدر، وفي (مُصْعب بن عُمير) قتل أخاه (عُبيد بن عمير) في غزوة أحدٍ، وفي (أبي بكر الصديق) همَّ أن يقتل ابنه عبد الرحمن، ولكنه هرب منه، وفي (عمر بن الخطاب) قتل خاله يوم بدر، وفي أمثالهم من المؤمنين الصادقين.

وروى السيوطي في الدُرّ المنثور، أن (عبد الله) بن عبد الله بن سلول، جلس ذات يوم إلى جانب الرسول ﷺ، فشرب رسولُ الله الماء، فقال له (عبد الله) رضي الله عنه ـ وكان من خيرة شباب المسلمين ـ يا رسول الله: أبْقِ فضلةً من شرابك!! قال: فما تصنع بها؟ قال: أسقيها أبي لعلَّ اللّهَ يطهِّر قلبه! ففعل ﷺ، فأتى أباه بها، فقال: ما هذا؟ قال: هذا فضلةٌ من شراب رسول الله ﷺ جئتك بها لتشربها لعلّ الله يطهِّر قلبك!! فقال له أبوه: هلّا جئتني ببول أمك؟ فغضب ابنه ورجع إلى النبي ﷺ يستأذنه في قتل أبيه، فقال له ﷺ: بل ترفق به وتحسن إليه) الدر المنثور للسيوطي، وهكذا شأن الإيمان، لا يمكن أن يهادن الكفر، أو يلتقي معه على حال من الأحوال.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي ثبّتَ ومكَّن في قلوبهم الإيمان، حتى صار كالجبل الراسخ، لا يتزلزل ولا يتزعزع، عبَّر عن التمكين والثبات بالكتابة. ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ بطريق (الاستعارة التصريحية) كأن الإيمان كتابةٌ كتبت على قلوبهم فلا تمحى، نسأله تعالى أن يغرس في قلوبنا محبة الدِّين والإيمان.

الإبداعُ البيانيُّ في سورة الحشر

١ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ [الحشر: ٢] في الآية (كناية لطيفة) كنّى عن أول مرة طُرد اليهود فيها من المدينة المنورة (بالحشر) لأنهم أخرجوا من مساكنهم، لأول مرة من الجزيرة العربية، شُبِّه إخراجُهم بيوم الحشر الأكبر، لأن معنى الحشر: الجمعُ، فقد جُمِعوا ثم أُخرجوا بذلك الذل والهوان، وطهّر اللهُ البلادَ من رجسهم وفجورهم، فكان لهم ذلك جلاءً عاماً.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ [الحشر: ٢] الآية على (حذف مضاف) أي أتاهم عذابُ الله، من حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم، عبّر عن مجيء العذاب، بإتيان الله بطريق (المجاز المرسل)، كقوله سبحانه ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهل القرية.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ . . .﴾ [الحشر: ٧] (الدُّولة) بمعنى التداول، أي لكيلا يستأثر الأغنياءُ بهذا المال دون الفقراء، مع شدة حاجة الفقراء إلى المال، وهذه قاعدة أساسية عظمى من قواعد (النظام الاقتصادي المالي) في الإسلام، يحفظ التوازن بين أفراد المجتمع، ولهذا جاءت فريضة الزكاة سنوية، بنسبة واحدٍ في الأربعين، من جميع ما يملك المسلم من أموال نقدية، أو عروض تجارية، فالذي يملك أربعين ألف درهم، عليه كل عام ألف درهم، والذي يملك أربعين مليوناً، فعليه كلَّ عام مليون، وبذلك فتّت الإسلامُ الثروة، فجعلها بين أيدي عامة الأمة، ولم يجعلها في أيدي فئة محتكرة، تمتصّ دماء العاملين، ولو طُبقت الزكاة على وجهها الكامل، فلن يبقى فقير من المسلمين على وجه الأرض، يشكو ألم الجوع والحرمان.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الحشر: ٩] في الآية (استعارة لطيفة) شبّه تعالى الإيمان المتمكّن في قلوبهم، بمنزلٍ كريم نزل فيه القومُ، وتمكّنوا من الاستقرار فيه، حتى صار لهم مستقراً

ومكاناً، فالإيمانُ باللّه عقيدةٌ ترسخ في القلب، لا يمكن أن يسكن فيها الإنسان، ولكنها جاءت بطريق (الاستعارة البديعة) في أجمل صور التعبير عن الاستقرار، تشبيهاً لها بالمنزل والمسكن.

٥ ـ **قولُه تعالى:** ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر: ١٦] في الآية تشبيه رائع بديع يسمى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدِّد، أي مَثَلُ المنافقين مع اليهود، كمثل الشيطان مع الإنسان، يُغريه بالكفر، ثم يتنكَّر له ويتخلَّى عنه، حتى يوقعه في الهلاك.

ومن غرائب الأخبار (أن راهباً كان يتعبد ربَّه في صومعة، وكانت فتاةٌ ترعى الغنم، فاشتكت ذات يوم، فمرَّت بصومعة الراهب، فجلست عنده تطلب منه الدعاء، فأعجبه حسنها، فأغلق عليها الباب وفَجَرَ بها فحملت منه، ولمّا خشي الفضيحة، وسوس إليه الشيطانُ أن اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجلٌ مصدَّق يُسمع قولُك، فقتلها ثم دفنها، وكان لها إخوة، فأتى الشيطانُ أحدَهم في المنام، وقال له: إنَّ الراهب صاحب الصومعة، فَجَر بأختكم فلمّا حبلت منه، قتلها ودفنها في مكان كذا وكذا، فلما استيقظوا أخبرهم أخوهم بما رأى في منامه، فانطلقوا فوجدوا أختهم مدفونة في ذلك المكان، فأخبروا الملكَ بخبر الراهب، فأمر الناسَ أن يجتمعوا ليروا مقتل ذلك الراهب الفاجر، ولما أُتي به ليُقتلَ، جاءه الشيطانُ فقال له: أنا الذي أوقعتك في هذه الورطة، ولن ينجيك منها غيري، فاسجد لي سجدة، وأُنجيكَ مما أوقعتُك فيه، فسجد له، ولمّا وصل إلى الميدان، نُفِّذ فيه حكمُ القتل، فخسر دنياه وآخرته)..

ذكر هذه القصة الحافظ ابن كثير في تفسيره، وقال: اشتهر أن اسم العابد (برصيصا).

٦ ـ **قولُه تعالى:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] كنَّى تعالى عن القيامة (بالغد) لقربها، لأن كلَّ آتٍ قريبٌ، فكأنها اليومُ الذي يتلو يومك.

والمعنى: خافوا اللّه واحذروا عقابه، ولينظر الإنسانُ ماذا ادَّخر ليوم القيامة، والتنكير فيه (للتفخيم والتهويل) لأنه يوم عصيب، وعذابُه مخيف.

٧ ـ **قولُه تعالى:** ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] هذا تصويرٌ وتمثيل لعلوّ شأن القرآن، وقوة تأثيره على

القلوب الحيّة، بحيث لو خوطب به جبل ـ على صلابته وقسوته ـ لتصدّع وتفتّت من خشية الله، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] والغرضُ تنبيه الغافل والجاهل، على عظمة القرآن المجيد، فإن الجبال الصُمَّ لتتصدّع من قوة حجته، وسحر بيانه، فكيف لا يتأثر به قلبُ الإنسان؟

وفي الآية إشارة بليغة، إلى قسوة قلب الإنسان، وعدم تخشّعه عند تلاوته، وقلة تدبره لمعانيه، فالجبال تلين وتخشع، وقلب الكافر في غلظته وقساوته لا يلين ولا يخشع!!



الإبداعُ البيانيُّ في سورة الممتحنة

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ...﴾ [الممتحنة: ١] هذا شرطٌ حُذفَ جوابُه أي إن كنتم خرجتم من أوطانكم، مجاهدين في سبيل الله، طلباً لرضوان الله تعالى، فلا تتخذوا أعداء اللهِ أنصاراً وأعواناً لكم، وبمعنى أوجز: إن كنتم أوليائي فلا تتولوا أعدائي.

نزلت الآيات في حادثةٍ وقصةٍ عجيبة، وهي أن المشركين لمّا نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وتجهّز الرسول لغزوهم في مكة، أرسل (حاطب بن أبي بَلْتعة) يخبرهم أن الرسول تجهّز لقتالهم، ليأخذوا حذرهم، وأرسل لهم رسالة مع امرأةٍ مسافرة، ونزل الوحيُ على رسول الله ﷺ يخبره بالأمر، فبعث الرسول بعض أصحابه وقال لهم: انطلقوا إلى (روضة خاخ) فإن فيها ظعينة ـ مسافرة ـ معها كتاب فخذوه منها، فانطلقوا مسرعين حتى أتوا الروضة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب!! فقالت: ما معي كتاب، فقال لها عليٌّ رضي الله عنه: لتخرِجِنَّ الكتاب أو لنلقينَّ عنك الثياب، فأخرجته من ضفائر شعرها.

فأتوا به النبيَّ ﷺ فقال: «ما هذا يا حاطب»؟ فقال يا رسول الله: لا تعْجَلْ عليَّ، واللهِ ما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولكنْ أردتُ أن يكون لي عند المشركين يدٌ أحمي بها قرابتي، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد صَدَقكم».

فقال عمر يا رسول الله: دَعْني أضربْ عُنُق هذا المنافق!! فقال له ﷺ: «يا عمر إنه قد شهد بدراً، وما يُدريك لعلَّ اللهَ اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم!!» ففاضتْ عينا عمر بالدموع، وأنزل اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] أخرجه البخاري في التفسير.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧] (عسى) وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ تفيد (التحقيق) على عادة كلام

العظماء، وقد حقّق اللّهُ هذا الوعد للمؤمنين. فلما يسّر اللّه على رسوله فتح مكة، أسلم قومُهم، وتمّ بينهم التحابُ والمودة والصفاء، ودخل الناسُ في دين اللّه أفواجاً، والمعنى: لعلّ اللّهَ يُغيّر الحال، فيجعل بينكم وبين أقاربكم الكفار مودّةً ومحبة، بأن يُسلموا، فتزول بينكم وبينهم عوامل الشحناء والبغضاء!!

وقد حقّق اللّه لهم ذلك في (فتح مكة) والحمد للّه رب العالمين.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] في الآية جملة اعتراضية وهي قوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ للتنبيه على أن أمر الإيمان على حقيقته، لا يعلمه إلا اللّه، فلنا الظاهر واللّهُ يتولّى السرائر.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] العِصَمُ: جمع عصمة والمراد بها: النكاح. والكوافر جمع كافرة

والمعنى: لا تتمسّكوا بعقود نكاح زوجاتكم الكافرات، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة، فلا يعتبرها زوجة له، فقد انقطعت بينهما العلاقات الزوجية، بسبب كفرها، كنّى عن (النكاح) بالعصمة.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] كنّى بذلك عن (اللقيط)، وهذه من (لطائف الكنايات)، كانت المرأة تلتقط اللقيط المولود، فتقول لزوجها: هو ولدي منك، فكنّى عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها، لأن بطنها بين يديها، ومخرج المولود بين رجليها.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣] في الآية (تشبيه مرسل مجمل) حذف منه وجه التشبيه فصار مجملاً، وفيها (الإيجاز بالحذف) أي يئسوا من ثواب الآخرة، كما يئس الكفار من موتاهم، أن يعودوا إليهم بعد الموت، فقد كانوا يقولون: هذا آخر العهد به، ولن تراه أبداً بعد اليوم، تفسير ابن كثير، والمحرر الوجيز لابن عطية ١٤/ ٤٢٠.

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة الصف

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] في الآية عتابٌ وتوبيخ، على عدم موافقة العمل للقول، كأنه يقول: هذا شيء عجيب جداً، أن يقول الإنسان شيئاً ولا يفعله، والتوبيخ في الحقيقة على (عدم الفعل) وإنما وجّهه إلى القول ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ تنبيهاً على تضاعف معصيتهم، ببيان أن المنكر ليس ترك الخير، بل ترك الوعد الذي قطعوه على أنفسهم.

رُوي أن المؤمنين قالوا ـ قبل أن يُؤمروا بالجهاد: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى اللّه لعملناه، فلما فُرض عليهم الجهادُ، تباطأ بعضُهم، وكرهه بعضهم، فنزلت الآية. (رواه الترمذي).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] في الآية تشبيه (مرسل مفصّل) شبّههم تعالى في ثباتهم وصمودهم أمام الأعداء، بالبناء المحكم الوثيق، الذي صُفّت حجارتُه حتى صار متماسكاً كالسدِّ المنيع، لا يتزحزح ولا يتزعزع، وهو تشبيه فائق الروعة والإبداع، وتكاد الآية تكون صريحة، في أن ما قالوه، كان هو الوعد بالقتال، ولهذا جيء بهذه الآية عقب العتاب لهم في الآية السابقة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨] ما أروع هذا التمثيل وما أبدعه!! فقد جاء التصوير لحال الكفار، بأبلغ أساليب الروعة والإبداع.

صوّر تعالى حال هؤلاء الأعداء لدين اللّه، بصورة جماعة حمقى مجانين، أرادوا أن يطفئوا نور الشمس، بأفواههم الصغيرة الحقيرة، فنفخوا على الشمس لطمس نورها، فهل يؤثر ذلك شيئاً على الشمس، الساطعة اللّامعة؟ إن كيدهم ذاهب، وعملهم خائب، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهذا غاية في الإبداع، والتصوير لموقف الكفرة المشركين من دين الإسلام، دين اللّٰهِ الخالد!!

والتصويرُ جاء على طريق (الاستعارة التمثيلية)، وهي في غاية الروعة والإبداع.

٤ ـ **قولُه تعالى:** ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ [الصف: ١٠] هذا أسلوبُ (تشويقٍ وترغيب) يرغّبهم في تجارةٍ رابحة على الدوام، ولفظ (التجارة) يُطمع بالربح، ويرغّب في الإقدام على التجارة، شبَّه تعالى الإيمان والجهاد، بصفقةٍ تجارية مضمونة الربح، لا تبور ولا تخسر.

والمعنى: هل أرشدكم يا معشر المؤمنين، إلى تجارة ثمينة، لا تكسد ولا تخسر؟ ثم بيَّن أنها (الجهادُ في سبيلِ الله) مع الإيمان الصادق، وتسميتُها تجارة جاء بطريق التمثيل البديع.

٥ ـ **قولُه تعالى:** ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم﴾ [الصف: ١٤] نصرةُ الله: يُراد بها نصرةُ دينه ورسوله، فالآية فيها (إيجاز بالحذف) أي كونوا أنصار دينه، وحملةَ شريعته، وأعوانَ رسوله، انصروا دين الله كما نصَرَ الحواريون دينَ الله، واستمسكوا بشريعته الغرّاء، حتى يكتب الله لكم النصر على الأعداء، والتشبيهُ هنا واردٌ بأسلوب (التشبيه المرسل المجمل)، وهو تشبيهٌ بديع، في غاية الحُسْن والإبداع!!



الإبداع البياني في سورة الجمعة

١ - **قوله تعالى:** ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

ما أروع وأبدع أمثال القرآن، وتشبيهاته الفائقة العجيبة!! تصوّروا حماراً وضعنا فوق ظهره، خزانةً من الكتب العلمية النافعة، ماذا يستفيد منها؟ هل يصبح عبقرياً، فيلسوفاً، نابغاً؟ سيظل حماراً، إذاً ماذا انتفع من هذه الدرر والجواهر العلمية الثمينة؟ إنه لم ينله منها إلا التعب والعناء.

والتشبيه بالحمار لزيادة التحقير والإهانة، ونهاية (السخرية والتهكم)، لأن الحمار مشهور بالبلادة والغباء.

ومعنى الآية: مثلُ اليهود الذين أُعطوا التوراة، وكُلّفوا بتطبيق أحكامها، ثم لم يطبّقوها ولم يعملوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل الكتب الضخمة النافعة، ولا يناله منها إلّا الشقاء والتعب، والآيةُ تعريضٌ بنا نحن المسلمين، إذا لم نطبّق أحكام القرآن الكريم، كما يقال في الأمثال (**إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة**)!!

٢ - **قوله تعالى:** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] **الأسلوبُ يحمل (طابع التحدّي)** لتكذيب دعوى الخصم، فقد زعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، المفضّلون على سائر البشر، فجاءهم القرآن بقوارع الزجر والإفحام، أي قل لهم: إن كنتم حقاً أحباب الله كما تدّعون، فتمنوا الموت، لتُنقلوا من دار البلاء، إلى دار الكرامة والهناء!!

وقد أخبرنا القرآنُ الكريم خبراً جازماً محقّقاً أنهم لن يتمنوه بحالٍ من الأحوال، وهذا من معجزات القرآن، حيث تحقّق ما أخبر عنه.

وفي الحديث الشريف: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقعدهم من النار» رواه البخاري.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] أطلق البيعَ وأراد جميعَ (أنواع المعاملات) من بيعٍ، وشراء، وإجارةٍ، ورهنٍ، وغير ذلك من معاملات البشر، فكنَّى بالبيع عن جميع صور العقود والمعاملات، لأنَّ الغالب في أحوال البشر، هو البيعُ والشراءُ، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكُلْ)!.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ١١] التفنُّن بتقديم الأهمْ في الذكر، ذَكر التجارة أولاً، لأنها المقصود الأساسي في الغنى والثراء، وأخّر اللهو ﴿تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ ثم قال: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فقدَّم اللهو على التجارة، لأنَّ الخسارة بما لا نفع فيه، أعظَم وأفدحُ، فقدَّم ما هو الأهمُّ في الموضعين، وهذا من الأسلوب الحكيم.

رُوي في سبب نزولها: أن تجارةً قدمت من الشام، وكانَ بالمدينة مجاعةٌ وغلاءُ سعر، وفيها من أنواع ما يحتاج الناس إليه (من بُرّ، ودقيق، وزيت) وغير ذلك، والنبيُّ ﷺ يخطب الجمعة، فلمّا علم أصحابُ المسجد بذلك، قاموا يتسابقون نحو التجارة، خشيةَ أن يفوتهم الرزق، لشدة حاجتهم إليه، وما بقي مع النبي ﷺ إلّا عدد يسير، فيهم (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزُّبير) فنزلت الآية الكريمة، وفيها عتابٌ لأصحاب النبي ﷺ الذين انصرفوا عن سماع الخطبة.

قال الحافظ ابن كثير: (وينبغي أنَّ نعلم أن هذه القصة، كانت لمّا كان النبي ﷺ يُقدِّم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة، كما هو الحال في صلاة العيدين، كما رواه أبو داود في المراسيل). اهـ تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٢.

أقولُ: الظنُّ الجميلُ بأصحاب رسول الله ﷺ هو هذا، فما حصل منهم، هو تركُ سماع الخطبة، لا تركُ الصلاة، فإن الصلاة كانت قبل الخطبة، وإلاَّ فمحالٌ على أصحاب رسول الله ﷺ أن يتركوا الصلاة، ويخرجوا من أجل التجارة، وقد أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يجعل الخطبة قبل الصلاة بعد هذه الواقعة، وجاء فيها العتاب للصحابة الكرام، لتركهم سماع الخطبة، وهي من الهفوات التي حدثت منهم، ونزل فيها التشريع الإلهي الحكيم.

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة المنافقون

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ جملة اعتراضية جاءت بين الشرط وجوابه، لدفع توهُّم تكذيبهم في قولهم: إنك لرسولُ الله، فهو رسولُ الله حقاً، ولكنَّ الله كذَّبهم، لأنهم أظهروا غير ما أبطنوا، وقالوا بألسنتهم ما لا يعتقدونه في قلوبهم، والأصلُ في الآية ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما لما ذكرنا.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢] في الآية (استعارة بديعة) فإن أصلَ الجُنَّة: ما يُستتر به ويُتَّقى من المخاطر، كالدرع، والتُّرس، وسائر أسبابِ الستر والوقاية، شُبِّهت أيمانهم الكاذبة، التي كانوا يحلفون بها بالجُنَّة، بطريق (الاستعارة التصريحية) وهي من لطيف أنواع الاستعارة.

ومعنى الآية: جعلوا أيمانهم الكاذبة، وقايةً لهم وستراً، يستترون بها من القتل، فما دخلوا في الإسلام عن قناعة وإيمان، وإنما عن مكرٍ وخُبْث، فمنعوا الناس عن الإسلام، بالتنفير عنه، وإلقاء الشُّبَه، وعدم الإنفاق في سبيل الله، فبئس هذا الصنيعُ منهم، وبئس ما يفعلون!!

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ...﴾ [المنافقون: ٤] في الآية تشبيه بديع، من روائع ضروب التشبيه، شبَّه أجسامهم الضخمة ـ الخالية من العقل والإيمان ـ بالخشب المنصوبة على الحيطان، تشنيعاً عليهم وتقبيحاً لهم، وحذف المشبَّه به على طريقة (الاستعارة التمثيليَّة) وفي هذا التشبيه روعة وجمال، حيث جُعلوا كالأصنام التي تسمع ولا تعقل.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] جملة (قاتلهم اللّهُ) جملةٌ دعائية أي لعنهم اللّه وأهلكهم، كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وفيه تعجيب من إغراقهم في النفاق والضلال، والتعبيرُ في قوله سبحانه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ تعبيرٌ رائع، يرسم صورتهم وكأنهم يخشون من ظِلّ أنفسهم، فإذا نادى المنادي لأمرٍ من الأمور، ظنوا أنهم المقصودون بالذات، على حد قول المثل: (يكاد المريبُ يقول خذوني)!

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧] قولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إنما قالوا ذلك على سبيل (السخرية والاستهزاء)، إذْ لو كانوا مؤمنين بنبوته ورسالته، لم يقولوا مثل ذلك الفجور.

روى الإمام البخاري عن (زيد بن الأرقم) قال: (كنتُ في غزوةٍ مع عمّي، فسمعتُ ابنَ سلول المنافقَ يقول: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ ويقول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فذكرتُ ذلك لعمّي، فذكره لرسول اللّه ﷺ، فأرسل رسولُ اللّه ﷺ إلى ابن سلول وأصحابه، فحلفوا ما قالوا!! فصدّقهم رسولُ اللّه ﷺ وكذّبني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثلُه قطُّ، فجلستُ في البيت، فقال لي عمّي: ما أردتَ إلّا أن كذّبك رسولُ اللّه ومقَتَك!!.

فأنزل اللّه هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ السورة، فبعث النبيُّ ﷺ إليّ فقال: إن اللّهَ صدّقك يا زيدُ، وقرأ عليَّ السورة).

اهـ انظر صحيح البخاري/ ٤٩٠٠/ كتاب التفسير، وصحيح مسلم/ ٢٧٧٢.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] المراد بذكر اللّهِ: طاعتُه، وعبادتُه، والجهادُ في سبيله، وجميع العبادات من (صلاة، وصيام، وحج، وزكاة) وسائر القربات والطاعات، وليس المراد بها الذكرُ باللسان فحسب، ويدلّ على ذلك، أن اللّه تعالى سمّى صلاة الجمعة ذكراً فقال: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فكنّى عن جميع التكاليف الشرعية، والعبادات، والطاعات، (بالذكر) فتنبّه واللّه يحفظك ويرعاك.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة التغابن

١ ـ قوله تعالى: ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦] هذا القول منهم على سبيل الإنكار والاستبعاد، أنكروا أن يكون الرسول من البشر، ولم ينكروا أن يكون إلههم ومعبودهم من الحجر!! والمراد أن كلّ قوم قالوا في حقّ رسولهم: أبعث اللّه بشراً!؟ ولذلك كذّبوهم وسخروا منهم، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٤]؟ أي نكون مجانين إن اتّبعناه، وهذا من باب (إطلاق الكُلّ وإرادة البعض) لأن كل أمة قالت عن نبيّها هذا القول: كيف نتّبع رسولاً من البشر؟

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨] استعار لفظ (النور) للقرآن العظيم، وهي (استعارة تصريحية) بديعة، لأن القرآن يزيل الشبهات، كما يزيل النورُ الظلمات.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: ٩] الغبنُ في اللغة: النقصُ والخسرانُ، وسُمّي يوم القيامة (يوم التغابن) لأن فيه يظهر غبنُ الكافر، وخسارتُه الفادحة، فقد ضاع ما كان يؤمّله، بتركه الإيمان، وإعراضه عن دعوة الرحمن، وفي القيامة تظهر الخسارة الحقيقية للإنسان.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ [التغابن: ١٧] في الآية (استعارة تمثيلية) بلغتْ أَوْج الإبداع، شبّه الإنفاقَ في سبيل اللّه، والإحسانَ إلى الفقراء والمساكين، بقرضٍ يُقرضه العبد لربه، واجب الوفاء، بطريق (التمثيل الإبداعي)، فهو سبحانه المعطي الرازق، ثم يطلب من عباده أن يقرضوه بعض المال، ليردّه لهم أضعافاً مضاعفة، فما أكرمه من قرض!! وما أعظمه من عطاء!! وهو من لطيف الاستعارة، وبديع العبارة.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة الطلاق

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] الخطابُ للنبي ﷺ والحكمُ عامٌ له ولأمته، خُصَّ ﷺ بالخطاب والنداء، تعظيماً له وتشريفاً، وجيء بصيغة الجمع ﴿طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على سبيل التفخيم والتعظيم، كما يُنادَىٰ العظماءُ والملوكُ فيقال: فخامتكم أمرتم، وجلالتكم وعدتم بكذا.. إلخ، خُوطب النبيُّ والمقصودُ بالخطاب أمتُه، لأنه ﷺ قائدُ الأمة وإمامُها، والأمةُ تُخاطب بزعيمها، ومعنى ﴿طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي إذا أردتم تطليق النساء، فطلِّقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، على الوجه الشرعي، ولا تطلقوهنَّ في وقت الحيض.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١] الفاحشةُ: ما عَظُم قبحُه من الأفعالِ، والأقوالِ، والمراد بها هنا: القولُ القبيحُ، وبذاءةُ اللسان، والسبُّ والشتمُ للزوج وأهله، فحينئذٍ يسقط حقُّها من السكنى، وتُخرَج من بيت الزوج، ومن قال: المراد بالفاحشة (الزنى) فإنه قولٌ ضعيف، لأنها إذا زنت وهي متزوجة، فحدُّها الرجمُ، فلا يمكن أن يؤمر الزوجُ بإبقائها في البيت، وهي ترتكب أفحشَ الجرائم!!

قال ابن عباس: الفاحشةُ: بذاءةُ اللسان، والاستطالةُ على أهل الزوج بالسباب والشتائم.

والحكمةُ من بقاءِ الزوجة في (بيت الزوجية) أن الزوج إذا رآها حزينة، مكسورة الجناح، بعد ثورة الغضب والطلاق، قد يَرِقُّ قلبُه فيراجعها، أو تشعر هي بالخطأ والندم، فتحاول أن تغيّر سلوكها مع زوجها، وتحاول أن تسترضيه لتعود المياه إلى مجاريها، ولو خرجت من البيت أو أُخرجت منه، لعمل الشيطانُ عملَه في توسيع أسباب (النفرة والفراق)، فلا يتحقَّق الغرضُ المنشود، فتدبَّرْ حكمة التشريع الإسلامي، الذي يهدف إلى تماسك الأسرة.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ

أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ . . .﴾ [الطلاق: ٤] في الآية (إيجازٌ بالحذف) حُذف منه الخبر، تقديره: واللائي لم يحضن لصغرهنَّ، فعدتهنَّ ثلاثةُ أشهر أيضاً، حُذف ثقةً بدلالة أول الآية عليه، والمراد من قوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي جهلتم قدر عدتهنَّ، ولا يُراد بها الشكُّ في الحكم.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ . . .﴾ [الطلاق: ٨] لا يراد بالقرية المدينةُ نفسها، إنما يراد أهلُها، لأن العقاب كان لأهل القرية، حيث أهلكهم اللّهُ ودمَّرهم، ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق القرية وأراد به أهلها وسُكّانها، من باب تسمية (المحلّ) باسم الحالِّ فيها.

والمعنى: وكثيرٌ من الأمم السالفة، التي طغتْ وتمرّدتْ على أوامر اللّه، عاقبناها على طغيانها وفجورها، بأنواع العذاب والبلاء، وأهلكناها إهلاكاً فظيعاً مريعاً، والمرادُ (بالعذاب النُّكُر) عذاب الفناء والاستئصال، الذي أهلك اللّه به الأممَ الطاغية.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١١] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، استعار (الظلمات) للضلال والكفر، واستعار (النور) للهدى والإيمان، وهذا من بديع التشبيه، ولطيف الاستعارة.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الطلاق: ١١] في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم، أي ما أكرمه وأعظمه من رزق!! فإنّ دخول جنات النعيم، مع الخلود الدائم، لا يعادلُه شيء من نعيم الدنيا الفاني، فهو أسلوبُ تحبيبٍ وتشويق، لهذا الرزق الدائم الكريم.

❁ ❁ ❁

الإبداعُ البيانيُّ في سورة التحريم

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ...﴾ [التحريم: ٤] ﴿صَغَتْ﴾: مالتْ عن الحقِّ وزاغتْ، والخطابُ (لحفصة، وعائشة) رضي الله عنهما، أي وُجد منكما ما يوجبُ التوبةَ، لإيذاء الرسول ﷺ بإفشاء السرِّ، وفي الآية التفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطابِ للمبالغة في العتاب، وسبب النزول يوضِّح القصة، فقد رُوي أن (حفصة) استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها، فأذن لها، ولمّا ذهبت دعا جاريته (مارية القبطية) المملوكة له فعاشرها، ولمّا رجعت حفصة ووجَدَتْها في بيتها، غارتْ غَيْرةً شديدةً، فقالت: أدخلتَها بيتي وعاشرتَها على فراشي!! ما أراكَ فعلتَ هذا إلّا لهواني عليك!! فقال لها مسترضياً: إني حرّمتُها على نفسي ولا تخبري بذلك أحداً، وأبشّرك أن أباك (عمر) و(أبا بكر) سيكونان خليفتين من بعدي، واستكْتَمَها الخبرَ، وما أن خرج ﷺ من البيت حتى طرقت (حفصة) البابَ على صديقتها عائشة وأخبرتها الخبر، ونزل الوحي على الرسول ﷺ يخبره بما أفشته حفصة، فغضب رسول الله ﷺ أشدَّ الغضب، واعتزل نساءه، ومكث لا يدخل عليهن شهراً، من شدة تأثره مما جرى، ونزلت الآياتُ وفيها العتابُ الشديد لأزواج النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾. رواه النسائي والدارقطني.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي وإن تتعاونا عليه بما يسوءه ويُحزِنه، فإن الله ناصرُه، ووليُّ أمره، وجبريلُ أشرفُ الملائكة، وأبو بكر وعمر، والمؤمنون الأبرار، وجميعُ الملائكة له أعوان وأنصار، وكفى بهذا البيان رفعاً لقدره ﷺ.

وفي الآية (ذكرُ الخاص بعد العام) فقد خصَّ (جبريلَ) بالذكر تشريفاً له، لكونه رئيس الملائكة، ثم دخل في عموم الملائكة مرة ثانية ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ ومعنى ﴿ظَهِيرٌ﴾ عونٌ ونصيرٌ، وكلُّ هذا البيان للاعتناء بشأنه عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] في الآية (مجاز مرسل) بذكر المسبِّب وإرادة السبب، أي احموا أنفسكم وصونوها من (نار جهنم) التي وقودُها وحطبُها الحجرُ والبشرُ، وذلك بملازمة الإيمان والطاعة، والبعد عمَّا حرَّم اللّهُ تعالى، فالإيمانُ سببٌ لنجاة الإنسان من نار الجحيم.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ [التحريم: ١٠] في الآية (تشبيه تمثيلي) مثَلَ لحال الكفرة المجرمين، أنه لا ينفعهم حسبٌ ولا نسبٌ، بزوجة (نوح) وزوجة (لوط) كانتا في عصمة نبيَّيْن عظيمَيْن، كريمَيْن، فكفرتا باللّه، فلم تنفعهم صلتُهم ورابطتهم الزوجية أيَّ نفع.

وقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] الخيانةُ إنما هي في الدِّين وذلك بعدم الإيمان، وليست خيانتهما بارتكاب الفاحشة، قال ابن عباس: (ما بغَتْ امرأةُ نبيٍّ قطُّ، وخيانتهما كانت في الدِّين) أي بالكفر وعدم الإيمان، لأن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء، فكانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دين نوح، ولوط، اهـ تفسير ابن كثير ٤/٤١٩.

وفي الآية مبالغة في التمثيل، لعدم انتفاع الإنسان بصلاح غيره، مهما كان ذلك الغيرُ، في أرفع درجات الإيمان والصلاح.!

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ...﴾ [التحريم: ١١] هذا مَثَلٌ آخر لعدم تضرُّر المؤمن، بأشدِّ الناس كفراً، وطغياناً وفجوراً، ضربه اللّه تعالى (لآسيةَ بنتِ مزاحم) امرأة (فرعون) الطاغية الجبار، فإنها حين آمنت لم يضرَّها كفرُ زوجها (فرعون) الشقي، وبهذا وضع القرآن ميزاناً دقيقاً، يصوِّرُ انقطاعَ العلاقة الزوجية، وعدم الاعتداد بعلاقة الزواج والنسب، فهو مثلٌ للإيمان في بيت الكفر، كما أن الأول مثلٌ للكفر في عرين الإيمان، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [فاطر: ١٨].

وفي الآية الكريمة لطيفة، حيث طلبت قصراً في الجنة، ولكنها قدَّمت جوار اللّه على طلب القصر ﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] قدَّمت الرغبة في الجوار، على طلب الدار، وقد جاء في الأمثال (الجار قبل الدار).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي عفت عن الفاحشة، وارتكاب الحرام،

وصانت نفسها عن الفجور والآثام، فنفخ رسولنا (جبريل) في فتحة ثوبها، فوصلت النفخةُ إلى فرجها، فحملت (بعيسى عليه السلام)، وأضاف النفخة إلى الله تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ لأنها كانت بأمره سبحانه، والإضافة (روحنا) إضافة تمليك وتشريف، أي الروح التي خلقناها بقدرتنا، ونَفَخَ جبريلُ فيها بأمرنا.ا

قال ابن عطية: والإضافةُ ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ إضافةُ مخلوقٍ إلى خالق، ومملوكٍ إلى مالك، كما تقول: بيتُ اللّهِ، وناقةُ اللّهِ. اهـ المحرر الوجيز ١٤/ ٥٣٠.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] المراد بالكلمات ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بشرائعه التي شرعها الله لعباده ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ يعني التوراة والإنجيل، أطلق الكتب بصيغة الجمع، وأراد بها التوراة المُنْزلة على موسى، والإنجيل المُنزّل على عيسى، لأن القرآن لم يكن نزل بعدُ، فهو من باب (إطلاقِ الكلّ وإرادةِ الجزء) وإنما جاء بصيغة الجمع المذكّر ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ مراعاة لفواصل الآيات، لأن قبلها ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ و﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ وقيل: هو من باب التغليب، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.



الإبداع البياني في سورة المُلك

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١] اليد ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ كنايةٌ عن القدرة التامة، والتصرف الكامل في المخلوقات، أي هو سبحانه مالكُ الملك، يعزُ ويذلُ، ويُحْيي ويُميت، ويُغْني ويُفقر، وله القدرةُ التامة، والتصرفُ الكامل، في كلّ الأمور، وليس معناه أن الله يمسكُ المُلْك بيده، وإنما هو ما ذكرناه، كما قاله ابن عباس.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] الإبتلاءُ: الامتحانُ والاختبارُ، واللّهُ تعالى يعلم المطيعَ والعاصي، والبَرَّ والفاجر، من الأزل، فلا حاجة أن يمتحنه ليعرف حاله، وإنما المرادُ يعاملكم معاملة المختبِر، بالتكليف بالأوامر والنواهي، فيظهر للناس المطيع من العاصي، والمحسن من المسيء، والمؤمن من الكافر.

ولم يقل تعالى (أكثرُ عملاً) وإنما قال: ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ لأنه لا عبرة بكثرة العمل مع القُبْح، والأحسنُ عملاً هو الأخلصُ، والأصوبُ، فالخالصُ ما كان لوجه الله، والأصوبُ ما كان موافقاً لهدي النبي ﷺ فهذا هو الأحسن عملاً.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك: ٣، ٤] المراد بالكرَّتَيْن: التكثيرُ يعني مرَّةً بعد مرّة، ويسمى هذا (أسلوب الإطناب) وذلك بتكرار الجملة، زيادة في التذكير والتبصير..

والمعنى: ردِّد النظرَ مرّاتٍ عديدة، مرّةً بعد مرّة، وانظرْ بعين الاعتبار، في خلق هذه السموات البديعة، يرجع إليك طرفُك خاشعاً ذليلاً، لم يَرَ ما تريدُ من العيب والخلل، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي كليل متعب!! والأمرُ بالنَّظر إلى هذا الكون العجيب الرائع، يعطي الإنسان صورةً عن عظمة خالقه ومبدعه.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٨] ﴿ تَمَيَّزُ ﴾ أي تتقطَّع وتتفرّق من شدّةِ غيظها، على أعداء الله، الكفرةِ المجرمين، وهو تمثيلٌ بديع، لشدة اشتعالها وشدة حرّها، على طريق

(الاستعارة المكنيّة) شبّه تعالى جهنم في شدة غليانها ولهبها، بإنسانٍ مغضب، اشتدَّ حنقُه وغيظُه على عدوه، حتى كادت نفسُه تتقطّع وتتمزّق من شدة الغيظ، وحذف المشبّه به وهو (الإنسانُ) ورَمَز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو (الغيظُ) الشديد، بطريق (الاستعارة المكنية) وهي من لطائف أنواع الاستعارة.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] (ذَلُولاً): أي هيِّنة ليِّنة سهلة، يسهل عليكم السفر في جوانبها، والبناء فوق سطحها، ففي الآية (استعارة بديعة) فائقة في الحسن، شبَّهَ الأرضَ بدابةٍ مذلَّلة ميسَّرة للركوب، وبدابة حلوب كالبقرة تمنحنا السَّمْنَ واللَّبن، وحذف المشبّه به وهو (الدابة) ورمز بشيء من لوازمها، وهي التذليل، على طريق (الاستعارة المكنية). وفي هذا التمثيل عظةٌ وعبرة، فماذا يصنع البشر، لو انقلبت الأرض إلى دابة جموح، فثارت فيها البراكين، واشتدت بها الزلازل، واضطربت بمن عليها اضطراباً مفزعاً مخيفاً؟ هل بإمكان البشر أن يوقفوا اضطرابها وهيجانها!؟

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] في الآية (كناية لطيفة) كنّى بقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ عن ذات الله العلي الكبير، والمعنى: هل أمنتم يا معشر الكفار (ربَّكم) العليَّ الكبير، أن يخسف بكم الأرضَ، فيغيِّبكم في مجاهلها، فإذا هي تضطرب اضطراباً مفزعاً مخيفاً؟ وليس معنى الآية أن الله عزَّ وجلَّ داخل السماء، وأنه محصور فيها، فقد قال ابن تيمية في الفتاوى ٣/ ١٤٣: (ويُصان جلَّ وعلا عن الظنون الكاذبة، مثلَ أن يُظنَّ أن ظاهرَ قوله سبحانه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماء تُقِلُّه ـ أي هو داخلها محصور فيها ـ أو تظلُّه، فإن هذا باطلٌ بإجماع أهل العلم والإيمان، فإنَّ الله قد وسع كرسيُّه السموات والأرض) يريد رحمه الله: أن الكرسي لا تسعه السموات السبع، ولا الأرضون، والكرسيُّ بالنسبة للعرش، كحلقةٍ في صحراء شاسعة، لا يعلم مداها إلا اللّهُ؟ فكيف يكون العرشُ داخلَ السماء، وكيف يكون اللّهُ عزَّ وجلَّ في السماء على العرش؟ كما يقول بعضُ الغافلين؟ فافهم ـ رعاك اللّهُ ـ الحقيقةَ بالفهم الصحيح.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] هذا تمثيل رائع، وتصويرٌ بديع، جَمَع بين جمال التمثيل، وروعة

التعبير، مثّلَ به للمؤمن والكافر، فالمؤمن يمشي سوياً على صراط مستقيم، والكافر يمشي مكبًا على وجهه إلى طريق الجحيم.

والمعنى: هل من يمشي كالدابة، منكّس الوجه، أعمى القلب، يمشي مثل الأعمى لا يرى طريقه، فهو يَخْبط خَبْط عَشْواء، فيتعثّر بين حينٍ وحينٍ في مشيه، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، يبصر طريقه، ويرى ما أمامه، فهو آمنٌ من السقوط والعثار، لأنه يمشي في وَضَح النهار، يسير على طريق مستقيم، أيُّهما اهدى سبيلاً، وأحسنُ دليلاً؟

قال ابن عباس: (هذا مَثَلٌ لمن سَلَك طريق الضلالة، ولمن سَلَك طريق الهدى)!

لقد صوَّر القرآنُ الكافرَ بالدابة الهائمة على وجهها، تسير بدون هدف، وكالأعمى الذي لا يرى الطريق، فيتعثَّرُ في خطواته، وهو تائهٌ ضالٌ حائر، وصوَّر المؤمنَ، وهو يمشي على طريقٍ بيِّنٍ واضح، أيهما أرشدُ وأهدى؟ الأعمى أم البصير؟ هذا مثلُهم في الدنيا، أمّا في الآخرة، فالمؤمن يقوده إيمانُه إلى دار النعيم، والكافر يقوده كفرُه مكباً على وجهه إلى نار الجحيم، ويا له من تمثيل رائع، وتصوير بديع!!



الإبداع البياني في سورة القلم

١ ـ قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ٢] في الآية (كناية لطيفة) كنّى عن (النبوّة) التي أكرم الله بها رسوله ﷺ بالنعمة بقوله: ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ والمعنى: لستَ يا محمد بإنعام الله عليك (بالنبوّة) بمجنون، كما يقول السفهاء المجرمون، وجيء بالجملة كالدليل القاطع على صدق دعوى النبوّة، لأن النعمة كانت ظاهرة في حقه عليه الصلاة والسلام، من كمال الفصاحة، ورجاحة العقل، والصدق، والأمانة، حتى كان يسمى (الصادق الأمين) وسائر ما اتصف به من مكارم الأخلاق، ممّا يكذّب تلك التُّهمة الشنيعة، وهي اتهامهم له ﷺ بالجنون ـ وحاشاه ـ!!

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩] المداهنةُ: الملاينةُ والتلطُّف والمداراة، تشبيهاً لها بالدُّهن السائل من ليونته، وهي (استعارة لطيفة) والمعنى: تمنّوا لو تلين لهم يا محمد، وتتلطّفُ معهم فلا تذكر آلهتهم بسوء، وهم يلينون معك ويتلطّفون، سمّي هذا بالإدهان على طريق الاستعارة التصريحية، رُوي أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ أن يكفَّ عن سبِّ آلهتهم، وتسفيه عقولهم، وعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا بالمقابل إلهه سنة، فنزلت ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون: ١، ٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: ١٣] ﴿ عُتُلٍّ ﴾ جافٌ غليظ القلب، سريع نحو الشر ﴿ زَنِيمٍ ﴾ دعيٌّ لصيق، ليس له نسب صحيح، وهذه أشدُّ معايبه وأقبحها، وصفَ تعالى هذا الشقيّ بتسع صفات، كلُّها قبائح وشنائع، في منتهى السفاهة والقبح، وجاءت منها أربعة أوصاف بصيغة المبالغة (حلّاف، همّاز، مشّاء، منّاع للخير) ثم (العُتُل) أي الجاف الغليظ ﴿ مَهِينٍ ﴾ أي الفاجر الحقير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي ظالم مجاوز للحد في الظلم والعدوان ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي كثير الآثام والإجرام ﴿ زَنِيمٍ ﴾ أي ابن زنى، ولم يُعرف أنه ابن زنى حتى نزلت فيه الآيات، واسم هذا الشقي الفاجر (الوليد بن المغيرة).

روي أن الآيات لمَّا نزلت في حقّه، جاء إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلُّها ظاهرة فيَّ أعرفها غير التاسع منها ـ يريد وصفه بأنه زنيم ـ فإن لم تَصْدُقيني ضربتُ عنقك بالسيف!! فقالت له: إنَّ أباكَ كان (عنّيناً) أي لا يقدر على معاشرة النساء، وكان ذا ثروةٍ كبيرة، فخشيت على ماله أن يذهب، فمكَّنتُ راعياً من نفسي، فأنت ابنُ ذلك الراعي، فلم يُعرَف الشقيُّ أنه (ابن زنى) حتى نزلت الآية، فكانت فضيحةً له مدى الدهر. اهـ حاشية تفسير الجلالين.

قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه اللّهُ بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً.

٤ ـ قوله سبحانه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم: ١٦] في الآية (استعارة مكنيّة) بديعة، فإن أصل الخرطوم للخنزير، واستعارتُه لأنف الإنسان، تجعله في غاية الإذلال والإهانة، لغرض التقبيح والتشنيع عليه.

شبّه تعالى أنفه بخرطوم الخنزير، أو الفيل، وحذَف المشبَّه به، وهو (الخنزير)، ورَمَز إليه بشيء من لوازمه وهو (الخرطوم)، أي سنخطم أنفَه بالسيف، فنجعل ذلك علامةً له مدة حياته، وقد خُطم أنفُه يوم بدر.

٥ ـ قوله سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧] هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لكفار مكة، حيث أرسل اللّهُ إليهم الرحمةَ المهداةَ، بعثةَ خير البشر، فقابلوه بالاستهزاء والتكذيب، فضرب لهم مثلاً بأصحاب الجنة ـ يعني البستان ـ.

ومعنى الآية: إنّا اختبرنا أهل مكة بالجوع والقحط، حتى أكلوا الجلودَ، والحشرات، والدم، كما اختبرنا أصحاب البستان، الذي كان قرب (صنعاء) باليمن، حين حلفوا أن يقطفوا ثمار بستانهم وقت الصباح الباكر، قبل أن يحضر الفقراء والمساكين.

وخلاصة القصة: كما يذكرها المفسّرون، أن رجلاً صالحاً من أهل صنعاء، كان له بستان كبير، فيه من أنواع الفواكه والثمار والنخيل، وكان إذا حان وقتُ الحصاد، دعا الفقراء فأعطاهم حقّهم ونصيبهم وافراً، وكان يُنفق الثُلث على أهله وعياله، ويتصدّق بالثُلث، ويترك الباقي لمصروف البستان وأجرة العُمّال، فلمّا تُوفي الأبُ وورثه أبناؤه، قال بعضُهم لبعض: إنَّ أبانا كان

مسرفاً أحمق، يبذِّر المال، وينفق على المساكين، ويحرمنا من كثير من حقوقنا، فتشاوروا فيما بينهم، وعزموا على أن يقطفوا ثمار البستان في الليل، قبل طلوع الشمس، لئلا يحضر أحد من المحتاجين والمساكين، فيطلبوا ما كانوا ينالونه في زمن أبيهم، وحلفوا على جني ثمارها في ظلمة الليل، فأرسل اللّهُ على البستان ليلاً ناراً محرقة، وصواعق مدمّرة، أتلفت الشجر، وأحرقت الثمر، فلمّا رأوا البستان محترقاً، ليس فيه ثمر، قالوا: لقد أخطأنا الطريق، فما هذا بستاننا، ثم تبيّن لهم أنهم ما كانوا مخطئين الطريق، وعرفوا أن اللّه تعالى عاقبهم بنيَّتهم السيئة، فأحرق لهم ثمر البستان، فندموا وتابوا ولكنْ بعد فوات الأوان، وقد قصَّ اللّه علينا قصتهم لتكون عظةً وعبرة، لكل إنسان يجحد نعمة اللّه، وينكر فضله، وفي ذلك عبرةٌ لمن اعتبر!!

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] في الآية تشبيهٌ عجيب، يسمّى (التشبيه المقلوب) حيث جعل المشبَّه به مشبَّهاً، والمشبَّه مشبَّهاً به، كقولهم: البحر عطاؤه، والقمرُ وجهه، وأصله عطاؤه كالبحر، ووجهه كالقمر، وهذا النوع من التشبيه، أبلغُ من (التشبيه البليغ) والأصل في الآية أن يُقال: أفنجعل المجرمين كالمسلمين؟ أي في الثواب والجزاء، فقلب التشبيه إلى صورة أبلغ فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ فتنبَّهْ لهذا النوع من البيان الإبداعي في التصوير والتمثيل.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] الكشفُ عن الساق: كنايةٌ عن شدة الهول، والبلايا والرزايا التي يلقاها الكفار يوم القيامة، كنّى بها عن الشدّة والهول، قال ابن عباس: هو يومُ القيامة يومُ كربٍ، وهولٍ، وشدة، وهو الأمرُ الفظيعُ الشديد. (تفسير ابن كثير).

وهذا كما قال الشاعر عن الحرب:

قَدْ شَمَّرتْ عن سَاقِها فَشُدُّوا   وَجَدَّتِ الحربُ بِكُمْ فَجِدُّوا

وليس للحرب ساقٌ، وإنما هو تعبير بياني بديع، في اشتداد المعركة، وعِظم خطبها.

قال القرطبيُّ: والأصلُ في هذا الكلام، أن من وَقَع في أمر، يحتاج فيه إلى الجِدّ، شمَّر عن ساقه، فاستعير الساقُ والكشفُ عنها في موضع الشدة والهول. اهـ تفسير القرطبي.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤] هذا أسلوبٌ بديعٌ في التهديد والوعيد، أي دعني ومن يكذّب بهذا القرآن، لأكفيكَ شرَّه، وأنتقمَ لكَ منه، وليس هناك مانعٌ يمنع اللَّهَ من عذابهم، ولكنَّه أسلوبُ العرب في الوعيد والتهديد، كما يقول الإنسانُ: دعني وهذا الظالم لأكفيك أمرَهُ.

وقوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ الاستدراجُ: أن يستنزلَ الخصمَ درجةً درجةً، حتى يورِّطه ويوقعه في شِراكه، وفي الحديث: «إن اللَّهَ ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» رواه البخاري.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨] كنّى عن نبيِّ اللّه (يونس بن متّى) بصاحب الحوت، لأن الحوت ابتلعه، فنُسِب إلى الحوت، وكان ذلك بأمرٍ من اللّه عزَّ وجلَّ، لتركه قومه بدون إذن من اللّه تعالى، وليدلَّ على عظيم قدرته، أن الإنسان يبقى حياً ولو ابتلعه الحوت، ففي الآية تحذيرٌ وتذكير، التحذيرُ للرسول ﷺ، والتذكيرُ للبشر ليتّعظوا، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١] (يزلقونك): أي يصرعونك بأعينهم، بنظرات مسمومة قاتلة، تكاد تُهلك الإنسانَ، من شدّة بغضهم لك، وحقدهم عليك.

وفي هذه الآية دليل على أن العينَ إصابتُها حقٌّ، ولكنْ بإرادة اللّه ومشيئته، وفي الحديث الشريف: «العينُ حقٌّ ـ أي إصابتُها حقٌّ ـ ولو كان شيءٌ يسبِقُ القدَرَ، سبقته العينُ» رواه مسلم.



الإبداع البياني في سورة الحاقة

١ ـ قوله تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ • مَا الْحَاقَّةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣] الأصل فيها أن يُقال: الحاقةُ ما هي؟ أي أيُّ شيءٍ هي القيامة؟ ولكنْ وضَعَ الظاهرَ موضعَ الضمير للتهويل، والتعظيم لشأنها، فإنها من الشدة والهول، بحيث لا يحيط بها خيال، ولهذا أسهب في ذكرها بتكرار اللفظ ثلاث مرات، وفائدةُ التكرار: التخويفُ، والتحذيرُ، والتهويلُ لأمر يوم القيامة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] شبَّههم تعالى بأشجار النخيل العالية، التي انقلعت من جذورها، فإن عاداً كانوا طوالاً، ضخام الأجسام، يشبهون في الضخامة شجر النخيل، فأصبحوا جُثثاً هامدة، وهلكوا عن بَكْرة أبيهم، ولهذا قال: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٨] أي هل ترى أحداً من بقاياهم؟ ففي الآية (تشبيه تمثيلي) بديع.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١] في الآية (استعارة لطيفة) فائقة الإبداع والتصوير، فإن الطغيان من صفات الإنسان، وقد استعار ارتفاعَ الماء، وزيادتَه على الحدِّ المعهود بالطغيان، فقال: ﴿ طَغَا الْمَاءُ ﴾ تشبيهاً له بطغيان الإنسان على الإنسان، وكأنَّ الماء معتدٍ، جاوز حدَّ العدوان لكثرته، ففيها (استعارة تصريحية) ومعنى (الجارية): السفينة، أي لمَّا ارتفع الماء، وعلا وجه الأرض، وزاد زيادةً عظيمة، حملناكم في السفينة التي صنعها نوح عليه السلام.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧] الأرجاءُ: الجوانبُ والأطرافُ، جمعُ رَجَى بالقصر، والمَلَكُ: اسم جنس، أي الملائكةُ على جوانبها، ويحمل عرش الرحمن جلَّ وعلا ثمانيةٌ من الملائكة العظام الأشدَّاء، الذين لا يعرفُ ضخامةَ أجسامهم أحدٌ، إلاَّ اللَّهُ رب العالمين، وفي الحديث الشريف: «أُذِنَ لي أن أحدِّثكم، عن مَلَكٍ من ملائكة اللَّهِ تعالى، مِنْ حَمَلَة العرش، إنَّ ما بين شحمة أُذُنه إلى عاتقه، مسيرةُ سبعمائة عام» رواه أبو داود.

والآيةُ بيانٌ لعظمة جلال الله وسلطانه، فإن العرش مظهر من مظاهر عظمته تعالى، وعلوّ شأنه، لا لاحتياجه سبحانه إليه، لأنَّ الله تعالى كان ولم يكن شيءٌ معه، ثم خلق العرش العظيم، وخلق الكرسي، والكرسيُّ وحده محيطٌ بالسموات والأرض: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهو بالنسبة للعرش، كحلْقةٍ صغيرة في صحراء شاسعة واسعة، لا يعرف أحد قدر كبرها وسعتها، والله سبحانه خلق لنفسه بيتاً يزوره المؤمنون هو (الكعبة المشرّفة) وجعل من ركن البيت حجراً (الحجر الأسود) هو يمينه في الأرض، كما جاء في الحديث الشريف، وليس المعنى أن البيت العتيق مسكنه، وأن الحجر الأسود يمينه حقيقةً، إنما هو (تمثيلٌ) لعظمته جلَّ جلاله، كما يُشاهد من أحوال الملوك والسلاطين، وإلّا فشؤونه سبحانه أجلُّ وأعظم، من كلِّ ما تحيط به الإشارة والعبارة، ولهذا وصف العرش بالعظم والفخامة فقال: ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة: ٣٧].

ذكّر تعالى أن طعام الكفار هو (الغسلين) وهو صديد أهلِ النار، الذي يسيل من أجسادهم، ثم قال: ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ ولم يقل: المخطئون، لأن الخاطئ الذي يتعمّد الإثم والذنب، والمخطئُ: الذي يفعل الذنب عن غير قصد، والخطأ مغفورٌ، فتدبَّرْ أسرار القرآن في تعبيره الدقيق.

٦ ـ قولُه سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ... تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣] أضاف القرآن إلى جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهي إضافةٌ مجازية، لأن جبريل نزل به على رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] سمّى تعالى الافتراء على الله تقوُّلاً ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ لأنه قولٌ كاذبٌ متكلَّفٌ.

ومعنى الآية: لو اختلق محمد بعض الأقوال علينا، ونسب إلينا ما لم نقله، لأخذنا بيمينه، ثم لقطعنا منه نياط قلبه ـ وهو عِرْقُ القلب الأبهر ـ الذي إذا قُطع مات صاحبه فوراً، لم يقل تعالى: لضربنا عنقه،

أو أهلكناه وأمتناه، وإنما صوّره بأفظع ما يفعله الملوكُ بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ الجلادُ بيمينه، ويكبّه على وجهه وهو يرى السيف، ثم يضرب عنقه ويقطع منه الأوداج، وإنه لمنظر مفزع رهيب، في تصوير القتل بهذه الصورة الشنيعة.

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة المعارج

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] جاء تحديدُ العددِ هنا بخمسين ألف سنة، وذكر تعالى في سورة (الحج) تحديدَ العدد بألفِ سنة في قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] ولا تعارضَ بين الآيتين، لأن آية الحج تتحدث عن (اليوم الإلهي) فاليوم عندنا نحنُ البشر/ ٢٤/ أربع وعشرون ساعة، واليومُ الإلهيُّ عند اللهِ في حسابه، يقارب ألف سنة، ولهذا أدخل كاف التشبيه ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ والآيةُ في سورة المعارج تتحدث عن يوم القيامة، وعن طول ذلك اليوم العصيب، طولُه خمسون ألف سنة، من سنوات الدنيا، ولذلك لم يدخل هنا كاف التشبيه، قال ابنُ عباس: (هو يومُ القيامة، جعله اللهُ على الكافرين مقدار خمسينَ ألفَ سنة، ثم يدخلون النار، للخلود والاستقرار) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٧.

فليس هناك تعارض بين النصوص ـ كما يزعم بعضُ المستشرقين ـ لأن آية المعارج تتحدث عن (يوم القيامة) وآية الحج تتحدث عن (اليوم الإلهي) في حساب الله، بالنسبة إلى أيام الدنيا، فافهمْ هذا رعاكَ اللهُ، ثم في الآية الكريمة ما يُسمّى بـ(ذكر الخاص بعد العام) فإن (جبريل) عليه الصلاة والسلام، داخلٌ في جملة الملائكة، وتخصيصُه بالذكر للعناية بشأنه، وبيان منزلته السامية عند الله عزَّ وجلَّ، فهو رئيسُ الملائكة وأفضلُهم، كما أن محمداً ﷺ أفضلُ الرسل الكرام، صلوات الله عليهم أجمعين.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ • وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[المعارج: ٨، ٩] فيه من التشبيه ما يسمى بالتشبيه (المرسل المجمل) لذكر أداة التشبيه، وحذفِ وجهِ الشّبه، وهو ضربٌ من ضروب التشبيه البديع، أي تكونُ السماءُ سائلةً غير متماسكة؛ كالنحاس المذاب، من شدة هول ذلك اليوم الرهيب، وتكون الجبال كالصوف المنفوش، المصبوغ ألواناً، لأن الجبالَ مختلفة الألوان، فيها الأحمر، والأبيضُ، والأسودُ، فإذا تفتّتتِ الجبالُ وتناثرت، أصبحت

﴿كَالْعِهْنِ﴾ أي الصوف المصبوغ ألواناً، فلذلك شُبِّهت بالعهن، وهو تشبيه بالغُ الروعة والتأثير.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٤] أي يتمنى المجرمُ، المكذِّب بآيات الله، لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعزِّ من كان عليه في الدنيا، من (البنين، والزوجة، والإخوة، والعشيرة) التي كانت تحميه، ويفخر بالانتساب إليها، بل إن الأمر يتعدَّى كلَّ هؤلاء، حتى ليتمنَّى المجرمُ لو فَدَى نفسَه بجميع أهل الأرض، ولكنْ هيهاتَ أن ينجوَ من العذاب، بدأ تعالى بذكر الأخصِّ فالأخصِّ (الأبناء، الزوجة، الإخوة، الأقارب)، ثم ختمَ بالأعمِّ، فقال: ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ للتنبيه على شدة الهول، وشدَّة ما يلقاه كلُّ كافر ومجرم، من أنواع الشدائد والأهوال، ففي الآية (ذكر العام بعد الخاص) للتذكير بهول الموقف الرهيب.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ. وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨] فيه ما يسمَّى بالتضمين، أي تنادي جهنم وتهتف باسم كلِّ كافر ومنافقٍ فاجر، تناديه باسمه، ضمِّن (تدعو) معنى (تنادي)، قال ابنُ عباس: (تدعو الكافرين، المنافقين بأسمائهم، بلسانٍ صحيح، فصيح، تقول: إليَّ يا كافرُ، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطيرُ الحبَّ) اهـ تفسير ابن كثير.

ومعنى الآية الكريمة: أن جهنم تنادي وتهتف بأسماء زبائنها من أعداء الله، وتقتلع أطراف الإنسان، وجلدة رأسه من شدة حرِّها، وكأنها مغناطيس تجذب إليها كلَّ حواسِّ الإنسان: اليدين، والرجلين، وبقية أعضائه، قال البخاري في كتاب التفسير (الشَّوى): اليدان، والرجلان، والأطراف، وجلدةُ الرأسِ يقال لها: شواة. اهـ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أي جَمَعَ المال وكدَّسه فجعله في وعاء، ولم يؤدِّ زكاته، واشتغل بجمعه عن عبادة الله تعالى، فقد جَمَع هذا الشقيُّ بين الكفر، والبخل.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٨] هذا (استفهام إنكاريٌّ)، للتقريع والتوبيخ، أي هل يطمع كلُّ واحدٍ من هؤلاء المجرمين، أن يدخله اللهُ جنَّةَ الخُلْد والنعيم، وقد كفر بربِّه، وسَخِر من رسله؟ فالاستفهامُ خرج عن حقيقته الأصلية، إلى غرض (التوبيخ والسخرية).

٦ ـ قوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩] في الآية (كنايةٌ) فائقةٌ رائقة، كنَّى عن (المنيّ) الذي هو قَذِرٌ وكريه، بهذه الكناية البديعة ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي خلقناهم من هذه النطفة المهينة الحقيرة، من ذلك الماء المهين، كما قال سبحانه ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؟ [المرسلات: ٢٠] الذي تستقذره النفس؟ والتعبيرُ المبدعُ الرائع، يجعلهم يطأطئون الرؤوسَ خجلاً وحياة، ويُعرّفهم بقدرهم ومنزلتهم عند الله تعالى، فهم أهونُ وأحقرُ من أن يدخلوا جنة القدس!! وقد مسخ القرآنُ بهذا التعبير كبرياءَهُم وغطرسَتَهم مسخاً، وأراهم أنفسهم على حقيقتها، دون لفظة نابية، فلم يقل: إنَّا خلقناهم من قَذَر ونَجَس، وإنما قال: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ليفكِّروا بأنفسهم في أصل نشأتهم، فإذا كانوا مخلوقين من القَذَر، من ماءٍ مهين، فلا يليق بهم الكِبْرُ الذي يتيهون به ويفخرون. !

٧ ـ قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] في الآية تشبيه رائع مبدع، وفي هذا التشبيه (تهكُّمٌ) وسخرية بهم لاذعة، تتناسب مع ما كانوا عليه في الدنيا، فقد كان يسارعون في الأعياد إلى الأوثان ليعبدوها، وهاهم اليوم يسارعون إلى الحميم ليقتحموها، فما أبدعه من تشبيه!! وما أوضحه من بيان!!

والمعنى: يوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين، كأنهم يسعون إلى أصنامهم التي نصبوها في الدنيا ليعبدوها، وهو غاية في السخرية بهم والتحقير!!



الإبداع البياني في سورة نوح

١ ـ قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧] تصويرٌ بديع مؤثر، للعناد والطغيان الذي كان عليه قومُ نوح، حتى وصل بهم الحال إلى إغلاق آذانهم عن سماع النصح، وبُغْض رؤية الناصح، أطلق (الأصابع) وأراد بها (الأنامل) أعني رؤوسَ الأصابع، لأن الأصبع لا تدخل كلُّها في الأُذن، فهو (مجازٌ مرسل) من باب (إطلاق الكلّ وإرادة الجزء).

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١] المراد بالسماء المطرُ، لأن المطر ينزل من جهة السماء، ففيه (مجاز مرسل) أطلق المحلَّ على الحالّ، وعلاقته المحليّة، قال الشاعر:

إذَا نَــزَلَ الــسَّــمَــاءُ بــأرضِ قَــوْمٍ رَعَـيْـنَـاهُ وإنْ كَـانُـوا غِـضَـابَـا

ومعنى الآية: إذا رجعتم إلى الله، أغدق ربُّكم عليكم أبواب الرزق، فأنزل عليكم المطر، غزيراً متتابعاً، بكثرةٍ ووفرة، فأخرج لكم به الزرع، وأحيا لكم به الضَّرْعَ، وجعل لكم البساتين النضرة، والحدائقَ الفسيحة، ذات الأشجار والثمار، والأنهار الجارية.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨] في الآية الكريمة (استعارة تبعيّة) شبّه تعالى إنشاء البشر، وخَلْقَهم في أطوار وأدوار، بالنبات الذي يخرج من الأرض، واشتقَّ من النبات، لفظة (أنبتكم) بطريق التمثيل له بالنبات، ففيه (استعارة تبعيّة) من بديع أنواع الاستعارة.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠] في الآية تشبيهٌ بديع، يُسمّى (التشبيه البليغ) حذفت أداة التشبيه، ووجهُ الشَّبَه، فأصبح بليغاً ﴿ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جعل الأرضَ ممهّدة واسعة فسيحة، كالبساط، شبَّهها في امتدادها وسعتها بالبساط، وليس معنى الآية

أن الأرض غير كروية، بل هي فسيحة واسعة مع كرويتها، ليبني عليها البشر ويزرعون، ولو كانت كلُّها جبالاً وودياناً، ما أمكنَ العيشُ عليها، وكرويتها أمرٌ يقيني مقطوع به، والكرةُ العظيمة، يَرَى كلٌّ من عليها ما يليه مسطَّحاً.

قال ابنُ تيمية: لا أعلم في علماء المسلمين من أنكر كرويَّةَ الأرض، إلَّا من لا يؤبه له من الجهال. اهـ الفتاوى ٦/ ٥٨٨.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] هذا من (المجاز المرسل) باعتبار ما يكون، أي يلدوا أولاداً يكون مآلهم ومصيرهم أن يصبحوا فجاراً كفاراً عند بلوغهم.

قال الفخر الرازي: فإن قيل: كيف عرف نوح ذلك؟ فالجواب أنه عرف ذلك بالاستقراء، فإنه لَبِثَ فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عاماً، فعرف طباعهم وجرّبهم، وكان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول له: يا بنيَّ احذر هذا فإنه كذّاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، فلذلك حَكَم عليهم بالكفر والفجور ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ تفسير الفخر الرازي.



الإبداعُ البيانيُّ في سورة الجن

١ ـ قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] ﴿عَجَبًا﴾: مصدرٌ وُصِفَ به القرآنُ للمبالغة، أي سمعنا قرآناً عجيباً، مؤثِّراً في حُسن نظمه، ودقة إيجازه، وروعة إعجازه، وما حواه من بديع الحِكَم والعظات، فأطلق المصدر (عجباً) وأراد به القرآن العجيب، الذي يستهوي القلوب والعقول، بحلاوة نظمه، وحسن بيانه.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] هذا أدبٌ رفيع من الجنّ، حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشرَّ إليه في قولهم: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ وعند ذكرهم للخير قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وهذه من الآداب الشريفة القرآنية، نطق بها الجنُّ، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ • وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ • وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠]. فالخير يُنسب إلى الله خَلْقاً وتقديراً، والشرُّ لا يُنسب إليه أدباً وتوقيراً، وإن كنا نؤمن بأن الخير والشرَّ بتقدير من الله تعالى، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى» رواه البخاري.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١] الطرائق: جمعُ طريقة، كقصائد جمعُ قصيدة، وهو المذهبُ الذي يعتنقه الإنسان، والقِدَدُ: جمعُ قِدَّة وهي المتفرِّقُ والمختلفُ، أي كنَّا مذاهب متفرِّقة ومختلفة، كلٌّ يمشي نحو هواه، فينا التقيُّ والشقيُّ، والبَرُّ والفاجر، والمؤمنُ والكافر، فلذلك تفرَّقتْ بنا الأهواء، استعار (الطرائق) للمذاهب المختلفة، وهو من بديع اللفظ، ولطيف الاستعارة.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] في الآية (كناية لطيفة) فقد كنَّى بالطريقة عن (شريعة الإسلام) التي بعث الله بها خاتم المرسلين ﷺ، أي لو استقام الإنسُ والجنُّ على (دين الإسلام)، لوسَّع اللّهُ أرزاقهم، وأغدق عليهم بركات السماء والأرض.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩] تسميةُ الرسول ﷺ (عبد اللّه) أعظمُ شرف لرسول اللّه ﷺ فالإضافةُ هنا إضافةُ (تشريف وتكريم) كقوله سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١] أي بمحمد ﷺ، فأعظَمُ شرفٍ لرسول اللّه أن يكون عبداً للّه تعالى، كما قال القائل:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفاً وَتِيهاً وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّا

فَشرفُ الشيءِ بشرف المضاف إليه، وأيُّ شرف أفخمُ وأضخمُ، من إضافة الرسول إلى اسم اللّه الأعظم؟

ومعنى الآية الكريمة: أنه لمّا قام عبدُ اللّهِ ورسولُه محمد ﷺ يصلّي ويقرأ القرآن في صلاته، كاد الجنُّ يركب بعضهم بعضاً من شدّة الزحام، حرصاً على سماع القرآن، ومعنى ﴿ لِبَدًا ﴾ أي متراكماً بعضهم على بعض، تعجباً مما سمعوا من رسول اللّه ﷺ من قراءته، وشاهدوا من عبادته.



الإبداع البياني في سورة المزمل

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥] في الآية (التفاتٌ من الغَيْبَة إلى الخطاب) ولو جرى الكلامُ على الأصل، لقيل: (إنّا أرسلنا إليهم) والغرضُ من هذا الالتفات: التقريعُ والتوبيخُ لكفار قريش، على عدم الإيمان، مع وضوح الحجة والبرهان.!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] في الآية (مجازٌ مرسل) أطلقَ الجُزْءَ وهو القراءةُ، وأراد الكُلَّ وهي (الصلاة) لأن القراءة أحدُ أركان الصلاة، أي فصلُّوا ما تيسَّر لكم من صلاة الليل، لأن قيام الليل كان مفروضاً على الرسول ﷺ وأصحابه، فنسخ الله ذلك تيسيراً عليهم، والآية تتحدث عن الصلاة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ...﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الشوكاني: أي صلُّوا ما تيسَّر من صلاة الليل، والصلاةُ تُسمّى قرآناً، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] وهذه الآيات المذكورةُ هي الناسخة لقيام الليل. تفسير الشوكاني ٥/ ٣١٩.

وإنما كُلِّفوا في بَدْء الدعوة، بقيام الليل، لأن قيامَ الليل، يقوِّي أبدانَهم، ويُزكّي أرواحهم، ويُعوِّدهم على تحمل المشاقّ في تبليغ الدعوة، ونشر الإسلام، ولهذا فتحوا الديارَ والأمصار، رضوانُ الله عليهم أجمعين.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ...﴾ [المزمل: ٢٠] شبَّهَ الإحسانَ إلى الفقراء والمساكين، بإقراض ربِّ العالمين، فرضاً واجب الوفاء، تفخيماً لشأن الفقراء، لئلا يمنّ عليهم أحدٌ بهذا العطاء، وهذا من لطيف الاستعارة، وبديع البيان.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] هذا من باب (ذكر العام بعد الخاص) عمَّم فعل الخيرات، بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق في سبيل الله، ليعمَّ جميع أعمال الخير والصالحات، للاهتمام بتقديم كلِّ ما يرضي الله من أعمال الخير.

الإبداع البياني في سورة المدثر

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] (المدثّر) المتغطّي والمتلفّفُ بثيابه من الدّثار وهو الثوب الذي يكون فوق القميص الداخلي، وأصلُه المتدثّر، خاطبه وناداه بنداءٍ شفيقٍ لطيف، ليشعر ﷺ بالمؤانسة والملاطفة له من ربه، فهو خطابُ الحبيب للحبيب، إذ ناداه بوصفه، ولم يقل: يا محمد، ليستشعر الأنس واللطف من رب العزة والجلال، فإن العرب إذا أرادت ملاطفةَ المُخَاطَب سمَّوْه باسم مشتقٍّ من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعليٍّ: (قم أبا تراب) لكونه كان نائماً على الأرض وأصابه الترابُ، وقولِهِ لحذيفة: (قم يا نومانُ) حين كان نائماً في المسجد، فالأسلوب إذاً أسلوب (تأنيسٍ وملاطفة).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٣ ـ ٥] فيه تقديم (المفعول على الفعل) لإفادة الاختصاص، أي خصِّصْ ربك بالتكبير والتعظيم، وطهِّر ثيابك من القذر والدّنس، وارفضْ عبادة الأوثان والأحجار، ولا تقربها، وإنما ذُكر تكبيرُ وتعظيمُ الرب، بعد ذكر الإنذار، تنبيهاً للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فلا ينبغي أن يرهب من أحدٍ، إلّا العزيز الجبار. وقال ابن عباس: الثياب هنا: كنايةٌ عن القلب والنفس، أي طهِّرْ نفسك وقلبك من الذنوب والمعاصي، وكانت العرب تسمِّي الرجلَ إذا نكثَ ولم يَفِ بعهد الله: إنه لَدَنِسُ الثياب، وإذا وَفَى وأصلح يقولون: إنه لطاهر الثياب. اهـ ابن كثير ٤/ ٤٧٠.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٩، ٢٠] جملةٌ دعائية بمعنى اللعنة، والدعاء عليه بالهلاك، وكرّره لبيان شناعة قولِهِ عن القرآن (إنه سحرٌ) وقولِهِ عن رسول الله ﷺ (إنه ساحر) والتعجيب من حاله في تفكيره وتقديره، يقول: ما أعجبَ حكمه وتقديره؟ وما أغربه؟ لغاية التهكُّم به، كأنه يقول: قاتَلَه اللهُ ما أروعَ تفكيرَه، وما أبدعَ رأيه الحصيف؟ حيث قال عن

القرآن: إنه سحر يُؤثر أي ينقله ويرويه السَّحرةُ بعضهم عن بعض.

يقول العرب عند استعظام الأمر، والتعجب من قائله أو فاعله: قاتلَه اللّٰهُ!! ومرادهم أنه بلغ من الشناعة والفظاعة أن يُدعى عليه من حُسَّاده.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٧، ٢٨] (سقر): اسم من أسماء جهنم، والاستفهام للتهويل والتفخيم، لأمر نار الجحيم، لا تبقي عظماً إلّا طَحَنته وأذابته، قال الشوكاني: العربُ تقول: ما أدراك ما كذا؟ إذا أرادوا المبالغة في أمره، وتعظيم شأنه، كأنه يقول: استَعظِمُوا شأنَ سقر ـ أي جهنم ـ إنها لا تُبقي لهم لحماً، ولا تَذَرُ لهم عظماً. اهـ فتح القدير ٥/ ٣٢٥.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧] في الآية (كنايةٌ لطيفة) فقد كنّى عن فعل الخيرات والصالحات (بالتقدم) وعن فعل القبائح والمنكرات (بالتأخُّر) أي لمن شاء من العباد، أن يتقدَّم لربه بفعل الصالحات، أو يتأخر بارتكاب المنكرات والموبقات.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١] القسورةُ: الأسدُ، وفي الآية تشبيهٌ بديع عجيب، يسمّى (التشبيه التمثيلي) لأن وجهَ الشبه منتزع من متعدِّد، شبَّههم تعالى بالحُمُرِ الوحشية النافرة، إذا رأت الأسدَ، فزعتْ وهربتْ منه، من شدة الخوف والفزع. وإنه لمشهدٌ مضحكٌ غريب، فإن حمار الوحش، إذا سمع زئير الأسد، يعدو عَدْواً غريباً، دون هدف ولا اتجاه، في منظر مضحك يدعو إلى الاستغراب، وفي تشبيههم بالحُمُر الوحشية، شهادة عليهم بالبَلَه والغباء، والحمارُ إذا نفر لا يُلام، أمّا البشر حينما ينفرون من المنذر، فإنه حقاً منظر غريب، يدعو إلى الضحك والاستغراب.!

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة القيامة

١ ـ قولُه تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢] ظاهرُه نفيٌ للقَسَم، وحقيقتُه أنه قسمٌ مؤكَّدٌ، أُدخلت عليه (لا) زيادةً في التقوية والتأكيد، وقد اشتهر في كلام العرب، زيادةُ حرف النفي (لا) قبل القَسم، قال الشاعر:

فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ

والمعنى: أُقسمُ لكم قسماً مؤكَّداً بيوم القيامة، وأقسمُ بالنفس الطاهرة التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وجواب القَسَم محذوفٌ تقديره: لتبعثُنّ ولتحاسبُنّ، ففي الآيةِ (حذفٌ بالإيجاز).

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣] الاستفهام هنا خرج عن حقيقته وهو (الاستفسار) إلى معنى التوبيخ والإنكار، أي هل يظنُّ الكافر الفاجر، أن الله لن يحييه بعد موته؟

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] البَنانُ: أطرافُ الأصابع (السُّلاميات) أي نجمع أنامله ورؤوس أصابعه، التي هي أصغرُ أعضائه، فكيف بالعظام الكبار؟ وإنما ذكر تعالى البَنان، لما فيها من غرابة الخلق، ودقة الصُّنع، في خطوطها وتكوينها، وقد ثبت علمياً أن بَشَرَة الأصابع، مغطَّاةٌ بخطوط دقيقة، متناهية في الدقة، منها ما هو على شكل دوائر، أو أقواس، أو عراوٍ، وهذه الخطوطُ لا يمكن أن يشابه بها إنسانٌ آخر، ولذلك اعتمدتها الدول رسمياً، وأصبح يتميَّز بها الإنسان عن غيره، وهذه إحدى (المعجزات العلمية) القرآنية، والإعجاز في الآية أن التعبير جاء بلفظ: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ ولم يقل: نخلق بنانه، ليشير إلى قدرة الله الباهرة، في إعادة الهيئة والشكل، الذي كانت عليه الأصابعُ، وبنفس الخطوطِ واللمساتِ والدوائرِ، التي خُلق عليها الإنسانُ، وتبارك ربُّ العزة والجلال، في قدرته وإبداعه.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦] أي متى يوم القيامة؟ والسؤال هنا لا يراد به معرفة الوقت، إنما هو سؤال (استهزاء وإنكار)، واستبعادٍ لمجيء ذلك اليوم الرهيب. . نبّه تعالى أن الكافر الفاجر، يريد بهذا الإنكار أن يستمرَّ على فسقه وفجوره، ويريد أن ينطلق مع غرائزه وشهواته البهيمية، ولذلك ينكر الآخرة، لأن الإيمان بالحساب والجزاء، يُنغِّصُ عليه مُتْعته، فهو يقول على جهة الاستهزاء والتكذيب: متى يكون يوم القيامة؟

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٨، ١٩] نَسَب تعالى القراءة إليه (قرأناه) وهي لجبريل عليه السلام، لأن قراءة جبريل القرآن على رسول الله ﷺ، لمّا كان بأمرِ الله، نُسب الفعلُ إلى الله عزَّ وجلَّ، لأنه هو الآمرُ بذلك، فالآية واردةٌ على سبيل (المجاز المرسل) كقولهم: بَنَى الملِكُ المدينةَ أي أمر ببنائها، مع أنه لم يبن شيئاً منها، وكقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وقوله في آية أخرى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] نَسَبَ التوفّي إليه سبحانه، فهو الآمرُ بقبض روح الميت، والذي يقبضُ الروحَ مَلَكُ الموت، فافهم ـ رعاك اللهُ ـ دقائق القرآن!

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ • إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] أطلق الوجوه وأراد بها أصحابها المؤمنين، وهذا من (إطلاق الجزء وإرادة الكل)، ففيه (مجاز مرسل) وفي الحديث الشريف: «فيكشف الحجاب، فما أعطي المؤمنون شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى وجه ربهم جلَّ وعلا» رواه مسلم.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ • وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٦، ٢٧] الضميرُ في (بلغت) راجع إلى الروح، وإن لم يجرِ لها ذكرٌ، لأن الكلام يدلُّ عليها، أي إذا بلغت الروحُ أعالي الصدر ـ العظامُ التي تكون عند النحر ـ وهي التَّراقي، جمعُ تَرْقُوة، وأشرفتم على الموت، وقال أهل المريض: من يَرْقيه ويشفيه مما هو فيه؟ والاستفهام بمعنى الطلب، كأنهم يطلبون له طبيباً يعالجه. !

قال الشوكاني: ويُكنى ببلوغ النَّفْس التراقي، على الإشفاء على الموت، ومثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] والمقصودُ: تذكيرُهم شدَّةَ الحال عند نزول الموت. اهـ. تفسير الشوكاني ٥/٣٣٨.

٨ ـ قولُه تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ • إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠] المراد بالتفافِ السّاقِ بالسّاق: اجتماعُ الأهوال والشدائد عليه، شدَّةُ كرب الدنيا،

مع شدة كرب الآخرة، كما يُقال: شمّرت الحربُ عن ساقها، فالآية مجازٌ عن الكرب والشدة، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس، قال: هو آخرُ يوم من أيام الدنيا، وأول يومٍ من أيام الآخرة، فتلتقي عليه الشدّةُ بالشدّة. تفسير ابنْ كثير.

وعلى هذا القول يكون ذلك من باب التمثيل.

وقال ابن المسيِّب: هما ساقاه حين تلفّان في أكفانه.

وقال الحسن البصري: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوّالاً، يسير بهما نحو المعاصي.

وعلى هذا تكون الآية على الحقيقة، لا على المجاز والاستعارة.

٩ ـ قولُه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] تهديدٌ ووعيدٌ، مقرون بالدعاء عليه بالهلاك، أي ويلٌ لك أيها الشقيُّ الفاجر، ثم ويلٌ لك على طغيانك وفجورك!! نزلت الآيات في (أبي جهل) لقيه رسولُ الله ﷺ في أحد طرقات مكة، فأمسكه بمجامع ثوبه، ثم قال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال له أبو جهل: أتُهدِّدني وتتوعدني يا محمد؟ واللهِ لا تستطيع لا أنت ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئاً، وإني لأعزُّ من مشى بين شعابِ مكة!! فلما كان يوم بدرٍ صَرَعهُ اللهُ، وقتَله شرَّ قِتْلة!! كرَّر اللفظ ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ مبالغةً في الوعيد والتهديد، وفي الآية التفاتٌ، من (الغائب إلى المخاطب) زيادة في التقبيح له والتشنيع، لأن ما قبله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٣] بصيغة الغائب، ثم جاء بلفظ المخاطب ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾.

١٠ ـ قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] استفهامٌ للإنكار والتوبيخ، أي هل يظنُّ الكافرُ الفاجر، أن يُترك هَمَلاً من غير تكليف، بحيث يبقى كالبهائم والأنعام، يسرحُ ويمرح، دون حسابٍ ولا جزاء؟ لا ينبغي أن يظنَّ هذا الظنَّ الكاذب، والمقصودُ من الآية إثباتُ يوم المعاد، ولهذا جاءت الآية بعده وهي:

١١ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨] استفهامٌ للتقرير مع التوبيخ، أي أمَا كان هذا الإنسانُ، المتكبّرُ على ربّه، نطفةً ضعيفةً، تُراق وتُصبُّ في الأرحام؟ ثم أصبح بعد ذلك عَلَقةً تعلق بجدار الرحم، ثم خلقَه الله في أبدع صورة، وأحسن تقويم؟ وجعل من النطفة الواحدة نوعين: ذكراً، وأنثى؟ مع أن النطفة واحدة؟ نبّه سبحانه بهذا

على خسّةِ قدر الإنسان أولاً، وعلى كمال قدرته تعالى ثانياً، حيث صيّر مثل هذا الشيء الدنيء (المنيّ) الذي يخرج من مكان النجاسة بشراً سوياً، ولهذا ختم الآيات بقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] أي أليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلقَ البديع، وقَدَر عليه، بقادرٍ على أن يُعيد خَلْقه بعد وفاته وفنائه؟ بَلَى ونحن على ذلك من الشاهدين!!

ومن السُنّة إذا قرأ المسلم هذه الآية، أن يقول: (بَلَى وأنا على ذلك من الشاهدين) وكذلك إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] أن يقول ذلك، لما وَرَدَ من تعليمه ﷺ ذلك لأصحابه، فقد روى أبو داود عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون، فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ فليقل: بلى» رواه أبو داود، وذكره ابن كثير ٤/ ٤٨٢ في تفسيره.



الإبداع البياني في سورة الإنسان

١ ـ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] (هل) بمعنى (قد) استفهامٌ للتقرير والتوكيد، كما تقول: هل رأيتَ صنيعَ فلان؟ وقد علمتَ أنه رآه، ومعنى الآية: لقد أتى على الإنسان، وقتٌ طويلٌ من الزمان، كان في عداد الموتى، لم يكن له ذِكْرٌ ولا أثر، ثم أوجده خالق الكون، وبارئ النَّسم.

والإنسانُ نفسُه آيةٌ من آيات اللّٰه الباهرة، ومظهرٌ من مظاهر قدرته ووحدانيته جلَّ وعلا، فقد أبدعَ اللّٰهُ خَلْقه، فركَّب فيه الحواسَّ (السمعَ، البصرَ، العقلَ، النطقَ) فأين كانَ قبل أن يُخلق؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي صوَّره بهذه الصورة البديعة؟ أليس هو اللّٰه ربُّ العالمين؟

والمقصودُ من الآية: تقريرُ الإنسان الذي ينكر البعث، بالاعتراف بعدم وجوده، ثم التفكر بعد ذلك، بمن خَلَقه وأوجده، بعد أن لم يكن إنساناً سويًا، فيقال له: من خلقك؟ فكيف تنكر إحياءك بعد موتك؟

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] المستطير: الساطعُ المنتشر، شبَّه أهوال وشدائد يوم القيامة، بالنور الذي سطع وانتشر، حتى عمَّ أرجاء السموات والأرض، بطريق (الاستعارة البديعة) أي شرُّ ذلك اليوم العصيب، بلغت أهوالُه وشدائدُه، أقصى حدود الشدّة والفزع، حتى كأنه ريح عاصفة، أتلفت البشر والشجر.

قال قتادة: استطار واللّٰه شرُّ ذلك اليوم، حتى ملأ السموات والأرض. اهـ ابن كثير. لم يقل: شرُّه عظيم، وإنما استعار لفظ (مستطيراً) الذي يشير إلى الانتشار المذهل، الذي يفيده التعبير، ليدل على الشدة والهول، الذي يأخذ بالأنفاس، نجّانا اللّٰهُ من هَوْل ذلك اليوم العصيب.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] ذكرُ وجهِ اللّٰهِ (كنايةٌ بديعة) عن ثوابه ورضوانه، أي إنما نحسن إليكم

ونطعمكم، طلباً لثواب الله، وابتغاء مرضاته، لا نقصد منكم الحمدَ والثناء على هذا الإحسان.

قال مجاهد: لم يتكلموا بهذا، ولم يقولوه بألسنتهم، ولكنْ عَلِمَ اللهُ ذلك من قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغبَ في ذلك راغبٌ. اهـ ابن كثير ٤/ ٤٨٥.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] (عبوساً): العُبُوسُ: تقطيبُ الوجه من الألم الذي يحصل في القلب، والقمطريرُ: الشديدُ العصيبُ الذي يطول بلاؤه، واليومُ لا يوصف بالعُبوس، لأنه لا وجه له حتى يقطّب به، فالمراد أهلُه، أي تعْبِسُ فيه الوجوهُ وتَكْلَح، من فظاعة أمره، وشدة هوله، ففيه (مجازٌ عقليٌ) من إسناد الشيء إلى زمانه وأهله، مثلُ قولهم: فلانٌ ليلُه قائمٌ، ونهاره صائمٌ، أي يقوم الليل ويصوم النهار، ومن هذا المجاز قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] نُسب المكرُ إلى الليل والنهار، وهو لأهله، والمرادُ به من كان سبباً لشقائهم، وهم الدعاةُ المضلون أي: مكرُكم بنا في الليل والنهار.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩] في الآية (تشبيهٌ بديعٌ رائع) يسمّى (التشبيه التمثيلي) شبَّه الولدان لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وانتشارهم بين أهل الجنة، باللؤلؤ المنثور، والحكمة في تشبيههم باللؤلؤ المنثور، أن اللؤلؤ إذا لم يُثقب، يكون أشدَّ صفاءً، وأحسنَ منظراً، وأجملَ ما يكون إذا كان منثوراً أي متفرّقاً هنا، وهناك، لوقوع شُعاع بعضِه على بعض، فإذا كان الخادمُ كاللؤلؤ، يشعُّ بالجمالِ والبهاء، فكيف يكون المخدوم من أهل الجنة؟

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] صيغة (كفور) من صيغ المبالغة، ومعناه المبالغ في الكفر والجحود، و(أو) في قوله: ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ بمعنى (ولا) أي لا تطع آثماً ولا كفوراً، وليست بمعنى (أو) التي هي للتخيير، بل هي للتحذير من إطاعة كل فاجر، منهمكٍ في المعاصي والإجرام، وكلِّ جاحدٍ كافرٍ بربه.

قال الزجّاجُ: دخولُ الألف هنا، آكدُ من الواو وحدَها، لأنك إذا قلتَ: لا تُطع زيداً وعمراً، فأطاع أحدَهما لم يكنْ عاصياً، لأنه أمرَهُ أن

لا يُطيع الإثنين، فإذا قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ دلَّ ذلك على أن كلَّ واحد منهما ينبغي أن يُعصى، كما إذا قلتَ: لا تُخالف الحسنَ أو ابنَ سيرين، كأنك تقول: إنهما أهلٌ لأن يُتْبعا، وكلُّ واحدٍ منهما أهلٌ أن يُتْبع. اهـ تفسير الشوكاني ٥/ ٣٥٠.



الإبداع البيانيّ في سورة المرسلات

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [المرسلات: ١١، ١٢] أصل (أُقِّتت) وُقِّتَتْ من الوقت أي جُعل لها وقتٌ محدّد للشهادة على أممها، وللفصل بين الأنبياء والمكذبين، والاستفهامُ هنا (لأيّ يوم) لتعظيم ذلك اليوم وتهويل شأنه كما أن الاستفهام في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٤] لزيادة تفظيع الأمر وتهويله، لأنه يوم عصيب، وكرب رهيب.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الإنسان: ١٥] كُرِّرتْ هذه الآية في هذه السورة (عشر مرات) لمزيد التخويف والترهيب، والتكرارُ في مقام الترهيب مستحسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات التي أُنذروا بها.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] الكَفْتُ: الضمُّ والجمعُ، وفي الآية تشبيه بديع للأرض، شبّهها بالأمّ تحتضن أولادها، والمعنى: ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها، كالأمّ الحانية الحاضنة لكم؟ تجمع الأحياءَ على ظهرها، والأمواتَ في بطنها، الأحياءُ يسكنون في الدور، والأمواتُ يسكنون في القبور، فقد جمعت بين الأحياء والأموات، والتنكير للتفخيم، والتعظيم.!

٤ ـ قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١] تسميةُ عذاب جهنم بالظلّ، أسلوبُ (سُخْرية وتهكُّم) فإنَّ الظلَّ ما يدفع عن الإنسان وهج الحرّ، ودخانُ جهنم ليس بظلّ، إنما هو العذابُ نفسُه، فهو ظلٌّ خانق، ودخانه أسودُ قاتم، فكيف يستظلُّ به المرء من الحرّ؟ فتسميتُه بالظل، للسخرية والتهكم.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣] في الآية تشبيه مخيف، يسمّى (التشبيه التمثيلي) شبّه تعالى الشرر الذي يتطاير من جهنم بالقصر، وهو البناء الضخمُ، وشبّه لون هذا الشرر، بالإبل الصفر، في الكثرة وسرعة الحركة، وهذا التشبيه من روائع صور

التشبيه، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة؟ والمعنى: إن جهنم ترمي بشرر عظيم، كلُّ شرارة كأنها قصر شامخ، في العظم والضخامة، وكأنَّ شررها المتطاير من لهبها يشبه (الجمالةَ الصُفر) جمع جمل أي يشبه الجمل الأصفر من شدة اللهب.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ • فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩] أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل، بين السعداء والأشقياء، وأهلِ الجنة وأهل السعير، فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتالوا، وأنقذوا أنفسكم من هذا البلاء والعذاب، وهذا أسلوب تقريع (وتعجيز وتوبيخ)!!

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ • كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٥، ٤٦] هذا وعيدٌ وتهديدٌ للكفرة الفجار، أي كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن البهائم، التي همُّها ملءُ بطونها، ونيلُ شهواتها، فإنكم مجرمون لا تستحقون الرحمة والكرامة، فالأمرُ هنا واردٌ على وجه (التهديد والوعيد) بدليل وصفهم بالإجرام.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ • وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٧، ٤٨] أطلق (الركوع) وأراد به (الصلاة) أي وإذا قيل لهم: صلُّوا لربكم واسجدوا له لا يصلُّون ولا يسجدون، ففي الآية مجاز بديع، يسمّى (المجاز المرسل) من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، لأن الركوع أحد أركان الصلاة، وإنْ تعجبْ فعجبٌ واللهِ شأن الكفار، يأبون السجود للرحمن، ويسجدون للأوثان، وهي حجارةٌ لا تضرُّ ولا تنفع!!

٩ ـ قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] كنّى بالحديث عن القرآن العظيم، أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، الواضح الساطع، فبأي كتابٍ وبأيّ كلام يصدّقون ويؤمنون؟ هل هناك كلامٌ أصدق من كلام رب العالمين؟ تكررت هذه الآية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، للتخويف والوعيد، فعقب كل آية وخبر، يتوعدهم ويهدّدهم ربُّ العزة والجلال، بالمصير المشؤوم الذي ينتظرهم.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة النبأ

١ ـ قولُه تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥] الآيةُ فيها إسهابٌ بتكرار الجملة، للوعيد والتهديد، و(كلّا) للرَّدْع والزَّجر، أي ليرتدعْ هؤلاء الجهلاءُ، المكذِّبونَ بالبعث والنُّشور، فسوف يعلمون عاقبةَ كفرهم وسخريتهم، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد، مع التهويل له والتشديد، أي سوف يعلمون ما يحلُّ بهم من ألوان الكرب والعذاب.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧] في الآية تشبيه بديع يُسمَّى (التشبيه البليغ) لحذف أداة التشبيه ووجه الشَّبه، وأصلُ الكلام: جعلنا الأرض لكم كالمهاد ـ الفراش ـ الذي يفترشه النائم، تبنون عليها وتسكنون، وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض، تُثبِّتها وتحفظ توازنها، لئلا تضطرب بكم وتتزلزل، فحذف من الكلام كلَّ هذا فأصبح بليغاً، كقولنا: عليٌّ أسدٌ، أي كالأسد في الشجاعة والقوة، ومثلها: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠] أي كاللباس، يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستر اللباسُ عورة صاحبه، فالآية على التمثيل والتشبيه.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩] فيها أيضاً تشبيه، أي تصدَّعت وتشققت السماء لتنزُّل الملائكة منها، فصار فيها مثلُ الأبواب، بعد أن لم يكن بها شقوق ولا صدوع، فالتشبيهُ هنا (بليغٌ وبديع)، أي صارت السماءُ كلُّها كأنها أبواب، مفتَّحة من هول الموقف العصيب.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١] المرصادُ: المكانُ الذي يجلس فيه العدوُّ، ليرصد عدوه حتى يبطش به، شبَّه تعالى جهنم بإنسان، جلس على مرتفع من الأرض، يترقَّب مرور عدوه، لينقضَّ عليه فيقتله، ففي الآية (تشبيهٌ تمثيلي) بديع، من روائع صور التمثيل.

ومعنى الآية: إن جهنم تترصَّد وتترقَّبُ نزلاءها الكفار لتلتقطهم، كما

يترقب الإنسان عدوّه، فجهنم لا يجاوزها شقي، وكأنها تنتظر أعداء اللّه، لتخطفهم إليها، ويا له من تمثيل بديع!!

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ [النبأ: ٢٣] (الأحقاب): جمعُ حِقْب وهو الدهرُ، والزمنُ الطويلُ الذي لا نهاية له، أي ماكثين في جهنم دهوراً متتابعة، كلّما مضى دهرٌ تبعه دهر، وهو (كناية) عن التأبيد، ولهذا جاء منكّراً (أحقاباً) ليفيد التأبيد.

قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب أي الدهور، وهي لا تنقطع. اهـ تفسير القرطبي.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] الأمر هنا للإهانة والتحقير، وليس على أهل النار آيةٌ هي أشدُّ من هذه الآية، كلّما استغاثوا بنوع من العذاب، أُغيثوا بأشدَّ منه، وفي الآية التفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطاب، زيادة في التوبيخ والإهانة.

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨] (الروحُ): جبريلُ عليه الصلاة والسلام وهو داخل في زمرة الملائكة، فقد ذُكر مرتين: مرة استقلالاً، ومرة في جملة الملائكة، تنبيهاً على جلالة قدره، ويسمّى هذا (ذكر العام بعد الخاص) للعناية به، وهو من الأسلوب البياني الرائع.



الإبداع البياني في سورة النازعات

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ • تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧] (الرَّاجفةُ، والرَّادفةُ) كلٌ منهما (كناية) عن النفخة الأولى، والنفخة الثانية في الصور، سميت الأولى (راجفة) لأنَّ عندها يرتجف ويتزلزل كلُّ شيء ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤] ثم تتبعها النفخة الثانية وهي (الرادفة) التي تأتي بعدها، الأولى تُميت الخلق، والثانية تحييهم، لا يبقى عند وقوع الأولى حيٌّ إلّا مات، ولا عند وقوع الثانية ميتٌ إلّا بُعث، وجميعُها براهينُ ودلائلُ على هول يوم القيامة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ • أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨، ٩] (واجفة) خائفة فزعة (خاشعة) ذليلة منكسرة، نسبَ الخوف والفزع إلى القلوب، والمراد بها أصحابُها (الكفَّارُ الفُجَّارُ) أي قلوب الكفار المنكرين للبعث والنشور، خائفة فزعة، أبصارُ أصحابها ذليلة منكسرة، لهول ما ترى من الشدائد والبلايا، ففي الآية (مجازٌ عقليٌ) لأن الأبصار لا تخشع ولا تذلُّ، إنما الذين يخافون ويفزعون، هم أصحابُ القلوب، وأصحابُ الأبصار، مثل قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي اسأل أهل القرية، وأهل الإبل.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: ١٥] استفهام بأسلوب بديع يسمى بأسلوب (التشويق والترغيب) لسماع الخبر والقصة، كما تقول لإنسان: هل تدري ما حدث اليوم؟ تريد لفت انتباهه، وتشويقه لسماع الخبر.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] (نكال): عقوبة، وكنّى بالآخرة والأولى عن مقالتيه الشنيعتين: الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] والأخيرة وهي قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] والمعنى: عاقبه اللّهُ وأهلكه بسبب كلمتيه الفاجرتَيْن، وجعله عبرةً لمن يعتبر، في الدنيا بالعذاب الأليم، وفي الآخرة بعذاب الجحيم.

قال ابن عباس: كان بين كلمتَيْه الفاجرتَيْن (أربعون سنة) فأمهله الله ثم أخذه أخذ عزيزٍ مقتدر.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٩] (أغطش) معناه أظلَمَ، أي جعل ليلَها مظلماً حالكاً، وجعل نهارها مضيئاً مشرقاً، وفي التعبير عن النهار بالإخراج ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ لفتةٌ بديعة، لأن النهار ينبثق من ظلمة الليل، فكأنه يخرج من وكره.

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١] أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجّرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والنبات، مما يأكله الناسُ والأنعام، وقولُه سبحانه: ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ أي كلأها ونباتها، وهذا من (باب التغليب) غلّبَ الكلأ على النبات، والأصلُ في المرعى ما ترعاه الإبلُ والأنعام، أمّا النباتُ والخضار والثمار، فإنها لم تُذكر في الآية وهي داخلة في المرعى، لقوله تعالى بعده: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣] فالأنعام ترعى الكلأَ والحشيش، والإنسانُ يرعى النبات والثمار.

والآية صريحة في أن المطر الذي ينزل من السحاب، أصلُه من ماء الأرض، لقوله سبحانه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ أي أخرج من الأرض الماء، فإن المطر يتكون من تبخُّر مياه المحيطات، بواسطة أشعة الشمس، ثم ينزل من السحاب بصورة قطرات، ماءً ثجاجاً، فهي (تحلية ربانية) دون آلات ولا مضخات.

وفي الآية (استعارة تصريحية) شبّه أكل الناس برعي الأنعام، بجامع الأكل من كلٍّ منهما، واشتق من رعى (المرعى) بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة.

٧ ـ قولُه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] في الآية تشبيه بديع يسمى (التشبيه التمثيلي) أي كأن الكفار حين يشاهدون أهوال وشدائد القيامة، لم يمكثوا في الدنيا، إلّا سُوَيعات من الزمان، عشيَّةَ يوم أو ضُحى يوم، يستقصرون مدة إقامتهم في الدنيا، لهول ما يرون من البلاء. والعشيَّةُ: ما بين الظهر إلى غروب الشمس، والضحى: ما بين طلوع الشمس إلى الظهر.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة عبس

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ • أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ • وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ٣] جاء الخبر بضمير الغائب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تلطفاً به ﷺ، وإجلالاً لمقامه ﷺ، فلم يعاتبْهُ ربُّه مشافهةً، كأن يقول: عبستَ يا محمد وتوليتَ، لما في المخاطبة من الشدة والصعوبة ما لا يخفى!! واسم الأعمى (عبد الله بن أم مكتوم) وسبب نزول السورة، أن الرسول ﷺ كان مع صناديد قريش، يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرُهُم، فجاء إليه (ابن أم مكتوم) وهو أعمى فقال يا رسولَ الله: علِّمْني ممَّا علَّمك الله!! وكرَّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسولَ مشغولٌ مع القوم، فكره الرسولُ ﷺ مجيئه وسؤاله في هذا الوقت، وعَبَس أي قطَّب وجهه وأعرض عنه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إن أتباعَه السَّفلةُ، والعبيدُ، والصبيانُ، فعبس في وجهه ولم يلتفت له، وأقبل على القوم يحدثُهم، فنزلت الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يَبَشُّ في وجهه ويكرمه، ويقول له: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» تفسير القرطبي.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ • أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ٣، ٤] في الآية (التفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطاب) زيادةٌ في العتاب، وهو من المحسنات البديعية، ولو جاء الكلامُ على الأصل، لقال: وما يدريه؟ وإنما وردت الآية بطريق (الالتفات) تنبيهاً لسيد الأنبياء بشأن ذلك الأعمى، الذي لم يعلم بانشغال النبي ﷺ مع زعماء قريش، ولذلك جاء يسأل عن بعض أمور الدِّين.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ • فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: ١١، ١٢] تسليةٌ للنبي ﷺ بعد ذلك العتاب، كأنه يقول له: لن نؤاخذك يا أيها الرسولُ على ما فعلتَهُ، ولكنْ لا تعُدْ إلى مثله، وكفَّ عن التصدِّي للكبراءِ والعظماء، واعتَنِ بشأن الفقراء والضعفاء، فهؤلاء هم الذين يُرجى منهم الخير!! ولولا هذا التلطُّفُ من الله برسوله ﷺ، لكاد قلبُ النبيِّ أن يتفطَّر، من شدة الحزن والألم، ولكنَّ الله واساه بهذه الآية، ومع هذا العتاب للرسول ﷺ فقد بلَّغ هذا الوحي

كما نَزل عليه، ولم يكتم شيئاً منه، تنفيذاً لأمر الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ولو كان ﷺ كاتماً من الوحي شيئاً، لكتم هذه الآيات، كما يقول المفسرون.

ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام ما عَبس بعد ذلك في وجه فقيرٍ قطُّ، ولا تصدَّى لغنيٍ، وكان الفقراءُ في مجلسه أمراءَ، يُقرِّبهم ويدنيهم منه.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧] المراد بالإنسان: الكافرُ الجاحدُ لوجود الله ونِعَمه، والآيةُ دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيبٌ من إصراره على الكفرِ والعصيان، مع كثرةِ إحسان الله تعالى إليه، أي قاتلَ اللهُ هذا الكافرَ الفاجر، ما أشدَّ كفره بالله!! والصيغةُ صيغةُ تفظيعٍ، وتقبيحٍ، وتشنيعٍ لأمره، كأن اللهَ يقول: أُدعوا على هذا الكافر، بالموت واللَّعن، لارتكابه مع ربه أعظمَ القبائح والشنائع، ما أشدَّ كفره لمن خَلَقه، ورزَقه، وربَّاه!!

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٨، ١٩] الاستفهامُ للتحقير لشأن الكافر، والتوبيخ له، لإنكاره فضل الله عليه، وفيه ما يُسمَّى (بالتفصيل بعد الإجمال) فقد أجمل الكلام، ثمّ فصّله بقوله: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾. ومعنى الآية الكريمة: من أيِّ شيء خَلَق اللهُ هذا الكافرَ حتى يتكبَّر على ربه؟ أليس من شيء مهين حقير، وهو (المنيُّ) الذي يشبه المخاط؟ فكيف يتكبَّر على ربه، وهو بهذا الضعف وهذه الحقارة؟ قال **الحسن البصريُّ**: كيف يتكبَّر من خَرَج من مكان البول مرتين؟ يريد به عضو الرجل، وفرجَ المرأة، وكلاهما مكانٌ للبول والنجاسة.

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢٠، ٢١] (السبيل) كنايةٌ عن (فرج المرأة) وهي كناية لطيفةٌ بديعة، وأصلُ معنى السبيل: الطريقُ، أي يسَّر له طريق الخروج من بطن أمه، ولولا أنه سبحانه يسَّر خروجه، فجعل رأسه منكوساً وقت الولادة، لاختنق في بطن أمه، ولما عاش من الألف إلّا واحد، أو نحتاج إلى شقِّ بطن الأم في كل ولادة، كما هو الحال في (الولادة القيصرية). ومعنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أي جعل له قبراً يُوارى فيه، ولم يتركه ملقى للسباع والوحوش، كما هو الشأن في البهائم، وهذه تكرمة لذرية آدم على سائر الحيوانات، يُقال: أقبرَ الميت: إذا أمر بدفنه ومكَّن له، وقَبَرَه: إذا دفَنه، وعدَّ تعالى الموت نعمة، لأنه طريقٌ إلى الحياة الأبدية.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٦] المرادُ بالنظر: نظرُ (التفكر والاعتبار) لا مجرد النظر، **والمعنى**: ليتظر هذا الإنسان الغافل، إلى أمر رزقه ومعاشه، كيف هيأ الله له أسباب العيش الكريم، فأنزل له المطر من السحاب إنزالاً عجيباً، جعله ينزل قطراتٍ، قطراتٍ، لا ينصبُّ دفعة واحدة، لئلا يُتلف الثمر، ويُفسد الزرع والنبات، ثم شقَّ الأرض لخروج النبات شقاً بديعاً!! وفي هذه الآية (لفتة بديعة) إلى القدرة الباهرة، التي أودعها الله في هذه البذرة الضعيفة، فإنّ هذه النواة، أو البذرة، تشقُّ الأرض الصلبة، فيخرج منها ساق، تتكون منها شجرة باسقة، تحمل الفواكه والثمار، وهي (معجزة باهرة) يراها الناس بأبصارهم، ولكنهم يغفلون عن مصدر هذه القوة، التي أوجدها الله في هذه النواة، أو في هذه البذرة الضعيفة!!

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٣١، ٣٢] (الأبُّ): المرعى الذي ترعاه البهائم، كالحشيش، والكلأ، وسائر ما تخرجه الأرض طعاماً للحيوان، وفي الآية من المحسنات البديعية، ما يُسمّى (باللّف والنشر المرتَّب) فإن الفاكهة طعامٌ للإنسان، والأبّ طعامٌ للحيوان، فجمعهما أولاً، ثم أعاد المنفعة الحاصلة منهما مرتباً، فقال: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ ﴾ عاد إلى الأول الفاكهة ﴿ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ عاد إلى الثاني الأبّ، وهو الكلأ والعُشبُ الذي ترعاه البهائم، ذكر ذلك بالإجمال، ثم أعقبه بالتوضيح والبيان.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩] ﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾: مضيئةٌ متهلّلةٌ مشرقة، أي أصحابها وأهلُها مسرورون، بما يشاهدونه من النعيم المقيم، الذي أكرمهم الله به، وهي وجوه أهل السعادة، وقابَلَ ذلك بحال الأشقياء وجوه أهل النار، فقال: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٤٠، ٤١] القَتَرة: السّوادُ، والظلمةُ، وهي وجوه أهل الشقاء والإجرام، فقابل بين السعداء والأشقياء، بهذه المقابلة اللطيفة البديعة، وفي الآية (مجاز مرسل) حيث أطلق الوجوه، وأراد بها أصحابَها، أي أصحابُ تلك الوجوه.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة التكوير

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ • بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] (المؤودةُ): البنتُ التي دُفِنتْ وهي حيَّةٌ، وهذه منتهى الوحشية من سفهاء الجاهلية، حيث كانوا يقبرونها في حفرة وهي على قيد الحياة، والغرضُ من سؤالها: التوبيخُ لقاتلها، لأنها ستقول: دُفنت بلا ذنب. قال في الكشاف: (كان الرجلُ إذا وُلدتْ له بنتٌ، وأراد إبقاءَها، ألبسها جُبَّةً من صوف أو شَعَر، وجعلها ترعى له الإبلَ والغنم، وإن أراد قتلها تركها حتى تبلغ ست سنين، فيقول لأمِّها طيِّبيها وزيِّنيها، لأذهب بها لأعمامها، وقد حَفَر لها بئراً في الصحراء، فيأخذها فيقول لها: انظري ماذا هنا؟ ثم يدفعها من خلفها، ويُهيل عليها التراب). تفسير الكشاف.

٢ ـ **قوله سبحانه:** ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ • الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] (الخُنَّس): وصفٌ للنجوم التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل، أي أقسم لكم بهذه النجوم، الساطعات الزاهرات، التي تختفي بالنهار، (الكُنَّس) هي النجومُ الجاريات التي تسير في أفلاكها، ثم تدخل في كناسها، وأصلُ الكناس: الكهفُ الذي تأوي إليه الظِّباءُ، جمعُ ظَبْي، فيه تشبيه بديع رائع، باختفاء النجوم عن الأنظار، كأن النجوم ظِباءٌ دخلت في كهوفها مختفيةً عن الأنظار، وفي هذا التشبيه جمال وإبداعٌ، يعرفه علماء الفصاحة والبيان.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ • وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨] ﴿عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه الدامس ﴿تَنَفَّسَ﴾ أضاء وأشرق بنوره الساطع، أقسم تعالى بالليل، إذا جاء بظلامه الحالك، حتى غطَّى الكونَ، وبالصبح إذا أضاء وأشرق، وانبلج نورُه، حتى أصبح نهاراً ساطعاً مضيئاً.

وفي هذه الآية من جمال (الاستعارة البديعة) ما يأخذ بالألباب، فقد شبَّه النورَ ينبلج به الصبحُ، بنسمات الهواء العليل، تُحْيي القلبَ والنَّفس، وشبَّه الفجر بنائم، يَغِطُّ في سُبات عميق، والفجرُ حيٌّ يتنفَّسُ، أنفاسُه: (النور،

والحركة، والضياء) كأنه كان نائماً ثم استيقظ، فاستنشق الهواء المنعش للنفس، واستعاد نشاطه وحيويته، وإنما جاءت روعة التعبير والبيان، من هذه الاستعارة البديعة ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ فما أروع هذا التمثيل، وأبدع هذا البيان!؟

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] أضاف القرآنَ إلى (جبريل) وهو في الحقيقة قولُ اللّٰه عزّ وجلّ، لأنه نزل به من عند اللّٰه، فإسناده إليه (مجازٌ) باعتبار أنه السببُ في نزوله كما قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وإسناده إليه باعتبار (السببيّة) في الإنزال والإيصال، ومما يدلُّ على ذلك، وصفُ جبريلَ بالقوة، والمكانة عند ربِّ العرش جلَّ جلاله، وأنه أمينٌ على الوحي، وأن الملائكة تطيع أمره لأنه رئيسهم.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] في الآية (كناية) لطيفة، لم يقل تعالى: وما محمدٌ بمجنون، وإنما كنى عنه بقوله: ﴿صَاحِبُكُم﴾ دون اسمه الشريف (محمد) ﷺ لتوبيخهم، وبيان سخافة ما افتروا به عليه، من الكذب على اللّٰه، ورميهم له بالجنون، كما قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] كأنه يقول لهم: لقد صاحبكم محمد أربعين سنة، قبل أن ينزل عليه الوحيُ، وقد عرفتم صدقَه، وأمانتَه، وكمالَ عقله، حتى كنتم تلقّبونه بـ(الصادق الأمين) أفلا تكفي هذه المدةُ الطويلة، لمعرفة حقيقة أمره، هل هو صادق أم كاذب؟ في دعوى النبوة؟ أفليست لكم عقول تدركون بها صدق رسالته؟ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] ففي الآية تلميحٌ بسفاهة عقولهم، وتشنيع عليهم بما افتروه وزعموه.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٥، ٢٦] أي ليس هذا القرآن المعجز، من قول بعض الشياطين كما افتريتم وزعمتم، فأين تذهب عقولكُم في تكذيبكم لهذا القرآن، مع سطوع بيانه، وروعة إعجازه!!

وفي هذا التعبير ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ تسفيهٌ لهم وتضليل، فيما ينسبونه إلى القرآن، كما تقول لمن ترك الطريق الواضح: هذا هو الطريقُ فأين تذهب؟ شُبّهت حالُهم بحال من ترك الجادة المستقيمة، وذهب في الشِّعاب والوديان حتى هلك، ومعنى الآية: أين تذهب عقولكم بهذا المنطق السخيف، يا أصحاب العقول النيّرة!؟

الإبداع البيانيّ في سورة الانفطار

١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] في الآية استعارة لطيفة تسمّى (الاستعارة المكنية) حيث شبّه النجوم بجواهر منتظمة في عِقْد، قُطِعَ سِلْكُ هذا العِقدِ، فتناثرتْ متفرِّقةً، وطوى ذكرَ المشبَّه به، وهو (العِقْد) المنظوم، ورَمَز له بشيء من لوازمه، وهو (الانتثار) على طريقة (الاستعارة المكنيّة)، وهي من لطيف أنواع الاستعارة.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] استفهامٌ للعتاب والتوبيخ، أي كيف تجرّأتَ على عصيان أمر ربك، مع إحسانه إليك، وعطفه عليك!! والمراد بالإنسان: الكافرُ، بدليل الاستفهام الذي هو للتوبيخ.

وقولُه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ خطابٌ للكافر، أي ما الذي غرّك وخَدَعك حتى كفرتَ بربك الكريم، الذي تفضّل عليك في الدنيا، فأكملَ خَلْقك وحواسَّك، وجَعَلك عاقلاً، سميعاً بصيراً، وأغدق عليك الرزق والنِّعم؟!

قال الحسنُ البصريُّ: غرّه شيطانه الخبيث.

وقال عمر رضي الله عنه: غرّه واللهِ جهلُه.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] كرّر اللفظ لزيادة التهويل، والتعظيم لأمر يوم القيامة، كأنه من الهول والشدّة، فوق الوصف والخيال، إظهاراً لهوله وفخامته.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] التنكير في قوله: ﴿نَفْسٌ لِّنَفْسٍ﴾ للتعميم، ولبيان هول ذلك اليوم العصيب، الذي قال اللهُ تعالى عنه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] أي لا تستطيع نفعاً لها بوجهٍ من الوجوه.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة المطففين

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣] فيه (إيجاز بالحذف) حُذف الجارُّ ووُصِلَ بالفعل، أي كالوا لهم، أو وَزَنُوا لهم، يُنقصون من المكيال والميزان، ولهذا جاء الوعيدُ لهم بالويل والعذاب.

رُوي عن ابن عباس قال: «**لمَّا قدم رسولُ اللّه ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً، فلمَّا نزلت السورة، كانوا من أحسن الناس كيلاً بعد ذلك**» رواه النسائي.

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤، ٥] أدخلَ الهمزة على (لا) النافية للتوبيخ، وفي الآية إنكارٌ وتعجيب من حالهم، **والمعنى**: ألا يعلم ويستيقن أولئك الظلمةُ، أنهم سيُبْعثون ليوم عصيب رهيب، يقفون فيه بين يدي الجبّار جلَّ جلاله، لينالوا جزاءهم وعقابهم؟ وفي هذا الإنكار والتعجيب، ما لا يخفى من شدة الهول.

أمَّا اليومُ العظيمُ فهو (يومُ القيامة) ولهذا فسّره بقوله سبحانه بعده ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] أي يقومون من قبورهم فزعين، ويقفون بين يدي ربِّ العالمين، للحساب والجزاء، وجاء في الحديث الشريف: «**إن العَرَق يلجمُ أحدَهم، حتى يغيبَ في رَشْحه إلى أنصاف أذنيه**» رواه مسلم.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦] الرحيق: الخمر البيضاءُ الصافية، وهي صافي الخمر وخالصُها، الذي لا غشَّ فيه، ولم تكدِّرها الأيدي.

قال ابن عباس: (طيَّب اللّه لهم الخمر، فكان آخر طعمه مختوم بمسك).

وفي الآية تشبيه بديع يسمّى (التشبيه البليغ) أي كالمسك في طيب الرائحة، حُذفت منه الأداة ووجهُ الشبه فأصبح بليغاً.

الإبداع البياني في سورة الانشقاق

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ • وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ...﴾ [الانشقاق: ١، ٢] جواب (إذا) في الآيات الأربع محذوفٌ للتهويل، وزيادة الفزع والتخويف، أي إذا حدث ذلك كلُّه، لقي الإنسانُ من الشدائد والأهوال، ما لا يتصوره الخيال.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ • فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨] في الآية (كناية) لطيفة، فقد كنَّى بالحساب اليسير عن (العَرْض) أي تُعرض على المؤمن بعضُ أعماله، ويذكّره اللهُ بفضله عليه وإنعامه، ثم يدخله الجنة من غير حساب ولا عذاب، وفي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نُوقش الحسابَ عُذّب، فقلت: أفليس الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٨]؟ فقال: ليس ذاكَ بالحساب، ولكنْ ذلك العَرْضُ، من نُوقش الحساب يوم القيامة عُذّب» رواه البخاري، وفي رواية أخرى: «إنما ذاكَ العَرْضُ، وليس أحدٌ يُحاسب يوم القيامة، إلّا هَلَكَ» رواه البخاري.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] الطَّبقُ في الآية: (كنايةٌ) عن الهول والشدة، التي سيلقاها الإنسانُ في الآخرة.

والمعنى: ستلاقون يا معشر البشر، أهوالاً وشدائد، هي طبقاتٌ في الشدة والفظاعة، بعضُها أشدُّ من بعض، أوّلُها سكراتُ الموت، وما بعدها من أهوال يوم القيامة العصيب.

قال ابن القيّم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي حالاً بعد حال، فأول أطباقه: كونُه نطفة، ثم عَلَقة، ثم مُضغة، ثم جنيناً، ثم مولوداً، ثم رضيعاً، ثم فطيماً، ثم صحيحاً أو مريضاً، إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة، إلى أن يموت ثم يُبعث، ثم يوقف بين يدي الله عزّ وجلّ ثم يصير إلى الجنة أو النار. اهـ تفسير ابن القيم ص٥٠٩.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ • فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٣، ٢٤]

(يوعون) أي يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر، والحسد، وعداوة الرسول، واستعمالُ البشارة في موضع الإنذار، تهكُّم وسخريةٌ بالكفار، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ واردٌ بأسلوب السخرية والتهكم بهم.

❁ ❁ ❁

الإبداع البيانيُّ في سورة البروج

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] في الآية من الأسلوب البديع، ما يُسمَّى بـ(تأكيد المدح بما يشبه الذمّ) كأنه يقول: ليس لهم جريمة عند هؤلاء الفجار، إلا لأنهم آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وهذه فضيلة وليس بذنب، ويسمى في علم البديع (المدح بما يشبه الذم).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ [البروج: ١٧] أسلوبُ التشويق لسماع القصة والخبر، أي هل بلغك يا محمد خبرُ الجموع الكافرة، الذين تحزّبوا على رسل الله وأنبيائه؟ ماذا فعل الله بهم؟ وكيف أهلكهم الله ودمّرهم؟ والآيةُ متضمنة تسليته عليه الصلاة والسلام، بأنه سيصيب قَوْمَه ما أصاب الجنود الكافرة، من الأمم السابقة، من أنواع العذاب والوبال.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [البروج: ١٩، ٢٠] ﴿ تَكْذِيبٍ ﴾ مصدرٌ أتي به للمبالغة، و(بل) للإضراب، أي لم يعتبر كفار مكة بما حلَّ بالكفرة المجرمين، بل هم مستمرُّون في الكفر والتكذيب، والجحود والعناد، فهم أشدُّ طغياناً وفجوراً من السابقين.

وقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من عذاب الله، بقوم أحاط بهم العدوُّ من كل جانب، فسدَّ عليهم الطُّرق والمسالك، والمراد بالآية. بيانُ قرب هلاكهم، ويا له من تمثيل بديع!!

تنبيه: انظر توضيح قصة أصحاب الأخدود في (صحيح مسلم) وفي كتابنا (التفسير الواضح الميسّر) ص١٥٥٠ وهي من روائع القصص القرآني، وضّحها النبيُّ ﷺ بأسلوبه البديع!!

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة الطارق

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ • النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٢، ٣] الاستفهام للتفخيم والتعظيم للأمر، والطارق مأخوذ من الطَّرق وهو الضرب الشديد، وكلُّ ما أتى ليلاً فهو طارق، قال الشاعر:

يا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ ... إنَّ الحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا

ثم فسَّر الطارق بأنه النجم الثاقبُ المضيء، الذي يثقب الظلام بنوره، ولهذا قال: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ سمي النجم طارقاً، لأنه يظهر بالليل ويختفي بالنهار، وقد كثُر القَسمُ في كتاب اللهِ المجيد بالشمس، والقمر، والنجوم، لأن أمورها جليلة، تشهد بعظمة الخالق المبدع ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ • وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] فالقَسمُ بها للتفخيم والتعظيم لشأنها.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ • يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٦، ٧] في الآية (كناية بديعة لطيفة) فقد كنَّى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من (لطيف الكنايات) وأبدعها، أي يخرج الماء الدافق من صُلب الرجل، ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها، جمعُ «تريبة» وهي ما بين الثَّديَيْن، كما قال ابنُ عباس، وقد جاء العلم الحديث بمخترعاته ومكتشفاته ليخبر عن هذه الحقيقة التي حدَّث عنها القرآن، فقد كشف العلمُ الحديث أن في عظام الظهر يتكوَّن ماءُ الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكوَّنُ ماءُ المرأة، وعند اللقاء الجنسي يتدفق المنيُّ بقوة وشدة، ويلتقي مع (البويضة الأنثوية) ليجتمعا في قرار مكين، هو (الرحم) وخلقُ الإنسان من نطفة مهينة (معجزةُ المعجزات) وأعجوبةُ الأعاجيب، فهذا الماء الدافقُ من صُلب الرجل، يحمل معه جيشاً جراراً من الجنود الشجعان المغاوير، يُسمِّيها علماءُ الأجنَّة (الحيوانات المنوية) وفي الدفقة الواحدة، يتدفق ما يزيد على أربعة ملايين حيوان منوي، واحدٌ منها يكفي لإنجاب إنسان، وهنا ندرك سرَّ قول الباري جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ • خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ لنرى عظمة المبدع الحكيم!!

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ • وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢] سُمّي المطر بالرجع، لعوده إلى الأرض بعد أن يخرج منها، والعربُ كانوا يعرفون، أن المطر الذي ينزل من السحاب، أصلُه من البحار، يرتفع بواسطة الأبخرة إلى الأعلى، ثم يرجع من السُّحب إلى الأرض، كما قال قائلهم:

كالبحر تُمطِرهُ السَّماءُ وَما لَها فَضلٌ عَليهِ لأَنَّه مِن مائِهِ

واللهُ تعالى أخبرنا عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا • أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١] والمراد بالصّدع: الشّقُّ، وهو ما تنشقُّ عنه الأرض وتتصدع، فيخرج عنها النبات والثمر.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا • وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] الكيدُ من الكفار: الاحتيالُ والمكر، أي يحتالون لإطفاء نور الله، والمكرُ من الله: بمعنى المجازاة، أي إنهم يمكرون وأجازيهم على مكرهم، بالإمهال، ثم آخذهم بالعذاب والنّكال، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى، إلّا على وجه الجزاء، فتسميتُه بالكيد من (باب المشاكلة) وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، كقول الشاعر:

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وقَمِيصَا

ومثلُ هذا ما ذُكر في القرآن الكريم، عن الخِداع، والاستهزاء، والسخرية الخ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقولِهِ سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ • اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥] وقولِهِ جلّ ثناؤه: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩] كلُّها محمولةٌ على وجه المجازاة والمعاقبة لهم على إجرامهم، كما نبّه على ذلك الحافظ ابن كثير، فتدبّرْ هذا واللهُ يرعاك.!



الإبداع البياني في سورة الغاشية

١ ـ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾[الغاشية: ١، ٢] استفهام أريد به التعجيبُ، والتشويق إلى استماع خبره، لأنه من الأخبار الهامة، التي حقُّها أن يستمعها الناس، ويتناقلوا أحداثها، والمراد بالوجوه (الأعيانُ والذواتُ)، فهو (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) كما يُقال: جاءك وجوهُ القوم أي أعيانُهم وشرفاؤهم، والمعنى: هل جاءك يا أيها الرسول خبرُ القيامة، وما يراه البشر فيها من شدائد وأهوال؟ وجوه الفجار الأشقياء في ذلك اليوم ذليلةٌ مهينة، لما يغشاها من الخزي والهوان.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢] لا يُراد بالعين عيناً واحدة، إنما هو (اسمُ جنس) فالتنوينُ للتكثير، أي في الجنة عيونٌ كثيرة، يجري ماؤها ولا ينقطع، تجري بالماء السلسبيل، وفي الحديث: «أنهارُ الجنة تُفجّر من تحتِ تلال المِسْك» أي جبال المسك، رواه ابن أبي حاتم.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣] هذه (كنايةٌ بديعة) فقد كنّى عن الحور العين، بالسُّرر، كما كنّى عنها بالفُرُش في قوله في سورة الواقعة: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] والمعنى: فيها سرر مرتفعة، مزيّنة بالياقوت والزّبرجد، عليها الحورُ العين.

قال الحافظ ابن كثير: فيها سررٌ عالية رفيعة، كثيرةُ الفُرُش، عليها الحورُ العينُ، فإذا أرادَ وليُّ اللهِ أن يجلس عليها تواضعت له، أي انخفضت له ليستلقي عليها، ويستمتع بالحور العين.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] الهمزةُ للإنكار والتوبيخ، والمرادُ بالنظر (نظرُ الاعتبار والتفكر) في بديع خلق الله، وإنما خصَّ الإبل بالذِّكر، لأنها أفضلُ (دوابِّ العرب) وأكثرُها نفعاً، لهذا يسمونها (سفينةَ الصحراء) فانظر إلى خلقها العجيب، فإنها في غاية الشدَّة والقُوَّة، تجلسُ لتوضع عليها الحمولةُ الثقيلة، ثم تقومُ بما تحمله بما يعجزُ عن

حمله الغضبةُ أولو القوة، ثم صبرُها على الجوع والعطش، الأيامَ العديدة، ورعيُها بكل ما يتيسّر لها من نبات، وانقيادُها للإنسان، فلو كان هناك قافلةٌ من مائة بعير، لقادها طفل صغير، فهذا الخلق البديعُ لها والتسخيرُ، من عجائب القدرة الباهرة.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٣] الاستثناء في الآية منقطعٌ، أي لكنْ من أعرض عن الإيمان، وكفر بالرحمن، فاللهُ جلّ وعلا يتولّى عقابه، ويحرقه بنار جهنم الكبرى، فأنت لست مكلّفاً بهداية هؤلاء الأشقياء، إنما عليك التذكيرُ وعلينا الحسابُ.



الإبداع البياني في سورة الفجر

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ [الفجر: ٤، ٥] في الآية (استعارةٌ لطيفة بديعة) في قمَّة الروعة والجمال، فالسُّرَى معناه: السفرُ ليلاً، شبَّه الليلَ بمسافر، يمشي في ظلمة الليل، يقطع الصحارى والقِفار، ويختار وقت الليل للمشي، لأنه ألطفُ جوًّا، وأبعدُ عن حرارة النهار، وحَذَف لفظ المسافر، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو السُّرى ـ المشيُ بالليل ـ على طريق (الاستعارة المكنية) والفرقُ كبير جداً بين أن يقول: والليل إذا مضى، وبين قوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ كالفارق بين الثَّرى والثريَّا. فالتعبيرُ القرآنيُّ في غاية الإبداع والإعجاز، لتناسق الآيات لأنها مختومة بحرف الراء (الفجر، عشر، وتر) فجاءت كلمة (يسر) على النظم المتناسق، ولوقال: إذا مضى، لذهب هذا الجمال الساحر، فتدبر روائع القرآن.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦] عبَّر عن العلم بالرؤية (ألم تر) أي ألم تعلم أيها المخاطَبُ علماً يقينيًا، كيف عذَّب الله عاداً قوم هود؟ وكيف أهلكهم بالريح الصرصر العاتية؟ وإنما عبَّر بالرؤية لأن أخبار عادٍ، وفرعون، وثمود، كانت منقولةً بالتواتر، وقد عرفوا ما حدث عليهم، فالعلمُ بهم جارٍ مجرى الرؤية العينيَّة.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ [الفجر: ١٠] في الآية (كنايةٌ لطيفة) فقد كنَّى عن الجنود، والجموع، والجيوش التي كان فرعون يتقوَّى بها (بالأوتاد)، لأنها كانت عُدَّته وعمدَته.

قال ابن عباس: الأوتادُ: الجنودُ الذين يشدُّون له أمره، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٣.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ (السوط) للعذاب الذي نَزَل عليهم بغزارةٍ وكثرة، تشبيهاً له بالمطر المدرار، المنصبِّ من السماء،

فكأن العذاب لكثرته وشدته، مطرٌ غزير مدرار، انصبَّ عليهم كسياطٍ لاذعة، وأشار بلفظ الصبّ إلى كثرته وتتابعه.

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧] في الآية التفاتٌ من ضمير الغائب، إلى ضمير الخطاب، زيادة في التوبيخ والعتاب، وسياق الكلام: كلا بل لا يكرمون اليتيم، فعدل عنه إلى الخطاب، وهو من (المحسنات البديعية).

٦ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠]. التُّراث: يراد به الميراث، ومعنى ﴿لَّمًّا﴾ أي شديداً بحرصٍ وشَرَه.

والمعنى: تأكلون الميراث أكلاً شديداً، لا تسألون أهو من حلالٍ أم حرام؟ وهذا وصفٌ لهم بالظلم والعدوان على حقوق الآخرين، فقد كان العربيُّ يأخذ نصيبَه ونصيبَ غيره، ولا يعطون الأنثى ولا الصغير.

وجاء التعبيرُ بصيغة المصدر ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ لزيادة التأكيد على الخبر، فإن العرب إذا أرادوا التأكيد، كرّروه بصيغة المصدر.

٧ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] هذا يقال للمؤمن عند الاحتضار، قبل نزع الروح منه، لتكون للمؤمن بشرى عاجلة، سارة له قبل موته، كما تبشّره الملائكة بالروح والريحان، ودخول الجنان، قال تعالى إخباراً عن حال المؤمن المحتضر: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].



الإبداع البياني في سورة البلد

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١، ٢] استفاض عند العرب زيادة (لا) لتأكيد الكلام، والمعنى: أقسمُ لكم قسماً مؤكداً بالبلد الحرام (مكة) شرَّفها اللهُ، وأنت يا أيها الرسول ساكنٌ ومقيمٌ بالبلد الأمين، وفائدة (لا) تأكيد القسم، قال امرؤ القيس: «فلا وأبيكِ ابنةَ العامِريِّ»!! يعني: وأبيكِ.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] الاستفهام هنا (إنكاريٌّ) للتقريع والتوبيخ، أي هل يظنُّ الكافرُ الفاجرُ، أن لن يقدر على الانتقام منه أحد؟ الضميرُ يعود إلى أحد صناديد قريش، وهو (أبو الأشدِّ بنُ كِلْدة) كان طاغيةً جباراً، يغترُّ بقوته وشدته، كان يوضع له الجلدُ الغليظ تحت قدميه، ويجذبه عشرة من الأقوياء، فيتقطَّع ولا تتزلزل قدماه.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] إستعارة لطيفة بديعة، فأصلُ النَّجد: الطريقُ المرتفع، أي أرشدناه إلى طريق الخير، وطريق الشر، ليسلك طريق الهدى، ويترك طريق الضلال، فاستعير كل منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة، ففيها (الاستعارة التمثيلية) وهي من ألطف أنواع الاستعارة.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١١، ١٢] الاستفهام ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ للتهويل والتعظيم لشأنها، يقول: هَلَّا أنفق ماله في اجتياز العقبة الكؤود؟ بدل أن ينفقه في عداوة محمد؟ وأصلُ العقبة: الطريقُ الوعرُ في الجبل، وفي الآية (استعارة لطيفة) أراد بالعقبة هنا: الشدائدَ والأهوال التي يلقاها الكافر في الآخرة، وهذا مَثَلٌ ضربه الله لذلك الشقيِّ الكافر (أبي الأشدِّ بن كلدة) الذي كان يقول فخراً ومباهاةً: لقد أنفقتُ مالاً كثيراً في معاداة محمد.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] أطلق الرقبة وأراد بها إعتاق عبدٍ

أو أمةٍ، وتخليصه من الرقّ والعبودية، ففيه (مجازٌ مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكلّ) وهو معروفٌ ومشهور في أساليب العرب، يقولون: أرسلت الدولةُ عيونَها أي جواسيسها، وجاء وجوهُ القوم: أي أشرافها وأعيانها.



الإبداغ البيانيُ في سورة الشمس

١ ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] أي فاز ونال مبتغاه، من زكّى نفسه بطاعة الرحمن، وطهّرها من دنس الآثام، وقد خاب وخسر من أخفاها وحقّرها بمعصية الله، وبالفجور والمعاصي، وأصلُ التدسية: الإخفاءُ، فالعاصي يدسُّ نفسه بالمعصية، ويتوارى عن الخلق من سوء ما يصنع، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وعند الناس، فسقط من عداد العقلاء، وصار في عداد البهائم، وفي الآية (تمثيل) للكافر الفاجر، بالساقط من أوج العزّ والكرامة، إلى حضيض الذلّ والهوان.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣] إضافة الناقة ـ أنثى الجمل ـ إلى الله تعالى ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ للتكريم والتشريف، نُسِبتْ إلى الله تشريفاً مثل (بيت الله) لأنها خرجت من صخرة صمّاء، معجزةً لنبيّ الله (صالح) عليه السلام، أي احذروا الناقة وسقياها (ناقةَ صالح) واللهُ تعالى ليس له ناقةٌ ولا جمل.!

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] أي أهلكهم اللهُ ودمّرهم عن آخرهم، ولم يُبق منهم أحداً، فالآية واردة مورد (التهويل والتفظيع)، فإن لفظ (الدمدمة) يدلُّ على هول العذاب وشدّته، والدمدمةُ: إهلاكٌ باستئصال، يقال: دَمْدمَ اللهُ عليهم أي أهلكهم عن بَكْرة أبيهم. تفسير الشوكاني ٥/ ٤٤٧.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥] العُقْبى: عاقبةُ الشيء وما يتْبعه من مسؤولية.

والمعنى: ولا يخاف ربُّ العزّة والجلال، عاقبةَ إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الملوكُ والرؤساءُ عاقبةَ أفعالهم، لأنهم يخشون ثورة الشعوب والأمم عليها. قال الشوكاني: أي فعل اللهُ ذلك بهم، غير خائف من عاقبةٍ ولا تَبِعة. اهـ تفسير الشوكاني ٥/ ٤٤٧.

الإبداع البياني في سورة الليل

١ ـ قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ • وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] سمّى الله تعالى طريق الخير (يُسرى) لأن عاقبتَها اليسرُ، وهي الجنةُ دارُ النعيم، وسمّى طريق الشرّ (عُسرى) لأن عاقبتَها العسرُ، وهي دخول نار الجحيم، وبين (اليُسرى) و(العُسرى) طباقٌ وهو من (المحسنات البديعية).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ [الليل: ١٧] المراد بالأتقى (أبو بكر الصدّيق) رضي الله عنه، ولا يمكن حملُ الآية على (عليّ) رضي الله عنه كما يقول الشيعة، لأن الله تعالى قال في وصف هذا الأتقى ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ [الليل: ١٩] وهذا لا يصدُقُ على (عليّ) لأنه كان في بيت النبيّ ﷺ، ربّاه ﷺ وكان يُطعمه ويَسقيه، ويكسوه، وينفق عليه، لأنه أخذه من أبيه (أبي طالب) لفقره وكثرة عياله، فله عليه (نعمةٌ) فثبت أن الآية ـ كما يقول المفسرون ـ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن كثير: ذكر غيرُ واحدٍ من المفسّرين، أن هذه الآيات نزلت في (أبي بكر الصدّيق) رضيَ الله عنه، حتى حكى بعضُهم الإجماعَ على ذلك، ولا شكَّ أنه داخلٌ فيها، وأولى الأمة بعمومها، وهو مقدّم الأمةِ وسابقُهم في جميع هذه الأوصافِ الحميدة، فإنه كان صدّيقاً، تقياً، جواداً، كريماً، بَذَل أموالَه في طاعة مولاه، ونصرةِ رسول الله ﷺ، فكم من دنانيرَ بذَلَها ابتغاء وجهِ ربّه الكريم، ولم يكن لأحدٍ من الناس عليه مِنّةٌ، يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكنْ فضلُه وإحسانُه كان على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال فيه (عُروةُ بنُ مسعود) وهو سيّدُ ثقيف، يوم صُلح الحديبية: أمَا واللهِ لولا يَدٌ ـ أي نعمةٌ ـ لك عندي لم أجْزِك عليها لأجبتُك ـ وكان الصدّيقُ قد أغلظ له في المقالة ـ فإذا كان هذا حالُه مع سادات العرب، ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى عنه: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ • إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ • وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١] اهـ تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٧.

الإبداع البياني في سورة الضحى

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ • وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ • مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣] اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، ولم يخرج إلى الناس، فجاءت امرأة (أبي لهب) إلى رسول الله ﷺ، فقالت يا محمد: إني لأرجو أن يكون شيطانُك قد هَجَرك ـ تقصد بالشيطان جبريل الذي ينزل بالوحي ـ لم أره قَرُبك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَىٰ • وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ السورة، رواه البخاري. (سجى الليلُ): اشتدَّ ظلامه (قلى) أبغض، أقسم تعالى بالضحى وضيائه، وبالليل إذا اشتدَّ ظلامه، بأنه سبحانه لم يهجر محمداً، ولم يبغضه، وهذا ردٌّ على المشركين وتسفيهٌ لقولهم: إن محمداً قد هَجَره ربُّه وأبغضه، لقطْعِ الوحيَ عنه!! إن انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ مدةً من الزمن، فيه لطفٌ بالنبي الكريم، كما أن انقطاع نور الشمس عن الناس بالليل، فيه لطفٌ بالبشر، حيث يخلد الناسُ إلى الراحة والهدوء، وكما أن غياب الشمس لا يكون على الدوام، بل يعقبه نور الصباح الوضّاء، كذلك أمرُ الوحي، فهو إبطاءٌ يعقبه نور وبهاء، فالقصةُ إذاً زيادةُ حب، وعلوُّ شرف، وإشراق بعد غياب، ليزداد الرسول شوقاً إلى اللقاء، وهذه كرامةٌ عظيمة له ﷺ، أن يُقسم له ربُّه، بأنه حبيبٌ إليه، قريبٌ منه، رفيعُ القَدْر والشأن عند ربه!!.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ • وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ • وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ٩ ـ ١١] لقد أنعم الله على نبيه محمد ﷺ في هذه السورة الكريمة بنعم ثلاث، وأوصاه مقابلها بوصايا ثلاث:

الأولى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ [الضحى: ٦] أي ألم تكن يتيماً فرعاك اللهُ، وهيأ لك من يعطف عليك، ويكفلك حتى بلغتَ سنَّ الرشد!!

وقابَلها بقوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي فلا تُهِنْهُ ولا تحقره، ولا تغلبه على ماله، بل أحسنْ إليه، وكن لليتيم كالأب الرحيم.

الثانية: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] أي كنت تائهاً عن معرفة

الشريعة والدين، لا تعرف القرآن، فنوّر الله قلبك وهداك إلى الإيمان والتوحيد.
وقابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي علّم الناس كما علّمك اللهُ، وأرشدهم إلى طريق الخير والسعادة، واشكر ربك على نعمة الهداية والمعرفة.

الثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨] أي كنت فقيراً محتاجاً فأغناك الله عن الخلق.

وقابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تطرد السائل ولا تزجره، إذا سألك بعض المعونة والإحسان وكأنّ الآيات تقول لسيد المرسلين: كنت يتيماً، وتائهاً، وفقيراً، فآواك الله، وهداك، وأغناك، فتعطّف على اليتيم، وترحّمْ على السائل، وأرشد الضالين إلى طريق الهداية والدين، كما هداك اللهُ إلى دينه القويم.

تنبيه هام: قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ لا يُراد بالضلال في الآية: الضلالُ الذي يُقابل الهُدى والإيمان، كضلالِ أهل الجاهلية، وأهلِ الزيغ والشرك، إنما الضلالُ هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] هذا اختيارُ الزجّاج، وقيل: معنى ﴿ضَالًّا﴾ أي لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك اللهُ لذلك. اهـ تفسير الشوكاني ٥/٤٥٦.

فلا ينبغي لأحدٍ أن يظنّ أن رسولَ الله ﷺ كان في أول حياته ضالاً، يعبد غير الله، أو يرتكب الفواحش والموبقات، فأخرجه اللهُ من ظُلمة الضلال، هذا خطأ فاحش، لا يخطر ببال أحدٍ من المسلمين، لأنه عليه الصلاةُ والسلام كان على الهداية والفطرة، منذُ نعومةِ أظفاره، لم يشرب خمراً، ولم يعبد صنماً، ولا كان على دين قومه، وكان يُعرف بين جميع قومه بطهارة النفس، والبعد عن كلّ الفواحش والموبقات، فتدبّرْ هذا والله يرعاك.



الإبداعُ البيانيُّ في سورة الإنشراح

١ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] الاستفهام في الآية للتقرير، يقرِّره تعالى بالاعتراف بنعمة الله عليه، وللامتنان على الرسول والتذكير له بالنعمة، أي لقد شرحنا صدرك يا محمد بالهداية والإيمان، ونوَّرناه بأنوار اليقين والقرآن، فاشكر ربك على هذه النعمة الجليلة، وقمْ بواجب تبليغ الدعوة، مهما تحمَّلْتَ من متاعبَ ومشاقَّ.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ • الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣] في الآية استعارة بديعة تسمَّى (الاستعارة التمثيلية) شبَّه تعالى ما كان يحمله الرسول ﷺ من هموم وأكدار، وحزنه وتحسُّره على عدم إيمان قومه، بحملٍ ثقيل، يُرهق ظهر الإنسان، فأذهب الله عنه الهمَّ والغم، بتسليته بالآيات البيِّنات، التي كانت تنزل عليه، تُواسيه وتُسلِّيه، كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وغيرها من الآيات الكريمة، فالآية تمثيلٌ لما كان يلقاه الرسول ﷺ من هموم وأكدار، في سبيل تبليغ دعوة الله، بالحمل الثقيل الذي يُرهق كاهل الإنسان بطريق (الاستعارة التمثيلية).

٣ ـ قولُه سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا • إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] تنكيرُ اليسر في الآيتين، للتفخيم والتعظيم، وكرَّره لبيان أن الفرج قريب، أي إن لك بعد هذا الضِّيق فرَجاً، وبعد ذلك الكرب مخرجاً، وفي هذه الآيات بشارةٌ للرسول ﷺ بأنَّ اللَّهَ سيحوِّل حالَه من العسر إلى اليسر، ومن الضِّيقِ إلى السَّعة، وقد حقَّق اللَّهُ له ذلك، فأعزَّه ونصره على أعدائه، وجعل دين الإسلام منتشراً في أنحاء المعمورة، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً، أفواجاً!!

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨].
النَّصَبُ: التَّعبُ، أي إذا فرغتَ من دعوةِ النَّاسِ إلى اللَّه، فأتعِبْ نفسكَ، واجتهد في عبادة ربك، واجعلْ همَّك ورغبتك فيما عند اللَّه، لا في هذه الدنيا الزائلة الفانية، فإنَّ ما عند اللَّه خيرٌ وأبقى.



الإبداعُ البيانيُّ في سورة التين

١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] هذا قَسَمٌ أقسمَ اللّه به، ولا يُراد بالتين والزيتون حقيقتهما، التين الذي يُؤكل، والزيتون الذي يُعصر، بل هو قسمٌ بالمواقع التي ينبت فيها التينُ والزيتون، وهي بلاد فلسطين، والشام، وبيت المقدس، التي كانت مهداً للرسالات السماوية، وبها ظهرَ أنبياءُ اللّهِ ورسلُه الكرام، بدليل أنّ اللّه عطف عليها (جبلَ الطور) الذي كلّم اللّه عليه موسى، و(مكة) شرّفها اللّه بلد اللّه الأمين، فهي أقسامٌ ببقاع مشرّفة مباركة، وهو من باب (المجاز المرسل) من باب إطلاق الحالّ، وإرادة المحلّ، على رأي أكثر المفسرين.

قال الحافظ ابن كثير: ذهب بعضُ أئمة التفسير إلى أنّ هذه محالٌ ثلاث، بعث اللّه في كل منها نبياً مرسلاً من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار:

فالأول: محلُّ التين والزيتون، وهو (بيت المقدس) الذي بعث اللّه فيها (عيسى بن مريم) عليه السلام.

والثاني: (طور سنين) وهو طور سيناء، الذي كلّم اللّهُ عليه (موسى بن عمران) عليه السلام، ونال من التجليّات ما نال.

والثالث: (البلد الأمين) الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل اللّهُ فيه محمداً ﷺ خاتم النبيّين، وقد ذكر في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة. اهـ تفسير ابن كثير.

قال الإمامُ الألوسيُّ: والغرضُ من القَسَم بهذه الأشياء، الإبانة ـ أي الكشف ـ عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة، ببعثة الأنبياء والمرسلين، صلواتُ اللّه وسلامُه عليهم أجمعين. اهـ تفسير روح المعاني ٣٠/ ١٧٤.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] قولُه: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ كناية بديعة لطيفة، عن (نار الجحيم)، أي نردُّه إلى أسفل دركات النار، أجارنا اللّه منها.

الإبداع البياني في سورة العلق

١ ـ **قولُه تعالى:** ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق: ٩، ١٠] كنّى (بالعبد) عن رسول الله ﷺ، ولم يقل: ينهاك، تفخيماً لشأنه ﷺ وتعظيماً لقدره، وفي الآية تعجيبٌ من حال ذلك الشقيِّ الفاجر (أبي جهل) والمعنى: أخبرني عن حال ذلك المجرم، الذي ينهى أفضلَ الخلق عن الصلاة، ويتوعّده إن صلّى، ما أشنع فعله، وما أسخف عقله!!

وأجمع المفسرون على أن المراد (بالعبد) هنا رسولُ الله ﷺ، وأنَّ الذي نهاه هو اللعينُ (أبو جهل) حيث قال: لئن رأيت محمداً يصلّي، لأطأنَّ على عنقه، ولأعفّرنَّ وجهه بالتراب.

٢ ـ **قولُه تعالى:** ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] الناصيةُ: مقدَّمُ شعر الرأس، والمراد بالناصية صاحبُها، ففيه (مجاز) من باب إسنادِ الشيء إلى صاحبه ومالكه، أي صاحبُ هذه الناصية كاذبٌ، فاجرٌ، خاطئٌ، كثير الذنوب والإجرام.

والمعنى: لئن لم يكفَّ هذا الشقيُّ (أبو جهل) عن غيّه وضلاله، فلنسحبنّه من ناصيته، ولنقذفنه في نار الجحيم، ذليلاً مهاناً حقيراً، فليدع هذا الشقي أهل ناديه ليعينوه ويخلّصوه من عذابنا.!

سببُ النزول: نزلت هذه الآيات في عدوّ الله (أبي جهل) قال يوماً لسادة قريش: هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهه بالتراب؟ ـ يعني هل يصلّي ويسجد أمامكم لربّه ـ قالوا: نعم، قال: واللاتِ والعُزّى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك، لأطأنَّ على عُنقه، ولأعفّرنَّ وجهه بالتراب، فأقبل ذات يوم على رسول الله ﷺ وهو يُصلّي، ليطأ على عنقه، فما فَجأهم أبو جهل، إلّا وهو ينكص على عقبيه ـ أي يرجع إلى الوراء فَزِعاً ـ وهو يتّقي وجهه بيديه، فقالوا له: ما لَكَ يا أبا الحَكَم؟ فقال لهم: واللّهِ لقد رأيتُ بيني وبين محمد خندقاً من نار، ورأيت هولاً وأجنحة تكاد تختطفني!! فقال النبي ﷺ: «لو دنا منّي لتخطّفته الملائكةُ عُضواً عُضواً». روى

هذه القصة البخاري والنسائي، وفيه نزلت هذه الآيات الكريمة، انظر البخاري كتاب التفسير ٨/ ٧٢٤.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ • نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ • فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ • سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٥ ـ ١٨] الناصيةُ: مقدَّم شعر الرأس، في الآية (مجاز مرسل) وهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) أي سنأخذ بهذا الشقي من ناصيته، ونقذفه في نار الجحيم مهاناً مخذولاً، أطلق الناصية وأراد صاحبها، وفي قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أراد النادي أهل النادي، فهو على حذف مضاف كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ والنادي: مجتمعُ العشيرة.



الإبداع البيانيُّ في سورة القدر

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١] (القَدْر) الشَرف والمرتبة الرفيعة، أي أنزلنا هذا القرآن المعجز، في ليلة القَدْر والشرف، سميت (ليلةَ القدر) لشرفها ورفعة قدرها عند الله، وأتى بضمير الغائب (أنزلناه) الذي يعود على القرآن، مع أنه غير مذكور، للتنويه والتفخيم لشأنه، كأنه حاضر في جميع الأذهان، غير غائب عن البشر.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ٢] ورد بصيغة (الاستفهام) لغرض التفخيم والتعظيم لشأنه، أي ما أعلمكَ ما هي ليلة القدر؟ هل وصل إلى علمك فضلُها، ومكانتها التي اختصت به من بين سائر الليالي؟ إن علوَّ قدرها خارجٌ عن علم البشر، لا يعلمه إلا اللهُ علّام الغيوب.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: ٣] في الآية الكريمة (إيجازٌ بالحذف) لظهور المعنى وجلائه، تقديرُه: العبادةُ فيها خيرٌ من العبادة في ألف شهر غيرها، والعملُ فيها خيرٌ من العمل في ألف شهر، لأنها ليلةٌ من أعظم ليالي العُمُر، فالآيةُ كما يقول العلماء: على (حذفِ مضاف).

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤] في الآية (ذكرُ الخاصّ بعد العامّ) فذَكَر جبريلَ بعد الملائكة، مع أنه داخلٌ في جملتهم، لينبِّه على جلالة قدره، وعلوّ منزلته، أي تتنزَّل الملائكةُ ومعهم (جبريل) رئيسُ الملائكة، في تلك الليلة المباركة إلى الأرض احتفاءً بها، وهذا من المحسِّنات البديعية.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر: ٥] أي ما هي إلّا سلامة وخيرٌ كلُّها من غروب الشمس، إلى طلوع الفجر، حيث تُصفَّدُ مردةُ الشياطين فيها، وتُغلُّ عفاريتُ الجنّ، وتُفتح فيها أبواب السماء، وما هي إلّا أمنٌ وسلامةٌ من بدايتها إلى نهايتها، لا يُحدِثُ اللهُ فيها كوارثَ ونكباتٍ، كالزلازلِ،

والأعاصير، والفيضانات، فهي خيرٌ وبركةٌ كلها، لأنها الليلةُ العظيمةُ المباركة، التي بدأ فيها تنزُّل القرآن.

وقد اختصت هذه الليلة بثلاثة خصائص:

الأول: أن العبادة فيها تعدل ألف شهر في غيرها أي/ ٨٣/ سنة وأربعة أشهر.

الثاني: أن ملائكة السماء والعرش، تتنزل إلى الأرض احتفاءً بهذه الليلة المباركة ومعهم (جبريل الأمين).

الثالث: أن الله تعالى يكتب فيها الأمن والسلامة لجميع البشر.

سبب النزول: (رُوي أن رجلاً من الأمم السابقة، حمَل السلاح وجاهد في سبيل الله ألفَ شهر، فعجب رسولُ الله ﷺ وعجب أصحابُه من ذلك الأمر، وتمنّى ﷺ لأمته أن يمدَّ اللهُ في أعمارها، وقال يا ربّ: جعلتَ أمتي أقصرَ الأمم أعماراً، وأقلَّها أعمالاً!! فأعطاه اللهُ ليلة القدر، وقال له: ليلةُ القدر هذه خير لك ولأمتك من ألف شهر، جاهدَ فيها ذلك الرجلُ، إلى يوم القيامة) رواه ابنُ أبي حاتم، وكفى بذلك فضلاً من الله تعالى على هذه الأمة المحمدية، إكراماً لرسوله ﷺ، وتعظيماً وتفخيماً لكتابه الجليل. !



الإبداعُ البيانيُّ في سورة البينة

١ ـ قوله تعالى: ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ • رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البينة: ١، ٢] (منفكّين) أي منتهين عن الكفر، حتى تأتيهم الحجةُ الواضحة، وهي بعثة خاتم المرسلين ﷺ، ففي الآية من المحسّنات البديعية ما يُسمّى بـ(التفصيل بعد الإجمال) أجملَ البيّنةَ أولاً، ثم فصّلها بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فبعثةُ الرسول ﷺ هي البيّنةُ الكبرى، لأنه أظهر الحقَّ المبين، بتعاليمه الرشيدة، وبالكتاب المعجز للخلق.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً • فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣] لفظةُ (مطهّرة) فيها (استعارة بديعة) أي منزّهة عن الباطل، شبّهَ تنزُّه كتاب اللّه عن الزور والباطل، بطهارتها عن الأنجاس، فكما يتنزه الثوبُ عن النَّجس، تتنزّه هذه الصحفُ عن الكذب، وعن الزور، والبهتان، والمراد بقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي أحكام قيّمة، وشرائع وتكاليف محكمة، مسطّرةٌ في هذه الصحف الجليلة.

تنبيه: سمّى اللّه تعالى رسولَه محمداً ﷺ وما جاء به (بيّنة) لأن أمر نبوته ورسالته في غاية الوضوح والجلاء، فهو رسولٌ أميٌّ، لا يعرف القراءة والكتابة، جاءهم بكتاب معجز، يحفظه في صدره غيباً، فهذا أعظم دليل وبرهان على صدقه، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] أي جاءكم أكبرُ حجة، وأعظمُ برهان، وهو بعثةُ خاتم المرسلين ﷺ بالنور المبين، وهو القرآن العظيم، فهل يُعقل لرجلٍ أميٍّ، أن يأتي بكتاب معجز، من عند نفسه، يتحدّى به جميعَ الخلق، وهو لا يعرف قراءةً ولا كتابه؟

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] كنّى بالبيّنة عن رسول اللّه ﷺ وهي (كناية بديعة) أي ما اختلف اليهود والنصارى، في شأن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، إلّا بعد وضوح الحقّ، وظهور الأدلة القاطعة، على أنه خاتمُ النبيّين، الذي بشّرت به الكتبُ

السماوية، وقد كانوا يترقَّبُون بعثتَهُ بفارغ الصبر ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

هذه السورةُ الكريمة، أُمر النبيُّ ﷺ أن يقرأها على من خصَّه الله تعالى بأعظم وسام، وهو (جمعُ القرآن العظيم) في مصحف واحدٍ، وكان أقرأَ الصحابة لكتاب الله عزَّ وجل، وهو (أُبيُّ بنُ كعب) رضي الله عنه.

فقد روى البخاري عن أنس أن النبي ﷺ قال لأُبيٍّ: إن اللَّهَ أمرني أن أقرأَ عليك القرآن، أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال أُبيٌّ: آللَّهُ سمَّاني لك؟ قال ﷺ: اللَّهُ سمَّاك لي، فجعل أُبيٌّ يبكي، فقرأ عليه ﷺ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رواه البخاري في كتاب التفسير، قال الحافظ ابن حجر: وفي تخصيص (أُبيِّ بن كعب) بالقراءة عليه: هو التنبيهُ على أنه أَقْرَأُ الصحابة، فإذا قرأ عليه النبي ﷺ - مع عظيم منزلته - كان غيرُه من الصحابة بطريق التَّبَع له. اهـ فتح الباري ٨/ ٧٢٦.

اللهمَّ اجعل القرآن العظيمَ ربيعَ قلوبنا، وشفاء صدورنا، وضياء أبصارنا، واجعله شافعاً لنا يوم الدين، برحمتك يا أرحم الراحمين.!



الإبداع البيانيُّ في سورة الزلزلة

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١] إضافةُ الزلزلةِ إلى الأرض ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ للتهويل والتفظيع، أي الزلزال الشديد الذي لا يكاد يُتصوَّر، من شِدَّته وهوله، كما قال سبحانه: ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١] والمعنى: اهتزّت الأرضُ بمن عليها اهتزازاً عنيفاً، يُفزع الألباب، ويقطِّع الأكباد، وهذه الزلزلةُ من علامات الساعة الكبرى.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ٢] كنّى بالأثقال عن الموتى، وهي (كنايةٌ لطيفة) لأن الميت ثِقْلٌ على الأرض، تحمله في بطنها كما تحمل الأمُّ جنينها في البطن، أي أخرجت الأرض ما في بطنها من الأموات، والكنوز، والأموال.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٣] هذا الاستفهام للتعجب والاستغراب، أي يقول الإنسان فَزَعاً وهَلَعاً: ما لهذه الأرض تزلزلت هذه الزلزلة الشديدة؟ وأخرجت ما فيها من الأثقال؟ استعظاماً لما رآه من الهول الهائل، والأمر العجيب.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤، ٥] أي في ذلك اليوم الرهيب، تُخبر الأرضُ بما فعل الناسُ على ظهرها، من خيرٍ أو شرٍّ، وعمّا فعل البشر من جرائمَ، وقبائحَ عليها، وذلك بأمر الله لها أن تنطق، وأن تُخبر بما حدث على ظهرها!!

قرأ رسول الله ﷺ الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: اللّهُ ورسولُه أعلم! قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمةٍ، بما عمل على ظهرها!! تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها» رواه الترمذي.

وفي الحديث الشريف: «تحفَّظوا من الأرض فإنها أمُّكم، وإنه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها، خيراً أو شراً، إلّا وهي مخبرةٌ به» رواه الطبراني.

الإبداع البياني في سورة العاديات

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ [العاديات: ١، ٢] هذا قَسَمٌ بخيل المجاهدين، و(العاديات) جمع عادية، وهو وصفٌ لها (بالعَدْو) أي الركض السريع، أقسم تعالى بخيل الغزاة المجاهدين في سبيل الله، حين تُغير على الأعداء، فيُسمع لها عند إسراعها، صوتٌ فوق صوت الصهيل، هو صوتُ أنفاسها، وهي تتسابق لاقتحام الميدان، وتقدحُ بحوافرها الحجارة، فيتطاير منها الشررُ، ولفظُ (العاديات) صفة لموصوف محذوف هي الخيل، أي أُقسمُ لكم بالخيل العاديات، وإذا كان هذا شرفُ الخيل، فما هو الظنُّ بشرف الغُزاة؟

٢ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] في الآية التأكيدُ بـ(إنَّ) و(اللام) زيادةً في التقرير والبيان، ومثله التأكيدُ في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] المراد بالخير هنا: المالُ، والكَنُودُ: الكَفُورُ الجَحُود، وهي من صيغ المبالغة، ومعناها شديد الكفر والجحود.

قال ابنُ عباس: (كَنُود) جاحدٌ لنعم ربه.

٣ ـ **قوله تعالى:** ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩] هذا الاستفهام (إنكاريٌ) ينكر على الإنسان جحودَه لفضل ربه، وهو يحمل في طياته الوعيدَ والتهديد لكلِّ جاحد منكر لفضل الله وإنعامه، ولكل فاجرٍ لا يؤمن بيوم الحساب.

٤ ـ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١] لا يُراد بالآية هنا الإخبار عن علم الله بأعمال البشر، إنما هو متضمِّن لمعنى (المجازاة) أي مطلع على أعمالهم، ومجازيهم عليها.

تنبيه: إنما أقسم اللهُ عزَّ وجل، بخيل الغزاةِ المجاهدين في سبيل الله، إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله تعالى، لأنها آلةُ الجهاد في كل

زمانٍ ومكان، لا يُستغنى عنها في المعارك، تصعَدُ الجبالَ، وتهبِطُ الوديان، وتدخلُ في المضايق التي لا تدخلها دبّابةٌ ولا سيارة، ولهذا قال نبينا المصطفى ﷺ: «**الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ، إلى يوم القيامة**» رواه البخاري ومسلم.



الإبداع البياني في سورة القارعة

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ ـ ٣] تكرَّرَ لفظُ القارعة ثلاثَ مرات، لتهويل أمرها، وتفظيع شأنها، و(القارعةُ) اسم للقيامة، سُميت بذلك لأنها تقرع القلوب والأسماع، بفنون الأهوال والأفزاع، أي هل تدري ما هي القيامة؟ إنها فوق التصور والخيال، لا يعلم حقيقة أمرها، ولا مقدارَ فظاعتها، إلَّا اللهُ ربُّ العزة والجلال، والاستفهامُ هنا: للتفخيم والتهويل.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥] في الآية تشبيهُ بديع، يسمى (المرسل المجمل) ذُكر فيها الأداةُ، وحُذف وجهُ التشبيه، أي كأنهم فراش متفرّق، منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض، من شدة الاضطراب والفَزَع، لا يدرون ما يصنعون!! شبَّههم تعالى بالفراش، الذي إذا طار لا يدري أين يتوجَّه؟ وتكون الجبالُ كالصوف المتطاير في الهواء، وهذا معنى (العهن) أي الصوف، شبَّه الجبالَ وهي متنوعةُ الألوان، منها الأبيضُ، والأسودُ، والأحمرُ، فعند تطايرها تشبه الصوفَ الملوَّن ألواناً، ألواناً، هكذا يكون حال الناس يوم القيامة، من شدة الهول والفزع.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧] العيشةُ: بمعنى: العيشُ والحياةُ، لا توصف بأنها ترضى أو لا ترضى، إنما المراد بها صاحبُها، ففي الآية (مجاز عقلي) والمعنى: فهو في عيشة هنيئة سعيدة، يرضى عنها صاحبُها.

قال الشوكاني: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي مرضيَّة يرضاها صاحبُها. اهـ فتح القدير.

❁ ❁ ❁

الإبداعُ البيانيُّ في سورة التكاثر

١ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] معنى التَّكاثر: التفاخرُ بكثرةِ الأموال والأولاد، وفيه معنى التَّباهي بنعيم الدنيا ومباهجها، وقد خرجَ الخبرُ عن حقيقته إلى (التأنيب والتوبيخ) بدليل ما بعده من الوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ولم يذكر عمَّا شغلهم عن طاعة اللّه، بل أطلقه ليكون أبلغ في الذمّ، أي شغلكم حبُّ جمع الأموال، وحبُّ التباهي والتفاخر بالبنين والأولاد، عن طاعة اللّه وعبادته.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] زيارةُ القبور هنا (كنايةٌ) عن الموت، يُقال لمن مات: قد زار قبرَه، أي شغلكم المباهاةُ والتفاخرُ بكثرة الأموال والأولاد، عن طاعة اللّهِ عزَّ وجلَّ، وعن الاستعداد للآخرة، حتى مِتُّم وأصبحتم من أهل القبور، ولا يراد زيارة القبور، ثم العودة إلى الدورِ والقصور.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤] وعيدٌ وتهديد، و(كلّا) أداةُ زجرٍ، أي ارتدعوا أيها الناسُ وانزجروا عن الاشتغال بالدنيا الفانية، وتكديس الثروات والأموال، فسوف تعلمون عاقبة تفريطكم في جنب اللّه، وغفلتكم عن الآخرة، وهذا التكرار في الآية للتهديد والإنذار، وعُطف بـ(ثم) للتنبيه على أن الثاني أبلغُ من الأول، كما يقول السيِّدُ لعبده المملوك: أقولُ لك، ثم أقول لك لا تفعل، ولكونه أبلغ نُزِّل منزلة المغاير فعطف بـ(ثمّ).

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] حُذف جواب (لو) لتهويل الأمر وتفظيعه، أي لو عرفتم الحقيقة على وجه اليقين، لرأيتم ما تشيب له الرؤوس، وتفزع له القلوب، من شدته وهَوْلِه، وينبغي الوقوف عند كلمة (اليقين) لئلا يوهم أن ما بعدها جواب (لو) فيفسد المعنى.

قال الرازي: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوف، زيادةٌ في الوعيد

والتهديد، أي واللّهِ لترونَّ الجحيمَ في الآخرة، وليس هذا جواب (لو) لأن جواب (لو) يكون منفيّاً، وهذا مثبتٌ، ولهذا عُطف بقوله: ﴿ ثُمَّ لَتَسْئَلُنَّ﴾ فتح القدير ٥/ ٤٩٢.

تنبيه: روى الترمذيُّ عن (عبد اللّه بن الشِخِّير) رضي اللّه عنه أنه قال: «انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ وسمعته يقول: يقول ابنُ آدمَ: مالي، مالي!! وهل لك من مالك إلّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيتَ» رواه الترمذي، أي هو الذي بقيَ لك ذخراً في الآخرة، وما عداه فقد ذَهَب واستمتعتَ به في الدنيا.



الإبداعُ البيانيُّ في سورة العصر

١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ • إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] المراد بالعصر: الوقتُ والزمانُ، ولا يُراد به وقتُ العصر، الذي يعقبُه المغربُ.

أَقسمَ تعالى بالعصر والزمان، وما فيه من أصناف العجائب والعِبَر، على أنَّ الإنسان ـ والمرادُ به الجنسُ، لا إنسانٌ معيَّن ـ أي جنسُ الإنسان في شقاء وخسران، ثم استثنى من ذلك، المؤمنين الذين عملوا الصالحات، والاستثناء معيارُ العموم، فهو من باب (إطلاق البعض وإرادة الكلّ) والخُسْرُ بضم الخاء: الخُسران الفادح، والتنكيرُ فيها للتعظيم، أي في خُسرانٍ عظيم، ودمارٍ شديد.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] في الآية (ذكرُ الخاصِّ بعد العامّ) فإن الصبرَ داخلٌ في عموم الحقّ، إلّا أنه أفرده بالذكر، إشادةً بفضيلة الصبر.

هذه السورة الكريمة على ما فيها من إيجاز ـ جمعت دعائم الإيمان، وعناصر النجاة والسعادة، وهي (الإيمانُ، والعملُ الصالحُ، والتواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر) وهذه الدعائم الأربع، هي سبيلُ الفلاح، وطريقُ الفوز والنجاح، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: (لو لم يُنزل اللّهُ من القرآن، سوى هذه السورة الكريمة، لكفتِ الناسَ) أي تكفيهم لمعرفة أبواب الخير، وقد كان الرجلان من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، إذا التقيا لم يتفرّقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلّمان وينصرفان. أخرجه البيهقي. اهـ ابن كثير.

۞ ۞ ۞

الإبداع البياني في سورة الهمزة

١ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] ﴿هُمَزَةٍ﴾ الذي يَغتابُ الناس ويطعن في أعراضهم ﴿لُّمَزَةٍ﴾ الذي يَلْمِز الناسَ ويعيبهم بعينه وحاجبه، وبناء (فُعَلَة) يدلُّ على الكثرة والاعتياد، فهي (صيغةُ مُبالغة)، ولا يُقال: لُعَنَة، وضُحَكَة إلا للمكثِر المعتاد.

والمعنى: عذابٌ وهلاكٌ ودمار، لكل من يَعيبُ الناسَ ويطعنُ في أعراضهم، أو ينال منهم سرًّا بعينه، وحاجبه، وهما رذيلتان مركَّبتان، من الجهل، والكِبر.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ٢] التنكيرُ في قوله سبحانه: ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ للتفخيم والتكثير، أي جمع مالاً كثيراً، وأحصاه وحافظ على عدده، فلم يُنفق منه في وجوه الخير، شُحًا وبُخلاً.

قال محمد بنُ كَعْب: ألهاه مالُه بالنهار، يجمع ويُكدِّس، فإذا جاء الليلُ نام، كأنه جيفةٌ منتنة.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] التعبيرُ بالنَّبْذِ ومعناه: الطرحُ، للاستخفاف والتحقير، كأنه لمهانته حطبٌ يطرح في النار لإشعالها، أو حصياتٌ تُلقى في البحر، أو في مكان مهين.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٥] استفهام (للتهويل والتفظيع) لأمر نار الجحيم.

والمعنى: ما أعلمكَ ما حقيقةُ هذه النار الفظيعة المسعَّرة؟ إنها نارُ الجحيم (الحُطَمة) التي تَحطِم العظامَ، وتمزِّق الأشلاء، وتأكل اللحومَ، حتى تكاد تبتلعُ من يُلقى فيها.

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧] خصَّ الأفئدة ـ يعني القلوب ـ بالذِّكر، لأن الألمَ والعذابَ إذا وصلَ إلى القلب، مات صاحبُه،

ولكنهم في حالة من يموت، ولا تُزهق رُوحُه، ليستمرّ عليه العذاب، فهم أحياء في صورة أموات، وأيضاً فإن القلبَ مركزُ النيّات الخبيثة، وموطنُ الحقد والحسد، ولذلك وصل إليها ألمُ العذاب، لإحراق ما أضمرته من خُبثٍ وفجور.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة: ٨، ٩] ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مغلقةٌ محكمةُ الإغلاق ﴿ عَمَدٍ ﴾ جمعُ عمود، والمعنى: إن نار جهنم مُطْبقةٌ مُغلقةٌ عليهم، لا يدخل عليهم فيها رُوحٌ ولا ريحان، وهم مقيَّدون بالسلاسل والأغلال، تشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، كحال المجرمين في الدنيا، بعد إطباقِ أبواب جهنم، وقد يئسوا من الخروج منها، بعد أن أُغلقت عليهم الأبواب، فلم يعد لهم أملٌ في النجاة أو الخروج، كما قال سبحانه في موطن آخر: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧٢] أي يُحرقون، أجارنا اللهُ والمسلمين من عذاب الجحيم.



الإبداع البيانيّ في سورة الفيل

١ ـ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] الاستفهامُ للتقرير والتعجيب، والمراد بالرؤية: العلمُ، لا الرؤيةُ البصريّةُ، أي ألم يبلغك يا أيها الرسولُ، وتعلمُ علماً يقينيًا، كأنه مشاهدٌ بالعين، ماذا صنع ربك العظيم الجليل، بأصحاب الفيل، الذين قصدوا هدم الكعبةِ المشرّفة؟ كيف دمّرهم اللّه وأهلكهم، وجَعَلهم عبرةً لمن يعتبر!؟

والمقصودُ من ذكر القصة، تسليةُ الرسول ﷺ، وتهديد الظَّلَمة الفُجَّار، من كفار مكة، الذين كذّبوا الرسول ﷺ، وحاربوه، وأخرجوه من البلد الأمين، أن اللّه سينتقم منهم ويهلكهم، كما أهلك جماعة (أبرهةَ الأَشرم) أصحاب الفيل.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] فيه تشبيهٌ بديع يسمّى (المرسل المجمل) ذُكرت فيه أداةُ التشبيه، وحُذف منه وجهُ الشّبَه، أي جعلهم كورق الشجر المتساقط، الذي عصفت به الريحُ فطيّرته، وأكلته البهائمُ والدوابُ، ثم أخرجته قذَراً، وهو تشبيهٌ في غاية الوضوح والإبداع.

وصفوةُ القصة: أن مَلِكَ اليمنِ النصرانيَّ بنى كنيسةً بصنعاء، ليصرف الحجيجَ إليها، وسمع رجلٌ من العرب، فجاء إليها ليلاً، ولطخ جدرانها بالنجاسة والقذر، وبلغ الخبرُ إلى الملك (أبرهة الأشرم) فغضب وحلف أن يهدم الكعبة المشرفة، وجاء بجيش عرمرم على الفيلة، فأرسل اللّه عليهم طيوراً رمتهم بحجارة من طين متحجرٍ، فأهلكهم اللّه عن بكرة أبيهم.

وكانت هذه الحادثة العجيبة المشهورة، إرهاصاً لبعثة النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام، حتى أرّخ بها العربُ، ذكرياتِ بعضِ الأحداث، فيقولون: حَدَثَ الأمرُ عامَ الفيل، أو بعد الفيل بثلاثِ سنوات، ووُلد فلانٌ عام الفيل.

قال ابن عباس: (وُلد النبيُّ ﷺ عامَ الفيل)، وأخرج البيهقيُّ عن (قَيْس بن مَخْرمةَ) قال: (وُلدتُ أنا ورسولُ اللّه ﷺ عام الفيل) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٥٠٠.

الإبداع البياني في سورة قريش

١ ـ قولُه تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ [قريش: ١، ٢] الإيلافُ: الاعتياد، مصدر أَلِفَ الشيء: إذا اعتاد عليه، ذكَّرهم تعالى بالنِّعمةِ ليعبدوه ويشكروه، واللَّامُ في قوله (لإيلاف) متعلقةٌ بالفعلِ بعدها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ [قريش: ٣] وفي الفاء معنى الشرط، كأنه قال: إن نِعَم الله على قريش كثيرة، غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نِعَمه، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة؛ وهي نعمة تسهيل الله لهم، ما كانوا يألفونه من رحلتَيْ (الشتاء، والصيف) في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام.

وقال الفرّاء: هذه السورة متّصلةٌ بالسورة قبلَها، لأنه سبحانه ذكَّرَ أهلَ مكة؛ بعظيم نعمتِه عليهم، فيما فعَلَ بأصحابِ الفيل، فجعلهم كعصفٍ مأكول لإيلاف قريش، أي ليألفوا الخروجَ ولا يجترئ عليهم أحد.

والمعنى: أهلَك اللَّهُ أصحابَ الفيل، لتبقى قريشٌ وما قد ألفوه، من رحلتَيْ الشتاء، والصيف. اهـ فتح القدير ٥/ ٥٠٢.

وجمهور المفسِّرين على القول الأول، وفي السورة ما يُسمَّى (بتقديم ما حقّه التأخير).

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٤] التنكير في لفظ «جوع» و«خوف» لبيان الشدة العظيمة التي كانوا عليها، أي جوع شديد، وخوف عظيم، لأنهم كانوا في بلاد تحيط بها الجبال، لا زرع فيها ولا ضرع، وآمنهم بعد شدّة خوف، ممّا جعلهم يسافرون آمنين، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء، لأنهم جيرانُ الله، وسُكّانُ حرمه..

عن أسامة بن زيد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ ويحكم يا معشرَ قريش، اعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف» تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٩٢.

الإبداع البياني في سورة الماعون

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١، ٢] استفهامٌ يُراد به (الاستغرابُ والتعجيبُ) ومعنى ﴿يَدُعُّ﴾ يدفع بعنفٍ، وشدّة وغِلْظة، أي هل عرفتَ الذي يكذّب بيوم الحساب والجزاء؟ هل عرفته وعرفتَ أوصافه القبيحة؟

إن أردتَ أن تعرفه، فهو ذاك الشقيُّ، الغليظُ القاسي، الذي يدفع الفقيرَ، بجفاء وغلظة، ويظلِمُه ولا يعطيه حقَّه!! وفي الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديرُه: إن أردت معرفتَه، فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم، يعني يدفعه بالشّدة والغلظة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣] في الآية إشارة بديعة، إلى نهاية (الخِسّة والدناءة) فإذا امتنع عن حثّ غيره، على إطعام المسكين، الذي عضّه ألمُ الجوع، فكيف يطعمه هو من ماله، أو يحنو ويعطف عليه؟ وهذا أبلغ منّا لو قال: ولا يُطعم المسكين، لأنه إذا بلغ به الشُّحُ، أن لا يوصي بعون المسكين، فكيف يجود عليه من ماله؟

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي عذاب ودمار للذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، لانشغالهم بتجارتهم وشهواتهم، وإذا كان الويل لمن يؤخر الصلاة، فكيف بمن لا يصلّي أصلاً!!

قال ابن عباس: (هو المنافقُ الذي إن صلّى لم يَرْجُ لها ثواباً، وإن تَرَكها لم يَخْشَ عليها عِقَاباً، لأن قلبَه خلا من الإيمان).

أقول: ويدلُّ عليه قولُه تعالى بعدها: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧] أي هم المنافقون المراءون في أعمالهم.

وفي الحديث الشريف: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، يجلس يَرْقُبُ الشمسَ ـ يعني عند غروبها ـ حتى إذا كانت بين قَرْنَيِ الشيطان، قام فَنَقَرَ أربعاً، لا يذكر اللّهَ فيها إلّا قليلاً» رواه البخاري.

ومعنى ﴿ ٱلْمَاعُونَ ﴾ كلُّ ما فيه منفعة للغير، كالإبرة، والفأس، والقِدْر، والدَّلو، وأمثال ذلك. قال ابن مسعود: (كنّا نعدُّ الماعون على عهد رسول الله ﷺ عاريةَ الدَّلوِ، والقدر) رواه أبو داود.

ففي الآية الزجرُ عن البخل الذي هو صفةُ المنافقين، قال بعضُ السلف: الحمدُ للّه الذي قال: ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم ساهون)، وإلّا هلكَ الناسُ، لأنه لا يخلو أحدٌ من السهو في الصلاة.

روى البيهقيُ عن (مُصْعَبِ بنِ سَعْد) قال: قلتُ لأبي: أرأيتَ قولَ اللّهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أيُنا لا يسهو؟ أيُنا لا يُحدِّث نفسه؟ فقال لي أبي: إنه ليس ذلك ـ أي لا يراد السهو في الصلاة ـ إنه إضاعةُ الوقت) اهـ سنن البيهقي، ورواه ابن جرير الطبري. وفي حديث (سعد بن أبي وقاص) رضي الله عنه قال: (سألتُ النبيَّ ﷺ عن قول اللّه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال: هم الذين يؤخِّرون الصلاة عن وقتها).



الإبداع البياني في سورة الكوثر

١ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١] ﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ الخيرُ الكثير،

أ ـ صيغةُ (فَوْعَل) تدلُّ على الكثرة الكثيرة، والخير العميم، فقد أُعطي رسولُنا ﷺ الفضائلَ الكثيرةَ العميمة، أُعطي النبوَّة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، ومنها (نهر الكوثر) إلخ . . . فالصيغةُ مبالغةٌ من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثيرٍ (كوثراً) قال الشاعر:

وأنتَ كثيرٌ يا ابنَ مروانَ طيِّبٌ وكانَ أبوكَ ابنُ العقائلِ كوثرا

ب ـ كما أن تصدير الجملة بحرف التأكيد (إنَّا) لأن أصلها «إنَّ» و«نحن» جارٍ مجرى القَسَم، أي واللهِ نحن يا محمد، الذين أعطيناك هذا الخيرَ الكثير، الذي من جملته «نهر الكوثر».

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (الكوثرُ: الخيرُ الكثيرُ الذي أعطاه اللّه إيّاه!! قال أبو بشر ـ راوي الحديث ـ قلت لسعيد بن جُبَير: إنَّ ناساً يزعمون أنه نهرٌ في الجنة! فقال سعيد: النهرُ الذي في الجنة، من الخير الذي أعطاه اللّهُ إيّاه) رواه البخاري في التفسير ٨/ ٧٣١.

ج ـ صيغة الماضي (أعطيناك) تُفيد حصول الأمر ووقوعه، فلم يقل: سنعطيك، لأن الوعد لمّا كان محقَّقاً، عبَّر عنه بالماضي مبالغةً، كأنه حدث ووقع.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] الإضافة في قوله: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ للتكريم والتشريف له ﷺ، أي اجعل صلاتك لربك وحدَه، الذي أفاض عليك ما أفاض، من أنواع الخير والكرامة، وانحر الإبلَ لوجهه لا لغيره، وتصدَّقْ على المحاويج، مخالفاً لعبدة الأوثان، الذين ينحرون للأصنام، وحُذف من الفعل الجار والمجرور (وانحر له) اكتفاء بما قبله، فهو من باب (حذف الإيجاز).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣] (شانئ) مبغض، و(الأبتر): المنقطعُ من كل خير، من البَتْر بمعنى القَطْع، وفي الآية معنى الحصر، أي هو الأبترُ لا غيرُه.

والمعنى: إنَّ مبغضك يا محمد هو الأبترُ المنقطعُ من كل خير، أمّا أنت فذكرك باقٍ دائم، خالدٌ إلى آخر الدهر، واسمك مرفوع على المآذن والمنابر، مقرونٌ باسم ربك الجليل (لا إله إلا اللّهُ محمد رسول اللّه).

نزلت هذه السورة في ذلك الشقيّ الخاسر (العاص بن وائل) فإنه لمّا مات ابنُ الرسول ﷺ (القاسم) قال عدوُّ اللّه: دَعُوهُ فإنه رجلٌ أبتر، لا نسل له، فإذا هلك انقطع ذكرُه، فأنزل اللّه هذه السورة، وأخبر أن هذا الكافر الفاجر، هو الأبتر، المقطوعُ خيرُه ونسلُه، مقطوعٌ من رحمة اللّه، لا يُذكر إلّا بالسوء واللعنة!!

وفي هذه السورة مطابقة لطيفة، بين أولها وآخرها، بين (الكوثر) و(الأبتر) فالكوثرُ: الخير الكثير، والأبترُ: المنقطعُ ذكرُه وخيرُه، الذي لا يُذكر إلّا بالخزي واللعنة، والمنقطعُ عن كل خير، وهذه المطابقة والمقابلة من (المحسّنات البديعية)، فهذه السورة على وجازتها وقِصَرها، جمعت فنون البلاغة والبيان، فسبحان منزل القرآن بأفصح لسانٍ، وأعذبِ بيان!!



الإبداع البياني في سورة الكافرون

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يخاطب قريشاً بالوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ زيادةً في (التوبيخ والتشنيع) على أهل مكة، فلم يقل: يا معشر قريش، وإنما خاطبهم بالوصف (الكافرون)، وفي هذا الخطاب ـ وهو يعلم أنهم يغضبون من ذلك ـ أكبرُ برهانٍ على أنه ﷺ محروسٌ من الرحمن، إذْ كيف يمكن لشخص واحد، أن يجابهَ طواغيت قريش، بهذه المجابهة العنيفة، ويتحدّاهم هذا التحدّي السافر، ويسمعَهُم الكلماتِ التي تجرح كبرياءهم، لو لم يكن محفوظاً من ربِّ العزة والجلال!؟

وسببُ نزول هذه السورة: أن المشركين دَعَوْا رسولَ اللّه ﷺ إلى المهادنة، وعرضوا عليه خطةً سخيفة، وهي: (أن يعبدوا إلهه سنةً، ويعبد آلهتهم سنة) فقال: معاذَ اللّهِ أن نشرك باللّهِ شيئاً!! قالوا: فاستلمْ بعضَ آلهتنا وتمسَّحْ بها، نُصدِّقْك، ونعبد إلهك، فنزلت السورة الكريمة، فغدا ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأُ من قريش وصناديدها، وقام على رؤوسهم فقرأها جهاراً عليهم، فيئسوا منه وآذوه وأصحابه أشدَّ الأذى.

والمعنى: قل يا أيها الرسولُ، لهؤلاء الكفّار الفُجار، الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار: لا أعبدُ هذه الأوثانَ، التي تعبدونها من دون الرحمن، فأنا بريء منكم ومن آلهتكم المزيّفة، ما عبدتها في الجاهلية، فكيف أعبدها في الإسلام!! كذلك أنتم لا تعبدون إلهي الحق.!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٤، ٥] أي ولا أنا في المستقبل عابدٌ آلهتكم المزعومة أبداً ما عِشْتُ، كما أنكم لا تعبدون إلهي الحق الذي أعبده، لغاية ضلالكم وطغيانكم، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] هذا تيئيسٌ لهم من عبادته ﷺ لأصنامهم، وبراءةٌ منهم ومن أوثانهم، وليس في الآيات تكرارٌ، إنما الأولى تشير إلى الزمن الحاضر ـ أي الآن ـ والثانية تشير إلى المستقبل، لقطع أطماع هؤلاء السفهاء.

قال البخاري: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] الآن ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي لا أجيبكم فيما بقي من عمري. اهـ صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/ ٧٣٣.

هذه السورة الكريمة تعني (البراءة من الشرك) كما أن سورة الإخلاص تعني (إخلاصَ التوحيد لله) ولهذا كان ﷺ (يجمع بينهما، في ركعتَيْ الطُّواف) رواه مسلم.

ومن أنس رضي الله عنه (أن النبي ﷺ قال لمعاذ: اقرأ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عند منامك، فإنها براءةٌ من الشرك). رواه البيهقي، فتح القدير ٥/ ٥١٢.



الإبداعُ البيانيُّ في سورة النصر

١ ـ قولُه سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] المراد بالفتح هنا: الفتحُ الأعظم (فتحُ مكة) المكرَّمة شرَّفها اللّٰه، وفي الآية من المحسِّنات البديعية (ذكرُ الخاصِّ بعد العام) فإن عبارة (نصر اللّٰه) يشمل جميع الفتوحات والغزوات التي انتصر فيها المسلمون، وعطفُ (فتح مكة) عليه هو من باب عطف (الخاصِّ على العام) تعظيماً لشأن هذا الفتح، واعتناءً بأمره، لأنه كان فتح الفتوح، وبسبب فتح مكة، دخل الناس في الإسلام أفواجاً، أفواجاً.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ٢] يُراد بالناس (العرب) فهو من باب (إطلاق العموم وإرادة الخصوص) أي رأيت سكان جزيرة العرب، يدخلون في الإسلام جماعات جماعات.

كما أن المراد بدين اللّٰه (الإسلام) أضاف الدين إليه ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ (تشريفاً وتعظيماً).

تنبيهٌ هام: هذه السورة الكريمة فيها نعيُ النبي ﷺ، والتنبيه بدنوِّ أجله، ولهذا لما نزلت هذه السورة الكريمة قال النبي ﷺ للسيدة عائشة: «ما أُراه إلا قد حضر أجلي»، وخرج كالمودِّع لأصحابه، فخطب فيهم فقال: «إن اللّٰه خيَّر عبداً بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عند اللّٰه!! فبكى أبو بكر رضي اللّٰه عنه وقال: فديناك بأنفسنا، وآبائنا، وأولادنا يا رسول اللّٰه!! قال الراوي: فعجبنا لبكائه، أن يُخيِّر اللّٰه عبداً من عباده، ويبكي له أبو بكر!! فكان رسولُ اللّٰه ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلَمنا» رواه البخاري.

وقالت عائشة رضي اللّٰه عنها: «كان ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده ـ بعد نزول هذه السورة ـ سبحانك اللّهمَّ وبحمدك، اللهمَّ اغفر لي، يتأول القرآن» رواه البخاري أي يستشعر أن وفاته دنت، فيمتثل قول اللّٰه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣].

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر ـ

وكان شابًا ـ فكأنَّ بعضَهم وَجَد في نفسه، فقال: لمَ تُدْخِلُ هذا مَعَنا، ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقال عمر: إنه من حيثُ علمتم!! ـ يشير إلى فطنته وذكائه ـ قال: فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمدَ اللَّهَ ونستغفره، إذا نَصَرنا اللَّهُ وفتح علينا!! وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هذه السورةُ فيها أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمه له، يقول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وذلك علامةُ أَجَلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣] فقال عمر: (واللَّهِ ما أعلم منها إلَّا ما تقول) رواه البخاري ٨/ ٧٣٤ في كتاب التفسير.

❁ ❁ ❁

الإبداع البياني في سورة المسد

١ ـ قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] التَّبابُ: الخسران والهلاكُ، أي هلك الشقيُّ أبو لهب، وخاب وخسر، وضلَّ سعيُه وعملُه، الأولى دعاء عليه بالهلاك، والثانية إخبار، كما يُقال: أهلكه اللّه، وقد هَلَك وخَسِر فعلاً.

وفي الآية (مجاز مرسل) من باب إطلاق الجزء ـ اليدين ـ وإرادة الكل يعني الشقي (أبي لهب) أي هلك أبو لهب نفسُه، وإنما ذُكر بالكنية (أبو لهب) للتصغير والتحقير، ولاشتهاره بكنيته أكثرَ من اسمه، مثل (أبي جهل) مشهور بالكنية أكثر من اسمه، ولكراهة ذكر اسمه (عبد العُزّى) حيث يُنسب إلى بعض أوثان الجاهلية، والعُزّى أحد الأصنام والأوثان.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ [المسد: ٤] في الآية (استعارةٌ لطيفة) استعار للنميمة عبارةً عجيبة، وهي (حمل الحطب) أي وستدخل معه امرأته الخبيثةُ، نارَ الجحيم، لكفرها وفجورها، فقد كانت تنقل الكلام بطريق النميمة من شخص إلى آخر، لتفسد بين الناس، وتوقد بينهم نار العداوة والبغضاء، وقد اشتهر عند العرب، هذا النوع من الاستعارة، قال الشاعر:

وَلَمْ يَمْشِ بَيْنَ الحَيِّ بِالحَطَبِ الرَّطْبِ

وانتصب على الشتم والذم، لفظ ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ أي أخصُّ بالذمّ حمّالة الحطب، زيادة في التشنيع والتقبيح عليها.

سبب النزول: رَوَى البخاريُّ عن ابن عباس أنه قال: لمّا نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسولُ اللّه ﷺ حتى صعد الصَّفا، فهتف يا صباحاه!! فاجتمعت إليه قريش فقال لهم: أرأيتم إن حدّثتكم أن العدوّ مُصَبِّحكم، أو مُمَسّيكم أكنتم تصدّقوني!؟ قالوا: نعم: ما جرّبْنا عليك كذباً!!

قال: فإني نذير لكم بين يدَيْ عذاب شديد، فقال له أبو لَهَب: تبًّا لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ...﴾ السورة، أخرجه البخاري.

قصة عجيبة: ومن عجائب الأخبار أن امرأة (أبي لهب) لمّا سمعت ما أنزل الله فيها وفي حقّ زوجها، أتت الرسول ﷺ وهو جالس في المسجد الحرام، إلى جوار أبي بكر، وبيدها فِهْرٌ ـ حجرٌ حادٌّ يشبه السكّين ـ فلما رآها أبو بكرٍ قال يا رسولَ الله: لقد أقبلتِ العوراءُ، وأنا أخاف أن تراك!! فقال له الرسول الكريم: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً يعتصمُ به، فلما دَنَت أخذَ اللهُ بصرها عن رسول الله ﷺ، فقالت يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهجوني أنا وزوجي!! فوالله لو رأيتُه لأضربنّ بهذا الحجر وجهه، ثم انطلقت وهي تقول: «مذمّماً عصينا، ودينَه قلينا ـ أي أبغضنا ـ وأمره أبينا» فقال أبو بكر يا رسول الله: أمّا تراها رأتك؟ فقال له ﷺ: «لقد أعمى اللهُ بصرَها عنّي» رواه ابن أبي حاتم.

قال الحافظ ابن كثير: (وفي هذه السورة معجزةٌ ظاهرة، ودليلٌ واضحٌ على النُّبوّة، فإنه منذُ نزلَ قولُه تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٣، ٤] فأخبر عنهما بالشّقاء، وعدم الإيمان، لم يُقَيِّض لهما أن يُؤمنا، ولا واحدٌ منهما، لا ظاهراً ولا باطناً، لا سرًّا ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة، على النبوّة الظاهرة). اهـ. ابن كثير ٤/ ٦٠٤.



الإبداع البياني في سورة الإخلاص

١ ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] لفظ (الأحد) يدلُّ على مجامع صفات الجلال، كما دلَّ لفظ (الله) على جميع صفات الكمال، فالأحديّة تتضمَّنُ نفيَ الوالد والولد، ونفي النظير والشبيه، ونفي الكثرة والعدد، ولهذا جاء لفظ (أحد) ولم يقل: اللهُ واحد، لأن الواحد له بداية فيقال: واحد، اثنان، واللهُ جلّ ثناؤه لا بداية له ولا نهاية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] ولهذا اختصَّ تعالى (بالأحديّة)، وذكرُه تعالى بضمير الشأن (هو) للتعظيم والتفخيم، فإنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كلُّ إنسان يعيش بالفطرة.

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] (الصَّمَدُ) معناه السيد الذي انتهى إليه العزُّ والسيادةُ، والذي يُقصد في قضاء الحاجات.

روى البخاري عن أبي وائل أنه قال: (الصَّمدُ: هو الذي انتهى سُؤدَدُه) أي عظمتُه وجلالُه، والتعريفُ في كل من ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ لإفادة التخصيص.

سبب النزول: رُوي أن بعض المشركين، جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمد: صفْ لنا ربك!! أمن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من ياقوتٍ، أم من زَبَرْجد؟ فنزلت السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ...﴾.

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] الأولى نفيٌ للذرية والبنين، والثانية (ولم يولد) نفي للوالدية، أي ليس له تعالى والد، ولا أم، كما أنه ليس له ولد ولا بنت.

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] في الآية زيادة الإيضاح والبيان، فإن قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفيَ الكفء ـ أي المثيل ـ والولد، وقولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يوجب عدم مماثلة شيء من المخلوقات والموجودات له، فصار الكلام في غاية الإيضاح والبيان، ونفي

المشابهة والمماثلة، فإنَّ قوله: (أحدٌ) أي لا يماثله أحد، وهو يبطل مذهب النصارى في التثليث، ومذهب الصابئين في الشمس والقمر والنجوم، ومذهب من أثبت خالقاً سوى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].



الإبداع البياني في سورة الفلق

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ • مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١، ٢] ﴿الْفَلَقِ﴾ الصبحُ إذا انفلقَ عنه نورُ ضياء الصباح (فالقُ الإصباح) وفي الأمثال (هو أَبْيَنُ من فَلَق الصُبْح) تكرَّر في السورة كلمة (شر) أربع مرات ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ • وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ • وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ • وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٢ ـ ٥] ويسمى هذا بـ(الإطناب) وذلك للتنبيه على شناعة هذه الأوصاف المذكورة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[الفلق: ٣] (غاسق) الغاسقُ: الليلُ إذا اشتدَّ ظلامُه، وإنما أُمِرَ بالاستعاذة من شرِّ الليل إذا اشتدَّ ظلامُه، لأن بمجيء ظلمة الليل، يكثر الأشرارُ، وينتشر الفجّارُ، وتكثر اللصوصُ، ويقلُّ الغَوْثُ، ولهذا قالوا في الأمثال: (الليلُ أخفى للويل) أي أسترُ للأحداث والجرائم الشنيعة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النَّفْثُ: هو النَّفخُ بدون ريق، فإن كان معه ريقٌ فهو التَّفْلُ، والنفَّاثاتُ: النساءُ السواحرُ اللاتي يعقدن عُقَداً في خيوط، وينفثن فيها، للتفريق بين الزوجين، والإضرار بعباد الله، وإنما خصَّص النساء بالذكر (النفّاثات) لأن السحر أكثر ما يقع منهن، بسبب غَيْرةِ بعضهن من بعض.

وهذه الآية الكريمة، دليلٌ صريح على أن السحر له حقيقة، وله تأثير على الناس، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يستعيذ من شرِّ السحر، وقد نزلت هذه السورة تعويذاً للنبي ﷺ، ورُقيةً له من السحر، الذي فعله بعضُ اليهود، فقد رُوي في الصحيح: «أن يهودياً سَحَر النبيَّ ﷺ فمرض، فنزلت المعوذتان، وأخبره جبريل بموضع السحر، فأرسل علياً وبعض أصحابه فجاءوه بالسحر، وبه إحدى عشرة عقدة، فقرأهما ﷺ فكان كلما قرأ آيةً انحلَّتْ عُقدة، حتى وجد خفَّةً ونشاطاً، ورَقَّاه جبريل بهذه الدعوات: (بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك،

من كل حاسدٍ، وعينٍ، اللهُ يشفيك)» فشفاه الله عزَّ وجلَّ، أخرجه ابن ماجه في الطب رقم (٣٥٢٤).

قال الإمام الشوكاني: اعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذاهبهم التي لا تُجحد، واستعمالاتهم التي لا تُنكر، أنهم إذا أرادوا التأكيد كرَّروه، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصارَ أوجزوا، هذا معلومٌ لكل من له علمٌ بلغة العرب، وهذا ممَّا لا يُحتاج إلى إقامة البرهان عليه، لأنه إنما يُستدلُّ على ما فيه خفاء، وأمَّا ما كان من الوضوح والجلاء، بحيث لا يشكُّ فيه شاكٌّ، ولا يرتاب فيه مرتاب، وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كلُّ من يتلو القرآنَ، وربما يكثر في بعض السور، كما في سورة الرحمٰن، وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصرُ،

كقول الشاعر:

يَا لَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كُلَيْبًا   يَا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ؟

وقول الآخر:

أتاكِ أتاكِ اللاحِقُونَ احْبِسِ احْبِسِ

وقد ثبت عن الصادق والمصدوق ـ وهو أفصحُ من تكلَّم بلغة العرب ـ أنه كان إذا تكلَّم بالكلمة، أعادها ثلاثاً. اهـ تفسير فتح القدير ٥/ ٥١٣.



الإبداع البياني في سورة الناس

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ❁ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ❁ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٣] في الآية ما يسمى في علم البديع بـ(الإطناب) وهو تكرار لفظ الناس (خمسَ مرات) مع إضافتهم إلى خالق الكون، ربِّ العزة والجلال، وهذا التكرار فيه تكريمٌ وتشريف لذرية آدم، بإضافتهم إليه، اعتناءً بشأنهم، وفي التكرار عزٌّ لهم وفخار، كما قال الشاعر:

أَعِدْ ذِكْرَ نُعْمَانٍ لَنَا إِنَّ ذِكْرَهُ هُوَ الْمِسْكُ مَا كَرَّرْتَهُ يَتَضَوَّعُ

ولو جاء بالضمير فقال: ملكهم، إلههم، لما كان لهم هذا الشأن العظيم من التكريم.

وَصَفَ الباري جلَّ وعلا نفسه (بالملِك، وبالإله، وبالرب) لأن في الناس ملوكاً، فذكر أنه ملِكُهم، وفي الناس من يعبد غير الله، فذكر أنه هو إلههم ومعبودهم الحقُّ، وفي الناس من يدّعي الربوبية كفرعون، فذكر أنه ربُّ جميع الخلق، وأنه هو الذي يجب أن يُلجأ إليه، وأن يُستعاذ به، دون غيره من الملوك والعظماء، أمّا المستعاذُ منه فهو (الشيطان الرجيم) الذي يوسوس للبشر، فيغريهم بالكفر، والمعاصي، والفجور، والوسواسُ: اسمٌ للشيطان الذي يخنس إذا ذكر العبدُ ربَّه، فإذا غفل عن ذكر الله، عاد فوسوس له، نسأل الله أن يصرف شرَّه عنّا، وعن جميع عباد الله المؤمنين آمين.



تنبيه هام

تكرارُ بعض الآيات، يُراد منه التأكيدُ، حتى يستقرَّ الكلامُ في الذهن، على طريقة العرب في أحاديثهم ومخاطباتهم، فإن العرب إذا أرادوا تأكيد الكلام، أعادوا اللفظَ ليتمكَّن في النفس غاية التمكُّنِ، وتستوعبه الآذان والقلوبُ والأفهام.

والغرضُ من التأكيد: تمكينُ الشيء في نفسه، وتقويةُ أمره، وفائدتُه: إزالةُ الشكوك، وإماطةُ الشبهات، ويُقال له: التكريرُ أيضاً، وليس يخفى موقعُه البليغُ، ولا علوُّ منزلته الرفيع، وكم من كلام هو عن التحقيق بعيدٌ، حتى يخالطه صفوُ التأكيد، فعند ذلك يصير قلادةً في الجيد، وقاعدةً للتحسين والتجويد.

وهو قسمان:

١ ـ تأكيدٌ في اللفظ والمعنى.

٢ ـ وتأكيد للمعنى دون اللفظ.

القسم الأول: ما يكون تأكيداً للفظ والمعنى، كقوله سبحانه في سورة الرحمٰن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذُكرت هذه الآية (٣١) إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة الكريمة، والحكمةُ من هذا التكرار، تذكيرُ العباد (الإنس والجن) بكثرة نعم اللهِ على عباده، ليشكروه ويحمدوه عليها، فبعد كلِّ نعمةٍ يذكرها، يُردِفها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقريراً للنِّعم الجليلة التي أكرمهم اللهُ بها، وتفخيماً لشأنها، وهذا كما تقول لشخص أحسنت إليه، وهو ينكر ذلك الإحسان: ألم تكن جاهلاً فعلّمتُك؟ أتُنكرُ هذا؟ ألم تكن فقيراً فواسيتُك؟ أتُنكر هذا؟ ومثلُ ذلك قولُه سبحانه في سورة القمر: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تكررت عدّةَ مرات، لإيقاظ النفوس بذكر قصص الأولين، والاتّعاظ بما أصابهم من أنواع العقوبات، فتكون بمنزلة قَرْع العصا، لئلا تستولي عليهم الغفلةُ، ويغلبَ عليهم الذهولُ والنسيان.

والقسمُ الثاني: التأكيدُ للمعنى دون اللفظ، وهذا القِسْمُ كثيرٌ في القرآن، مثل قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أكّدها بقوله بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ثم كرّر المعنى دون اللفظ بقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾ وبقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ ومن هذا التأكيد المعنوي على جهة التأكيد والمبالغة، قولُ الشاعر:

قُلْ لِلَّذِي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيَّرَنَا ... هَلْ عَانَدَ الدَّهْرُ إِلَّا مَنْ خَطَرُ

أَمَا تَرَى البَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدُّرَرُ

وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا ... وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالقَمَرُ

خاتمة البحث

تذكيرٌ وتبصير

● يلاحظ القارئُ الكريمُ، من هذه الدراسة التي عرضناها في هذا الكتاب، حول (الإبداع البياني في القرآن العظيم) أن هذا القرآن المعجز، الذي تحدَّى اللَّه به الخلائق أجمعين (الإنسَ والجنَّ) بقوله جَلَّ ثناؤه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] كان تعجيزاً للبشر، وصيحةً مجلجلة في وجوه كفار قريش. !

● **وفي هذا التحدِّي السافر للبشر،** بما فيهم أربابُ الفصاحة والبيان من العرب، ما يشير إشارة قاطعة، على أن القرآن الكريم كلامُ ربِّ العزة والجلال، أنزله اللَّهُ على خاتم الأنبياء والمرسلين (محمد بن عبد اللَّه) ليكون معجزةً ساطعة، تدلُّ على صدقه ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ في دعوى (النبوة والرسالة). !

● **ولم يكتف القرآنُ باجتماع الإنس،** حتى أَدْرَجَ معهم الجنَّ، مبالغةً في التحدِّي، ليكون ذلك أبلغَ في العجز، ومع هذا التحدِّي الصارخ للجميع، أقرَّ العرب بالعجز ـ وهم فرسانُ الفصاحة وملوكُ البيان ـ وهذا أعظم برهانٍ على روعة المعجزة الإلٰهية الخالدة ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

● **ولم يكن إعجازُ القرآن للعرب بأسلوب بيانه فحسب،** وإنما بهرهم بتشريعه وأحكامه، وبالعلوم والمعارف التي جاء بها، في (العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وفي حقول التربية والتعليم، والسياسة والاقتصاد، والمناهج التربوية، والقصص والأخبار، وسائر العلوم المتنوعة)!! فهل كان باستطاعة النبيِّ الأمِّي، وهو لا يعرف قراءةً ولا كتابةً، ولم يتلقَّ العلم على يد أحد من الأساتذة البلغاء، أن يأتي بمثل هذا الكتاب المبدع، لولا أن اللَّه تعالى أوحاه له!؟

● **وقد اقتصرنا في هذا الكتاب**، على ذكر نَزْر يسير، من روائع وبدائع (الأسلوب البياني) المعجز، مقرّين ومعترفين بعجزنا عن الإحاطة، بجميع ما فيه من وجوه الفصاحة والبيان ومن العجيب بل والغريب، أن يُنكر بعض من ينتسب إلى العلم، وجود الكناية، والاستعارة، والمجاز في القرآن الكريم، ويزعم أن القرآن يجب حملُه على الحقيقة، وأن إثبات الاستعارة والكناية والتمثيل ممّا لا يتناسب مع مكانته الجليلة!!

● **وهذه النظرة خطأٌ فاحش**، وأمرٌ يدعو إلى الدهشة والاستغراب، بل يأخذ بنا إلى العَجَب العُجاب، وذلك بأن يجهل الإنسانُ أساليبَ العرب في تخاطبهم، ويُعرّيَ اللغة العربيةَ عن أخصّ خصائصها، ويسلبها أعزَّ مزاياها.

فما حَلَتْ لغةُ العربِ ولا صفَتْ، ولا حَسُن رونقُها، ولا فاقت سائرَ اللغات، إلا بما احتوتْ عليه من بديع الاستعارة، ولطيفِ الكناية، وجمالِ التصوير والتمثيل، ولمّا كان ربُّ العزة والجلال، قد أنزل هذا القرآن بلسانٍ عربي مبين، فقد سلك فيه أساليب العرب، في مخاطباتهم، ومحادثاتهم، وكلامهم، من التشبيه والتمثيل، والاستعارة والكناية، وغير ذلك من الوجوه البيانية، التي تخلو منها كثيرٌ من اللغات.

● **استمعْ إلى القرآن الكريم**، وهو يصوّرُ لنا الأرضَ الجرداءَ اليابسة، قبل أن ينزل عليها المطرُ، كيف تشبه حالتُها حالة الرجل البائس المسكين، الذي قَبَع على قارعة الطريق، يستجدي حسنة المحسنين، بأسلوب يهزُّ القلب هَزًّا، ويثير شفقة الناس عليه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

● **إن اللسان ليعجز عن تصوير البلاغة الفائقة**، والبيان المعجز، في جمال الأسلوب القرآني المبدع.. تأمّلْ معي ذُروة الروعة في التعبير والأداء، وتصوّرْ التناسق الفني في لفظ (الخشوع، والاهتزازِ، والنموّ) للأرض القاحلة الجرداء، بعد أن يسقيها الماء، كيف تصبح بعد نزول الغيث عليها، وكأنها عروسٌ فاتنة، تزيَّنتْ بأبهى حلل الزينة، وهي تميسُ طَرباً، وتختال عُجْباً، فتُخرج من أنواع الزروع والثمار، ما يُدهش الأفكارَ والأبصار!! من أين جاء هذا الجمال في الإبداع؟ إنه من الاستعارة التي فاقت الخيالَ في الجمال ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾ ولولا هذه (الاستعارة) لما كان في الأسلوب

والتعبير، ما يدعو إلى هذه الصورة الفنيّة البديعة، التي تسبي العقول بزينة الجمال والأداء.!

● ولو حملنا الألفاظَ التي وردت في القرآن الكريم، على ظاهرها ـ كما يرى البعض ـ فسوف نرى العَجَب العُجَابَ، في تفسير الكتاب العزيز، فنقرّر الآتي:

١ ـ أن للعذاب يدَيْن حِسّيَتَيْن كيدي الإنسان لقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

٢ ـ وأنَّ الصِّدقَ له قدمٌ لقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

٣ ـ وأنَّ النهار له وجهٌ لقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ [آل عمران: ٧٢].

٤ ـ وأنْ نتصور أنَّ النار تشتعل برأس الإنسان وتلتهب، لقوله جل ثناؤه: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

٥ ـ وأن نتخيَّل أن الصبح يتنفَّسُ كما يتنفَّسُ الإنسان، لقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

٦ ـ وأنَّ نعتقد بأن الإبل يمكن أن تُخاطب وتفهم الكلام وتجيب، لقول الحقّ جل جلاله: ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

٧ ـ وأنَّ الكفار الذين اخترعوا الطائرات، والمراكب الفضائية، وداروا حول الكرة الأرضية، كانوا خُرْساً، وعُمْياً، وصُمًّا وهم لا يرون ولا يسمعون لقوله سبحانه: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

٨ ـ وأنَّ العُمْي جميعاً ضالون، وهم في نار جهنم، لقوله سبحانه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

٩ ـ وأن النار يمكن أكلُها لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

١٠ ـ وأن جميع الفواكه والخِضار، واللحم والثمار، ينزّلها اللّه لنا من السماء، لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] مع أن جميع الأرزاق يُخرجها اللّه لنا من الأرض.

١١ ـ وتصوَّرْ معي ذلك الفهم العجيب، الذي فهمه (عدي بن حاتم)، من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] حيث عَمَدَ إلى حَبْلين: أحدُهما أسودُ، والآخرُ أبيض، وجعل يأكل وينظر إليهما، فلم يفرّق بينهما إلا بعد مضيِّ زمنٍ على طلوع الفجر، فقال له الرسول الكريم: إنك لعريضُ القفار ـ أي بليد الذهن سيِّئ الفهم ـ إنما هما: سوادُ الليل، وبياضُ النهار ـ!! كما في رواية البخاري، وأمثالُ هذا كثيرٌ وشهير، بيَّنا توضيحه في هذا الكتاب، وشرحنا معناه شرحاً وافياً.

إنَّ في القرآن العظيم صوراً بديعة، وأمثلة رائعة، على إعجاز القرآن الكريم، ببيانه العربيِّ الساحر، الذي يأخذ بالألباب، في جميل تشبيهه وتمثيله، وسلوكه أساليبَ العرب في تخاطبهم ومحادثاتهم، واستعمالهم للاستعارة، والكناية، والتشبيه، والمجاز، وغير ذلك من الوجوه البيانية التي اختصت بها اللغة العربية، فما حَلَتْ لغةُ العربِ، ولا حَسُنَ رونقُها، وما فاقت سائرَ اللغات، إلاَّ بما احتوت عليه من بديع الاستعارة، ولطيف الكناية، فمن أراد أن يُعرِّيَها عن أخصِّ خصائصها، ويسلبها أعزَّ مزاياها، فقد سلك بها طريق الغَيِّ والجهالة، ونزع عنها ثوب الإبداع والجمال.

هذا ما أردنا توضيحه وبيانه في هذا الكتاب (الإبداع البياني في القرآن العظيم) واللهُ الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلواتُ ربي وسلامُه على من أيَّده الله بالمعجزة الكبرى (القرآن العظيم) والحمد لله رب العالمين.

تمَّ بعونه تعالى تأليف هذا الكتاب، في البلد الحرام، في الخامس من شهر رمضان المبارك من عام ١٤٢٤هـ وكان البدءُ به في تركيا، ثم أُكْمِلَتْ بحوثُه المهمَّةُ في البلد الأمين (مكة المكرَّمة) واللهَ نسألُ أن ينفعَ به المسلمين، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميعٌ مجيب الدعاء.

والحمد لله ربِّ العالمين. وصلَّى الله وسلَّم على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة ـ الخامس من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٤هـ

خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني

فهرس المحتويات

الإبداعُ البياني في القرآن العظيم